الجمهورية الجزائرية الديمقراطية
وزارة التعليم العالى والبحث العلمى
جامعة أبوبكر بلقايد – تلمسان -
كلية العلوم الانسانية والعلوم الاجتماعية
قسم التاريخ

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه علوم في التاريخ، تخصص تاريخ المغرب الإسلامي

التحولات الاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي من القرن 7هـ/13 م إلى القرن 10هـ/16 م

إعداد الطالب :
هواري رضوان

إشراف الدكتور :
سي عبد القادر عمر

لجنة المناقشة

الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
أ.د نصر الدين بن داود	أستاذ التعليم العالي	تلمسان	رئيسا
د. عمر سي عبد القادر	أستاذ محاضر (أ)	تلمسان	مشرفا مقررا
د.قدور وهراني	أستاذ محاضر (أ)	تلمسان	عضوا
أ.د بودواية مبخوت	أستاذ التعليم العالي	م.ج النعامة	عضوا
د.بختاوي قاسمي	أستاذ محاضر (أ)	سيدي بلعباس	عضوا
د.محمد عليلي	أستاذ محاضر (أ)	تيارت	عضوا

السنة الجامعية :1440 هـ -1441 هـ /2019 م- 2020 م

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى "روح والدي الحبيب "،أهدي هذا العمل المتواضع وأرجو أن يكون في ميزان حسناته.

إلى الّتي حملتني وهنا على وهن ووضعتني كرها فإن أهديتها حياتي لن أوفيها حقها أبدا.

أمـــــــــــــي الحـــــــــبيبة

إلى كل أفراد عائلتي الصغيرة والكبيرة وإلى كل من علمني

شكر وعرفان

.....

الشكر لله على توفيقه لنا في انجاز هذا العمل المتواضع ثم الشكر موصول إلى أستاذي المشرف : سي عبد القادر عمر على قبوله الإشراف على هذا العمل وعلى مساندته ودعمه لي فله منا جزيل الشكر والعرفان ،كما لا أنسى أستاذي الفاضل مبخوت بودواية الذي رافقنا فيما بعد التدرج وأفادنا كثيرا،وأتقدم بالشكر الجزيل والامتنان إلى الأساتذة الأفاضل أعضاء لجنة المناقشة الموقرين على قبولهم مناقشة هذا العمل وتصويبه،وعلى تكبدهم المشقة في قراءته وتصحيحه رغم ارتباطاتهم الكثيرة . كما أشكر كل الزملاء في قسم التاريخ و زملائي في العمل وأوجه كامل الشكر لكل من ساعدني من قريب أو من بعيد لإنجاز هذا العمل المتواضع .

مقدمة

لقد عرفت بلاد السودان الغربي خلال الفترة الوسيطة العديد من المتغيرات التي غذتها عمق الروابط القائمة بين أقطار العالم الإسلامي آنذاك ، وخاصة بين ضفتي الصحراء الكبرى الإفريقية فكان لامتداد المؤثرات الحضارية من بلاد المشرق والمغرب إلى بلاد السودان الغربي بمختلف مشاربها سواء عن طريق الدعاة والفقهاء والعلماء أو التجار دور في ظهور دول وممالك إسلامية عظيمة امتدت جنوب الصحراء ، وخاصة في غربها وعلى رأسها مملكة غانة ومملكة مالي ومملكة سنغاي في السودان الغربي،فنالت هذه الممالك اهتمام الدراسات العربية وغير العربية وخاصة ما أحيط عنها من أخبار جعلت كل المغامرين يتجهون إلى هذه البلاد بحثا عن مجاهلها وأسرارها،كأخبار الذهب وانتشاره بها بشكل كبير.

كل ذلك جعل بلاد السودان الغربي محج العديد من العلماء والتجار فتوافدت عليها القوافل بشكل كبير من مختلف أنحاء العالم الإسلامي ، وبحكم قربها الجغرافي من بلاد المغرب فقد كانت معظم القوافل التي تصلها من التجار والعلماء من هذه البلاد ،حتى أن معظم الدراسات أشارت إلى دور الجالية المغاربية في بلاد السودان الغربي ، وكيف أثرت على واقعها الحضاري و السياسي وهذا ابتداء من القرن الخامس الهجري، الموافق للقرن الحادي عشر ميلادي وإلى غاية القرن العاشر للهجرة السادس عشر للميلاد .

لقد ظهرت خلال هذه الفترة العديد من الكتابات العربية المهمة اعتبرت مفتاح هذه البلاد على رأسها رحلة ابن بطوطة وكتاب المسالك والممالك للبكري ومسالك الأبصار للعمري وصبح الأعشى للقلقشندي ،فكانت هذه الكتابات ، وغيرها المنطلق الأساسي للدراسات الحديثة وخاصة الأوربية فشملت كتب الرحالة والتقارير الأمنية خلال الاستعمار الحديث للقارة ومع ذلك فإن المتتبعين لما تحتويه المكتبة العربية من كنوز في مختلف المواضيع على اتّساعها قد يلاحظون دون شك ،أن الجوانب المتصلة بالقارة الإفريقية إلى الجنوب من صحرائها الكبرى ،لا تزال على أيامنا هذه في حاجة ماسة إلى مزيد من الإثراء لا محالة ، وبما أن مؤلفات العرب والمسلمين خلال العصر الوسيط كلّها ظلّت المصدر الوثائقي الأهم عن شعوب القارة الإفريقية جنوب الصحراء الكبرى وخاصة السودان الغربي ، إلى جانب بعض الوثائق التي تؤمنّها الحفريات الأثرية ، ستكون هي اساس الدراسات المعاصرة .

إن إلقاء الأضواء على ما سجله المؤلفون عن تاريخ تلك الشعوب وثقافتهم وتقاليدهم ومدى تأثرهم بالشعوب العربية الإسلامية التي ربطتهم بها روابط الدين ،واللغة والمعاملات التجارية هو إثراء للمكتبة العربية من جهة ، وهو مساهمة من جهة أخرى لإعطاء صورة عن ذلك الزخم الحضاري في تلك المنطقة .

دوافع اختيار الموضوع :

لقد جاء اختيارنا لهذا الموضوع من قناعتنا بضرورة الغوص في تاريخ القارة الإفريقية باعتبارنا جزء منها فهذا الدافع الذاتي لنا، خاصة وأننا تطرقنا لموضوع مهم في مرحلة الماجستير حيث عالجنا موضوع له علاقة بالجانب الثقافي في بلاد السودان الغربي وهو "بيوتات العلماء في السودان الغربي من خلال كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي " هذا الأخير الذي لخص المستوى الثقافي الذي كانت عليه هذه المنطقة من العالم الإسلامي فكان أيقونة العلم وعلم بلاد السودان بلا منازع في تاريخه ، ومن هذا المنطلق ارتأيت مواصلة البحث في مكنونات هذه البلاد وجوانبها الحضارية خاصة في الفترة الممتدة من القرن السابع إلى العاشر الهجري /الثالث عشر إلى السادس عشر ميلادي وهي مرحلة مهمة في تاريخ هذه البلاد لأنها عرفت تحولات كبيرة .

أما الدافع الثاني وهو موضوعي فيكمن في تطلعي لمعرفة التغيرات التي عرفتها بلاد السودان الغربي في ظل امتداد المؤثرات العربية الإسلامية إليها،خاصة وأن هذه المرحلة كانت فيها تجاذبات كثيرة بين مختلف القوى الشرقية الغربية ،بين الانهيار و الانطواء والنهضة .

إشكالية الدراسة :

تدور اشكالية البحث حول واقع بلاد السودان الغربي في ظل المتغيرات الداخلية والخارجية التي عرفتها المنطقة ككل ،و مدى مساهمتها في صنع كيان خاص بها .ومن خلال هذا يمكن صياغة الإشكالية الرئيسية لبحثنا وهي على النحو التالي :

ما هي مظاهر التحولات الاقتصادية والاجتماعية في السودان الغربي مابين القرن السابع والعاشر الهجري الثالث عشر والسادس عشر ميلادي ؟

وتتفرع عنها تساؤلات نذكر منها :

- ✓ ما هي الأسس التي قام عليها الواقع الاجتماعي لبلاد السودان الغربي ؟

- ✓ مميزات البنية الاقتصادية للسودان الغربي في الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجري ،الثالث عشر إلى القرن السادس عشر .
- ✓ ما هي العوامل التي كانت وراء التحول الاقتصادي و الاجتماعي ؟
- ✓ فيما تجلت مظاهر التحول الاقتصادي في بلاد السودان الغربي ؟
- ✓ ما هي مظاهر التحول الاجتماعي في بلاد السودان الغربي مابين القرنين السابع والعاشر الهجري ،الثالث عشر والسادس عشر ميلادي ؟

خطة البحث :

للإجابة على هذه الإشكالية اتبعنا خطة قمنا فيها بتقسيم هذه الدراسة إلى مدخل وستة فصول تطرقنا في الفصل الأول إلى تحديد الإطار الجغرافي، والسياسي للسودان الغربي، بالتطرق للخصوصيات الطبيعية لهذه المنطقة وبيئتها الصعبة وتطرقنا للتنوع البشري الذي تزخر به هذه البلاد وكيف تطورت هذه البلاد وتعاقبت الممالك فيها والمناطق التي بسطت نفوذها فيها حتى بلغت أقصى اتساع لها.

أما الفصل الثاني تطرقنا إلى تحديد الواقع الاجتماعي في بلاد السودان الغربي وهذا بالتطرق للبنية الاجتماعية ومظاهرها ، حيث كانت هي حجر الأساس في التغيرات التي ستمس الهيكل الاجتماعي لهذه البلاد فيما بعد ، وتوضيح المستوى الحضاري والاجتماعي الذي عرفته مجتمعات هذه المنطقة ،انطلاقا من تبيين البنية الاجتماعية و الإثنية لهذا المجتمع .

أما الفصل الثالث فقد تطرقنا إلى الواقع الاقتصادي والتجاري في بلاد السودان الغربي في الفترة الممتدة من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجري ،مبرزين الأوضاع الاقتصادية لبلاد السودان الغربي وما عرفته من حركية ونشاط، من خلال توضيح ملامح مختلف الأنشطة الاقتصادية وخصوصية الأسواق في هذه البلاد . وفي نفس الوقت موضحين الدور الذي لعبته الجالية الأجنبية في تغيير البنية الاقتصادية لهذه البلاد ، وهو دليل على عمق العلاقات الاقتصادية بين أقطار العالم الإسلامي.

أما الفصل الرابع تطرقنا فيه للتحولات الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي محددين أهم الأسباب و العوامل التي أدت إلى تلك التحولات ،انطلاقا من العوامل الاجتماعية

والسياسية والاقتصادية وفي نفس الوقت مبرزين تأثر هذه المنطقة بالمتغيرات الدولية التي كانت سائدة أتذاك وكيف أثرت بشكل كبير على المنطقة .

أما الفصل الخامس فقد تطرقنا فيه إلى ملامح ومظاهر التحول الاقتصادي في بلاد السودان الغربي، مبرزين أهم التطورات مع الوقوف على الجوانب الايجابية التي كانت عليها الحياة الاقتصادية ،كتطور الأسواق والأنشطة والأنظمة التي تشرف عليها وفي نفس الوقت تبيين مدى الاندماج الذي عرفه الاقتصاد السوداني في الاقتصاد العالمي .

وتطرقنا في الفصل السادس إلى مظاهر التحول الاجتماعي في بلاد السودان الغربي في نفس الفترة المدروسة ،حيث تعرضنا للتحول الذي عرفه النمط الاجتماعي للمجتمع السوداني وفي نفس الوقت بينا مدى التأثير الذي أحدثه الإسلام في المجتمع السوداني من خلال معالجته لمعظم المظاهر المشينة التي كانت منتشرة ودور العلماء في هذا التغيير ،كما تطرقنا إلى ذكر انعكاس هذه التحولات بشكل ايجابي على المجتمع السوداني ، و في الأخير خلصنا إلى مجموعة من الاستنتاجات توصلنا إليها من خلال ما سبق من معطيات .

منهجية البحث :

اعتمدنا في هذا البحث وقصد الإجابة على التساؤلات على المنهج التاريخي حيث استخدمنا هذا المنهج قصد التطرق لمختلف الأحداث التاريخية خلال الفترة المدروسة إذ لا يمكن إغفال الوقائع والأحداث التاريخية، خاصة عند دراسة التسلسل الزمني الذي مرت به ممالك السودان الغربي وفترات حكم الملوك لما كان لهم من دور في رسم الحياة الاقتصادية والاجتماعية لممالكهم ،بالإضافة إلى الأنشطة التي قام بها هؤلاء الملوك في ظل تعاقب الدول في هذه المنطقة (غانة ،مالي ،سنغاي)،ودورها في تمتين العلاقات وتوطيدها مع مختلف أقطار العالم الإسلامي.

في ظل ذلك كان من الضروري تحليل المعطيات التاريخية التي استقيناها من المصادر ، خاصة ما جاء في الدراسات الغربية التي لها وجهات نظر مختلفة عن المصادر العربية الإسلامية وبالتحديد دور الدعاة في المجتمع السوداني من خلال ترسيخ تعاليم الدين السمحة فيه ففي الكثير من الأحيان صادفنا بعض التناقضات ،والاختلاف في وجهات النظر كأصول بعض القبائل وادعائها بالنسب العربي والشريف في هذه المناطق ، وكذا مسألة النصائح والوصايا التي

كانت تبعث من العلماء إلى الحكام ، والتي ساهمت فيما يعرف اليوم بالحوكمة التي ضمنت استمرارية ممالك السودان الغربي التي عملت بهذه التوصيات وأشهر دليل هي رسائل المغيلي إلى حكام سنغاي وكانو.

وبما أننا تطرقنا في موضوع البحث إلى الدراسة الاقتصادية ، فكان لابد من الاستعانة بالمنهج الاحصائي أو الكمي لدراسة المبادلات التجارية وكمية الانتاج والسلع والموازين والمكاييل وغيرها من المعطيات الاقتصادية .

دراسة و نقد المصادر والمراجع :

لقد اعتمدنا على مجموعة من المصادر متصلة ومعاصرة لفترة البحث ومنها المتخصص في المنطقة المراد دراستها فكانت مصادر تاريخية أو جغرافيا أو مصادر الرحلة فجاء على النحو التالي:

– كتب الرحالة والجغرافيين:

مكنتنا هذه الكتب من التعرف على بلاد السودان الغربي والمناطق الممتدة فيها بالإضافة إلى المشاهدات التي قدمه أصحاب المؤلفات فكانت اصدق دليل على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية ومنها :

– كتاب " المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب " ،مقتطف من المسالك والممالك ،لأبي عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد البكري (ت 487 ه /1094 م) وهو من المصادر الجغرافية الهامة لأنه وصف لنا بدقة الطرق التجارية والسلع الصادرة والواردة والأسعار و المكاييل والموازين ،كما وصف لنا مدن السودان الغربي وصفا دقيقا .

– كتاب " القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس" مقتبس من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ،لأبي عبد الله الشريف المعروف بالإدريسي (توفي حوالي 562 ه /1166 م) تحدث فيه عن الأنشطة الاقتصادية و الطرق التجارية .

– كتاب "رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ،لمحمد بن عبد الله اللواتي الطنجي المعروف بابن بطوطة (779/704 ه -1377/1304 م)،حيث سجل فيه صاحبه مشاهداته أثناء رحلته إلى السودان الغربي خلال القرن الثامن الهجري ،وقد ذكر الكثير مما عاشه وهو في هذه البلاد تحت عنوان ما استحسنته واستقبحته من أفعال السودان وسفره إلى مالي .

- كتاب "وصف إفريقيا " لمحمد بن الحسن الوزان المعروف بليون الإفريقي ولد مابين 901 ه و906 ه/ 1495 م و1500 م ،حيث أنه في الرحلة الثالثة إلى بلاد السودان الغربي وقف عند أهم الأسواق والمعاملات التجارية والسلع والبضائع التي كان يقبل عليها الناس في هذه البلاد وحتى بعض الأسعار ،و المدن التي ساهمت في ازدهار السودان الغربي وقد ذكر لنا عادات وتقاليد شعوب إفريقيا واقتصادياتها وحتى المدارس التي كانت موجودة في بلاد السودان الغربي .

- كتاب وصف المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس "من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للشريف الإدريسي(ت548 ه/1154 م) وهو الآخر من أهم المصادر الجغرافية التي اعتمدنا عليها في تحديد الطرق والمسالك التجارية وحركة الأسواق وحتى طبيعة السلع التي كانت رائجة آنذاك .

- كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للإدريسي حيث تحدث بدقة متناهية عن غرب إفريقيا وهو من أهم الكتب الجغرافية لأن المعلومات التي جاء بها مازالت قائمة إلى يومنا هذا ،فقد تحدث عن كثرة التجار المغاربة الذين كانوا يترددون على أسواق بلاد السودان الغربي ،وذكر كذلك السلع التي كانوا يحملونها في رحلاتهم الطويلة والشاقة إلى هذه البلاد وتحدث عن مدن وممالك السودان الغربي وخاصة غانة ومالي .

-كتب التاريخ العام :

- كتاب" العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر " لعبد الرحمن بن خلدون (ت 808 ه /1406 م) في الجزء السادس الذي ذكر فيه بلاد السودان الغربي .فقد أشار هو الآخر إلى الأنشطة الاقتصادية التي كانت موجودة بين بلاد المغرب وأرض السودان ،كما ذكر ملوك السودان وأصول أهل السودان وبالرجوع إلى مقدمته كذلك استفدنا من المعلوات التي ذكرها عن الحسبة وعن الأسواق وحتى السكة .

- كتاب صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،للقلقشندي (ت 821ه/1418م)وهو كتاب موسوعي استفدنا منه في ما ذكره عن مملة مالي وملكها منسى موسى وهو الوحيد الذي تحدث عن الممالك الإسلامية و غير الإسلامية التي ظهرت في جنوب الصحراء الإفريقية وخاصة في الجزء الخامس.

-المصادر السودانية :

-كتاب "تاريخ السودان " لعبد الرحمن بن عبد الله بن عمران بن عامر بن الحاج المتوكل السعدي (ت 1066 ه /1655 م) حيث تحدث عن الممالك الإسلامية في السودان الغربي ونشأة أهم مدنها و عن الدعاة والقضاة والأئمة الذين سكنوا هذه المدن وهو من أوفر المصادر في تاريخ السودان .

- كتاب " تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار لمحمد بن محمود كعت (ت 1593 م) وتعد معلوماته الاجتماعية غزيرة عن السودان الغربي ويعد مصدرا مهما لا يقل أهمية عن كتاب السعدي كونه كتبه وهو قد بلغ الخمسين من العمر ،وهذا ما جعله يكون أكثر إلمام وإحاطة بما سجله من حوادث ووقائع وهو يغطي الجوانب الاجتماعية أكثر مما هو عند السعدي .

-كتب النوازل والفقه :

نظرا لأهمية كتب النوازل في الدراسة الاقتصادية وخاصة ما تعلق بالبيوع والمعاملات التجارية فإننا استعنا بها في التعرف على أحوال الناس ومعاملاتهم من خلال المعلومات التي تستنبط من الفقه النوازلي وعمدة المصادر في بلاد المغرب كتاب المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب ،للونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي (ت914ه-1508 م) وهو مكون من ثلاثة عشر جزءا تطرق في نوازل مختلفة إلى ذكر أمور البيع والمبادلات التجارية.

- معراج الصعود والمعروف بالكشف و البيان لأصناف مجلوب السودان لأحمد بابا التمبكتي والذي استفدنا منه في حديثنا عن الرقيق ،حيث تحدث أحمد بابا في هذا الكتاب عن عدم جواز بيع عبيد السودان .

- العمل المشكور في جمع نوازل علماء التكرور ،لأبي عبد الله محمد الغلاوي وهو موسوعة حقيقية لفتاوى الصحراء الكبرى في جزأين رتب فيهما المؤلف الفتاوى ترتيبا فقهيا دقيقا وقد حققه حماه الله ولد السالم بالرغم من أن الفتاوى معظمها جاءت بعد الفترة المدروسة ولكنها أعطتنا صورة عن طبيعة المبادلات التجارية من خلال الأسئلة الواردة .

-كتب التراجم : اعتمدنا على العديد منها ولكن أهمها كان كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي وهو المصدر المهم الذي زودنا بتراجم معظم علماء بلاد السودان الغربي باعتبارهم لعبوا دورا مهما في إصلاح المجتمع السوداني كما أنهم ساهموا في لنهضة الاقتصادية والثقافية لهذه البلاد .

كما استعنا بمجموعة من الدراسات الحديثة ممثلة في المراجع والرسائل الجامعية والمقالات فأما المراجع فمنها :

- التاريخ السياسي والاقتصادي فيما وراء الصحراء ،لدالي الهادي مبروك .
- التاريخ الحضاري لإفريقيا فيما وراء الصحراء ،لدالي الهادي مبروك .
- مملكة سنغاي في عهد الأسقيين (1493م -1591م) لزبادية عبد القادر .

أما أهم المراجع الأجنبية فكانت :

- Cissé Tata youssouf ,Wakamissoko ,La grande geste du Mali,des origines à la fondation de l'empire Editions :karthala, Paris 2007.
- Dupuis, yakouba, Industries et principales professions des Habitants de la région de Tombouctou, paris, 1921.
-GIRI ,Jaques, Histoire économique du Sahel, Paris, Karthala,1994.

أما الرسائل الجامعية فكانت أهمها :

-العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان ،رسالة دكتوراه دولة الدكتور بودواية مبخوت .

- الرحلة التجارية بين إقليم توات والسودان الغربي ودورها في تمتين الروابط الثقافية مابين القرنين7ه-10ه/13م-16 م،مذكرة ماجستير للزهراء بوكرابيلة .

- المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي (5 ه-10 ه/11 م-16 م) مذكرة ماجستير لخيرة بلعربي . فقد استعنا بهذه الدراسات الحديثة العربية والأجنبية التي تعرضت لمختلف الجوانب الحضارية في بلاد السودان الغربي، فقدمت العديد من الاضافات في هذا المجال ، وفي نفس الوقت وقفنا على كثير من المتغيرات التي عرفتها هذه المنطقة في العصر الوسيط خاصة.

صعوبات البحث :

لقد واجهتنا في بحثنا هذا بعض الصعوبات والعوائق نذكر منها مشكلة المصادر المتعلقة بالجانب الاقتصادي والتي تمدنا بالإحصائيات اللازمة والمعلومات الدقيقة في مجال البحث ،فإنها قليلة إن لم نقل منعدمة وما وجدناه لم يكن يفي بالغرض إذ كان معظم ما توصلنا إليه من مادة خبرية عبارة عن شذر قليل متواجد في كتب الحسبة والنوازل الفقهية ،بالإضافة إلى وجود بعض المغالطات والتناقضات عند المراجع الغربية بالدرجة الأولى . بالاضافة إلى عامل آخر وهو أن جل المادة التاريخية المتعلقة بالموضوع تتناول الفترة الحديثة وهذا ما جعلنا لا نتوصل إلى معلومات كبيرة تخص الجانب الاقتصادي على وجه الخصوص ، وفي الأخير نتمنى أن نكون قد وفقنا في إماطة اللثام عن جزء من ماضي هذه المنطقة محل الدراسة لأن تاريخها مازال حقلا خصبا للباحثين .

الطالب : هواري رضوان

تلمسان في 10-11-2019

مدخل

افريقيا الجغرافيا والانسان

1- جغرافية افريقيا وارتباط الانسان القديم بها

2- التنوع والزخم الحضاري لإفريقيا

3 – الأصول العرقية لشعوب افريقيا

1- جغرافية افريقيا وارتباط الانسان القديم بها :

إن التعرض لمسألة التحول الاقتصادي والاجتماعي في بلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط لا يمكن الخوض فيها إلا إذا وقفنا على خصوصية هذا المنطقة الفلكية والجغرافية والبشرية بشكل مفصل ،لما لهذه الخصوصيات من دور في تحديد الواقع الاقتصادي والاجتماعي لها سواء في الماضي أو الحاضر .

تشير معظم الدراسات إلى أن القارة الأفريقية هي مهد الإنسانية ، وبما أنها موغلة في القدم فإن تضاريسها أو جيومورفلوجيتها تتميز بالانبساط مما جعل المناطق العالية الجبلية قليلة باستثناء قمة "كلمنجارو"[1] والأطلس الغربي في الشمال ، وكان هذا القدم عاملا في ظهور الصحراء و" السّافانا "[2] والذي بدوره جعلها قليلة الخصوبة ،لكن باطنها غني بالمعادن نتيجة الترسبات المتتالية عبر آلاف السنين .كما يذهب علماء المناخ إلى أن الصحراء الإفريقية الكبرى كانت فيما قبل التاريخ معتدلة المناخ وذات خصوبة كبيرة وهذا ما جعلها موطن لأقدم إنسان كما كانت تعج بالحيوانات ، وقد أثبتت هذه النظريات حفريات البحث والتنقيب عن النفط الذي في حقيقته هو عبارة عن بقايا الحيوانات والنباتات في جوف الصحراء.

أما كونها تحولت إلى صحراء قاحلة فهذا كان نتاج التغيرات المناخية التي أعقبت انحصار الجليد نحو القطبين ،و لم تبقى في هذا النطاق سوى المنطقة الاستوائية التي تتميز بكثافة غطائها النباتي والحيواني نتيجة الرطوبة الناتجة عن كثرة التساقطات المطرية المنتظمة، وارتفاع درجة الحرارة وبما أن الإنسان مرتبط ببيئته فإن أولى مراحل التطور الإنساني المعروفة حتى الآن قد وجدت في شرق وجنوب القارة الإفريقية ، والثابت أن شمال القارة الإفريقية كان مهدا لأقدم الحضارات وهي الحضارة الفرعونية وامتد تأثير باقي الحضارات القديمة الأخرى أليها كالحضارة اليونانية والرومانية وحتى الفينيقية .

1- يقع جبل كلمنجارو في شمال تنزانيا على حدود كينيا في الجنوب الشرقي من قارة أفريقيا ويبلغ ارتفاعه 5895 م .ينظر: أحمد نجم الدين فليحة ،أفريقيا دراسة عامة و إقليمية ،مؤسسة شباب الجامعة ،الإسكندرية ،ص137 .

2- السافانا : سهول عشبية واسعة مغطاة بالحشائش قليلة الأشجار تقع في المناطق المدارية شمال وجنوب خط الاستواء ، وهي ثلاثة أنواع : العالية والمتوسطة الارتفاع والقصيرة كما أن كثافتها تقل كلما ابتعدنا عن الغابة الاستوائية.ينظر : عبد القادر مصطفى المحبشي وآخرون ،جغرافية القارة الإفريقية وجزرها ، ،الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع و الإعلان ، ط1، 2000 ،ص101 .

لقد وجد الباحثون بأن الأجناس واللغات في القارة الإفريقية قديما ، قد ارتبطت من حيث التنوع أو الامتياز والاختلاف عن بعضها البعض ، وذلك نتيجة تأثير المناخ على مختلف المناطق فيها مما جعل سكانها يختلفون في أصولهم الطبيعية واللغوية من منطقة لأخرى وعليه فإن م القارة الإفريقية من الناحية البشرية مقسمة إلى قسمين ، القسم الأول يضم شعوب شمال الصحراء والمنحدرين من الجنس القوقازي[1]أما القسم الثاني والذي يضم الجزء الكبير من القارة الإفريقية ممثلا في جنوب الصحراء فهم زنوج[2] ، وهم بدورهم ينقسمون إلى عدد هائل من القبائل متعددة الديانات والمعتقدات .

2- التنوع والزخم الحضاري لإفريقيا :

تتميز القارة الإفريقية من الوجهة الحضارية بالتنوع والتعقيد،حيث تأثر القسم الشمالي من القارة حضاريا وسياسيا واقتصاديا بالشعوب والأفكار والمعتقدات من خارج القارة وخاصة من جنوب غرب آسيا[3]،أما جنوب الصحراء الكبرى فقد شكل كيانا حضاريا قائما بذاته ، وقد قسم بعض المؤرخين شعوب هذه البلاد إلى عدة أقسام حيث قال النّاني ولد الحسين :" لقد ميز كتّاب تلك الفترة (العصر الوسيط) بين أربعة شعوب كانت في مجموعها تمثّل سكّان إفريقيا جنوب الصحراء خلال ذلك العصر ، وهي : الزّنج في شرق القارة والأحباش في شمالها الشرقي ، والنوبة في الوسط ، والسودان في غربيها "[4] .

---

[1]- ينقسم القوقازيون إلى ساميين وحاميين، أما الساميون فيمثلون هجرة حديثة للقارة كان أقواها مع دخول الإسلام في إفريقيا في القرن السابع للميلاد وأتبعتهم موجات في القرنين الحادي عشر والرابع عشر أما الحاميين فينقسمون إلى شماليين وشرقيين، وقد اختلطت العناصر السامية مع الحامية تحت لواء الإسلام واللغة العربية واختلط جزء معهم مع زنوج السودان ينظر :عبد القادر مصطفى المحبشي ، المرجع السابق ،ص115.

2- تشمل هذه السلالة قبائل كثيرة جدا ، ويتميزون بصفات جسمانية مختلفة عن غيرهم متمثلة في طول القامة والبشرة أكثر سوادا والشفاه أغلظ وعظام الوجه كثيرة البروز .ينظر : محمد عوض محمد ، الشعوب والسلالات الإفريقية ،الدار المصرية للتأليف والترجمة ،ص18 .

3- محمد مرسي الحريري ،جغرافية القارة الأفريقية ،دار المعرفة العلمية الجامعية ،1994،ص14 .

4- ولد الحسين النّاني ،صحراء الملثمين ،تقديم محمد حجي ،ط1،بيروت ،دار المدار الإسلامي ،2007،ص405 .

نلاحظ أن الجغرافيين العرب والمسلمين قد ميزوا بين بلاد السودان في غرب إفريقيا وبلاد الزّنج والحبشة والنوبة والبجه[1] في شرقها ، وأخذوا بعين الاعتبار قرب سودان شرق إفريقيا من بلاد العرب وكثرة اختلاطهم بهم منذ الأزمنة القديمة، بفعل العلاقات التي ربطتهم وعلى رأسها المبادلات التجارية وازداد هذا الاختلاط زمن الفتح لهذه البلاد في عهد خلافة عمر بن الخطاب (13ه-23ه /634م-644م)حيث كلف عمر بن العاص (ت43ه/664م) في محاولة استطلاعية اكتشف من خلالها المنطقة ،إلى أن تم الفتح الحقيقي في عهد الخليفة عثمان بن عفان على يد عبد الله بن سعد بن أبي سرح (ت36ه/657 م)صلحا مع ملك النوبة ،على أن يدفع سنويا لأمير أسوان عدد أيام السنة من الرقيق وزاد سبعة وسبعين رقيقا نصيب والي مصر واستمر ذلك إلى غاية عهد المماليك ليعينوا أمير وتم تنصيبه معلنين حلول الإسلام محل المسيحية وتغير بذلك الواقع الديمغرافي والسياسي لهذه البلاد وساهم بشكل كبير في ضم بلاد النوبة لبلاد الإسلام.

أما الناحية الغربية للسودان لم يقع لها الفتح الإسلامي إلا بعد الطلعات الاستكشافية التي قام بها عقبة بن نافع والتي توقفت على مشارف بلاد السودان[2]،فيرجع بذلك الفضل الكبير في إدخال الإسلام إلى بلاد السودان إلى التجار العرب والبربر وإلى العلماء وهذا خلاف ما كان في إفريقيا الشرقية حيث قال أبو العباس أحمد بابا التمبكتي في تقييده المسمّى معراج الصعود:" إن أهل السودان أسلموا طوعا بلا استيلاء أحد عليهم كأهل كنوا وكشن وبرنوا وسغي ،ما سمعنا قطّ أنّ أحدا استولى عليهم قبل إسلامهم، ومنهم من هم قدماء الإسلام ،كأهل برنوا وسغى"[3].

وبخصوص ما ذكر من حلول العنصر العربي في بلاد السودان الغربي ووجوده بها في أوقات مبكّرة من التاريخ ، فإنه كان محدود و لم يكن له تأثير كبير كما أشار الرحالة والجغرافيون العرب والمسلمون إلى فشل الجيش الذي أرسله الأمويون إلى هذه المنطقة من أجل فتحها مما

1- مواطنهم تتألف من الأراضي الواقعة بين البحر الأحمر شرقا ،ثم النيل الأكبر غربا وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب إلى نهاية مديرية أسوان في الشمال .ينظر : محمد عوض محمد ، المرجع السابق ،ص246 .

2- البكري ، المسالك والممالك، تحقيق وتقديم ، أدريان فان ليوفن وأندري فيري ،ج2 ، الدار العربية للكتاب ،1992 ، ص660.

3- أحمدبابا التمبكتي ، معراج الصعود ،تحقيق وترجمة ،فاطمة الحراق وجون هانويك ،معهد الدراسات الإفريقية ، الرباط،2000،ص54.

جعل أفراده يستقرون في هذه البلاد لكنهم ظلوا في معزل عن أهل البلاد فلم يصاهروهم إلا في أوقات متأخرة وفي هذا الشأن قال البكري :" وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهن من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه إلى غانة في صدر الإسلام ،وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون في السودان ولا يناكحونهم فهم بيض الألوان حسان الوجوه وبسلى أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان"[1]وقد أشار كذلك في موضع آخر أن بعض الأمويين فروا من قبضة العباسيين واستقروا في بلاد كانم فحافظوا على نمط عيشهم وعاداتهم في هذه البلاد [2] .من خلال هذه الروايات نلمس بروز فرضية وجود العنصر الأبيض في بلاد السودان الغربي وهو ما عبر عنه بالبيضان حيث نجد هذه العبارة تتكرر في كتابات الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين المتأخرين كالبكري الذي عاش في النصف الثاني من القرن 5ه/11م ، ومنهم ابن بطوطة وابن سعيد والعمري وغيرهم حينما تحدثوا عن بلاد السودان ووجود العنصر الأبيض بها في فترات متقدمة سبقت القرن السابع الهجري /الثالث عشر ميلادي .

لقد شهد انفتاح بلاد السودان الغربي على العالم الخارجي نوعا من التأخر مقارنة بشرق إفريقيا إذ لم يحصل ذلك الانفتاح بشكل كبير إلاّ مع دخول التّجار العرب إلى هذه البلاد بكثافة ملحوظة منذ القرن الخامس الهجري /الحادي عشر ميلادي ، وهذا ماساهم بقدر كبير في المحافظة على النقاء العرقي والاستقلال الثقافي .لكن الثابت أن ارتباط العرب والبربر بغرب القارة الإفريقية لم يكن أقل قوة عن ارتباط العرب بشرقها ووسطها ، فكما اتصل شرق إفريقيا ووسطها بسواحل جنوب شبه الجزيرة العربية والخليج العربي ، اتصل بالمقابل سكان غرب إفريقيا ببلاد المغرب الإسلامي (شمال إفريقيا) وكانت بذلك الصحراء الكبرى رغم قفارها جسرا للتواصل بين ضفتيها .وقد ترتب على توغل العرب واندماجهم في الشعوب الإفريقية ،ظهور جنس يجمع الكثير من الصفات العربية والإفريقية ،كما نشأت حضارة عربية إسلامية لها طابع إفريقي.

كماحافظ العرب على الثقافات الإفريقية و لم يقوموا بهدم المؤسسات المحلية عند دخولهم بل إنها اتخذت أشكالا جديدة بما يتوافق والدين الإسلامي ، وبهذا فإن اندماج العرب مع الأفارقة

1- البكري ،المسالك ،ج2، المرجع السابق ،ص877 .

2- البكري ،المصدر السابق ،ص658 .

كان اندماجا صحيا[1]،وما يؤكد ذلك هو بقاء اللهجات الإفريقية إلى جانب اللغة العربية التّي احتفظت بمركزها كلغة للثقافة والتعامل والعلم ،مما جعل أهل البلاد يساهمون في إثراء المكتبة الإسلامية بنفائس الكتب والمؤلفات والتي تنم على عبقرية الأفارقة ونبوغهم في مختلف العلوم، وبرزت الخصائص المميزة للحضارة الإفريقية حيث كان فيها الإسلام هو القوة الدافعة والمحركة للحياة الإنسانية في بلاد السودان الغربي .

3- الأصول العرقية لشعوب افريقيا :

أما الحديث عن الأصول العرقية لشعوب بلاد السودان فمعظم المصادر تشير إلى الأصل الشرقي لهذه الشعوب وهذا بعد الطوفان الذي حصل في عهد نوح عليه السلام ،حيث تركز هذه الفرضية في تحديد أصول الشعوب على أسرة نوح عليه السلام من أبنائه الثلاثة سام وحام ويافث واستدلت العديد من الدراسات إلى أن باقي الأسر الناجية لم تبق[2] ،مستدلين بالقرآن الكريم في الآية الكريمة ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَتَهُ هُمُ البَاقِينَ﴾[3]، إلى جانب ذلك ذكر الجغرافيون والرحالة أن نوح عليه السلام قام بتقسيم الأرض بين اسر أبنائه الثلاثة ، وخصّ كلاّ منها بموضع ، وفي هذا الشأن قال اليعقوبي :"وفرق ألسنتهم إلى اثنين وسبعين فكان ولد حام ستة عشر لسانا..."[4] .

1- المقصود بالصحي هنا كونه أضفى على المنطقة نوعا من التطور الحضاري من خلال تصحيح الموروث الوثني القديم الذي كان منتشرا في منطقة غرب إفريقيا بشكل كبير وساهم في بروز المنطقة حضاريا .ينظر : جمال زكريا قاسم ،الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، دار الفكر العربي ،1996م،ص11 .

2- أبو الحسن علي المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ،تحقيق وتعليق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي ،ط1،دار القلم بيروت ،1408ه/1989م ،ج1،ص44.،الفخر الرّازي،تفسير الفخر الرازي المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ،قدّم له خليل محي الدين الميس ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت لبنان ،1415ه/1995م،مج13،ص146. أبو الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي ، البداية والنهاية ،،حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري ،دار إحياء التراث العربي ،1408 ه/1988م ،ط1،بيروت لبنان،ج1،ص130.

3- سورة الصّافّات، الآية 77.

4- اليعقوبي ،تاريخ اليعقوبي ، علق عليه ووضع حواشيه خليل منصور ،دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان ، ط1،1999 م،ص165.

وقد أضاف المسعودي بأن حام قد أنجب ابن أسود سماه كوش ، وأضاف أن حام هام على وجهه حتى استقر به المقام في أصيلا[1] بالسوس الأقصى على ساحل البحر، وبعد و فاته استقر بنوه في تلك البلاد وما جاورها من بلاد البربر [2]، هذه الرواية قد تشابه في ذكرها العديد من المؤرخين والرحالة الجغرافيين كالبكري والمسعودي وابن خلدون وهم بذلك يفرقون بين أمم شرق إفريقيا وغربها حيث أشار ابن خلدون نقلا عن ابن سعيد تسع عشرة قبيلة من أبناء حام فذكر الزنج وبربرا والدمادم والحبشة والبجاوة والنوبة ،وهي أمم الشرق الإفريقي ، وذكر زغاوة و تاجوة و كوكو و نغالة و التكرور و لمى ونمنم و جالى وكوري و أفكرار وغانية وصوصو ومالي ، وهم أهل بلاد السودان [3].

كما أشار ابن بطوطة إلى نفس الرواية عن طريق ذكره لشيوع نظام الأمومة ببلاد السودان حيث قال :" وذلك شيء ما رأيته في الدّنيا إلاّ عند كفّار بلاد المليبار[4] من الهنود ..."[5].وهذه الظاهرة التي كانت سائدة في بلاد السودان وبالخصوص في شعب الفولاني[6] الذي وصف بأنه صانع الحضارة في غرب إفريقيا ،كانت موجودة في بلاد الهند ، وأردفت بعض الدراسات للأنثروبولوجيين الأوروبيين أن الودع الذي كان عملة في السودان الغربي كان مصدره الهند حيث استعمل لنفس الغرض ، وهذا ما عزّز هذه النظرية التي تبناها الجغرافيون .

1- أصيلا :يسميها الأفارقة أزيلا مدينة كبيرة ،أسسها الرومان على شاطئ المحيط بعيدة عن مضيق أعمدة هرقل بنحو سبعين ميلا وعن فاس بنحو مائة وأربعين ميلا .ينظر :حسن الوزان ،وصف إفريقيا ، ترجمة ،محمد حجي ومحمد الأخضر دار الغرب الإسلامي ،1983،ط2، ص 312 .

2- المسعودي ، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران ،دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ،1980،ط4، ص63.

3- ابن خلدون ، عبد الرحمن ،ديوان المبتدا والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،مراجعة سهيل زكار،مج4، دار الفكر للطباعة والنشر ،بيروت ،لبنان ،2000 م ،ص410-412 .

4- ملبار (Malabare) تقع جنوب غرب الهند .

5- ابن بطوطة ،رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ،تحقيق محمد عبد الرحيم ،ج2،دارالفكر،2009 م ،ص370.

6- تقطن قبائل الفولاني Fullani والتي تعرف كذلك بالفلاني أو الفلاتا في المنطقة الواقعة في أعالي النيجر وحتى نهر السنغال يعيشون على الرعي ينظر :فيج.جي .دي ،تاريخ غرب إفريقيا ،ترجمة وتقديم وتعليق ،يوسف نصر ،دار المعارف ،ط1 ،1982، ص30.

أما المصادر السودانية فهي الأخرى أرجعت النسب إلى النسب الشرقي لكن البعض منها عالجها في قالب أسطوري مثلما جاء عند محمود كعت حيث أرجع أصولهم إلى إماء النبي نوح عليه السلام الخمس [1] .

هناك بعض الروايات الأسطورية إلى أن أول أهل بلاد السودان ترجع إلى شخصية عربية أسطورية تدعى باياجيدا البغدادي وهو ابن لأحد ملوك بغداد ،والذي استقر ببلاد السودان بعد قضائه على إحدى الحيّاة ،التي كانت تتحكم في حياة الناس، وتمنعهم من مياه البئر الوحيدة في المنطقة[2] وهذه الرواية الأسطورية لها علاقة بالديانة الوثنية التي كانت منتشرة في هذه البلاد وهذا ماجعل مؤرخي السودان يقتبسون هذه الرواية عن أصل أهل السودان بين الدين والأسطورة وامتدت هذه النظرية إلى حد إثبات أصول حكام بلاد السودان إلى الشرق ،حيث أثيرت مسألة أصول مؤسسي مملكة غانة إلى البيضان باعتبارها أقدم مملكة ظهرت في بلاد السودان في حدود القرن الرابع قبل الميلاد وفي ذلك قال القلقشندي : "وأول من بثّ الإسلام فيهم الهادي العثماني ادعى أنه من ولد عثمان بن عفان رضي الله عنه وملكها ثم صارت بعد لليزنيين[3] ..."[4]

لقد كانت نفس النظرية بالنسبة لمؤرخي السودان الذين ذكروا بياض لون مؤسسي مملكة غانة القديمة وأصلهم الشرقي حيث قال السعدي :" وهم بيضان في الأصل ولكن ما نعلم من ينتمي إليه في الأصل وخدامهم عكريون ..."[5]،وأشار بعض المؤرخين إلى أنه قد حدث تمازج

1- يرى محمد كعت ان أصولهم من نسل إماء النبي نوح عليه السلام وعددهن خمس حيث أنجبن مصادفة وكل واحدة منهن كان لها توأمين ،ذكر وأنثى ،فلما بلغ الأولاد النكاح أنجبوا القبائل الإفريقية (جنك ،بوبو،كرنكن ،كرغي ، سرك)، ولما توفي نوح عليه السلام تفرقوا إلى أن بلغوا بلاد السودان .ينظر : محمود كعت، تاريخ الفتّاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور،وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار ، مؤسسة الرسالة ناشرون، ط1 ،2014م،ص114-115.

2- أحمد محمد كاني ،الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا ، ط1،القاهرة ،الزهراء للإعلام العربي ،1987م ،ص ص49-50.

3 - ترجع إلى عامر ذو يزن ومنهم الملك سيف بن ذو يزن من حمير وهم تبابعة اليمن .ينظر : الحموي ،ج4 ،ص436.

4- أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشا ،شرحه وعلق عليه نبيل خالد الخطيب ،ط1،بيروت لبنان ،دار الكتب العلمية ،1987م،ج5،ص271 .

5- عبد الرحمن السعدي ،تاريخ السودان ، باريس مكتبة أمريكا والشرق،1964م،ص9.

بين السكان الأصليين والوافدين من الشرق مما أنتج عنصرا جديدا له بشرة تختلف عن بشرة أهل البلاد السوداء فأطلق عليها اسم (سيراكول)بمعنى الناس الحمر[1] .

تبقى هذه النظريات واردة ولكن كما سبق وأن أشرنا فإن البحوث الأنثروبولوجية أثبتت أن القارة الإفريقية هي مهد الإنسان الأول وهذا انطلاقا من بقايا الإنسان الأول العظمية ،والتراث المادي كالكتابة والأدوات المصنوعة وهي معطيات موضوعية محضة .

1 – يحي ولد البراء ، المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب الصحراء ، مكتبة نواكشط ،المجلد الأول ،ط1 ،2009 ،ص49

الفصل الأول

الفصل الأول : الخلفية الجغرافية والسياسية للسودان الغربي

أولا :الخلفية الجغرافية لبلاد السودان

- دلالة مصطلح السودان
- موقع بلاد السودان

ثانيا : التركيبة البشرية في السودان الغربي

- قبائل السودان الغربي
- القبائل الوافدة إلى بلاد السودان الغربي

ثالثا :الخلفية السياسية للسودان الغربي

- مملكة غانة
- مملكة مالي
- مملكة سنغاي

أولا – الخلفية الجغرافية لبلاد السودان :

تغيرت المفاهيم والتسميات الخاصة ببلاد السودان على مر العصور ولكن الثابت أنها عرفت في بداية الأمر عند العرب وامتد مجالها الجغرافي في المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى الافريقية .

أ– دلالة مصطلح السودان :

لقد ظل مصطلح السودان الغربي West Sudan مجهولا في الكتابات القديمة و لم يعرف سوى مع دخول الإسلام إلى شمال إفريقيا لأن الفينيقيين واليونانيين والرومان لم يدونوا سوى بعض الملاحظات على عادات وسلوكيات بعض العبيد الذين نقلوا إلى أوروبا وفي هذا الصدد يشير بوفيل إلى ما يثبت ذلك من خلال ما قاله : "وقبل قدوم العرب لم يكن يعلم شيئا عن إفريقيا جنوب الصحراء ونحن الأوروبين ندين بكل معلوماتنا عن التاريخ المبّكر لداخل القارة إلى فئة قليلة من المؤلفين ...."[1]، وهذا اعتراف واضح بالسبق العربي في دراسة تاريخ هذه المنطقة .

كان العرب أول من أطلق كلمة السودان على الشعوب التي سكنت جنوبي الصحراء الكبرى[2] إلا أنهم أحيانا كانوا يطلقونه على كل السود الإفريقيين[3].

لقد أطلق البكري (ت 487ه/1094)كلمة السودان على ذلك الجزء من غرب إفريقيا الذي يمتد من المحيط الأطلسي غربا، إلى مشارف النوبة على نهر النيل شرقا[1]، و قداضاف إلى ذلك القيرواني الذي اعتبر مدينة سجلماسة[2] .

---

[1] – إدوارد بوفيل ،الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، تر:رياض زاهر ،مكتبة الأنجلو المصرية ،القاهرة ،1968،ص70-71.

[2] – عبد القادر زبادية، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء" دراسات ونصوص"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989،ص 11وأيضا مبخوت بودواية، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2005- 2006- ص 35.

[3] –الهادي مبروك دالي، التاريخ السياسي والاقتصادي فيما وراء الصحراء " من نهاية القرن الخامس عشر إلى بداية القرن الثامن عشر"، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1999،ص 17.

كما اعتبرها بداية بلاد السودان ومدخلا لها[3]. وذكر ابن عبد الحكم السودان عندما أشار إلى السوس جنوب المغرب بقوله" وغزا عبيد الله الفهري السوس وأرض السودان "[4].

كما ذكرها القلقشندي وقال في شأنها :"أن بلاد السودان متسعة الأرجاء ، رحبة الجوانب ،حدها من الغرب البحر المحيط ومن الجنوب الخراب مما يلي خط الاستواء ، ومن الشرق بحر القلزم مما يقابل بلاد اليمن والأمكنة المجهولة الحال شرقي بلاد الزنج في جنوبي البحر الهندي ومن الشمال البراري الممتدة مابين الديار المصرية وأرض برقة ،وبلاد البربر ،من جنوبي المغرب إلى البحر المحيط "[5].

أما السودان عند ابن خلدون فيقول عنها:" هذه الأمم من الآدميين هم أهل الإقليم الثاني وما وراءه إلى آخر الأول بل وإلى آخر المعمورة متصلون ما بين المغرب والمشرق، ويجاورون بلاد البربر بالمغرب وإفريقية، وبلاد اليمن والحجاز في الوسط والبصرة وما رواءها من بلاد الهند بالمشرق، وهم أصناف وشعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج والحبشة والنوبة"[6].

---

[1] – البكري أبو عبيد الله ، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص 172.

2 – سجلماسة شيدت هذه المدينة سنة 140هـ / 757م وهي مدينة سهلية وهي أول الصحراء ولا في غربها ولا في جنوبها عمران ، ويقول عنها ابن حوقل الذي زارها سنة 340هـ/951 م في وصف دقيق : " وسجلماسة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل ، على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل ... فيزرع بمائه حسب زروع مصر في الفلاحة، وربما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ماراع من زرعه ، وتواترت السنون بالمياه ...." كما قال في شأنها ابن بطوطة :" هي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر لكن تمر سجلماسة أطيب ..." ينظر : البكري ، المصدر السابق ،ص148،ابن حوقل أبي القاسم النصيبي ، صورة الأرض ، دار مكتبة الحياة،1992، ص90،ابن بطوطة المصدر السابق ،ص367.

[3] - ابن أبي دينار القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286ه،ص 105.

[4] – ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق شارلز ثوري، ج2، الأمل للطباعة والنشر، 2001،ص 217.

[5] – أبو العباس القلقشندي، صبح الأعشى،ج5، دار الكتب الخيديوية، القاهرة، 1915، ص273.

[6] – عبد الرحمن بن خلدون، المصدر السابق،ج6، ص 264.

فقد حدد ابن حوقل منطقة السودان جنوبي الأرض من بلاد السودان[1]، هي في أقصى المغرب على المحيط بلد ملتف...لا تنبت ولا عمارة فيها لشدة حرها وطول أرضها ألف فرسخ..."[2].

أطلق الإدريسي(ت 559ه/1166م) كلمة السودان على الإقليم الأول مبدؤه من جهة المغرب من البحر الغربي المسمى ببحر الظلمات وهي تحوي مدينة أوليل وسلي و تكرور وبرسي ودو ومروة وغانة..."وهي تمتد طولا إلى بداية الإقليم الثالث وتمتد عرضا إلى الجزء الثالث من كل إقليم وهو يذكر بعض أوصاف أهل السودان بالبشرة السوداء نتيجة إحراق الشمس لهم وكذا شعورهم المتفلفلة [3].

وبلاد السودان عبارة عن القطر الفسيح الواقع بين الصحراء وسلسلتي جبال قوبع وقوبو، ومجاهل إفريقية ودارفور، وعلى خط الاستواء من بلاد مصر، وكان ليون الإفريقي[4]، أول من اقتحم تلك الأقطار فشجع بعده بعض السياح في الرحلة إلى هناك، فمنهم من هلك ومنهم من قاسى أشد العذابات...[5].

من خلال هذه التعاريف نجد أنها كلها اتفقت على المنطقة لواقعة جنوب الصحراء الكبرى الافريقية .

---

[1] – منطقة السودان تشير إلى جماعات بدو الصحراء التي كانت تعيش في الخيام وترتبط بالرعي وتربية الحيوانات بصرف النظر عن كونها جماعات متنقلة أو مستقرة، ينظر إلى: نبيل صبحي حنا، المجتمعات الصحراوية في الوطن العربي" دراسات نظرية وميدانية"،ط1، دار المعارف، القاهرة، 1984، ص 19.

[2] – ابن حوقل، المصدر السابق ، ص 24.

[3] – أبو عبد الله الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مج1، مكتبة الثقافة الدينية ،د.م، د.ت، ص 17-18.

[4] – بليون الإفريقي أو ليون الإفريقي، لاون الإفريقي، يقصد به الحسن الوزان والذي يعد كتابه وصف إفريقيا أعجوبة عصره، وبواسطته دخل الأوروبيون في القرن الخامس عشر ميلادي، فهم كانوا يطلقون عليها القارة المظلمة، كانت دراسته الأولى في فزان بليبيا، وقد زار عدة مناطق في إفريقيا الغربية أهمها مالي، وسنغاي، بورنو وبلاد هوسة بشمال نيجيريا ينظر في ذلك: شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرازق إبراهيم، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر،ط2، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض، 2002،ص 18.

[5] – مؤلف مجهول، مجاهل إفريقيا، تعريب المعلم شاكر سقير، مطبعة القديس جاوجيوس، بيروت، 1885،ص 17.

ب- موقع بلاد السودان :

لقد حدد ابن سعيد المغربي (ت 685ه/1286م)موقع بلاد السودان بأنها تقع أسفل الصحراء الكبرى ،حيث أنها تمتد طول إلى نصف الإقليم الثاني ومدها عرضا إلى منتصف العمارة عند جزيرة سرنديب فقال :"الإقليم الأول سكانه السودان وعرضه ست عشرة درجة وسبع وعشرون دقيقة وهو عشر أجزاء ..."[1]إلى أن تحدث عن سكان هذا الإقليم بأنهم يشبهون سكان ورجلة الذين يتعاملون معهم في مجال التجارة لكنهم ليسوا من السودان حيث قال :"واركلان ... والسفر منها في الصحراء إلى بلاد السودان كثير ..."[2].وقد اهتم ابن سعيد بوصف الإقليم الثامن خلف خط الاستواء ،فوصفه وصفا دقيقا تحدث فيه عن المدن وعادات أهله .

وذكر ابن أبي أصيبعة (ت 668ه/1270م) السودان وقال في ذلك:" نهر مهران يشق أرض السند ويصب في بحرها المالح، ونهر آخر يشق أرض الهند وجميع أرض السودان حتى يخرج إلى أرض النوبة...[3].

أما ياقوت الحموي (ت 622ه/1225م)قال في ذلك :" أرض السودان وهي مابين البربر إلى الهند..." [4].ثم أضاف :" الإقليم الأول فهو من المشرق يبتدئ من أقصى بلاد الصين ...وينتهي إلى بحر المغرب ... من بلاد المغرب تبالة ومدينة صاحب الحبشة جرمي ومدينة النبوة دمقلة وجنوب البرابر وغانة من بلاد سودان المغرب ..."[5]

1 – ابن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ،حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي ،ط1،بيروت ،منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ،1970م، ص89 .

2 – ابن سعيد المغربي ،المصدر السابق ،ص126 .

3 – ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار الحياة، بيروت، د.ت،ص 241.

4 – ياقوت الحموي ،معجم البلدان ،بيروت ،دار صادر ،1986 ،ج1، ص18.

5 – ياقوت الحموي، المصدر السابق ،ص28-29 .

وذكرها المسعودي في قوله:" جعل الله في ولد سام النبوة والبركة، وجعل لحام بعض الشام ومصر وأعالي النيل وبلاد النوبة والبجة[1]، وأصناف السودان مع البحر الأحمر إلى بلد الحبشة والهند والقوط والسند"[2].

تنقسم بلاد السودان إلى ثلاثة أقسام:

1- السودان الشرقي: يشمل مناطق سواحل البحر الأحمر في الشرق و إلى غاية جنوب بلاد النوبة[3]، وتعيش به شعوب كثيرة زنجية وعربية ومستعربة وحامية .

2- السودان الأوسط: يشمل المنطقة المحيطة ببحيرة تشاد ، بين خطي عرض 22° شمالا و10°جنوبا ، وبين خطي طول 10°شرقا و15°غربا ،أي إفريقيا الوسطى[4].

4- **السودان الغربي**: يشمل حوض السنغال الآن وغامبيا ،وبوركينافاسو،(فولتا العليا)[5] سابقا، والنيجر الأوسط، وتعيش به شعوب زنجية وحامية وهو يعرف كذلك اليوم بدول الساحل [6].

1 – البجه أو البجاه : هو اسم يطلق على الشعب الذي يتوزع مابين ساحل البحر الأحمر ونهر النيل في السودان وتمتد من المنحدرات الشمالية للهضبة الحبشية في الجنوب إلى مديرية أسوان في الشمال.ينظر : محمد عوض محمد ،الشعوب والسلالات الإفريقية ،الدار المصرية للتأليف والترجمة ،1965 ،ص246 .

2 – أبي الحسن المسعودي، أخبار الزمان من أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران، دار الأندلس، بيروت، 1996،ص 107-108.

3 – التونسي ،محمد بن عمر ،تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ،تحقيق: خليل عساكر ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ،القاهرة ،1385 ه/1965م ،ص132 .ينظر كذلك :عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين(1493-1591)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،د.ت،ص 15.

4 – مجموعة من الأساتذة ، أطلس العالم ،مكتبة لبنان ،بيروت، د.ت ، ص37 .وينظر كذلك : يحيى بوعزيز،تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين ،دار البصائر ،2009 م ،ص8.

5 – فولتا العليا غيرت هذه البلاد اسمها ابتداء من 4أوت 1984م إلى بوركينافاسو .

6 – عدنان مراد ، المجتمعات الافريقية :أصولها تاريخها وشعوبها وثقافتها ،اتحاد الكتاب العرب ،1995م ،ص108.

إن منطقة السودان الغربي هي تلك التي تطل غربا وجنوبا على المحيط الأطلسي، وتحدها الصحراء الكبرى شمالا، ومن الشرق بحيرة تشاد، وباختصار تشمل المنطقة ما يعرف اليوم بعض السنغال وغامبيا وبوركينافاسو [1].

تضم هذه المنطقة كل من السنغال وغامبيا وغانا وسيراليون، وليبيريا، وساحل العاج وساحل الذهب و بنين (داهُومي[2] سابقا) ونيجيريا، تشمل قسم كبير من القارة الإفريقية وهو ما يعرف بإفريقيا الغربية[3] ، تقع على خط عرض 17.9 شمال خط الاستواء على وجه التقريب وهي تمتد على مساحة تبلغ 2.4 مليون ميل مربع عرفها الكتاب العرب أن البلاد التي يحدها بحر الظلمات[4].

أطلق جغرافيو المغرب الإسلامي بعد القرن الرابع الهجري / العاشر ميلادي، على المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى بحيرة كوري شمال خط الاستواء وجنوب الصحراء" بلاد السودان" وهذه المنطقة تمثل المجال الموازي لبلاد المغرب تفصلهما الصحراء الكبرى، بيد أن جغرافي المشرق الإسلامي قبل القرن الرابع الهجري وبعده يستعملون نفس المصطلح اسم" السودان" للدلالة على كل المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى النيل المصري والبحر الأحمر جميعا، والعامل المشترك في تمييز الفضاء الجغرافي سواء عند المشارقة أو المغاربة عامل لون البشرة[5].

1 – الهادي مبروك دالي، المرجع السابق،ص 19.

2 – داهومي هو الاسم القديم لجمهورية بنين الحالية حيث غيرت اسمها ابتداء من 1975 .

3 – يمثل مصطلح غرب إفريقيا المنطقة التي تمتد من بحيرة تشاد في الشرق إلى المحيط الأطلنطي في الغرب، ومن السودان الغربي إلى الصحراء الإفريقية الكبرى جنوبا ينظر: عبد الله عبد الرزاق إبراهيم وآخرون ، نفسه،ص 15، مبخوت بودواية، العلاقات الثقافية والتجارية .....،المرجع السابق ،ص 35.ينظر كذلك: فيج جي دي، المرجع السابق ،ص 15.

4 – شوقي الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم، دراسات في تاريخ غرب إفريقيا،مكتبة الإسكندرية،القاهرة،1998،ص 05.

5 – أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني" إمبراطورية مالي 1230-1430م"، ط1، إصدارات المجتمع الثقافي، أبو ظبي، 1999،ص 58.

وأصبح يستعمل مصطلح " بلاد التكرور " كمقابل لمفهوم بلاد السودان وفي ذلك يقول المقريزي في حديثه عن أرض الحبشة[1]:"...بلاد الحبشة أولها من جهة المشرق المايل إلى جهة الشمال بحر الهند المار من باب المندب إلى بلاد اليمن وفيها يمر بحر حلو يقال سيحون يرفد نيل مصر وجهة حبشة الغربية تنتهي إلى بلاد التكرور..."[2].

وأطلق ابن الوردي اسم بلاد التكرور[3] على بلاد السودان وذلك في كتابه عجائب البلدان:" هي جنوب النيل وغربه وهي مدينة كبيرة بها أمم عظيمة من السودان وهي مقر ملكهم ببلادهم معدن الذهب "[4].

وأكد هذا المفهوم بن عمر التونسي في قوله:" أعلم أن القدماء يطلقون على بعض أهل السودان اسم التكرور[5] ويعنون به أهل مملكة برنو، لكن قد عم هذا الاسم على ممالك

[1] – اللفظ الإغريقي Ethipa يتكون من كلمتين Ethi بمعنى محترق، و Opa بمعنى وجه، أما كلمة الحبشة ومنها الأحباش، هما اللفظان اللذان صارا في اللغة اللاتينية A.Byassinia ،يرجع أصلها إلى قبيلة عربية هي حبشت السامية ، التي عبرت البحر الأحمر مهاجرة من جنوب الجزيرة العربية، وتم ذلك خلال القرنين 10 ق م و 7 ق م، ينظر: شوقي عبد القوي عثمان، التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك (648- 922ه)/ 1250- 1518م)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002،ص 57 .

[2] – أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي ابن عبد القادر بن محمد العبيدي المقريزي، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام،تحت رقم:46290، موجودة بالمكتبة الأزهرية، عدد الأوراق 21، ورقة 01.

[3] – بلاد التكرور: بلاد تنسب إلى قبيلة من السودان في أقصى جنوب المغرب، وأهلها أشبه الناس بالزنوج، ينظر: المقريزي، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة قطعة منه، القسم الأول حرف ألف، حققه عدنان درويش و محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ، 1995،ص167.وقد ذكر ذلك ك .مادهو بانيكار ، الوثنية والإسلام ،ترجمه وعلق عليه وحققه،أحمد فؤاد بلبع ،ط2،المجلس الأعلى للثقافة ،1998،ص56 ،هامش 127.

[4] – سراج الدين بن الوردي (ت861ه-1457م)، عجائب البلدان من خلال مخطوط خريدة العجائب وفريدة الغرائب، جامعة عين الشمس، المنصورة،د.ت.ن،ص 74.

[5] – التكرور بفتح التاء المثناة فوق سكون الكاف وضم الراء المهملة وسكون الواو مهملة في الآخر هي مدينة على النيل على قرب من صفافة، أكبر من مدينة سلا من بلاد المغرب، بينها وبين سجلماسة أربعون يوما وأقرب البلاد إليها من بلاد لمتونة بالصحراء آسفي بينهما خمس وعشرون مرحلة، ينظر: القلقشندي،صبح الأعشى، المصدر السابق،ص 286. تعرف كلمة تكرور بصورة كبيرة فقط في منطقة جغرافية تشمل مناطق مرور قوافل الحج بين الجزيرة العربية وغرب دارفور في السودان، ويدخل من هذه المنطقة أجزاء من أرض الحبشة واليمن من الجنوب ومن الشمال يدخل فيها الشام ومصر،

متعددة،...ولقد لقيت منذ أيام رجـــلا من أهـــل الســـودان فسألته من أين أنت؟ فقـــال من التكرور بل أظنه قال تكروري[1] فقلت من أي التكاريرفقال من باقرمه ".[2]

هناك من سمى بلاد السودان أثيوبيا وقسموها إلى ثلاثة أجزاء رئيسية: أثيوبيا العليا، وأثيوبيا السفلى، وبلاد الكفر وتمتد من مصب نهر النيجر إلى رأس كواردافو، وكـــل الأقـــاليم الصحراوية التي تدين اليوم بدين الإسلام[3].

كما أطلق المقريزي أرض الحبشة على بلاد السودان واعتبر بلاد التكرور جزءا مـــن أجزائها[4]، وهناك من جمع تسمية الزنوج، والأحباش ،والسودان وأطلقها على جميع الأجنـــاس ذات البشرة السوداء التي تقطن في الصحاري[5].

يرى إبراهيم طرخان في تحديد بلاد السودان الغربي حيث قال :"وتنطبق أوصاف العرب لبلاد السودان على بلاد غربي إفريقيا بصفة خاصة وهي الممتدة جغرافيا من المحيط الأطلســـي غربا إلى بحيرة تشاد شرقا ، والتي اصطلح كتّاب أوروبا في العصور الوسطى على نعتها باســـم بلاد نيجريتا Nigritia "[6] . وقد أطلق القدماء من المؤرخين والجغرافيين والرحالـــة هـــذه التسمية عليها نسبة إلى نهر النيجر ، وأول من أشار إليها المؤرخ الروماني القديم بليني الكـــبير

واشتقت منها صفة التكروري كلمة تكرور هي مصطلح عربي استعمله أهل الحجاز لوصف الشعوب المسلمة من سكان غرب إفريقيا، ينظر: ابن الوردي، المصدر السابق،ص 74.

[1] – وأيضا التكرور هم شعب من الزنوج يسكن معظم وهادفوته السنغالية، وتعيش شعبة منهم فيما بين النيجر وبحيرة تشاد ولا سيما في سكوتو، ومن المحتمل أن يكون التكرور هو الاسم الذي كانت تعرف به في وقت من الأوقات مدينة بالقرب من نهر السنغال، كانت عاصمتها فوته السنغالية، وأطلق هذا الاسم على شعب هذه المملكة، وأطلق العرب فيما بعد اسم= =التكرور على جميع بلاد السودان التي دخلها الإسلام وهي الممتدة من المحيط الأطلنطي إلى حدود واد النيل وأضحت كلمة تكروري مرادفة لكلمة السوداني، ينظر:دائرة المعارف الإسلامية ،لفظ تكرور.

2– محمد بن عمر التونسي، المصدر السابق ،ص 135-136

3 – مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي محمد زبير، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بن جلون، دار المعرفة، الرباط، 1989، ص 195.

4 – المقريزي، المصدر السابق، ص 01.

5 – الجاحظ، الرسالة الأولى في الحاسد والمحسود ،ط1، مطبعة التقدم، مصر، 1324ه،ص 61.

6 –إبراهيم علي طرخان ، إمبراطورية غانة الإسلامية ،القاهرة ،الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1390ه/ 1970م، ص7.

Plinius (ت حوالي سنة 115م)وهو الذي أطلق على نهر النيجر اسمه الذي اشتهر به Nigris، أي نيل الأجناس السود ثم أخذ كتاب العصور الوسطى بغربي أوروبا هذا المصطلح ونسبوا جميع المنطقة المحيطة بهذا النهر إليه ، فعرفوا سكانها بالنيجرتيين Nigrite.[1]

وبعد استقراء أقوال المؤرخين والجغرافيين ووقوف الباحث أمامها يمكن أن نصل إلى تحديد مفهوم قريب لمنطقة السودان الغربي التي نحن بصدد دراستها وهي المنطقة التي تطل غربا وجنوبا على المحيط الأطلسي تحدها الصحراء الكبرى شمالا، ومن الشرق بحيرة تشاد، و باختصار تشمل منطقة ما يعرف اليوم بعض السنغال وغامبيا وبوركينافاسو[2]، لكن مع ذلك يبقى بعض الاختلاف في التّعاريف المعروضة في تحديد بلاد السودان توسيعا وتضييقا ، فانها تشمل دول غرب افريقيا (السنغال ،موريتانيا ،مالي ،النيجر ،غامبيا ،كوتيفوار ،نيجيريا،بوركينافاسو ،البنين ،غانة ،سيراليون وغينيا وغينيا بيساو) ، ومع ذلك لا يمكن قصر التعريف على عامل واحد بل هناك عوامل أخرى بشرية واعتبارات متعددة ،كالتحديدات السياسية و الاقتصادية .

1 – إبراهيم علي طرخان ،الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية، مجلة كلية آداب القاهرة ،مج27 ،1965،ص ص 52–53 .لقد سمى العرب نهر النيجر بأسماء مختلفة فالعمري والإدريسي وابن سعيد وغيرهم من الجغرافيين العرب يسمونه بالنيل ، وعمم معظمهم تسمية النيل على نهر السنغال أو النيجر أو روافدهما .ينظر : مهدي رزق الله أحمد ،حركة التجارة والإسلام والتعليم الإسلامي في غربي إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية ،ط1،مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ،ص41.

2 – الهادي مبروك دالي، المرجع السابق،ص 19.

ثانيا – التركيبة البشرية في السودان الغربي :

ضمت بلاد السودان الغربي العديد من القبائل والأجناس وهي من أصول مختلفة كما سبق وأن أشرنا سالفا، فكانت إما من أصول حامية أو سامية أو زنجية .استقرت مع مرور الزمن تبعا للظروف المناخية أو أمنية أو اقتصادية ، وبما أن المنطقة ضمت هذا التنوع البشري الذي تصاهر وتمازج ليعطينا أجناسا جديدة هجينة فأصبح من الصعب التمييز بينها من حيث الأصول [1] ، وهذا لعدم نقاء السلالة بعد المصاهرة ومع ذلك يمكن أن نذكر أهم القبائل التي استقرت في بلد السودان الغربي وحتى الأوسط وهذا لعد م وجود حاجز طبيعي يفصل بينهما وتتمثل فيما يلي:

أ– قبائل السودان الغربي :

تعددت القبائل التي استقرت وعاشت في بلاد السودان الغربي حيث ضمت هذه البلاد القبائل الزنجية كالسوننك ،الفولاني ،قبائل التكرور ، الولوف ،البمبارة ،الموشي ، السنغاي، البولالا،البرنو ، الهوسا ، و القبائل العربية ،وقبائل الطوارق .وقد أشار ابن خلدون إلى ذلك فقال " هم شعوب وقبائل أشهرهم بالمشرق الزنج[2] والنوبة ...ويليهم من غربهم كوكو وبعدهم التكرور[3] ويتصلون بالبحر المحيط إلى غانية ..."[4].أما الزنوج فهم أصل شعوب بلاد السودان ومنهم الزنوج الأقحاح الذين يعيشون في غرب إفريقيا ويتشاركون السهول العشبية من أجل مراعيهم مع شعوب شمال إفريقيا ، وهي تتميز بقوة الأجسام والأكتاف العريضة والسواعد المفتولة الطويلة وقصر الأطراف السفلية والأنف العريض المسطح والشفاه الغليظة والتي في

1 –علي مسعود ،تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي ، جمعية الدعوة الإسلامية ،طرابلس ،2003، ص24.

2 – زنجي معناها أسود وهي في الأصل كلمة فارسية وأطلقها العرب على كل أسود يعيش في شرق إفريقيا ، محمد عدنان مراد ، القارة الإفريقية أصولها وتاريخها وحضارتها ،مجلة الآداب الأجنبية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ع38-39، يناير 1984 ، ص 15.

3 – بلاد التكرور مدينة في بلاد السودان مشهورة ذكرها القزويني في آثار البلاد وقد استخدمت للدلالة على بلاد السودان ،ينظر : القلقشندي ، المصدر السابق ،ج5،ص283.

4 – ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج5،ص234 .

الغالب تكون مقلوبة أما شعر الرأس فهو مفلفل كثيف ولون الجلد أسود لامع والطول متوسط مابين 160 و170 متر .وذكرها القزويني وزاد عليها ذكر أكلة لحوم البشر حين قال :" ... وأكل بعضهم بعضا فإنهم في حروبهم يأكلون لحم العدو ومن ظفر بعدو له أكله... "[1]ومن بين القبائل الزنجية نذكر :

– **قبائل الماندينجو**[2] :تشكل الغالبية العظمى في بلاد السودان الغربي وقد استقروا على أطراف نهر السنغال ونهر غامبيا ونهر النيجر وهي المناطق التي تشمل السنغال وأواسط نيجيريا وجـــزء من النيجر ومعظم القبائل المجاورة لها تفرعت عنها لأنها تشترك في جميع الأنماط المعيشية ،مثـــل العادات والمساكن ، والملابس ، وقلما نجد بعض الاختلافات في الأنشطة التي تزاولهـــا تلـــك القبائل كالزراعة والرعي والصيد ، والعامل الذي أدى إلى اتساع الهوة بينها هو اعتناق البعض من القبائل المحيطة بها للإسلام وبقاء الأخرى وثنية ،فقبيلة الديولا[3] كانت قد دخلت في الإسلام

---

1 – القزويني ، المصدر السابق ،ص30.

2 – المانديغو أو المانديجو: تحمل هذه التسمية عدة مضامين متقاربة، والمتعارف عليه منها المانانكا أي المانديكا أو ماننج أو ماننجا أو ماندنج وهي كلها متقاربة في حروفها كلمة ماندي تتكون من لهجة قبائل السوننك أحد فروع المانديغ في مقطعين هما (ما)+ (دي) وحرف الربط "ن" ويعني المقطع دي في اللهجة السوننكية:"في" أو "عند" ويعني مقطع ما " السيد" أو الحاكم، وبمعنى آخر، العاصمة، كما أن هناك تفسيرا آخر لكلمة ماندنغ أما "ما" فتعني الأم وكلمة طدنغ" أو "دنج" تدل معنى الطفل أو الإبن والكلمة مجتمعة معناها" ابن الأم" هذا يدل على أهمية النسب إلى الأم وهو أمر مألوف عند المانديغو، تنتشر لغتهم في الوقت الحاضر في المناطق الجبلية بأعالي نهر السنغال، وتتركز القبائل الناطقة بها في الأقاليم سانجران، وجانجران، بامبوك، ووادي غامبيا الأدنى، وتنتشر في القبائل شمالا حتى الصحراء الكبرى: ينظر، الهادي مبروك دالي: المرجع السابق،ص 48-49.

وهو اسم واحد لقبائل من أصل واحد ،وقد ذكرت أسماء أخرى لهذه القبائل ، لقد كان لهذه القبائل الشأن الكبير أيام دولة مالي وأزهى أيامها كانت في عصر منسا موسى وهي تضم عدة قبائل زنجية منها: دويلا ،وكاسونكي ، وجولنكي و بمبارة و السوننكة ،والمانكية وقد مارسوا الزراعة والرعي والصيد أو في التجارة المحلية .ينظر :زكي ،عبد الرحمان ، الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية ،المؤسسة العربية الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ،1961،ص18.وينظر : إبراهيم طرخان ،دولة مالي الإسلامية ، الهيئة العامة المصرية للتأليف القاهرة ، 1973 ، ص26 .وينظر :

Sik(André),Histoire de l'Afrique noire. Budapest ,Hongrie , 1962,2eme édition,tom1,p48.

3 – ينحدر الديولا (Dioula) أو الجيولا من سلالة السوننكي الذين يعتبرون فرعا من شعب المانديغ ولكنهم انفصلوا عنهم قبل أن يختلطو مع شعوب الساحل من ساميين وبربر وموسكيين وهو ما جعلهم يحتفظون بنمطهم المندي=

مبكرا ، أما البمبارة فقد بقيت وثنية وهذا ما أدى إلى وجود فوارق في أنماط المعيشة بينـــها ، ومن شدة خدمة أهلها للإسلام كان كل مسلم فيها داعية نشيط ،وإذا ما اجتمع في مدينة ستة رجال منهم أو أكثر وقرروا البقاء فيها مدة من الزمن إلا سارعوا إلى بناء مسجد وأخـــذوا في نشر الدعوة الإسلامية [1] وقد عرفت قبائل الماندينغو بالتجارة في المنطقة الممتدة من ســـاحل الأطلسي حتى نهر النيجر.

كما اشتهروا بتجارة الملح خاصة ، ويعود الفضل لهذه القبيلة في تأسيس دولة مـــالي الـــتي بسطت نفوذها على كامل بلاد السودان الغربي[2] .

– **قبائل السوننك** : تعتبر فرع من فروع الماندنغو أو الماندي ،والذين يتميزون بالقوة الجسمانية وقد تمركزوا في الأطراف الجنوبية الصحراء الكبرى وامتزجوا مع قبائل البربر وقبائل أخرى مما انعكس ذلك على لون بشرتهم فهي أقل سوادا من غيرهم من القبائل الزنجية وقد كانت هـــذه القبيلة من السباقين لاعتناق الدين الإسلامي في إفريقيا جنوب الصـــحراء .وتنفـــرد مجموعـــة السوننك عن بقية فروع الماندي الأخرى ، بصفات جسمانية خاصة وتقاليد اجتماعية مميـــزة وقد ارتبط السوننك بالأرض غير أنهم مارسوا التجارة ، ونتيجة لاختلاطهم بالبربر وغيرها من العناصر البشرية تغيرت ألوانهم وأصبح يطلق عليهم إسم ســـيراكول أو ســـراكول -Sere

=الأصل ، ولغتهم تختلف عن المالنكي وعن كثير من لغات جيرانهم المندي .ينظر :نور الدين شعباني ،الديولا ودورهم في نشر الإسلام في منطقة الغابات الإفريقية ،مجلة الحكمة للدراسات التاريخية،الجزائر ، المجلد2،العدد3،جانفي 2014 ، ص9 .

1 – محمود شاكر ،التاريخ الإسلامي ،الأقليات الإسلامية ،ط2، المكتب الإسلامي ،بيروت ـــ1995 م،ص279 . وينظر : زمان عبيد وناس ، الحياة الاجتماعية والثقافية في مدينة جاو ، ملة كربلاء العلمية ،المجلد الرابع ، العدد الثالث ، جوان 2006،ص104

2 – زمن شدة إقبالهم على الإسلام أنهم سارعوا لفتح المدارس وتعليم اللغة العربية والشريعة الإسلامية وتخلصوا من العادات القديمة كبيع أبناء دينهم بيع الرقيق كما تخلصوا على العادات الوثنية التي كانت تتنافى والدين الإسلامي .ينظر : محمود شاكر ،المرجع السابق ،ص279.

Kule أو Sera-Koulé ومعنى هذه التسمية الرجال الحمر[1] ، وهذا دليل على أنهـــم لم يكونوا يحملون صفات زنجية نقية [2].

لقد اشتهر السوننك في إمبراطورية غانة بدورهم الدعوي الكبير في نشر الإسلام وعرفـــوا بحماستهم للدين الإسلامي حيث كان له الأثر الكبير في حياتهم حتى أصبحت كلمة سوننك في أعالي نهر غمبيا مرادفة لكلمة" داعي "[3].

– قبائل التكرور :

لقد أشرنا إلى أن كلمة التكرور كانت تعني جميع أهل السودان من الزنوج ، ولكن الثابت أن هذه الكلمة لم يكن أهل البلاد في حد ذاتهم يقبلونها عليهم وقد أكد ذلك العمري عندما ذكر ملك مالي وكيف أنه لا يرضى بأن يدعى ملك التكرور بل يحب أن يدعى ملك مـــالي ،لأن إقليم التكرور[4] هو أحد أقاليم مملكة مالي [5] ، وقد زاد العمري في التأكيد على ذلك عنـــدما عدد أقاليم مملكة مالي فذكر فيها التكرور مع مجموعة من أقاليم مملكة مالي [6] ونزيد على ذلك للتأكيد على أن هذا المصطلح كان يمثل أحد أقاليم بلاد السودان الغربي حيث وضع محمد بلو بن عثمان فودي (ت1253ه/1837 م) صاحب كتاب إنفاق الميســـور في تـــاريخ بـــلاد التكرور إذ يقول أعلم أن هذا الاسم الذي هو التكرور هو الإقليم الغربي من الجنوب السوداني

1 – يحي ولد البراء ، المرجع السابق ،ص49 .

2 – إبراهيم طرخان،امبراطورية مالي ، المرجع السابق ، ص19.

3 – إبراهيم طرخان ، نفس المرجع السابق ،ص48 .

4 – التكرور : مدينة تقع على جانبي النيل ،وهي تمثل الإقليم الواقع في أقصى جنوب المغرب بما في ذلك السكان الذين عرفوا بالتكرور ويسافر إليها أهل المغرب بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها بالتبر والخدم .ينظر ابن سعيد ،المصدر السابق ،ص91، الحميري ،الروض المعطار في خبر القطار ،تح :احسان عباس ،ط 2،مكتبة لبنان بيروت،1984 م ، ،ص132.

5 – العمري ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ،تحقيق : حمزة أحمد عباس،ج4،المجمع الثقافي، أبو ظبي ،2002م، ص108.

6 – العمري ،المصدر السابق ، ص108.

على ما فهمنا من تعبيرهم في التواريخ وهذا الاسم شائع في الحرمين ومصر والحبشة [1] وفي الواقع هم عبارة عن خليط بين مجموعة من القبائل كالفلاني و الماندينغ والسكان الأصليين لمنطقة "فوتا "[2] السنغالية [3]، وقد وصلهم الإسلام واعتنقوه مع وصول المرابطين إلى هذه البلاد في حدود القرن الحادي عشر الميلادي/ الخامس الهجري ، لتشهد البلاد مع ذلك انتشار الإسلام بها وكان أهل التكرور من الأوائل الذين اعتنقوا هذا الدين وعملوا على نشره في ربوع هذه البلاد .

– **الموشي** : استقرت هذه القبيلة في المنطقة الممتدة بين نهر النيجر شرقا إلى نهر فولتا غربا وتقوم حياتهم على الزراعة كباقي القبائل المجاورة لنهر النيجر و نهر فولتا بالإضافة إلى الصيد ، وقد أقاموا مملكة وثنية وعاصروا المملك الكبرى في بلاد السودان الغربي كغانة ومالي وسنغاي . وقد بقيت هذه المملكة في عزلة عن التطورات الحضارية التي عرفتها المنطقة إلى غاية عهد ملك السنغاي الأسكيا محمد الكبير الذي حكم مابين 899-935ه/1493-1528 م والذي حاربهم وأدخل الإسلام إلى هذه المملكة [4] ولكن رغم ذلك بقيت الوثنية منتشرة بين أفراد هذه القبيلة ومع حلول القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي انقسمت مملكتهم إلى مملكتين [5] وتشكل هذه القبائل الغالبية العظمى لسكان بوركينافاسو.

– **قبائل الولوف** :تعتبر من بين القبائل الزنجية الأصلية في بلاد السودان الغربي وقد استقرت في المنطقة الممتدة من غامبيا والسنغال حتى غينيا [6] ويشكلون حتى يومنا هذا نسبة كبيرة من سكان سكان هذه الدول ومن مميزات هذه القبائل طول القامة والشعر الأسود القاتم والبشرة السوداء

1 – بيلو محمد بن عثمان بن فودي ،إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور،تح: بهيجة الشاذلي ،منشورات معهد الدراسات الافريقية ،الرباط ،المغرب ،1996،ص47 .

2 – تقع منطقة فوتا تورو في شمال موريتانيا وجنوب السنغال .ينظر :عمر باه ،الثقافة العربية في الغرب الإفريقي،ط1،مؤسسة الرسالة ،بيروت ،1993،ص40.

3 – دائرة المعارف الإسلامية ، ج5، مادة التكرور،ص422.

4 – السعدي ، المصدر السابق ،ص74 .

5 – عائشة مسعود المليان ، الدور الديني والسياسي لقبائل الفولاني في السودان الغربي خلال الفترة من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، (رسالة ماجستير) ، كلية العلوم الإنسانية ،طرابلس ،2007، ص15.

6 – الناني ولد الحسين ،صحراء الملثمين ، تقديم محمد حجي ، ط1،بيروت ،دار المدار الإسلامي ،2007، ص13 .

والثقافة الواسعة وتعمد حياتهم على الزراعة والرعي والتجارة [1]، وقد دخلت قبائل الولـــوف الإسلام في فترات متقدمة عن طريق القبائل المجاورة لها والتجار العرب وساهمت هي الأخرى في نشر الإسلام في المنطقة وجنوبها وأصبحت لغتها تكتب بالحرف العربي إلى يومنا هذا وهذا دليل على تمسكها بالعربية لغة القرآن وحرصها عليها .[2]

-قبائل الفولاني[3] :

تعتبر من بين أهم القبائل في بلاد السودان الغربي نتيجة تعدادها وهي تمتد من الأطلسي غربـــا إلى بحيرة تشاد شرقا وهم بذلك ينتشرون في عدة دول إلى اليوم كموريتانيا والسنغال وإلى غاية السودان شرقا ومن صفاتهم سواد البشرة وطول القامة ويعتبر الفولاني الشعب الوحيد الـــذي يمتهن الرعي كحرفة أساسية في حياته ،حيث يتجول بقطعانه الكبيرة في هذه المناطق ، إلا أن تزايد العدد السكاني لهذه القبائل جعل البعض منها يزاول مهن أخرى وهـــذا مـــا جعلـــهم ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

فمنهم من يمتهنون الرعي ويسمون فولاني البقر أما الفئة الثانية فقد استقرت ومارست الزراعة ، والثالثة مزجت بين الزراعة والرعي ورغم الاختلاف في أصل هذا الشعب إلا أن الراجح هـــو الأصل العربي وبالتحديد لعقبة بن نافع الفهري فاتح بلاد المغرب وتشير الرواية إلى أنه وصل إلى مشارف بلاد السودان فتزوج امرأة منهم وأنجب منها أربعة أولاد[4] ورغم ذلك لم يتم الفصل في أصل هذا الشعب ولا يمكن أن نرجح رواية على الأخرى والجدير بالذكر هو أن الفـــولاني

1 – عدنان مراد ، المرجع السابق ،ص113.

2 – علي مسعود عمر محمد ، المرجع السابق ،ص33.

3 – هو اسم مرادف لاسم الهوسا فهم يسمون أنفسهم الفولب Fulbe والمفرد من هذا الاسم يعرف البولو Pulo .ينظر : فيج.جي.دي ، المرجع السابق ،ص79 .

4 – محمد المحجوب ولد بيه، موريتانيا جذور وجسور ،مكتبة القرنين 15و20للنشر والتوزيع ،نواكشط،موريتانيا،ط1 ،2016، ص ص 126-127.

شعب سامي ومع اعتناقهم للإسلام أصبحوا أكثر قوة فنسجوا علاقات وطيدة مع البربر والعرب والزنوج المجاورين لهم وأصبحوا جسرا يربط هذه الشعوب .[1]

-قبائل السنغاي : لقد اختلف في أصل السنغاي لكن الأرجح أنها قبائل زنجية اختلطت بالقبائل العربية والبربرية ، وهي تتوزع على رقعة جغرافية واسعة من الغابات الاستوائية التي تعتبر الموطن الأول لها إلى نهر النيجر وفي حدود القرن الأول الهجري السابع الميلادي بدأ انتقالها إلى المناطق الشمالية لنهر النيجر وبذلك أصبح استقرارها في المناطق التي تشمل كل من مالي والنيجر وبوركينافاسو في الوقت الحالي[2] ، كما أنها أسست أولى ممالكها في هذه المناطق قبل الميلاد متخذة من كوكيا عاصمة لها [3] وهي قريبة من غاو حيث لا تبعد عنها سوى مائة وخمسون كيلومتر [4]، وقد اشتهرت قبائل السنغاي بالزراعة والصناعات اليدوية والصيد في مياه نهر النيجر وقد عرفوا بسيادة الأرض بالنسبة للسنغاي المزارعين وبسيادة المياه بالنسبة للسنغاي الصيادين [5] .وقد أسلمت قبائل السنغاي في حدود القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي نتيجة دخول العناصر الشمالية وخاصة قبيلة صنهاجة [6]، وتم تغيير مقر العاصمة إلى مدينة غاو وسرعان ما ستقوم الإمبراطورية والتي حملت اسم القبيلة والتي كانت أطول عمرا من باقي الممالك التي قامت في السودان الغربي على أسرة الأسكيا بداية من الأسكيا محمد الكبير الذي يعد مؤسسها وبانيها ابتداء من نهاية القرن التاسع الهجري الخامس عشر الميلادي والتي دامت حتى نهاي القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي فكانت بذلك من أعظم الإمبراطوريات التي قامت على ارض بلاد السودان الغربي .

---

1 – عثمان بريماباري ،جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي ،دار الملايين القاهرة ،2000م، ص ص 13-14.

2 – عطية مخزوم الفيتوري ،دراسات في شرق إفريقيا ونوب الصحراء ، دار الكتب الوطنية بنغازي ،ليبيا ، 1998، ص24 .

3 – لقد كان استقرارها في هذه المناطق لدواعي أمنية مخافة تعرضها لهجمات القبائل البربرية كقبيلة لمطة ينظر : البكري، المصدر السابق ، ص177 .

4 – عبد القادر زبادية ، مملكة سنغاي .....،المرجع السابق ،ص251.

5 – عائشة مسعود المليان ، المرجع السابق ،ص10.

6 – السعدي ، المصدر السابق ، ص3 .

– **قبائل اليوربا** : لقد وقع اختلاف في أصل هذه القبيلة و في المكان الذي نزحت منه وبين من يرى في أصولها الشرقية وأصولها الإفريقية ، تم ترجيح أصولها الشرقية وبالتحديد من جنوب مصر من منطقة الصعيد [1] ، أما المناطق التي استوطنوها فهي الجنوب الغربي للسودان الغربي والإقليم الشمالي لنيجيريا الحالية[2] ،وقد اعتنقت هذه القبائل الإسلام عن طريق القبائل المجاورة لها مثل الفولاني التي كانت لها علاقات وطيدة معها في حدود القرن التاسع الهجري /الخامس عشر الميلادي ،تمكنت هذه القبائل من بناء مدن كبيرة ومتحضرة في تلك الفترة كما اهتمت كغيرها من قبائل المنطقة بالجانب التجاري والذي كان يمثل شريان الحياة لبلاد السودان الغربي .

– **قبائل الصوصو** :تعتبر هذ القبائل خليط من القبائل الفولانية وقبائل السونغاي وقد استوطنت في الجهة الغربية لنهر النيجر وهي تعتمد كغيرها من قبائل السودان الغربي على الزراعة وصيد الأسماك[3] لكون نهر النيجر يمثل ثروة مصدر عيش مهم للقبائل المجاورة له ، وقد خضعوا لمملكة غانة إلى غاية دخول المرابطين حيث دخلوا تحت طاعتهم وخاضوا بذلك عدة معارك ضد غانة .[4]

– **قبائل البمبارة** : هي أحد القبائل المنتمية للشعب الماندي وقد أطلق الأوروبيون عليهم هذا الاسم ومعناه في العربية هو "**كافر** " وقد امتدت هذه القبائل من المحيط الأطلسي حتى نهر النيجر، ونتيجة لتواجد قبائل اخرى في المناطق المجاورة لها فقد حدث اختلاط فيما بينها مما أدى إلى ظهور سلالة جديدة تتميز بالبنية القوية [5]، وفيما يتعلق بالنظم التي كانت تحمكها فقد

1 – لقد وقع اختلاف في الأصول المشرقية بين مكة ومصر ولكن حسن إبراهيم حسن قد رجح انتمائها إلى قبائل صيد مصر وذلك للتشابه في الطقوس الجنائزية .ينظر : حسن إبراهيم حسن ، انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ،ط1964،2،ص125 .

2 – مقاديم عبد الحميد ،المدارس العلمية ودورها السياسي والثقافي في السودان الغربي (مالي ،سنغاي) ق10.07هـ/16.13م،أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية ،قسم الحضارة الإسلامية ،جامعة أحمد بن بلة وهران 2017،1-2018.ص 20.

3 – مقاديم محمد ، المرجع السابق ،ص19 .

4 – عائشة مسعود المليان ،المرجع السابق ، ص15 .

5 – دائرة المعارف الإسلامية ،مادة البمبارة ، ج4،ص180.

جمعت السلطة الدينية والسياسية في يد شخص واحد يدعى" **دوجوتيجي**" ومعناها سيد الأرض[1] ومعظم هذه القبائل مستقرة حتى يومنا هذا في جمهورية مالي .

ب – القبائل الوافدة إلى بلاد السودان الغربي :

– **الطوارق** : لقد تنوعت الروايات حول أصول الطوارق فمنهم من أرجعها إلى قبائل حمير اليمنية [2]وبعضهم يرجع نسبهم إلى قريش [3] ومنهم من نسبهم غلى طارق بن زياد [4]وآخرين أرجعوا هذه التسمية إلى سبب خوضهم طرق مجاهل الصحراء [5] ، وهم منتشرون في في الصحراء الكبرى من توات وفزان شمالا إلى تمبكت جنوبا وقد اختلط الطوارق بالسكان الأصليين مما أدى إلى ظهور ملامح جديدة وذلك باكتساب الملامح الزنجية [6]وهم اليوم منتشرون في أكثر من بلد في السودان الغربي انطلاقا من مالي وموريتانيا وشمال النيجر و شمال تشاد و جنوب غرب ليبيا و جنوب شرق الجزائر وبوركينافاسو .وهم ثلاثة فروع أساسية : طوارق ناجَّار، وأهجَّار ،وأدرار نيفوغاس وهي موزعة من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي [7]، والطوارق يتكلمون لغة مشتركة تعرف باسم تاماشاغ [8]وهي إحدى فروع لغة البربر ، أما أما نمط معيشتهم فهو عبارة عن اتحادات قبلية لها زعيم يدعى أمينوكال[9] له سيادة اسمية في

1 – عدنان مرادن المرجع السابق ،ص113 .

2 – أكناته ولد النقره ، الطوارق من الهوية إلى القضية ،المركز الموريتاني للبحوث والدراسات الإستراتيجية ،نواقشوط 2014،ص38.

3 – محمد سعيد القشاط ، التوارق عرب الصحراء الكبرى ،ط2، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء ، القاهرة ،1989 ، ص ص 17-30 .

4 – الهادي المبروك الدالي ، االتاريخ السياسي ....،المرجع السابق ، ص216 .

5 – بوفيل ، المرجع السابق ، ص97.

6 – إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى وشواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983 ، ص176-177.

7 – إسماعيل العربي ، المرجع السابق ،ص 175 .

8 – التماشاغ هي اللغة التي يتكلمها الطوارق وهي مشتقة من النوفاتية التي يتكلم بها أهل توات ينظر :

E.Daumas.(le général) :Mœurs et Coutumes de l'Algérie, librairie de l'Hachette ,Paris,1864,4ed ,p406.

9 – يعتبر أمنوكال هو الزعيم ومعنى هذه الكلمة هي مالك الأرض وهذا ما يجعله يمنح الأراضي للعشائر ولا يمكن الدخول لهذه الأراضي إلا بإذنه ونقصد هنا أراضي الرعي .ينظر : إسماعيل العربي ، نفس المرجع السابق ، ص178 .

داخل نطاق قبلي وتقسم القبيلة إلى شرفاء(نبلاء) وأتباع وعبيد من الزنوج وهذا خاصة عند الرحل منهم وقد حافظ الطوارق على تقاليدهم كاحتفاظهم باللثام ، وكانت هجرتهم إلى بلاد السودان الغربي حسب الدراسات مع بداية الفتح الإسلامي في القرن الأول الهجري السابع الميلادي واستمر انتشارهم حتى استقروا في حوض النيجر واستولوا على هذه الأراضي و افتّكوها من السكان الأصليين [1].

لقد كان للطوارق دور بارز في نشر الإسلام في جنوب الصحراء أثناء التواجد المرابطي وكثيرا ما نجد ذكر الملثمين في المصادر العربية وغير العربية عندما تتحدث عن انتشار الإسلام في بلاد السودان الغربي وفي المجال التجاري فقد كانت معظم القوافل الوافدة لتمبكتو بقيادة الطوارق لأنهم تحكموا في معظم المسالك وخاصة بعد زوال دولة المرابطين. وقد حاول الطوارق في الكثير من المرات الانفصال عن السلطة المركزية وحاربوا أكثر من مرة دولة مالي الإسلامية قصد الخروج عنها واستمر ذلك حتى أثناء التواجد المغربي في بلاد السودان الغربي ولكن سرعان ما تخلوا عن ذلك وتعاونوا مع السلطة السعدية للحفاظ على مصالحهم الاقتصادية في المنطقة .وكانت نهاية السعديين في بلاد السودان الغربي إيذانا لهم بالسيطرة على الحاضرة تمبكتو وتأسيس دولتهم .[2]

– **القبائل العربية** : تمكن العرب من اجتياز الصحراء الكبرى و لم يجدوا أية صعوبة في ذلك لكون الصحراء بيئتهم الأصلية فدخلوا إلى المناطق الواقعة جنوب الصحراء الكبرى عن طريق التجارة والهجرات[3] التي توافدت على بلاد المغرب بشكل عام ومنها إلى بلاد السودان الغربي وسرعان ما استقر البعض منهم في بلاد السودان الغربي فحدثت مصاهرات بينهم وبين

1 – حسن عيسى عبد الظاهر ،الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني في مطلع القرن الثاني عشر الهجري التاسع عشر الميلادي ،جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ،المملكة العربية السعودية ،1981،دت،ص ص 126– 132 .

2 – السعدي ، المصدر السابق ،ص27 .

3 – يرجع التواجد العربي بالشكل الكبير في بلاد السودان الغربي إلى الهجرات العربية وخاصة هجرات بنو هلال حيث لم يصبح الأمر متعلق بالتبادل التجاري وانما وصل الأمر إلى استقرار جماعات من العرب والبربر في غرب السودان ينظر: جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، دار الفكر العربي ،1996م، ص151 .

السكان الأصليين .لكن التواجد العربي تزايد بشكل كبير مع دخول الإسلام إلى هذه البلاد وقد أشارت المصادر العربية إلى ذلك وعلى رأسها البكري حين تحدث عن مملكة غانة فذكر قوم عرفوا بالهنيهين وهم لا يشبهون أهل البلاد[1] وقد توغلت العديد من القبائل العربية في بلاد السودان الغربي واستقرت بها وهذا ما نجد امتداداته باقية إلى يومنا هذا حيث تفتخر العديد من القبائل السودانية بنسبها العربي وهذا ما أشرنا إليه سابقا مع القبائل السابقة حيث وقع جدل كبير في نسب العديد منها [2]وهم موزعون اليوم في السنغال ومالي والنيجر [3].

ومن خلال كل ذلك فإن ظهور الدول الإسلامية في بلاد السودان الغربي يدين إلى حد كبير لذلك التأثير العربي على هذه الممالك كما سبق وأن أشرنا.

1 – البكري ، المصدر السابق ،ص 179 .

2 – من أهم القبائل العربية المتواجدة في بلاد السودان الغربي تبرازة ،بركنة ،أولاد دليم ،الرقيبات ،المشطوف ،جرجنكة ،كونتة ،البرابيش ،الأنصار ،أولاد سليمان ،أهل أروان ،أولاد أعيش ، الفولانيون ،أهل تارودييني ، السكاكنة ،أولاد غلان ،أولاد يعقوب ، الحساونة ...ينظر :طرخان ، المرجع السابق ،ص19.

3 – قدوري عبد الرحمن ، المبادلات التجارية بين بلدان المغرب ومنطقة غرب إفريقيا بين القرنين 10و11هـ/16و17م ودورها في ترسيخ الثقافة الإسلامية ،أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث ، قسم التاريخ ،جامعة تلمسان ،الجزائر ، 2017-2018 ،ص31.

ثالثا– الخلفية السياسية للسودان الغربي:

يقول ابن خلدون في مقدمته : " اعلم أن هذه الأطوار طبيعية للدول فإن الغَلبَ الـــذي يكون به الملك إنما هو بالعصبية وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس ، ولا يكون ذلـــك غالبا إلا مع البداوة فطور الدولة من أولها بداوة ثم إذا حصل الملك تبعه الرّفَهُ واتساع الأحوال والحضارة إنما هي تفنن في الترف وإحكام الصنائع المستعملة في وجوه ومذاهبه مـــن المطـــابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله ..."[1] انطلاقا من هذا القول نبدأ حديثنا عن الممالك والدول التي قامت في بلاد السودان الغربي والتي صنعت تاريخ هذه المنطقة وفق عوامل ديناميكية تتداخل فيها العوامل الاقتصادية والنفسية والأخلاقية جملة واحدة وهـــو يبرر سقوط الدول وفق الحتمية التاريخية وهذا ينطبق على الدول التي توالت في هذه البلاد.

انطلقت الممالك التي قامت في بلاد السودان الغربي من بيئتها الصعبة المتميزة بالبـــداوة والبساطة [2]إلى ممالك قوية نسجت مجموعة من العلاقات السياسية والاقتصادية وحتى الثقافية مع دول العالم الإسلامي في الشرق والغرب ، فأخرجت منطقة جنوب الصـــحراء مـــن عزلتـــها الجغرافية التي كانت عليها وصنعت تاريخها المجيد خلال العصر الوسيط في ظل الدين الإسلامي الذي كان سبيلها إلى الربط بالحضارة العالمية التي ينشدها الإسلام .وهذا ما ســـنعمل علـــى توضيحه من خلال ذكر موجز لأهم الممالك التي قامت في بلاد السودان الغربي .

1- **مملكة غانة:** (**ق3م–13 م**) لقد مثلت غانة إحدى أهـــم الإمبراطوريـــات القومية في غرب إفريقيا وهي أقدمها على ما يبدو في بلاد السودان الغربي قامت شرق السنغال وجنوب موريتانيا، وشغلت جزءا من مالي وربما غينيا[3]، يرجح أن مملكة غانة قامـــت خـــلال القرن الثالث الميلادي و امتد عمرها حتى القرن الثالث عشر[4]، ففي الوقت الذي أفل فيه نجـــم

1 – ابن خلدون /المصدر السابق ،ج1،ص216.

2 – مبخوت بودواية، المرجع السابق،ص 35.

3 – لطيفة بن عميرة، الرحلة التجارية بين تلمسان ومماليك بلاد السودان الغربي، حولية المؤرخ العدد الخامس، جوان 2005،ص 05.

4 – عبد القادر زبادية ،الحضارة العربية... المرجع السابق،ص 17.

الحضارة الكوشية[1] في مناطق شرق إفريقيا، بدأ نجم حضاري آخر في الظهور على الجانب المقابل وهي إمبراطورية غانة[2]، وهي أول إمبراطورية قامت بالسودان الغربي[3]، اسم غانة في الأصل لقب ملوكها ثم أطلق على كل المملكة، وهي ليست غانة الحالية ،وقد فرضت سلطانها وامتدت سلطتها على الأقاليم المجاورة، بفضل تمكن شعبها من استعمال الحديد كسلاح[4]، قبل غيرهم من شعوب إفريقيا الغربية، أما ازدهارها الاقتصادي فقد قام على التجارة وعلى موقعها الاستراتيجي[5].

يقول ابن الوردي في شأنها[6]:" أرض غانة هي شمالي أرض مغراوة وهي مدينة سميت باسم إقليمها، وهي أكبر بلاد السودان، وأوسعها شجرا وهم على سعة من المال وهي مدينتان في ضفة النيل يقصدها التجار من سائر البلاد وأرضها ذهب ظاهر، ولهم في النيل زوارق عظيمة...ولها ملك ضخم في الجنود والعدد، ولها ممالك عديدة...، ويقال أن ملكها مسلم"[7].

وقد ذكرت مدينة غانة عند كثير من المؤرخين والرحالة من بينهم ابن حوقل فقال عنها:" أيسر ما على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من أموال..."[8].

---

1 – مملكة كوش :أطلق اسم كوش من قديم الزمان على بلاد النوبة العليا والسفلى حيث قامت حضارة وادي النيل النوبية الكوشية وكانت لها ثلاث عواصم كل واحدة امتداد للأخرى وهي كرمة ونبتة ومروي .ينظر :سامية بشير دفع الله ،تاريخ الحضارات السودانية القديمة منذ أقدم العصور وحتى قيام مملكة نبتة ،ط2،دار جامعة السودان المفتوحة للنشر ،2011،ص318 .

2 – جوان جوزيف، الإسلام في المماليك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء،ط1، ترجمة مختار السويقي، دار الكتاب المصري، القاهرة، 1984،ص 47.

3 – الهادي مبروك الدالي، المرجع السابق،ص 21.

4 – عبد القادر زبادية، الحضارة العربية ...،ص 12.

5 – عبد القادر زبادية،مملكة سينغاي، ،ص 12.

6 – كلمة غانة تعني باللغة المحلية الساراكولة القيادة العسكرية، تم تحويل الاسم إلى عاصمة مركز القيادة ثم أطلق على المملكة، وغانة بمعنى مدينة، ذكر عدد من المؤرخين كان لهم إلمام ببلاد الزنوج، بفتح العين المعجمة بعدها ألف، ثم نون مفتوحة في الآخر وهي ليست غانة الدولة الحالية، ذلك أن غانة القديمة كانت تقع على أرض جمهورية مالي الحالية بالقرب من حدود موريطانيا، ينظر: مبخوت بودواية،العلاقات.....، المرجع السابق،ص 35.

7 – ابن الوردي، المرجع السابق،ص 77.

8 – ابن حوقل، المصدر السابق،ص 98.

وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو، وهي أكبر بلاد السودان قطرا، وأوسعها متجرا، يلجأ إليها التجار من سائر بلاد المغرب الأقصى وأهلها مسلمون[1].

وغانة بلد كبير (إمبراطورية) وردت بتلك الصفة عند عدد كبير من المؤلفين[2] وقال فيها ياقوت الحموي:" غانة كلمة عجمية لا أعرف مشركا من العربية وهي مدينة كبيرة في جنوبي بلاد المغرب متصلة ببلاد السودان يجتمع إليها التجار منها يدخل المفازات إلى بلاد ولولاها لتعذر الدخول إليهم لأنها في موضع منقطع عن الغرب عند بلاد السودان ومنها يتزودون إليها[3].

وقال فيها صاحب كتاب الاستبصار" مدينة غانة مدينتان إحداهما يسكنها الملك وأخرى يسكنها الرعية والتجار والسوقة، وفي المدينة جامع كبير ومساجد كثيرة، وفيها أئمة المؤذنون والفقهاء والعلماء، وحواليها آبار عذبة منها يشربون..."[4].

ذكرها البكري وقال فيه شأنها:" غانة سمة لملوكها واسم بلد الأوكار واسم ملكهم وهي في سنة ستين وأربعة ماية تكامنين...."[5]،كما ذكرها ابن خلدون وقال في شأنها: "...اتصل ملكهم من البحر المحيط وغانة بالمغرب إلى بلاد التكرور في المشرق..."[6].

---

[1] – أبو عبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، ص 38.

[2] – مبخوت بودواية: نفس المرجع السابق،ص36.

عرفت غانة بهذا الاسم بالنسبة إلى عاصمتها مدينة غانة GHANA أطلقها المؤسسون الأوائل وهم المهاجرون من البرقاويين الليبيين، والتجار الواردين على المنطقة من الشمال الإفريقي نظرا لأنها كانت غنية بالذهب، ينظر: الهادي مبروك دالي، التاريخ السياسي .....، المرجع السابق،ص 22.

[3] – ياقوت بن عبد الله الحموي، المصدر السابق ،ص 184.

4 – مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار" وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب" نشر وتعليق، سعد زغلول زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، بغداد، 1986،ص220.

5 – أبو عبيد البكري، المصدر السابق،ص 174.

6 – عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق،ص 267.

أما المصادر الأجنبية فقد ذكرتها باسم مملكة واغادو(Wagadou) نسبة إلى مدينة واغادوجو وإلى أسطورة الثعبان المقدس واغادجو[1]،وأرض غانة تعني باللغة الماندية أمير الجيوش أو قائد الجيوش .[2]

لقد اختلفت المصادر حول أصول سكان مملكة غانة ولكن أجمعت على أن ملوكها الأوائل هم بيض نزحوا من الشرق من بلاد آشور وبابل[3] .

وقد قسم المؤرخون مرحلة الحكم في غانة إلى مرحلتين أولها مرحلة حكم البيضان، والمرحلة الثانية مرحلة حكم السوننك[4]، وقد دام حكم البيض حوالي 150سنة وذلك بداية من 300م حيث تداول على عرش غانة من البيضان حسب السعدي 22 ملكا من سنة 300م إلى 622 م أو 720م وبعد البعثة اثنان وعشرون ملكا حسب السعدي [5] ، وقد حكمت أسرة سيسي من السوننكي بعد القضاء على حكم البيض وقد تطورت مملكة غانة في عهد هذه الأسرة وبلغت ذروة اتساعها في القرن الرابع الهجري / العاشر إلى أواخر القرن الحادي عشر الميلادي[6] وامتدت من الساحل شمالا وإلى غاية منطقة التكرور، وإلى مناطق وجود

1- Delafosse (Maurice) : Haut Sénégal-Niger Le pays ,Les peuples , Les langues , l'histoire ,Les civilisations .Paris, 1912,T2,P26.

2 – جوان جوزيف ، المرجع السابق، ص48 .

3 – ك .مادهو بانيكار ، المرجع السابق ، ص64.

4 – أورد المؤرخون أن أول حكومة حكمت غانة من البيض، كانت من المهاجرين من شمال إفريقيا من برقة بليبيا ترجع ترجع إلى حوالي القرن الأول ميلادي إلى غاية القرن الثمن ميلادي لتتمكن خلاله أسرة من السوننك وهي أسرة سيسي من طرد أسرة البيض الحاكمة، ينظر: الهادي مبروك دالي، التاريخ السياسي..... ، المرجع السابق،ص 25-26.

5 – السعدي ، المصدر السابق ، ص9 .

6 – لقد تمكن الحكام الجدد لغانة من السوننك من ضم أودغشت الإسلامية سنة 990م/380ه،وأصبحت عاصمة لهم وفرضوا على الوافدين إليها إتاوة وضموا ولاتة ،كوغة ،ألوكن ،وسامة ،أبنار ينظر :ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج2،ص199، الهادي مبروك دالي، نفس المرجع السابق،ص ص 25- 28.

وجود الذهب في بلاد الونغارا (الونقارة)[1] ، وكذا أرض اللملم من الكفار المهملين[2] وقد اتخذت من كومبي صالح[3] عاصمة لها.

لقد تعددت الديانات بها كالإسلام والوثنية، حيث كانت هناك مدينتان واحدة للمسلمين وهي عامرة بالمساجد والعلماء ، أما الثانية فهي مدينة الملك والتي عرفت بالغابة لأنها كانت محاطة بالأشجار وهي مسكن الكهنة والوثنيين والسحرة ، ورغم ذلك كان بها مسجد للمسلمين الذين يفدون على الملك ،أما الملك فكان له الكتاب والقضاة والمترجمين وأصحاب بيت المال من المسلمين[4]وهذا أكبر دليل على مدى تعايش الديانات في هذه المملكة .

أما نظام الحكم فقد تميز بالاستبداد وسيطرة الملك على كل مقاليد السلطة إلا أنه كان عادلا وحسن السيرة ومحبا للمسلمين ،وقد ذكر الإدريسي حرص ملك غانة على إشاعة العدل في مملكته من خلال خروجه إلى السوق والاستماع للرعية حتى أنه كان يخرج إلى الرعية مرتين في اليوم[5] ، وكغيره من المجتمعات الإفريقية الوثنية كان نظام الأمومة هو السائد في مملكة غانة حيث يورث ابن الأخت وليس الابن[6].

أشاد بمكانتها التجارية الكثير من الرحالة والمؤرخين فقد قال فيها اليعقوبي:" مملكة غانة ملكها عظيم الشأن، في بلاده المعادن والذهب"[7]، كان أهل غانة فيما سلف من الزمان

1 – هي عبارة عن جزيرة صغيرة في نهر السنغال ، طولها يبلغ 300 ميل وعرضها 150ميل ، وهي معروفة بثروتها الذهبية الكبيرة .ينظر : Jacque Giri :Histoire économique du Sahel : Des Empire s à la colonisation ,karthala, éditions,Paris, , 1994 ,P89.

2 – الإدريسي ، المصدر السابق ، ص23 .

3 – كومبي صالح كانت واسعة الأرجاء أنيقة المباني بها أسواق عديدة، تزينها أشجار النخيل والحناء، وكانت تعد من أنشط المراكز التجارية بالمملكة بالإضافة إلى بعض المدن المجاورة كمدينة أدغشت التي كانت ملتقى القوافل التجارية وتبعد مدينة كومبي صالح بـــ 205 كلم إلى الشمال من مدينة باماكو الحالية، ينظر: مبخوت بودواية، المرجع السابق،ص 37.

4 – البكري ، المصدر السابق ،ص175 .

5 – الإدريسي ، المصدر السابق ،ص24.

6 – البكري ، نفس المصدر السابق ، ص175 .

7 – اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، مج1، المصدر السابق، ص69.

متمسكين بالكفر إلى عام 469ه عند خروج يحي بن أبي بكر أسلم أهل غانة وحسن إسلامهم،وأصبح عندهم علماء وفقهاء[1].

وقد ذكرها البلاذري وقال في شأنها:" ومن أرقلان[2]، إلى غانة ثلاثين مرحلة "[3]، اختلف المؤرخون حول نشأة مملكة غانة الإسلامية ، وأرجح أقوالهم أنها في سنة 622ه وبلغت أوج مجدها، وقد ضربت العاصمة بنصيب كبير من الحضارة، لها جيش مؤلف من اثني عشرة ألف محارب، وكانت مقسمة إلى قسمين عظيمين: القسم الإسلامي والقسم الوثني، وكان يعيش الطرفان جنبا إلى جنب في أمن وطمأنينة[4].

نشطت الحركة التجارية في غانة نتيجة لثرائها بالذهب[5]، يقول الهمداني في شأن ذلك:" إن بلاد غانة ينبت فيها الذهب نباتا في الرمل، كما ينبت الجزر ويقطف عند بزوغ الشمس..."[6] نشطت العلاقات بينها وبين سجلماسة[7] قائمة حتى القرن 7ه/13م، حيث وصلت إلى مستوى عال من الازدهار والرقي[8].

1 – عبد الهادي التازي، التاريخ الديبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم عهد المرابطين،مج5، المملكة المغربية، 1987، ص19.

2 – أرقلان: هي مدينة فيها قبائل مياسر وتجار أغنياء يتجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة وبلاد ونقارة، فيخرجون منها التبر ويضربونه في بلادهم، ينظر: أبو العباس البلاذري، فتوح البلدان، حققه عبد الله أنس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987،ص 160.

3 – البلاذري ، المصدر السابق ، ص 161.

4 – آدم عبد الله الإلوري، موجز تاريخ نيجيريا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1965،ص 152.

5 – عيسى بن ذيب، التجارة في عصر المرابطين(480-540ه/1056-1145م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، القاهرة، 1990،ص 135.

6 – أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني، البلدان، مطابع بريل، ليدن، 1886،ص 87.

7 – سجلماسة مدينة قديمة، يرجع بناءها إلى أحد الضباط الرومان، تعني في اللغة الرومانية خاتم النصر، تقع في سهل بجانب زير، لها أسوار عالية، جميلة مازالت آثارها قائمة، كانت هذه المدينة زناتية قبل أن يستولي عليها يوسف بن تاشفين، تمر بها قوافل الراحلة إلى السودان، كان يوجد بها مساجد ومدارس، في كل حي، ينظر: مارمول كربخال، المصدر السابق، ص 154.

8 – إسماعيل العربي، الصحراء الكبرى ، المرجع السابق،ص 286.

ويرجع سبب ازدهار التجارة في مملكة غانة هو سيطرتها على مناجم لذهب وعلى المسالك المؤدية إليها والظاهر أن هذه المناجم تم إحاطتها بسرية كبيرة كما أشارت مختلف المصادر ولكنها رغم ثرائها بالذهب إلا أنها كانت تفتقر للملح الذي كان يصلها من الشمال من مناجم تغازة[1] التي كانت من بين أهم مصادر بلاد السودان الغربي للملح .

لقد كان لدخول المرابطين إلى مملكة غانة بداية جديدة لها حيث كانت أحد أهم المنافذ لدخول الإسلام إلى بلاد السودان الغربي حتى وإن كان الإسلام قد وصل إلى غانة قبل المرابطين حيث أشارت المصادر إلى أن الإسلام وصل إليها مع بداية الفتح[2]، ومع ذلك فقد وطد المرابطون الإسلام في غانة بعد دخول كومبي صالح العاصمة سنة 469 ه/1076م ولكن انسحاب المرابطين من غانة بسبب الأزمات التي عرفوها في شمال بلاد المغرب وبلاد الأندلس ،سمح ببروز قبائل السوننك من جديد محاولين إعادة بسط هيمنتهم لكنهم واجهوا قوة جديدة في المنطقة وهي قبائل الماندينغو[3] التي ستؤسس مملكة جديدة في المنطقة وهي مالي .

لا تزال أبحاث المؤرخين لم تصل إلى معرفة الأسباب الحقيقية لضعف مملكة غانة[4]، رغم ما وصلت له من نمو وازدهار من تجارتها للذهب الذي كان يستخرج من مناجم جنوب غانة، ليباع في مناطق البحر الأبيض المتوسط[5]، سوى هجوم المرابطين عليها سنة445ه/1054 سنة445ه/1054 م واستولوا على مدينة أودغست[6] سنة 455 ه/ 1055م[7]، ولكن ضعف ضعف المرابطين في بلاد السودان الغربي كان سببا في ظهور النزاعات القبلية التي أضعفت من

1 – جوان حوزيف ، المرجع السابق ، ص52 .

2 – القلقشندي ، المصدر السابق ، ج5،ص284 .

3 – الهادي ، المبروك الدالي ، التاريخ السياسي ....،المرجع السابق ،ص47 .

4 – عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي...، المرجع السابق،ص 20.

5 – ب.س لويد، إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي، ترجمة شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، يناير 1978،ص 28.

6 – أودغست واحة تغداواست في تاغنت، وكانت أهم محطات القوافل، وسمها اليعقوبي " غسط " وأدغست مدينة بين الجبلين جنوب سجلماسة بها أسواق جليلة وهي مصر من الأمصار جليل، أهلها مسلمون يقرؤون القرآن ويتفقهون في الدين لهم مساجد، وجماعات أسلموا على يد المهدي عبيد الله، ينظر: مبخوت بودواية، المرجع السابق،ص 41.

7 – الهادي مبروك دالي، المرجع السابق، ص 65.

طرف المرابطين ،كما أن انتشار الفوضى وانعدام الأمن التجاري بالخصوص وانتشار ظاهرة قطاع الطرق[1]،فكانت هذه الأوضاع دليل على بداية زوال غانة لترثها فيما بعد في منطقة النيجر العليا مملكة مالي وسنغاي[2] ومنذ سنة637 ه /1240م، أصبحت مملكة غانة، تحت سيطرة مملكة مالي بعد سقوط العاصمة كومبي صالح في أيدي حكام قبائل الصوصو[3]،والذين سيخضعون لقبائل الماندينغو المؤسسة لدولة مالي الإسلامية .

2- مملكة مالي الإسلامية :

بعد استفحال أمر شعب الصوصو الوثنيين الذين سيطروا على غانة وبسطوا نفوذهم على عدة قبائل مسلمة واستعبادهم[4] في بلاد السودان الغربي ، برز شعب الماندينغ المسلم الذي تصدى لملوك الصوصو الظالمين الوثنيين ، وقد عرفت إمارة الماندينغ عدة ملوك أشهرهم موسى كايتا وهو المؤسس الفعلي لعائلة كايتا الحاكمة ،لكن هذه الإمارة ستعرف تحولا كبيرا في القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي ، حيث بدأت أطوار الدولة الفتية تتشكل مع الملك ناري فامغان الذي حكم بين(615ه-628ه /1218م-1230 م)والذي كان أصغر أبنائه الاثني عشر "سونديانا "[5]حيث سيكون هذا الابن هو مؤسس دولة مالي بعد أن قضى على مملكة الصوصو وكانت سنة 638ه/1240م بدايةالإمبراطورية التي اعتلاهاسوندياتا (638 - 653ه/1240 -1255م) بعد أن حارب الصوصو في الجنوب و صنهاجة والأعراب في

---

1 - Tidiane (n'diaye), La longue marche des peuples noirs ,Edits :publibook ,Paris,2007,P28.

2 – عبد القادر زبادية، الحضارة العربية...، المرجع السابق،ص 415، عرفت مملكة غانة بنشاطها التجاري داخليا وخارجيا وقد أوضح ذلك صاحب كتاب الحلل السندسية في قوله:" يصاد بمدينة سبتة شجر المرجان الذي لا يعد له صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار، بمدينة سبتة سوق لتفصيله، وحكه وصنعه خرزا وثقبه وتنظيمه، ومنها يتجهز إلى سائر البلاد، وأكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان"، ينظر: مؤلف مجهول، الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية، بقلم شكيب أرسلان،ج1، ط1، المطبعة الرحمانية، مصر، 1936،ص 65.

3 – عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي... ،المرجع السابق،ص 20.

4 – لقد ذكر ابن خلدون مسألة إسلام أول ملوك الماندينغ الذي أدى فريضة الحج وكان يدعى "برمندانه" وهو من عائلة عائلة كايتة ، ينظر : ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج5،ص496 .

5- Cissé Tata youssouf ,Wakamissoko ,Lagrande geste du Mali,des origines à la fondation fondation de l'empire Editions :karthala, Paris 2007,P223.

الشمال وأخضعها فتوسع في أراضي مملكة غانة ونحو الشرق حتى بلغت أواسط القارة الإفريقية بمحاذاة القبائل الوثنية وباتجاه الشمال إلى غاية بلاد البربر ومن جهة الغرب البحر المحيط وقد حدد القلقشندي عن مساحتها بأربعة أشهر طولا أو أزيد وعرضها مثل ذلك وقد حمل أمراء الماندينغ لقب "منسا" ومعناه السلطان [1].

أما مالي فهي تمتد على طول وادي النيجر الأعلى في مسافة لا تقل على ثلاثمائة فرسخ، يحدها من الغرب الأطلسي، ومن الشرق بلاد البورنو وشمالا الصحراء الكبرى وجنوبا الغابات الاستوائية، وقد اشتملت على خمس أقاليم كل منها مملكة مستقلة، واجتمعت كلها تحت ملك صاحب مالي[2].

وأول من ذكر مالي هو الرحالة البكري وذلك في قوله:" مملكة كبيرة أزيد من مسيرة ثمانية أيام سمة ملكهم...وهم يقاتلون بالنشاب وراءه بلد إسمه ملل وملكهم يعرف بالمسلماني وإنما سمي بذلك لأن بلاده أجدبت عاما بعد عام "[3].

وقال في شأنها ابن فضل الله العمري:" هذه المملكة في جنوب نهاية الغرب متصلة بالبحر المحيط، قاعدة الملك بها مدينة يتي، وهذه المملكة شديدة الحر، قشفة المعيشة، قليلة أنواع الأقوات، وأهلها طوال في غاية السواد، وتفلفل الشعور، وغالب طول أهلها من سوقهم لا من هياكل أبدانهم، وملكها الآن اسمه سليمان أخو السلطان موسى منسى، بيده ما كان قد جمعه أخوه مما فتحه من بلاد السودان، وأضافه إلى يد الإسلام، وبنى بها المساجد، والجوامع، والمآذن وأقام به الجمع والجماعات والآذان، وجلب إلى بلاده الفقهاء من مذهب الإمام مالك رضي الله عنه، وبقي بها سلطان المسلمين، وتفقه في الدين..."[4].

1 – القلقشندي ، المصدر السابق ،ج5 ،ص293 ،محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ،ج1، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، 1982،ص 46.

2 – مبخوت بودواية، المرجع السابق،ص 42.

3 – البكري، المصدر السابق،ص178.

4 – العمري، المصدر السابق ،ص 105.

وقد أورد ابن خلدون مملكة مالي في حديثه عن مملكة غانة وقال:" افتتح بلاد كوكو[1]، وأصارها في مملكته مالي، واتصل ملكهم من بحر المحيط وغانة بالمغرب..."[2].

كما ذكرها الحسن الوزان في قوله:" ...تمتد هذه المملكة على طول أحد فروع النيجر في مسافة نحو ثلاثمائة ميل متاخمة المملكة السابقة من جهة الشمال، والقفر مع الجبال الوعرة من جهة الجنوب، تحدها غربا غابات مهجورة تمتد إلى المحيط وشرقا إقليم كاغو، وفي هذه البلاد قرية عظيمة تضم حوالي ستة آلاف كانون وتسمى مالي..."[3].

قامت مملكة مالي[4] على أساس تجانس عنصري وروحي، فأغلب قاطنيها من قبائل السراكولي وأقوى الأديان كان الدين الإسلامي على المذهب المالكي ، والقوة الرئيسية فيها العلماء الذين كانت لهم الكلمة النافذة في البلاط وفي أوساط القبائل[5].

وقد تعاقب على حكم مالي عدة ملوك، ابتداء من سوندياتا المؤسس ومنسا موسى وأخاه سليمان فكان لكل واحد منهم سمته الخاصة في إرساء دعائمها ،و استتباب الأمن في كل أرجائها[6].

---

1 – هو اسم أمة وبلاد من السودان ،وقد ذكر الحموي نقلا عن المهلبي كوكو من الإقليم الأول وعرضها 10درجات وملكهم يظاهر رعيته بالإسلام وأكثرهم يظاهر به ...ينظر : الحموي ، المصدر السابق ،ج4، ص495 .

2 – ابن خلدون، المصدر السابق، ج6،ص 267.

3 – الحسن الوزان، وصف إفريقيا، المصدر السابق ،ج1، ص 164.

4 – يمتد هذا الإقليم بمسافة نحو مائة فرسخ، طوال شطر من نهر النيجر وتجاورها غينيا جنوبا، والصحراء مع سلسلة من الجبال شمالا وإقليم كاو قبلة والمحيط غربا، لا يوجد في الإقليم سوى قرية كبيرة تسمى مالي، يكاد يبلغ عدد سكانها ستة آلاف نسمة، وهي التي اتخذها الحاكم مقر الإقامة، يوجد بمالي كثير من الصناع والتجار والمستوطنون الأجانب الذين يحضون بعناية خاصة ويتمتعون بامتيازات لا يتمتع بها غيرهم، أما من الناحية الفلاحية، فإن الإقليم يتوفر على أراضي خصبة تنتج الوفير من الحبوب والقطن وترعى فوق مراعيها، قطائع هامة من الأغنام، ولكل هذه الخيرات تضاف إلى التجارة فتجعل الأهالي في ثراء ورخاء، لم تكن هذه النعم تنسيهم أمور دينهم، إذ يعمرون المساجد ولهم علماؤهم وفقهاؤهم الذين يعلمونهم اللغة العربية، ويلقنونهم العلوم الدينية وغيرها، ويتميزون بالذكاء والحذاقة، وهم الذين تلقوا قبل غيرهم تعاليم الإسلام، ينظر: مارمول كربخال، المصدر السابق،ص 200-201.

5 – محمد الغربي، المرجع السابق،ص 47.

6- Atallah Dhina, les Etats de l'Occident Muslman aux XIII^{e}, XIV^{e} et XU^{e} siècles,O,P,U, Algérie,S,D,p.p 365-372.

مرت إمبراطورية مالي بثلاثة أدوار بارزة:

أ- دور التأسيس: يمتد بين(622ه-653ه/ 1225م-1255م)، وفي هذا الدور امتد حكم مالي على كل مملكة غانة القديمة التي ألحقت بمالي نهائيا سنة 1240 م/ 637 هـ، كما بدأت في التوسع باتجاه الشرق وفي الفوتاجالون. وقد عرفت هذه الفترة خوض المؤسس العديد من المعارك لتوسيع مملكته وحصل على مناجم الذهب في بامبوك وبلغ في توسعه حتى أسفل نهر السنغال ونهر غامبيا واستطاع هذا الملك توسيع رقعة مملكته بسبب القوة التي أنشأها والتنظيم المحكم الذي تميز به جيشه وكذا التسليح ،وفي المجال السياسي ولى على كل جزء من مقاطعاته أحد من حلفائه [1].

لقد اختلفت المصادر في ذكر خلفاء سوندياتا إلاّ أن ابن خلدون قد ذكرهم من خلال الروايات التي استقاها من الحجاج الذين التقى بهم وهو ما يعتمد عليه كثير من المؤرخين ومن أشهر الملوك الذين خلفوا الملك المؤسس هو منسا موسى (موسى كنكن) الذي حكم مابين(707 ه- 729 ه /1307-1329م) وقد اشتهر هذا الملك الصالح برحلته إلى الحج سنة 724ه/1323م والتي رافقتها الكثير من الروايات عن حجم الذهب الذي حمله معه وتعداد العبيد والجيش الذي رافقه ،ومدى تأثير هذه الرحلة على أسعار الذهب في أسواق مصر[2].

من الأعمال المهمة التي قام بها منسا موسى هو توسعه في المناطق المجاورة لمملكته حتى وصل إلى المحيط الأطلسي أما شرقا فقد وصل إلى بحيرة تشاد وسعى إلى السيطرة على المسالك التجارية باعتبارها شريان حياة بلاد السودان الغربي فتوسع في بلاد السنغاي ودخل جاو فاتحا[3]،ومن أشهر الأعمال التي قام بها منسا موسى هو فتحه لمدينة تمبكتو وبنى بها دار للسلطنة وسميت "مع دك" وهي تعني في لغة المالنيك دار السلطان وبنا بها صومعة الجامع الكبير[4] .

---

[1]- Rosa Amelia plumelle – Vribe : Traite des blancsTraite des noires :Aspects méconnus et conséquences actuelles ,Editionsl'harmattan ,paris ,2008,p50.

2 - كعت ، المصدر السابق ،ص121 .

3 - ابن خلدون، المصدر السابق ، ج6، ص267 .

4 - السعدي ، المصدر السابق ، ص8 .

ب- دور الازدهار والقوة:

استمر طيلة القرن الرابع عشر تقريبا فعم الأمن في كل الجهات. وقد عرفت مالي في عصر منسا موسى أزهى فتراتها حيث أخرجها من عزلتها ونسج علاقات دبلوماسية مع سلاطين مصر والمغرب الأقصى وتبادل معهم السفراء وبذلك ذاع صيتها وأصبحت ذات شهرة في بلاد المغرب والمشرق وبلاد الأندلس[1] ،وقد وصلت شهرة منسا موسى إلى أوروبا وازداد شغف الأوربيين بإفريقيا لأغراض تجارية في بداية الأمر على الأقل ، وقد ظهرت صورة منسا موسى في أغلب الخرائط التي صدرت في ذلك القرن ومن أقدم الخرائط التي أشارت إلى قلب إفريقيا وأظهرت ملك مالي جالسا على عرشه في زيه الملكي وعلى رأسه التاج وفي يده الصولجان الملكي وترجع هذه الخريطة إلى عام 793 ه/1339 م ،وهي بعد وفاة منسا موسى بقليل ،كانت هذه الخريطة لصاحبها العالم الميورقي " انجلينو دلكرت" [2]، وبعد وفاته سنة 733 ه/1332 م ، خلفه ابنه لمدة قصيرة ليتولى شقيقه عرش المملكة وهو" منسا سليمان " فكان لا يختلف عن منسا موسى في قوته[3] ، وقد دخل الطوارق تحت سلطته وأعلنوا له الولاء مما ساعد البلاد على الاستقرار السياسي والاقتصادي وخاصة بعد الحصول على مناجم النحاس الموجودة في أراضي الطوارق وقد حكم منسا سليمان بين سنتي 724ه و762 ه / 1341م و1360م عرفت خلالها المملكة تطورا لا يقل على فترة أخيه موسى [4].

جـ- دور الضعف: لقد كان موت منسا سليمان إيذانا بدخول مملكة مالي في طور الضعف حيث دب الضعف في أوصال المملكة مع بداية القرن الخامس عشر بسبب التنافس بين أفراد الأسرة الحاكمة الضعاف[5] على السلطة وانتشار الاغتيالات بينهم [1]. وفي ظل هذه

---

1 - يذكر ابن خلدون كيف أن سلطان المرينيين أبي الحسن بعث رسولا إلى ملك مالي منسا موسى وهذا دليل على علو شأن هذه المملكة في عهد هذا الملك .ينظر : ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ،ج7، 554.

2 - طرخان ، دولة مالي.....، المرجع السابق ،ص87 .

3 - ابن حجر العسقلاني ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ،دار الجيل ،بيروت ،لبنان ،1414هـ /1993م ج4،ص384 .

4 - ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ،ج6 ،ص268 .

5 - بعد وفاة منسا سليمان بدأ الانحدار الذي لم يمكن رأبه ،إذ كان خليفته ماري جاطة الثاني مسرفا ومستبدا ومن بعده ابنه موسى الثاني الذي كان هو الآخر ضعيفا ففتح الأبواب لاستقلال الدول والإمارات التي كانت أجزاء من المملكة،=

الأوضاع ظهرت قوة جديدة في جاو أخذت تتوسع على حساب مملكة مالي وسارعت هي الأخرى في الاستيلاء على المدن التجارية المهمة كمدينة جني ، وبذلك انهارت المملكة وتهاوت قوتها لتسقط المدن المالية الواحدة تلو الأخرى بداية من العاصمة نياني التي سقطت على يد ملوك السنغاي سنة 802ه/1400م وبعدها تمبكتو التي استولى عليها الطوارق سنة 838ه/1435 م .

ومن أهم الأسباب التي عجلت في انهيار مملكة مالي ذلك الصراع الذي شكلته سنغاي[2] و كانم من جهة الشرق، وبدأ يظهر نجم سنغاي إلى الوجود في النصف الثاني من القرن التاسع هجري، الخامس عشر ميلادي تحت حكم سني علي الذي حكم عام (889ه/1464م)[3]،وعلى العموم بقيت مالي إلى غاية القرن العاشر الهجري /السادس عشر ميلادي لكنها على مساحة صغيرة إلى أن تم احتلالها من طرف الأسقيا داود ملك سنغايعام 1055ه/1645م.

مهما كانت الأسباب التي أدت إلى انهيار مملكة مالي فإن هذه المملكة تجسدت فيها معالم الحضارة الإسلامية بشكل واضح وجلي، وكان الدين الإسلامي هو سبب قوتها وكان شيوع فساد الأخلاق في مجتمعها وانغماسه في الملذات أكبر عامل لزوالها وسترثها الدول التي ستليها كسنغاي و كانم و بورنو . لقد كانت مملكة مالي إحدى الحلقات التاريخية لنشوء

=وضاعت الأراضي بين الطامعين ولكن أكبر ضربة تلقتها مالي هي سيطرة ستغي على معظم الأراضي المالية و لم يبقى لمالي بذلك سوى إمارة صغيرة هي" كنجابا"وبقيت على هذا الحال إلى غاية دخول الاستعمار الأوروبي .ينظر : مهدي رزق الله ،المرجع السابق ،ص208

[1] – عبد القادر زبادية: مملكة سنغاي...، المرجع السابق، ص 31.

[2] – سنغاي نسبة إلى قبيلة كانت تقطن في نهر النيجر إلى حدود الغابات الاستوائية في سنوات الميلاد الأولى ثم أخذت تنتقل إلى الشمال نحو النيجر، وفي القرن السابع ميلادي كانت تمتد مساكنها حول نهر النيجر بحوالي 150 كلم، وكانت تمتهن صيد الأسماك، وعرفت بمجموعة الصيادين المرتحلين على طول نهر النيجر، وفئة أخرى منها كانت تمتهن الزراعة، وعرفت بمجموعة الفلاحين المستقرين على شاطئ النيجر، ينظر: مبخوت بودواية، المرجع السابق، ص47، أما السنغائيين فيبلغ تعدادهم حوالي 650000 نسمة، يتوزعون بين جمهورية النيجر ومالي، وفي المناطق المحيطة بغاو وتوجد أقليات منهم في أغدس وتمبكتو وحنبي، وهناك أقلية ضئيلة منهم في شمال داهومي، ينظر: عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي...، المرجع السابق،ص 25.

[3] – الهادي مبروك دالي، التاريخ السياسي ،المرجع السابق، ص 85.

وسقوط الدول مع حضاراتها وهذا ما جاء به ابن خلدون في نظرية التعاقب الدوري للحضارات .

3- مملكة سنغاي :

تعد هذه المملكة من أعرق الكيانات السياسية التي ظهرت على ضفاف نهر النيجر ورغم ما بلغته إمبراطورية غانة ومملكة مالي الإسلامية من شأن عظيم، إلا أنهما لم تبلغا ما بلغته إمبراطورية سنغاي من قوة خلال القرنين التاسع والعاشر الهجريين، الخامس عشر والسادس عشر ميلاديين[1].فقد مثلت قمة حضارة بلاد السودان الغربي في هذه الفترة الزمنية وكانت بذلك المركز الحضاري الكبير الذي غطى ازدهار باقي الدول التي ظهرت في هذه المنطقة .

لقد بدأت بذور دولة سنغاي في القرون الأولى الميلادية ،فعاصرت دولة غانة ودولة مالي وقد عاشت وثنية إلى غاية منتصف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر ميلادي، حين اعتنق ملوكها الإسلام، و ذلك قبل مجيء المرابطين وفي سنة (401ه/1010م)،و انتهت هذه المرحلة مع ظهور وسيطرة مملكة مالي الإسلامية على جميع المدن الواقعة على نهر النيجر، وتعاقب على حكمها أكثر من أربعين أميرا، خضعت سنغاي للسيطرة المالية في عهد منسا علي (653-669ه/1255-1270م)، بإنشاء عاصمة جاو وفي عهد منسا موسى عادت سنغاي إلى حاضرة مالي، بعدما استقلت بحكمها الأخوين علي كولن وسلمن نار لفترة وجيزة لم تدم طويلا، ولكن بعد وفاة منسا موسى[2] عام (738ه/1337م)، وحدوث اضطرابات بالمملكة، أخذت تشق عصا الطاعة على سلاطين مالي وتجرأت على مهاجمة الحدود الشرقية للملكة[3].

---

[1] – الهادي مبروك دالي، نفس المرجع السابق، ص 89.

2 – منسا موسى ملك مالي في القرن الرابع عشر ميلادي واصطحب المهندس الليبي عبد الله الغدامسي، وبناه بصحبة أبي إسحاق الساحلي جامعة سنكري على الطراز المغربي الإسلامي، ووصول المهندس عبد الله الغدامسي، إلى أرفع المناصب لدى سلطان مالي بأن أصبح مستشاره الأول، ما هو إلا دليل على مكانة العرب في نفوس حكام وأبناء جنوب الصحراء، وما كان عليه هؤلاء من الحكمة والعلم والدراية حتى أصبحوا مستشرين لهم، ينظر: الهادي مبروك دالي، أدب إفريقيا فيما وراء الصحراء، ط1، دار صنيف للطباعة والنشر بيروت، 1996،ص 07.

3 – الهادي مبروك دالي،التاريخ السياسي والاقتصادي... ،المرجع السابق،ص 95-97.

إن أول ملك حكم سنغاي هو " زا أيمن " ومعناه جاء من اليمن، وهو أول ملك مسلم من أسرة " زا " وهو الملك " زاكوزي "[1] " Za Koussi " وقد ذكر السعدي وهو من أهم المصادر السودانية كيف بايع أهل البلاد" زاكوزي " الذي يقال له حسب كلامهم "مسلم دم "أي أسلم طوعا وكان ذلك سنة 400ه/1010 [2] ، وربما يكون ملوك كوكو(غاو) التي كانت عاصمة السنغاي قد تأثروا بتجارة المسلمين الذين كانت تعج بهم ،وفيهم الدعاة والفقهاء [3]، قد ذكر السعدي ثلاثين ملكا حكموا سنغاي من هذه العائلة وكان آخرهم "زابدا "[4] ، وقد تغير مصير سنغاي بعد ذلك ا بوصول أسرة سني إلى الحكم ، حيث يروي البكري كيفية وصول مؤسسها سني علي وهو "علي كولن" أو "بر علي"[5] إلى العرش . وقد بدأت مرحلة جديدة بحكم أسرة سني[6] ، والفترة المهمة لهذه الأسرة، الفترة الأولى (1464-1492م /868-897ه)، حكم خلالها سني علي الدولة بيد من حديد عرف بقسوته وبطشه وكثرة جرائمه ، وكراهيته للطوارق[7]،حيث هاجمهم وطردهم إلى الشمال من منطقة الساحل وغزا مناطق أخرى تابعة للموشي في الجنوب [8]وقد أشارت المصادر السودانية إلى حجم الجرائم التي قام بها خاصة عندما دخل تمبكتو سنة 872ه/1468 م ،من قتل وحرق

1 – عبد الرحمن السعدي، المصدر السابق ، ص03.

2 – السعدي ،نفس المصدر السابق ،ص5.

3 - Monteil (Vincent), L'islam noir, une religion à la conquête de l'Afrique .Edition s du seuil, France, 1980, P 94.

4 – السعدي نفسه ،ص3 .

5 – يتحدث البكري عن أسر على كولن من طرف منسا موسا وهو شاب صغير إلى جانب شقيقه ولكن لم كبر هذا الأخير فر إلى بلاده وكانت بداية حكمه . ينظر البكري ، المصدر السابق ،ص178 .والسعدي ، نفسه ، ص6.

6 – صوني أوسني والأصح هذه الأخيرة وردت في مختلف المراجع وهي نسبة إلى السنة والاسم الشائع اليوم في تنبكتو، ينظر: محمد الغربي، المرجع السابق،ص54.

7 – قبائل الطوارق: جاءت من الشمال لم تدخل الصحراء، إلا في أول العصر الميلادي، وقد وصلت إلى النيجر حوالي القرن السابع عشر، ويبلغ عددهم اليوم في السودان والنيجر أربعمائة ألف زيادة عما هم في الصحراء، لكل جماعة زعيم يدعى =أمانوكال (Amenocal) يتم انتخابه من قبل رؤساء القبائل، إن سلطته ليست واسعة، ينظر: دنيس بو لم، الحضارات الإفريقية، ترجمة علي شاهين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1984،ص 129و أيضا مبخوت بودواية، المرجع السابق،ص 49.

8 – سيسوكو مودي ،الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر ،تاريخ إفريقيا العام ،مجلد 4،اليونسكو ،1988 ، ص203 .

وهي في نظر السعدي أشد فتكا من أعمال الموشي الوثنيين الـــذين غـــزوا لتمبكتـــو ســـنة 1369م/770ه،وغزو السعديين لها سنة999ه / 1591م[1]و يرجع سبب بطشه بالعلماء في تمبكتو هو موالاتهم لزعيم الطوارق في حربهم ضد سني علي وهذا ما جعله ينتقم منهم بدخوله لهذه المدينة [2].

لقد توفي سني علي سنة 897 ه/ 1492 م وخلفه ابنه " أبوبكر داعو" الملقب "ســـني باري" فثار ضده قائد جيشه وهو محمد توري فقتله وأصبح هو الملك الجديد وتلقب بأســـكيا [3]وهو محمد الأول لتكون بداية عهد جديدي لأسرة جديد وهي أسرة الأســـقيين .ولإضـــفاء الشرعية على ملكه سافر لأداء فريضة الحج وحصل على ذلك أي خليفة بلاد السودان مـــن شريف مكة وبعد عودته أصبح يعرف الأسكيا الحاج محمد . وقد مدحه السعدي:" بالأســـعد الأرشد ، أمير المؤمنين وخليفة المسلمين ، الذي فرج به عن المسلمين الكروب ، وأزال عنـــهم البلاء والخطوب "[4]و قال فيه كعت :"له من المناقب وحسن السياسة والرفق بالرعية والتلطف بالمساكين مالا يحصى ولا يوجد له مثل لا قبله ولا بعده "[5].

لقد عمل الأسكيا محمد على تنظيم دولته تنظيما محكما حيث قسم المملكة إلى ولايات وعلى رأس كل منها حاكم يمثل سلطة السلطان ونظم فرض الضرائب وعلى رأس كل مدينـــة كبيرة عين مسؤولا إداريا لقب ب (كوي)[6]. كما وسع المملكة وغزا منجم غالام الـــذهبي سنة 905ه/ 1500م [7].وفي ميدان العدالة فقد نضم القضاء ونصب القضاة في كل مدنه وحمل وحمل القضاة بسرعة البث في القضايا ، وفي المجال التجاري شجع التجارة وغهتم بالأســـواق

1 – السعدي ، المصدر السابق ، ص 65 .

2 - Delafosse(Maurice) ,Haut Sénégal, Op, cit ,P77.

3 – يشير دولافوس إلى رواية لأصل كلمة أسكيا وهي أن بنات سني علي لما سمعن بخبر اعتلاء محمد توري للعرش صرخن صرخن بلغة السنغاي وقلن سي كيي أ(si kyi a) ومعناها ليس هو أو لن يكون هو، ينظر: Delafosse, Ibid ,P 84

4 – السعدي ، نفس المصدر السابق ،ص ص64-65.

5 – كعت ، المصدر السابق ،ص159 .

6 -Delafosse, Op, cit ,P87.

7 – السعدي ، المصدر السابق ،ص ص 73-75 .

وأمنها ومراقبتها من حيث المكاييل والأوزان ، واهتم بالزراعة وخفف الضرائب على المزارعين واهتم بالعلم والعلماء وأغدق عليهم الأموال والعطايا ومنحهم كل الاحترام والتبجيل[1] .

ونتيجة تولي الأسكيا محمد للملك في سن كبير فان سنه تقدم وأصيب بالعمى في أواخر حياته وتغلب عليه أبنائه فخلعه ابنه موسى وأطاح به يوم الأحد 10 من ذي الحجة سنة 935ه/ 15 أوت 1529 م وتم إبعاد الأب لخارج عاصمة ملكه [2] .وبداية من هذا التاريخ تولى موسى السلطة حتى 941ه/1535م وأعمد في قتل إخوته خلال هذه المدة وتوالى حكم أفراد هذه الأسرة مع كثرة الاضطرابات و الاقتتال والصراع على السلطة وكان الأسقيا إسحاق الثاني هو آخر الأساقي حيث دخل الجيش المغربي السعدي إلى سنغاي بعد هزيمة الأسكيا إسحاق الثاني سنة998 ه/ 1590م واستولوا على "جاو " في موقعة تونديبي بقيادة "جودر باشا "[3] قائد لجيش السعدي وهذا ما سيجعل مملكة ستغاي تدخل تحت التبعية المغربية.

المغربية.

حكم آل أسقيا أكثر من قرن عرفت خلالها مملكة سنغاي أزهى عصورها،حيث عملوا على تنظيم البلاد، وتوسيع حدودها و ربط علاقات خارجية خاصة بالدول المجاورة، ولاسيما دول المغرب الإسلامي[4].

و باختصار عرفت سنغاي ثلاثة مراحل في مجال الحكم:

المرحلة الأولى: من النصف الثاني من القرن الخامس أو السابع إلى منتصف القرن الخامس عشر تقريبا ، حيث كانت خلال هذه المدة تحت نفوذ كل من غانة ومالي .أي بين الانفصال والتبعية .

1 – ذكر لنا حادثة وقعت للأسكيا محمد مع القاضي محمود بن عمر أقيت وهي تبين مدى احترام وتبجيل الأسكيا للعلماء والقضاة بأن كان يتقبل النصح منهم ويرى مايرون .ينظر كعت ، نفس المصدر السابق ، ص160.

2 – كعت ، نفسه ،ص180. السعدي ، المصدر السابق ، ص81.

3 – جودر باشا هو قائد عسكر من اصول مسيحية أندلسية ، قاد الجيش المغربي الغازي لمملكة سنغاي سنة 1590 ،وهو أول باشا بعث إلى سنغاي .ينظر ابن المختار ، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ،تحقيق حماه الله ولد السالم ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،2012،ص233 .

4 – محمد الغربي، المرجع السابق،ص 58.

المرحلة الثانية: بدأت من النصف الثاني من القرن الخامس عشر في عهد سني وانتهت بمجيء الجيوش المغربية.

المرحلة الثالثة: استمرت سنغاي خلالها تحت الحكم المغربي بمظاهر رمزية للحكم التقليدي[1].

فقد أصبحت دولة سنغاي تمثل ومضة حضارية ومركزا للإشعاع الفكري في إفريقيا الغربية بالرغم من أن عائلة أسقيا[2]، لم تحكم سنغاي أكثر من قرن واحد (1493-1591م)، لكنهم وصلوا بالمملكة من حيث القوة والتوسع، إلى حد لم تصله من قبلهم ولا من بعدهم أي دولة من دول بلاد السودان الغربي ، وقد توالى على حكمها في هذه الفترة تسعة حكام[3]، واشتملت على مراكز ومدن ازدهرت فيها الحياة السياسية ،والاقتصادية، والثقافية ذاع صيت سنغاي[4] من خلالها وهي:

أ- **جاو**: تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر على بعد أربعمائة وأربعين كلم إلى الجنوب الشرقي من تمبوكتو[5].وقد ذكرت باسم كاغ وكاغ[6]عند السعدي وكعت وذكرها الوزان كاغو[7] وذكرت عند الباحثين المتأخرين عرفت باسم جاو أو غاو[8] .

لقد أورد لنا الوزان شهادة عن مدينة جاو يقول فيها :" إن هذه المدينة متحضرة جدا أغنياء ياتي إليها عدد لا يحصى من السود حاملين معهم كمية وافرة من الذهب ليشتروا بها

1 – محمد الغربي، المرجع السابق، ص 58.

2 – أصل الأساقي من سراكولين الذين كانوا قد هربوا أمام الفتح المرابطي في القرن الحادي عشر من جنوب شنقيط(موريتانيا الحالية) –منطقة الحوض– ثم تفرقوا في جهات عديدة من السودان الغربي، على أن جلهم تركز حول نهر النيجر واختلط بقبائله، ينظر: عبد القادر زبادية، مملكة السنغاي...، المرجع السابق،ص 28.

3 – عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي...، المرجع السابق،ص 31.

4 – مبخوت بودواية، المرجع السابق،ص 49.

5 – محمد صالح حوتية، توات وأزواد، ج1، دار الكتاب العربي، الجزائر، 2007،ص 42.

6 – كعت ، المصدر السابق ،ص100 .السعدي ، المصدر السابق ،ص20.

7 – حسن الوزان ،المصدر السابق،ج2،ص169.

8– لعماري مرز قلال ،الحياة الثقافية والإسلامية في مملكة سنغاي على عهد الأسقيين (899 -1000هـ/1493-1591 م)، رسالة ماجستير ،قسم التاريخ ،جامعة الجزائر،2، 2009-2010،ص41.

أشياء مستوردة من البربر و اوربا لكنهم لايجدون ابد مايكفي منها لانفاق ذهبهم فيعـــودون دائما إلى بلادهم بنفه او ثلثهم "[1]، من خلال هذه الفقرة يتضح لنا أن جاو كانت قوة اقتصادية وسوق كبير تصلها المنتجات حتى من أوربا ، وأكثر السلع التي كانت تصلها هي الملح والتبر والودع والنحاس المسبوك [2].

وهذا ما ذكره كذلك البكري في كتابه المسالك والممالك حيث قال في شأنها:" مدينة كوغة بينها وبين غانة وعلى مسيرة خمس عشرة مرحلة وأهلها مسلمون وحواليها المشـــركون وأكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس...وحواليها من معادن التبر كثيرة، وهي أكثـــر بلاد السودان ذهبا "[3]،لقد أصبحت جاو عاصمة للسنغاي ابتداء من القـــرن الحـــادي عشـــر ميلادي وكانت قبلها كوكيا[4]، وقد بلغت درجة كبيرة من الازدهار والرقي في القرن السادس عشر ، وهي من أجمل المدن في السودان الغربي وعمرانها أرقى منه في المـــدن الأخـــرى، بهـــا القصور والمساجد ومقبرة أسقيين[5].وبالرغم من مدح الكير من الرحالة والمؤرخين لهذه المدينة في في الجانب الثقافي إلا أنها بقيت مدينة السياسة والمال أما الثقافة فقد فاقتها تمبكتو وجني .

ب- **جني**[6]: تعد ثاني أهم حواضر السودان الغربي بعد تمبكتو وتقع إلى الجنوب الغربي من تمبكتو على مسافة مئتي ميل على أحد روافد نهر النيجر يمتد إقليم جني من مدينة ساي حتى بحيرة ديبو على مساحة سعة عشر ألف كلم[2]، أما المدينة نفسها فدائرتها الحضارية بلغت في

1 - حسن الوزان ، نفس المصدر السابق ، ج2،ص169 .

2 - الاستبصار ،المصدر السابق ،ص222 .و باسل دافيدسون ،افريقيا القديمة تكتشف من جديد ،تر :بدر نبيل ،سعد زغلول ، الدار القومية للطباعة والنشر ،2001،ص59 .

3 - البكري، المصدر السابق،ص179.

4 - عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي...،المرجع السابق،ص 25.

5 - مبخوت بودواية، المرجع السابق،ص 53-54، يعود الفضل في بناء جني إلى برابرة صنهاجة، فقد إختطوها لتكون ملتقى تجار الملح والذهب و لم يلبث تجار الونجار القادمون من الجنوب الغربي أن أقاموا بها وشكلوا صنهاجة، ينظر: محمد صالح حوتية، المرجع السابق،ص 41.

6 - وصفها السعدي وقال عنها:" هي مدينة عظيمة مباركة ميمونة، ذات سعة وبركة ورحمة جعل الله ذلك، في أرضها خلقا وجبلة وطبيعة أهلها التراحم والتعاطف والمساواة ولكن المنافسة على الدنيا كانت من أخلاقهم...وهي سوق عظيمة فيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا وأرباب الذهب..."، ينظر: السعدي، المرجع السابق،ص 11.

العهد المغربي ما يقارب من ميل ونصف. وهي تقع على الضفة اليسرى لنهر بني ،أحد روافد نهر النيجر،وهي على هضبة صخرية وسط سهل فسيح تغطيه المياه في الخريف [1]

اختلف المؤرخون في تأسيسها؛ فنمهم من أرجعها إلى 494ه/1100م[2]، ومنهم من رأى غير ذلك، كان أول بناء بها سد لحفظ المياه، وبعض المباني، كان أول ملوكها "جنـــور " الذي ينتسب إلى قبيلة " مرك "[3]، وبعد وفاته تولى أخوه بعده الملك " كيكمبر " الذي أعلـــن إسلامه في القرن السادس هجري، الثاني عشر ميلادي، واستمرت المدينة في حالة ازدهار، إلى أن دخلها الملك سني علي، ثم دخلها أسقيا الحاج محمد وكان لها وزنها في السودان الغربي[4].

كانت المدينة على شكل بيضاوي تبعا لخط سير النهر وبني السور عند الضفة اليمنى، أما الأحياء فقد تزاحمت في الداخل واتخذت الشكل الدائري حول المســـجد في الوســـط، ثم امتدت نحو الشرق ثم نحو الغرب[5].وقدم الإسلام في هذه المدينة له مبراته إذ أن المدينة كانـــت ذات موقع جغرافي ممتاز مما جعلها تكون مركزا تجاريا مهما للتجارة الوافدة من شمال الصحراء عبر تمبكتو ومن منطقة الغابات جنوبي جني [6]، ومن أشهر ما عرفت به هو وفود التجار الذين يزورون مناجم الذهب وهم محملين بالملح ليبادلوه به وقد بلغت ازدهارها في القرن الســـادس عشر وهذا ما أشار إليه السعدي حيث كانت بها حركة نشيطة للتجارة حتى في أيام الفيضـــان حيث يستعمل التجار القوارب ، حتى أن السعدي بالغ في تعداد القرى التي كانت تكونهـــا [7]، وقد اشتهرت هذه المدينة بكونها مركزا علميا وثقافيا مهما في بلاد السودان الغربي حيث أفرد

1 – و لعل هذا التحصين الطبيعي هو الذي جعلها آمنة وسهل الدفاع عنها من الغزاة ،وجعلها مرغوبة من طرف العلماء والتجار ينظر : مهدي رزق الله ،المرجع السابق ،ص361 .

2 – محمد صالح حوتية، المرجع السابق، ص 41.

3 – مرك: قبيلة من قبائل مالي تقع في شمال البلاد وهي ذات شأن كبير، ينظر: مبخوت بودواية: المرجع السابق،ص 54.

4 – الهادي مبروك دالي،التاريخ السياسي والاقتصادي... ،المرجع السابق، ص 118.

5 – محمد صالح حوتية، المرجع السابق،ص 42.

6 – مهدي رزق الله ، المرجع السابق ،ص364 .

7 – لقد ذكر السعدي عددا كبير جدا وهو سبع وسبعون ألف قرية .ينظر : السعدي ،المصدر السابق ، ص11-13 .

.

لها السعدي بابا خاص بالعلماء والقضاة والأئمة وبقيت جني على شهرتها بالعلم والتجارة حتى مع الغزو المغربي لها سنة 1005ه/1596م فنافست بذلك تمبكتو .

جـــ- تمبوكتو أو تمبكت: تقع على الحافة الجنوبية للصحراء الكبرى، بما يعرف اليوم بمنحى النيجر، ذكرها الكثير من الرحالة في كتبهم حيث قال فيها صاحب كتاب السعادة الأبدية "أنها قاعدة السودان"[1] و قال فيها الحسن الوزان(888-977ه /1483-1550م) " اسم مدينة بناها منسا سليمان عام 610، ودور تنبكتو عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة...وفي وسط المدينة مسجد...كنت في هذه المدينة عندما كان الملح يساوي ثمانين مثقالا...فطر أهل تنبكتو على المرح...لا يحيط بتنبكتو[2] أي بستان أو حديقة..."[3]،وقال التونسي"... وأول إقليم يعرض له مملكة سنار، ثم كردفال، ثم دارفور...السابع ونفه والثامن دار تمبكتو، والتاسع دار ملا[4] أو ملى...و أما الذي يأتي من المغرب يعد ملا الأول، وتمبكتو الثاني، ونقه الثالث وهكذا "[5].

ذكر السعدي تنبكت ونشأتها فقال فيها:" نشأت على أيدي التوارق مقشرن في أواخر القرن الخامس للهجرة...هي البلدة الطيبة الطاهرة الزكية، الفاخرة بجعة وحركة التي هي مسقط رأسي...مأوى العلماء والعابدين، مالف الأولياء والزاهدين، ملتقى الفلك والسيار، فجعلوها

1 - الأرواني أحمد بابير ، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية ، تحق: الهادي المبروك الدالي ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ،ط1،بنغازي ،2001،ص46 .

2 - تأسست مدينة تمبكتو على نهر النيجر حوالي سنة 1100م، وكانت إلى جانب شهرتها التجارية مدينة إسلامية منذ نشأتها، جاءت أول أسرة حكمت تمبكتو من مالي وظلت على حكمها من (1336-1433م) ثم حكمها بيت آخر 40 عاما حتى سنة 1492م، وبلغت تمبكتو شأنا عظيما في عهد الأسقيا الهادي محمد ثم انتقلت إلى حكم مراكش من 1590 إلى 1850 ثم وقعت في يد التكارير: ينظر: عمر التونسي، المصدر السابق،ص 134.

3 - الحسن الوزان المصدر السابق ص 165.

4- ا دار ملا أو مالي أو مالى: تعرف ملا أو ملي في المراجع العربية القديمة باسم مملكة مالي بلغت أقصى إتساعها في عهد منسا موسى (1313-1338م) الذي ضم إليها إقليم مالي وصوصو وغانة وكوكو وتكرور، وتعتبر مملكة مالي ومضافاتها أكبر ممالك غرب إفريقيا وعاصمتها مالي نفسها، ينظر: عمر التونسي، المصدر نفسه، ص 134.

5-نفسه ص134-135

خزانة لمتاعهم وزروعهم...، مدعوة بتنبكت ومعناها في لغاتهم الهجرة وهي بها سميت الموضع المبارك، يأتيه الناس من كل جهة ومكان حتى صار سوقا للتجارة..."[1].

كما أخبرنا الناصري في شأنها وقال:" أهل مدينة تنبكتو ممن لهم الوجاهة الكبيرة والرياسة السيطرة ببلاد السودان دينا ودنيا، بحيث تعددت فيهم العلماء والأئمة والقضاة وتوارثوا رياسة العلم مدة طويلة تقرب من مائتي سنة وكانوا أهل سيار وسؤدد..."[2]، نشأت هذه المدينة على يد جماعة من الطوارق تدعى طوارق مقشر وذلك عام 490 ه/1096 م، وبعد اضمحلال مكانة مملكة غانة وضعف شأن مدينة ولاتة[3] وقد بدأت أهمية المدينة عندما أصبحت محطة نهائية للقوافل القادمة من الشمال أو الجنوب عن طريق نهر النيجر، وبفضل موقعها الإستراتيجي[4] وكثرة الآبار فيها تحولت إلى مكان لالتقاء القوافل والتجار، وإقامة للراحة لدرجة أصبحت سوقا تجاريا لتتحول لمركز حضاري وثقافي...[5]

تحتل تمبكت موقعا هاما جعل منها مركزا تجاريا كبيرا لتوسطها المدن التجارية الكبرى ، فإلى الشرق منها تقع قرية تاوديني[6] التجارية ، ومدينة جاو عاصمة إمبراطورية السونغاي 889-999ه/1493-1590 م) وقد جمعت هذه المدينة بين القوافل البحرية والملاحة النهرية فوفد إليها التجار من مصر والمغرب وطرابلس عبر الصحراء ،وحضت هذه المدينة بوصف الرحالة والتجار ،فقال عنها من سكنوها بأنها خير البلاد وأعظمها وهي مدينة كثيرة العلماء والتجار وبلغت ذروة مجدها في عهد الأساكي فتطور عمرانها وأصبح لكل فئة حيها الخاص[7] وقد أعجب الحسن الوزان بالنهضة الاقتصادية التي شملت مدينة تمبكتو ،حيث أكد

---

[1]- السعدي، المصدر السابق، ص 20-21.

[2]- أبو العباس أحمد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى" الدولة السعدية"، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج5، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955،ص 129.

3 - السعدي ، نفس المصدر السابق ،ص20.

[4]- الهادي مبروك دالي، التاريخ السياسي...، المرجع السابق، ص 317.

[5]- مبخوت بودواية، المرجع السابق،ص 56.

6 - تاودوني : تقع بالقرب من مدينة تنبكتو على مسافة عشر أيام ، تعد مركزا في طريق الشمال لتحميل لتحميل كميات الملح نحو تنبكت لأنها قامت قرب سبخة الملح الشهيرة تغازة

7 - السعدي ، المصدر السابق ، ص20-21 .

على كثرة خيراتها وانتشار الحوانيت فيها ، وخاصة الحوانيت التي تبيع المنسوجات القطنية والأقمشة التي تأتي من أوروبا مصنعة يحملها التجار القادمون من الشمال الأفريقي إلى مدينة تمبكتو [1]. وهذا نموذج واضح لمدى التنظيم الذي أصبحت عليه مما جعلها تحتل المرتبة الأولى من بين حواضر السودان الغربي في المجال التجاري والعلمي وفي هذا الشأن قال ابن خلدون : "وهابتهم أمم السودان وارتحل إلى بلادهم التجار من بلاد المغرب وأفريقيا "[2] .والعامل الرئيسي الذي أدى إلى ازدهارها عموما هو كونها كانت محور أهم سلعتين في التجارة السودانية وهما الملح والذهب وهما يتساويان في الأهمية و العامل الثاني هو استتباب الأمن في الطرق والمسالك التجارية العبرة للصحراء وتوافر النظام في ربوع المملكة .

مثلت هذه المدن قمة الحضارة الإفريقية جنوب الصحراء ، في مجال التجارة و العلم كما عملت على توثيق العلاقات الثقافية بين بلاد السودان الغربي والعالم الإسلامي في المغرب والمشرق، لما حوته من مراكز إشعاع ثقافي ومؤلفات لأعلامها ،مازالت خزاناتها تحوي على أنفس مخطوطات إفريقيا ، وهي تشكل المصادر الأولى لكل الدارسين لتاريخ هذه المنطقة سواء عند العرب أو غيرهم .

الخلاصة :

شكلت بلاد السودان الغربي ببعديها الجغرافي و السياسي أيقونة في عمق الصحراء الإفريقية ، فرغم وقوعها جنوب الصحراء الكبرى الإفريقية ،إلا أن تلك الظروف الطبيعية لم تكن في أي وقت من الأوقات مانع أوحاجز أمام مرور التيارات الحضارية والفكرية إليها فاستطاعت أن تبني حضارة قائمة بذاتها ،وتأسست بها أعظم الممالك في العصر الوسيط على الخصوص كما بنت نظم خاصة بها ،وهذا ما جذب إليها أقلام المؤرخين والرحالة والمغامرين المسلمين وغيرهم وكانت المادة التي تناولتها المؤلفات في العصر الوسيط والحديث ومازالت على ذلك إلى يومنا هذا .

1 - الحسن الوزان ،المصدر السابق ،ج2 ، ص165 -166 .

2 - ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج6، ص197.

الفصل الثاني

الفصل الثاني :الواقع الاجتماعي في السودان الغربي قبيل الإسلام

أولا : البنية الاجتماعية في السودان الغربي قبيل الإسلام

- البنية السكانية
  - ✓ السودان
  - ✓ أهل بلاد المغرب
  - ✓ العرب
  - ✓ المولدون

ثانيا :الأديان والمعتقدات

- المعتقدات الوثنية
- الديانات السماوية

ثالثا : المظاهر الاجتماعية

- النظام الأسري
- الموروث الثقافي والاجتماعي

أولا : البنية الاجتماعية في السودان الغربي قبيل الإسلام :

إذا أردنا التحدث عن المجتمع الإفريقي قبيل الإسلام بشكل عام فإن السمة الغالبة عليه هو الطابع الوثني والقبلي الذي يحمل الكثير من التناقضات ، سواء في العلاقات الاجتماعية أو العقدية وما تعلق بها من الطقوس والممارسات، وإذا أردنا أن نتحدث عنها فالمنطلق هو الأسرة في تكوينها وطريقة حياتها لأن الأسرة الوثنية تختلف في نمط عيشها عن الأسرة التي تعتنق أي ديانة سماوية، ويكون المنطلق هو الزواج الذي لا يعتمد على أي أسس أو معايير عند الوثنيين ، و لم يكن يربطهم أي رابط بأسرهم، وكان العري هو السمة البارزة عندهم فلم يكن يثير أي خجل أو خدشا للحياء ،فلعبت الوثنية دورا كبيرا في سن بعض الطقوس التي تميز بها المجتمع السوداني ، فقد قدسوا الحيوانات أكثر من أي شيء وقدموا لها القرابين والهدايا والذبائح من أجل جلب الرزق والمطر فكانت هذه هي السمة البارزة.

1- البنية السكانية في السودان الغربي :

إذا أردنا التحدث عن البنية السكانية فمن الصعب أن نلم بها كلها وذلك لتشعبها وكثرتها نتيجة التصاهر والزواج والتروح أو الهجرة فأصبح من الصعب التمييز بين الأصول العرقية والاجتماعية لسكان الصحراء وأنسابهم ولكن مع ذلك سنركز على أبرزها والتي وجدت في المنطقة قبيل الإسلام حيث يمكن تقسيمها إلى أربعة أقسام كبرى وهي : السودان وهم السكان الأصليون للمنطقة ، والقسم الثاني وهم المغاربة والثالث هم العرب و القسم الرابع وهم المولدون الذين كانوا نتيجة اختلاط الأجناس السالفة الذكر .

- السودان :

تمثل هذه التسمية الفئة الغالبة في هذه البلاد ويقصد بهم الزنوج أو التكرور، وأطلق جغرافيون المغرب الإسلامي بعد القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى بحيرة كوري شمال خط الاستواء وجنوب الصحراء " بلاد السودان " وهذه البلاد تمثل المجال الموازي لبلاد المغرب ولا تفصل بينهما سوى الصحراء الكبرى ، ولكن جغرافيو المشرق الإسلامي يستعملون نفس المصطلح للدلالة على كل المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى النيل المصري والبحر الأحمر كلها والعامل المشترك عندهم هو لون البشرة

[1]والزنوج من العناصر الرئيسية في أفريقيا جنوب الصحراء ، ولاسيما من بقي نقيا دون أن يختلط بآخر كما سموا بالزنوج النقاة وهم قلة [2] ومن أوصافهم المورفولوجية البشرة الشديدة السواد والشعر المفتول، والأنوف والشفاء العريضة في الغالب [3] كما لهم شرطان في وجوههم[4] ويعود أصل سواد البشرة إلى رواية تحدث عنها المسعودي حيث أن نوح عليه السلام دعا على حام بتشويه وجهه وسواده وأن يكون ولده عبدا لأولاد سام فولد بعد كنعان بن حام ابن كوش ابن حام فكان أسود [5]، ونفس الرأي يقول به ابن خلدون ويزيد على ذلك بأن الأحباش من ولد حبش بن كوش ابن حام ابن نوح والنوبة من ولد نوبة ابن كوش بن كنعان ابن حام ابن زنج من ولد الزنجي ابن كوش وسائر السودان من قبط بن حام[6].

وقد اشتهرت بلاد السودان الغربي بقبائل الماندنغو[7] وهم من أسس دولة مالي القديمة وقد استوطنوا في أعالي نهر السنغال هجري السابع الميلادي حيث امتهنوا صيد الأسماك لكنهم اختلفوا عن باقي الشعوب الماندية إذ كانت لهم خصوصياتهم وعاداتهم[8] .ثم الفلاتة وهم ذوو البشرة الأقل سوادا وتميل إلى الحمرة وشعر أملس ، وتقاسيم الوجه الرقيقة .ومن خلال الروايتين السابقتين فإن كل السودان ينحدرون من كوش بن كنعان بن حام وأن كوش هو أول إنسان ذا بشرة سوداء من ذرية نوح عليه السلام .

لذلك نرى أن اسم الكوشيين هو الذي أطلق على أهل السودان وأنهم ينقسمون إلى عدة مجموعات بشرية موزعة على عدة مناطق من جنوب القارة الإفريقية، وهناك روايات تشير

1- أحمد الشكري ، المرجع السابق ،ص58 .

2 – محمد عوض محمد ،المرجع السابق ،ص46 .

3 – أحمد نجم الدين فليجة ويسرى الجوهري ، أفريقيا جنوب الصحراء ، دراسة إقليمية ، الإسكندرية ،1977 ،ص73-74 .

4 – ابن بطوطة ، تحفة النظار في عجائب الأمصار وعجائب الأسفار ، الرباط ،1997 ،ص249 .

5 – المسعودي ، المصدر السابق ،ص786.

6 – ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج6،ص234 .

7 – الماندينغو ، تعني (عند السيد) أو (ابن الأم) و يتضح من خلال عادات أهل هذه البلاد أن التفسير الثاني هو الأقرب إلى الصحة لأنهم كانوا يتمسكون بنسب الأم ، والماندينغو هم إحدى القبائل الناطقة باللغة الماندية .ينظر : طرخان، ابراهيم علي، دولة مالي .....، المرجع السابق ،ص26 .

[8] - Murphy , E.J ,History of African civilization ,(New York :1979),p121 .

إلى أن الموطن الأصلي للسودان كانت شمال الصحراء الإفريقية الكبرى وهذا ما يتم تداوله عند القبائل الموريتانية واعتمدته بعض الدراسات ، أما الأسباب التي دفعتهم إلى الهجرة إلى جنوب الصحراء هو دخولهم في حروب مع العمالقة الذين أتوا من بلاد سوريا [1]منذ أكثر من ألفي سنة، وأمام تفوقهم عليهم نزح السودان إلى جنوب الصحراء .

أما الروايات الشفوية لشعب السوننكي فترجع أسباب الهجرة إلى العامل المناخي وانتشار الجفاف مما دفع هذه القبائل السودانية إلى التروح إلى ضفاف نهري النيجر والسنغال قصد الزراعة[2]، ومن خلال هذا فإن السودان ينقسمون إلى عدة فروع ومنها التكرور وهم التوكلور أو الساراكول ، و قد أشرنا إلى أن الدارسين قد أخلطوا في هذه الكلمة بين الإقليم والبلاد ككل ولكن الأرجح أن هذا المصطلح كان يقصد به إقليم صغير من إمبراطورية مالي[3].

مالي[3].

وقد اكتسب أهل التكرور هذه الشهرة عند الرحالة والمؤرخين لكونهم كانوا من السباقين لاعتناق الإسلام في بلاد السودان الغربي وهذا مع أوائل 5ه/11م، وهذا قبل غزو المرابطين لمملكة غانة وهذا ما أشار إليه البكري عندما تحدث عن مدينة التكرور فهو يشير إلى إسلام ملكهم ورجابي وقد ذكر وفاته التي وافقت سنة 432 ه/ 1041م [4] .

وقد استقروا في منطقة السنغال الحالية ومعظمهم سكن على ضفة نهر السنغال ومنهم سكان البوادي والمدن[5]، وقد عرفت بلاد السودان الغربي العديد من التحولات خلال القرن الخامس للهجرة ،الحادي عشر للميلاد وذلك من خلال زحف القبائل السودانية الأخرى كالسوننكي والولوف نحو الغرب، ومن الواضح أن قرب شمال بلاد السودان الغربي من بلاد

---

1 – ربما يقصد بها هنا العمالقة الهكسوس والذين زحفوا على مصر في القرن الثامن عشر قبل الميلاد واحتلوها ولكن بعد خروجهم من مصر تفرقوا وربما اتجهوا نحو الغرب وهذا يبقى غير مؤكد لأن علماء الآثار مازالوا لحد اليوم لم يعثروا على أية هياكل لهم .ينظر : هاشم يحي الملاح ، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام ، دار الكتب العلمية ،بيروت ،ط1، 2011 ،ص48.

2 - Chavane (A. Bruno),Villages de l’Ancienne Tekrour .Editions Karthala , Paris ,1984,P29.

3 – العمري ، المصدر السابق ،ج4،ص108 .

4 – البكري ، المصدر السابق ، ص172 .

5 – ابن سعيد ،المصدر السابق ،ص91.

المغرب وطبيعة العلاقات التجارية التي كانت تربطها بالقبائل البربرية في هذا الجزء من العالم الإسلامي كل ذلك سمح باختلاط الدم التكروري بالدم البربري ، ونتيجة لذلك أصبحوا أشباه الزنوج كما عبر عنه ياقوت الحموي[1]، لكن بالرغم من ذلك فإن الصفات الزنجية بقيت واضحة في هذه القبائل وإلى جانب الماندي و السوننكي يوجد السنغاي وهم القبائل التي سكنت في المناطق المجاورة لنهر النيجر أو ما يعرف بالنيجر الأوسط.

كما أنهم استقروا في المنطقة الممتدة من تمبكتو إلى جاو وحتى مصب النيجر الأسفل[2] وهم فرعين هما جرما التي استقرت في منطقة جاو ونياني ودوزو أما الفرع الثاني فهم دندي وهم في النيجر الأوسط وعرفوا بسوناي بوري[3](Sonay borey) حيث استعمل هذا الاسم للدلالة على هذا الشعب والبلد [4].أما شعب السونغاي فرغم الاعتقاد السائد بأنهم سودانيون أصليون إلا أن الأبحاث الحديثة بينت بأنهم هم الآخرون اختلطوا مع البربر وقبائل سودانية أخرى من إثنيات مختلفة بالمصاهرة وقد وصلت علاقاتهم ومصاهراتهم إلى غاية بشعوب الأدغال [5].

من خلال هذا يتضح لنا أن بلاد السودان الغربي شكلت مزيجا من الزنوج ارتبطوا بشكل كبير بالبيئة التي استقروا فيها مشكلين تباينا اثنيا مما سمح ببروز العديد من الكيانات السياسية التي سترسم تاريخ المنطقة خلال الفترة الوسيطة والحديثة .

– **أهل بلاد المغرب** : وهم ذو البشرة البيضاء المائلة إلى السمرة والقامة المتوسطة ويسمون في المصادر العربية والسودانية بالبيضان ،كان تواجدهم قوي وذلك راجع للقرب الجغرافي بينهم وبين الشمال الإفريقي من جهة ومن جهة أخرى التبادل التجاري وما نجم عنه من استقرار وتصاهر، كما أن العوامل السياسية التي عرفتها بلاد المغرب وما نجم عنه من توافد عدد كبير من أهل بلاد المغرب نحو الصحراء فعمرت بهم مدن جنوب الصحراء بداية من مدينة

1 – الحموي ،المصدر السابق ،مج2،ص39 .

2 – نبيلة حسن محمود ،المرجع السابق ،ص238 .

3 – كعت ،المصدر السابق ،ص110.

4 – شعباني نور الدين ، علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الاسلامي وآثارها الحضارية ،رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط ، جامعة الجزائر ،2005-2006م/1426-1427 هـ ،ص22 .

5 -Delafosse, Op.cit., T1 ,P.238.

أودغست[1] وهي بوابة أفريقيا جنوب الصحراء حيث جمعت من سكانها العدد الكبير من أهل مسوفة [2]وعلى رأسهم حاكم البلاد على عهد المرابطين ودخولهم لغانة عام 469ه /1076 م .وهو من صنهاجة اللثام أو صنهاجة الصحراء [3]و عرفوا في المصادر بالطوارق أو التوارق وهم حاميون [4] تشكلوا عبر عدة موجات كبيرة من الهجرات البربرية واندمج معهم خليط من الفلاتة و سنغاي وكانت أهم هذه الهجرات خاصة بقبائل لمطة ،هوارة ، مسوفة،سمغارة ،جدالة و لمتونة[5] .

لقد لعبت صنهاجة دورا مهما في تاريخ بلاد السودان الغربي من خلال جهود المرابطين في هذه المنطقة وخاصة فيما تعلق بدخول الإسلام إلى القبائل السودانية ، وقد رأت بعض المصادر أن حكام بلاد غانة الأوائل والذين أطلق عليهم البيضان ترجع أصولهم إلى المغاربة وخاصة القادمين من برقة[6] وقد ذكر البكري سكان تادمكة أنهم يلتثمون كما يلتثم بربر الصحراء [7] كما أن بلاد السودان الغربي سكنتها قبائل وشعوب أخرى منها التكرور حيث عرفت بلادهم بالتكرور نسبة إليهم ومما يجدر ذكره أن هذه القبائل قد تعايشت مع قبائل

1 – أودغست بالفتح ثم السكون وفتح الذال المعجمة والغين المعجمة وسكون السين المهملة والتاء فوقها نقطتان وهي مدينة قديمة في إفريقية لم يبقى لها أثر وهي اليوم في موريتانيا ويحدد الجغرافيون العرب موقعها بالنسبة إلى سجلماسة فيتفقون على أنها تقع جنوبه وتفصل بين المدينتين مسيرة شهرين حسب تقدير ياقوت الحموي والبكري وهي تقع منحرفة محاذاة عن السوس الأقصى .ينظر ياقوت الحموي ، المصدر السابق ،مج1،ص277.وينظر : أحمد محمد اسماعيل أحمد الجمال ، تاريخ مدينة أودغست ودورها في حركة التجارة بين المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء (السودان الغربي)، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية ،الحولية الثامنة ،جوان 1426 هـ/2008م .ص21 .

2 – مسوفة : هي إحدى قبائل صنهاجة الكبرى تنقلوا في الصحراء ولكنهم استقروا وشيدوا عدة مدن كتمبوكتو وسكنوا سجلماسة ،ينظر : الحميري ، الروض المعطار ،ص470 ،وابن حوقل ،صفة الأرض ،ص98 .

3 – ابن خلدون المصدر السابق ، ج6 ،ص241 .

4 – ذكرهم صاحب مفاخر البربر حيث قال :" لما تفرق أولاد نوح عليه السلام ،أقبل البربر نحو المغرب الأقصى فقطنوه وتناسلوا واتصلوا مع الأقباط من أرض مصر إلى المغرب الأقصى وجاوروا السودان مما يلي الصحراء ..." مجهول ، مفاخر البربر ، تحقيق : عبد القادر بوباية ، دار أبي الرقراق للطباعة والنشر ، الرباط ،2005 ، ط1،ص195 .

5-Delafosse(M), Op.cit, P194.

6 – السعدي ، المصدر السابق ، ص9 .

7 – البكري ، المصدر السابق ، ص181 .الحميري ،المصدر السابق ،ص128 .

أخرى مجاورة لها كالولوف[1] بحكم العلاقات التجارية. وإلى جانب هذه القبائل توجد مجموعات سكانية ترجع أصولها إلى بلاد المغرب وتعرف بالتيبو[2] أو (التدا) وهي الأخرى استقرت في نفس المناطق التي استوطنها التكرور .وقد ذكر لنا الوزان عن وجود عدد كبير من تجار البربر في تمبكتو خلال زيارته لها في القرن العاشر الهجري / السادس عشر للميلاد ،كما أشار إلى أن أغنياء هذه المدينة أغلبهم من الأجانب المقيمين في هذه البلدة حتى أن الملك زوّج ابنتيه من أخوين تاجرين لغناهما [3]، وقد كانت للجاليات البربرية أحياء خاصة بهم وحتى مهن خاصة بهم منها حومة الغدامسيين وكابيو كندا [4].

ظلت معظم مدن السودان الغربي وفي مقدمتها تمبكتو على ازدهارها حتى القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي وهو تاريخ الغزو المغربي الذي أثر بشكل كبير على الجاليات الأجنبية فيها .إلا أن الوجود المغربي في بلاد السودان الغربي عموما كان كبيرا، لأنهم انتقلوا إلى هذه البلاد سواء عن طريق الترغيب أو بطرق قسرية من طرف أنظمة الحكم في حد ذاتها وقد ذكر صاحب الفتّاش وجود بعض الشرفاء السعديين في بلاد السودان الغربي انطلاقا من بلاد السوس والسودان حيث يذكر لنا أن بعض الأسر الزنجية طلبت من شريف كان يقطن في مراكش اسمه علي بن مولاي أحد بن عبد الرحمان ،أن يتدخل لدى الأسكيا الحاج محمد ليأمر بإسقاط الغرامات التي فرضها عامله ، فكتب هذا الشريف رسالة إلى القاضي العاقب[5] يطلب

1 – سكنت الأطراف الشمالية لمنطقة الغابات على طول نهر السنغال ، لكن سرعان ما اندمجت مع التكرور بحكم التجارة بينهم . ينظر: .Murphy,op,ciT,p105

2 – التيبو: هم من سكان الصحراء الشرقية وقد استقروا في هضبة تبستي و ماحولها الشمال الشرقي من بحيرة تشاد ، وهم مزيج من الزنوج والمغاربة فهم لاسود ولا بيض فهم شعب هجين ، وقد عرفوا في مصادر أخرى باسم (كوران) ينظر : حسن الوزان ،وصف إفريقيا ،ط2 ،دار الغرب الإسلامي ،ص75-76 ، محمد عوض محمد ، المرجع السابق،ص356 .

3 – الحسن الوزان ، المصدر السابق ،ج2، ص ص 166-167 .

4 – السعدي ،، المصدر السابق ،ص ص169-170. مارمول كربخال ، ج3 ، المصدر السابق،ص202 . فلكس ديبوا، ديبوا، تمبكت العجيبة ،تر:عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ،المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ،ط2003،1 ،ص209.

5 – العاقب بن محمود بن عمر أقيت 913-991 ه/1507-1583م)كان قاضيا على تنبكتو حتى وفاته سنة 1573م، وكان السلاطين يهابونه ويخضعون له وقد ذكره كعت وما وقع له مع الأسكيا وكيف كان يبجله.ينظر : هواري رضوان ،بيوتات علماء السودان الغربي من خلال كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي ،رسالة=

منه التحدث مع الأسكيا في هذا الشأن وينهي كعت روايته بأن الأسكيا حلف للقاضي العاقب بأنه لا يعرف بتلك النازلة ووجه رسولا من قبله إلى هذه المنطقة .

لقد ذكرت المصادر الدور الذي لعبته قبائل لمطة المغربية في بلاد السودان الغربي خاصة فيما تعلق بدولة السنغاي حيث استطاعت هي الأخرى أن تتفاعل مع القبائل المحلية وتمكنت من حكم البلد مدة من الزمن حيث شكلت هذه القبائل الأساس السكني لمجتمع غاو في البداية وسرعان ما أصبحت مدن السودان الغربي تستقطب القبائل من مختلف مناطق الشمال الإفريقي وقد ذكر ابن بطوطة وكعت والسعدي أسماء بعض المغاربة الذين خدموا بلاط السونغاي واحتلوا المناصب المرموقة ، كتابا وحجابا للسلاطين ، ومنهم علي بن عبد الله كاتب الأسكيا محمد الأول والكاتب إبراهيم الخضر الفاسي .

تشير بعض الدراسات إلى وجود عدة عائلات هاجرت إلى مدن السودان الغربي كتمبكتو وغاو واستقرت بها إما لدافع التجارة أو لنشر العلم ومثال ذلك عائلة الفيلالي والتي انتشرت في أروان و تمبكتو وجني وغاو وعائلة محمد الفاسي التي اشتغل أبنائها بالتعليم [1]، والأخوين المقري (عبد الواحد وعلي) الذين كانا يمثلان شركتهما في ولاتة وهذا لمدة طويلة [2] وسعيد الدكالي الذي أقم في مدينة بيتي عاصمة إمبراطورية مالي لمدة خمس وثلاثين سنة [3].

من خلال ذلك فإن العنصر المغاربي لعب دورا مهما في بلاد السودان الغربي ورغم أن المغاربة كانت لهم أحياء خاصة بهم إلا أنهم لم يكونوا منعزلين أو مترفعين على العنصر المحلي ، وعلى العموم فإن العناصر المغربية كانت ذات مستويات اجتماعية راقية (فقهاء ، قضاة ، خطباء ، تجار ، مدرسين طلبة ،أدباء، مهندسين ،أدباء) فمنهم من كان مقيما بصفة مؤقتة ومنهم من كان مقيما بصفة دائمة .

=ماجستير في التاريخ السياسي والثقافي للمغرب الإسلامي مابين القرنين 7/10ه-13/16 م،قسم التاريخ وعلم الآثار ، جامعة تلمسان ،2012-2013 م،ص108.

1 – الدالي ، التاريخ السياسي ....، المرجع السابق ، ص194- 195.

2 – المقري أحمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ،ج5 ،بيروت ، ص205.

3 – العمري ، المصدر السابق ، ص60 .

معظم ما ذكرته المصادر وعلى رأسها ابن بطوطة تشير إلى أن بعض الأسر كانت لثلاث أجيال في بلاد السودان الغربي مثل مدرك بن فقوص [1].وقد مثلت الجالية المغربية من طرف "شيخ المغاربة [2]" وهو الذي يمثل الجالية أمام السلطة السوداني والتي لا ندري هل كانت تعين من طرف السلطة المغربية ؟أو من طرف السلطة السودانية ؟ أم كانت تنتخب من طرف الجالية في حد ذاتها ، كما أننا لا ندري هل كانت هذه المهمة دائمة أو مؤقتة ؟وتبقى هذه المهمة مجهولة حتى أنه لا نعلم على أي أساس كانت تختار هل الجانب العلمي هو المقياس أم العامل القبلي أم العامل المادي أي الثراء فالمصادر التاريخية لا تشير إلى ذلك والثابت أن هذا الأخير كان يوجد حيث توجد الجالية المغاربية في كل مدن السودان الغربي . وقد عمل بعض المغاربة مستشارين في الإدارة السودانية المحلية وفي بلاط ملوك السودان ، وهذا ما سمح لهم بإتقان اللغة السودانية وقد ذكر ابن بطوطة بأن رجل من البيضان قد ترجم محادثته مع السلطان [3].

كما أن المغاربة قد حصلوا على امتيازات كبيرة من سلاطين السودان رغم أنها كانت تعرف بعض الأزمات من زمن لآخر وقد ساقت لنا المصادر حدوث بعض الأزمات نجمت عن اقبال ملوك السودان عن اعتقال بعض التجار المغاربة مما أدى إلى توتر العلاقات بين البلدين [4] وكانت تجارة أهل بلاد المغرب تعرض للأخطار في فترة الاضطرابات التي تعرفها بلاد السودان الغربي حيث تعرضت شركة المقري التي كانت بولاتة إلى النهب أثناء غزو الماندينغ للمدينة في القرن الرابع عشر الميلادي / الثامن الهجري ، ولكن بمجرد استتباب الأمور تم

1 – ابن فقوص على يد جده أسلم إمبراطور مالي مانسا موسى ينظر :ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص371.

2 – شيخ المغاربة كان يشرف على حماية مصالح الجالية المغربية عند السلطات المحلية ويستقبل المغاربة الجدد القادمين إلى السودان الغربي ويوفر لهم سبل إقامتهم ويتولى تقديمهم للسلطان السوداني في حفلات الاستقبال .ينظر : ابن بطوطة ، نفس المصدر السابق ،ج2،ص372.

3 – الحسن الوزان ، المصدر السابق ،ج2، ص160.ابن بطوطة ، المصدر نفسه ، ص372.

4 – على إثر تلك لحادثة وجه والي سجلماسة وأقاليمها رسالة احتجاج شديدة اللهجة إلى ملك غانة الوثني استنكر فيها العمل الذي أقدم عليه مذكره بسياسة حسن الجوار بين البلدين وفي حادثة أخرى قام نائب السلطان السوداني بولاتة باحتقار التجار المغاربة وهم بين يديه .ينظر : المقري ، ، المصدر السابق ، ج3، ص105 .ابن بطوطة ، نفسه ،ص376-377.

تعويض ما نهب لهم من طرف السلطة القائمة ومنحت لها امتيازات كبيرة مكنتهم من تحقيق أضعاف أرباحهم [1].

نستنتج من خلال كل ذلك أن الجالية المغاربية ظلت تحظى بالاحترام من طرف أهل السودان وهذا مالم نجده بالنسبة لباقي الجاليات وهذا ما سمح للتجار المغاربة من تحقيق ثروة طائلة وهذا ما أكدته العديد من المصادر[2] .

– العرب :

يرجع الوجود العربي في القارة الإفريقية إلى ما قبل الميلاد ،إذ أشارت العديد من الدراسات إلى أن الهجرات الأولى للعرب إلى إفريقيا تعود إلى حوالي الألف الرابع قبل الميلاد[3] ، وقد استقر العرب على سواحل القارة في بداية الأمر مكتفين بتأسيس المراكز التجارية للاتجار في التبر والعاج وريش النعام والرقيق ، حيث كان يحمل إلى بلاد الفرس و الرومان حيث كانت هذه التجارة تلقى رواجا كبيرا في هذه المناطق [4].

استقرت هذه القبائل العربية في عدة مناطق من إفريقيا وتصاهرت مع قبائل هذه المناطق وحسب إحدى الدراسات فإن آخر الهجرات البشرية العربية الجماعية إلى القارة الإفريقية حدثت على إثر تصدع سد مأرب في القرن الثالث الميلادي ،فكانت القبائل اليمنية هي الأوفر

---

1 – المقري ، نفس المصدر السابق ، ج5، ص205 .

2 – يورد لنا المقري شهادة يشير فيها إلى الثراء الذي حققته شركة أجداده في بلاد السودان وأنها ثروتهم فاقت الحدود على حد تعبيره وكذلك شهادة أخرى رواها تاجرا جنويا يدعى أنطونيو مالفانطي بأن مضيفه سنة 1447م/850هـ من ناحية تمنطيط في ناحية توات كان تاجرا مغربيا عاش في بلاد السودان لمدة 14 سنة والذي صرح له بأنه جمع ثروة تصل إلى مائة

ألف دينار وهي حوالي 450كلغ من الذهب .ينظر : المقري ،نفسه ،ج5،ص206.وينظر كذلك

Ch.de La Roncière .Découverte d'une relation de voyage daté du Touat et décrivant ,en 1447 ,Le bassin du Niger .1918,un Bulletin de la section de géographie,1918,P11.

3 –عبيد خالد سعيد آدم ، القبائل العربية وجهودها في نشر الإسلام والعروبة في حوض بحيرة تشاد ،دبلوم الدراسات المعمقة ،جامعة الملك فيصل بتشاد ،2004،ص12 .

4 – بازينة أ.عبد الله سالم ، انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء ،منتدى الأزبكية ،(الكتاب الإلكتروني) www.books4ll.net.، ص60 .

حظا في الوصول إلى القارة الإفريقية ومجاهلها نحو الجنوب حيث مازالت محافظة على لغتها وأنسابها [1].

لقد لعبت الهجرات العربية الأولى إلى القارة الإفريقية – سواء أفراد أو جماعات– دورا مهما في نسج خيوط متينة من العلاقات الاقتصادية و الثقافية بينها وبين شعوب القارة الإفريقية وخاصة جنوب الصحراء [2].

ارتبط الوجود العربي بأفريقيا جنوب الصحراء بفترة قديمة سواء في شرقها أو غربها وقد شكلوا عنصرا بشريا قويا وانتشروا حول بحيرة تشاد التي تعتبر منطقة جذب للهجرات القبلية ومنها القبائل العربية ومنذ وقت مبكر وهذا مرتبط بفترة ما قبل بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم واستمرت حتى بعد الفتوحات الإسلامية لبلاد المغرب [3]،إلا أن الهجرات العربية إلى المنطقة بعد الإسلام كانت أكثر تأثير ، وهي التي صبغت المنطقة بطابع خاص حيث تدفقت القبائل العربية نحو إفريقيا ابتداء من النصف الثاني من القرن الأول الهجري الثامن و السابع الميلادي وهذا بعد فتح مصر ، وقد كانت هذه الهجرات نتيجة دوافع سياسية ومنها اقتصادية كبطش الأنظمة الحاكمة آنذاك أو للبحث عن الموارد الاقتصادية وخاصة المراعي [4]وتصنف القبائل العربية التي استوطنت في منطقة تشاد وما جاورها من بلاد إلى مجموعتين هما :

أ– المجموعة الحسّانية : و هي التي جاءت إلى هذه المنطقة عن طريق شمال إفريقيا مابين القرنيين التاسع والعاشر للميلاد وقد ضمت العديد من القبائل منها : الدقنة ، أولاد محارب ، أولاد سرار وأولاد علي ،وبني وائل وبني عامر ، و العلوان و الأصعالي. وقد استقروا في المنطقة الممتدة من المحيط الأطلسي إلى درعة [5]، وقد أشار ابن خلدون إلى أن شيوخهم يتزلون ببلاد

1 – عيسى ، محمد عمر الفال ،الهجرات العربية إلى منطقة حوض بحيرة تشاد قبل الإسلام ، ندوة اللغة العربية في تشاد الواقع والمستقبل (21-25 يناير 2001م) جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ،ط 1 ،2003 م،ص131 .

2 – بازينة، المرجع السابق ،ص63 .

3 – القلقشندي ، نهاية الأرب ، المصدر السابق ،ص19 .

4 – النوي ، إبراهيم صالح الحسيني ، تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم وبرنو ،مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة، 1876،ص ص 18-27.

5 – ابن خلدون ، المصدر السابق ، ج6 ، ص77

نول قاعدة السوس الأقصى وما إليه وقد جاوروا قبائل الملثمين من جدالة ومسوفة و لمتونة حيث رمز إلى هذه المناطق بالقفار الغربية[1].

لقد شجعت تلك المناطق التي أقامت بها قبائل المعقل[2] ،من الولوج إلى بلاد السودان الغربي وقد عملت قبائل بني حسان على حماية الحدود الجنوبية للموحدين مع حلول ق 6ه/12م . وهذا ما أشار إليه ابن خلدون وكذ ا ابن سعيد المغربي في القرن السابع للهجرة / الثالث عشر للميلاد ، حيث ازداد استقرار أعداد كثيرة من هذه القبيلة في أرياف بلاد التكرور عند حوض السنغال[3].

استمر تواجد بنو معقل اليمنيين في المنطقة خلال القرن الثامن للهجرة / الرابع عشر للميلاد أثناء الحكم المريني للمغرب حتى أنهم كانوا يشكلون القوة الاحتياطية للمرينيين في الجنوب، ولكن تدهورت علاقتهم مع المرينيين على عهد السلطان أبي عنان(729-759ه/1329-1358م)[4] وكان لاستقرار بني حسان من قبيلة المعقل في حوض السنغال دور كبير في انتشار استعمال العربية مما قدم دفعا قويا لانتشار الإسلام في المنطقة وهذا ما أشارت إليه الكثير من المصادر وخاصة المصادر السودانية.

ب- مجموعة جهينة :لقد جاءت إلى بلاد السودان الغربي عن طريق مرورها عبر تشاد قادمين من طريق السودان الشرقي ومنها من وفد إلى المنطقة عن طريق برقة وهم ينتسبون إلى الجنيد بن شاكر بن أحمد الأجذم بن راشد ، الذي يلتقي نسبه بعبد الله الجهني بن العباس[5] وساهمت هذه الهجرات إلى استقرار العنصر العربي وترسيخ العربية في هذه المناطق إلى يومنا هذا

---

1 – ابن خلدون ، نفس المصدر السابق ، نفس الصفحة .

2 – المعقل قبيلة قحطانية من اليمن تنتمي إلى قبيلة مذحج الأم ، هاجروا إلى تونس ومن ثم إلى المغرب الأقصى ،تنقسم إلى ثلاثة بطون ذو عبيد الله وذو منصور وذو حسان ينظر : ابن حزم ،أبو محمد بن علي أحمد بن سعد الأندلسي ،جمهرة أنساب العرب ، تح :عبد السلام هارون ،دار المعارف ،القاهرة ،1398 ه/1977 م،ج2،ص417 .

3 – ابن خلدون ، نفسه ،ص78 ، ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ، ص171 .

4 – هو أبو عنان فارس المتوكل على الله بن أبي الحسن علي بن سعيد عثمان المريني ، وقد وصف بعالم الملوك وملك العلماء .ينظر : الناصري ، المرجع السابق ، ج3، ص181 . الزركلي خير الدين ، الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ،ج5 ، بيروت ، 1969م ، ص127 .

5 – الماحي عبد الرحمن عمر ،المجتمع التشادي في عهد الاحتلال الفرنسي ، الجريسي للكمبيوتر والطباعة والتصوير ،القاهرة ،1997 ،ص58-59.

بعد أن اختلطت مع القبائل المحلية، ومنها من انتقل إلى المناطق المجاورة في الغرب والجنوب فشكلوا مجموعات بشرية أطلقت عليها العديد من التسميات كان أشهرها (**الشوا**)[1] وهي تسمية ترجع لأصل الكلمة (**شاة**) وقد أطلقها عليهم سكان البلاد ، وبمعنى آخر رعاة الماشية وهذا حتى يتميزوا عن التجار العرب الذين كانوا يمكثون بعض الفترات فقط وقد أطلق عليهم اسم (**وسلي**) وهم التجار الذين يقيمون لفترات محدودة . وقد اشتهر عرب" **الشوا**" بالفروسية وعدة صناعات كالحديد والجلود وتمكنوا من المحافظة على العديد من العادات والتقاليد والأعراف الموجودة عند العرب وحتى اللغة العربية رغم اختلاطها بالألفاظ السودانية المحلية[2] ، ولا يزال جزء كبير منهم في شمال غرب نيجيريا .ويرجع تاريخ وصول هذه القبائل كما أشرنا إلى الهجرات العربية وعلى رأسها الهلالية والتي كان لها الأثر البالغ في تعريب لهذه المنطقة منذ 5ه/11م[3] ، حتى وإن كانت بعض الروايات كما أشرنا سابقا ترجع التواجد العربي إلى فترات متقدمة تعود إلى القرن الأول الهجري وحتى قبله .

– المولدون (العنصر الهجين) :

لقد نتجت عدة مجموعات سكانية في السودان الغربي وأهمها الفلانيون[4]،والذين كانوا نتيجة مصاهرة التكرور وسكان بلاد المغرب والأرجح أصولهم عربية ،وهم يتكلمون اللغة العربية إلى جانب اللغة الأفريقية وقد عرفوا باسم الفلاتا ، وإلى جانبهم مجموعة (الكانوري)[5]،

---

1 – عرب الشوا : يتمركزون على الشواطئ الجنوبية والغربية لبحيرة تشاد .تكونت تجمعاتهم نتيجة هجرات عربية إلى برنو منذ القرن السابع عشر ميلادي / الحادي عشر هجري ،وهم يتقسمون إلى مجموعات حسب نظام حياتهم فمنهم رعاة الإبل ورعاة البقر . ومن أهم مجموعاتهم : الحصاونة الذين جاءوا عن طريق طرابلس ،جهينة الذين جاءوا عن طريق وادي النيل الأوسط ، كان لهم دور كبير في تاريخ البرنو وفي قوة جيشها إذ كانوا يزودونها بالفرسان الشجعان المدربين . ينظر : ك. مادهو بانيكار ، المرجع السابق ،ص45.وينظر كذلك : Trimingham, Islam in West Africa,(London :1959) p.17

2 – طرخان ،إمبراطورية البرنو الإسلامية ، الهيئة المصرية العليا للكتاب ،القاهرة ،1975 ،ص32 .

3 – عمر صالح سالم الفانوس ، دور الحكام السودانيين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ،رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، كلية الآداب جامعة بغداد ،2002م، ص 53.

4 – الفلانيون : شبه زنوج قدموا من مصر أو من شرق أفريقيا و اتجهوا غربا لينحدروا بمحاذاة المحيط الأطلسي و إلى غاية السنغال .ينظر : حسن حسن إبراهيم ، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط2 ،(القاهرة ، 1963 ،ص118 .

الكانوري)[1]، الذين يمتازون بالسواد المائل إلى الرمادي وطول القامة وهم في بلاد الهوسا باسم (بري بري) بمعنى المغاربة ومن الناحية الجسمانية يجمعون بين صفات أهل السودان الغربي والعرب وسكان بلاد المغرب [2].

من خلال ما استعرضناه فان المنطقة عجت بالعديد من الفئات البشرية الناتجة عن اختلاط أهل البلاد والوافدين إليها من مناطق أخرى ،وهذا ما جعل المنطقة تعج بالثقافات والعادات .

ثانيا : الأديان والمعتقدات في السودان الغربي قبيل الإسلام:

[1] – يسري عبد الرزاق الجوهري ، السلالات البشرية ، القاهرة ،1976 ،ص403 .

[2] – نعيم قداح ،أفريقيا الغربية في ظل الإسلام ، مراجعة : عمر الحكيم ، ،دمشق 1960 .ص84 .

لقد اتخذ المعتقد الديني عدة أشكال في هذه البلاد مما جعل من الصعب حصرها لأن الغالب عليها هو السحر والشعوذة ومن جانب آخر غالبية تلك المعتقدات تم تناقلها عبر الروايات الشفوية ، وعلى العموم فإن المعتقدات الإفريقية طالما جمعت بين الإنسان والبيئة الطبيعية التي يعيش فيها وبذلك يمكن حصرها فيما يلي :

1- المعتقدات الوثنية :

لم يعتنق أهل السودان الغربي ديانات سماوية واضحة قبيل الإسلام كغيرهم من سكان أفريقيا جنوب الصحراء حيث ذكرت العديد من المصادر ذلك وأشارت إلى أن حياتهم كانت بدائية ونعتوا بأبشع النعوت وهذا ما ذكره الوزان حيث قال :" فهم غلاظ بلا عقل ، بدون ذكاء ودون خبرة وهم مجردون من جميع مظاهر المعرفة ، ويعيشون كالبهائم بدون قواعد ولا شرائع ، وتكثر فيهم البغايا باستثناء القليل منهم ، من الذين يسكنون المدن الكبرى "[1] ، أما مارمول كربخال فقد أشار إلى تفشي ظاهرة الجهل في هذه البلاد حتى يظهر كل من له إلمام بالقراءة والكتابة بمظهر المتفوق الجدير بالتقليد والإتباع ، حيث قال :" إن الشعب جاهل وكل من له إلمام بالكتابة والقراءة يظهر كأنه ولي مقدس ، وقلما يوجد فيهم من يكتب أو يقرأ ..."[2] .

لقد اتجهوا إلى عبادة الحيوانات وتقديس الحكام وعبادة الأرواح وتبجيلها بدرجة كبيرة ، وقد أشار ابن حوقل إلى أنهم لا دين لهم وأن رئاستهم تكون بأيدي شيوخهم وليس لأحد عليهم طاعة وهم يسلمون بإله واحد ويسمونه "**أننه** "[3]، كما كانت لهم تصورات أسطورية للخلق بناء على بساطة العقول واستحكام قوى الطبيعة بهم ، وسنحاول إعطاء بعض التفاصيل حول هذه المعتقدات في أفريقيا عامة وغرب أفريقيا خاصة ،كما قد اختلفت تسميات الإله الأكبر عند قبائل بلاد السودان الغربي حيث سمته البمبارا فارو (faro) واتخذ اسم نان

1 – حسن الوزان ، وصف أفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ،ج1 ،ط1 ، الرباط 1982 ،ص99 .

2 – مارمول كربخال ،إفريقيا ، تر،محمد حجي وآخرون ،دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع ،الرباط ،1409هـ/ 1989م، ج3 ،ص205 .

3 – ابن حوقل ،المصدر السابق ،قسم1،ص57 .

(Nana)[1] عند قبائل الأشانتي في غانة وهو أولورون(Oloroun) عند الإيبو وله في كل دار محراب ويذكر اسمه قبل أن تذكر أسماء أجدادهم ، وهو يبعد بعدا كبيرا عن العالم الأرضي، لكن تمت له السيادة على هذا العالم عقب انتصار أحرزه بعد صراع مرير مع الآلهة ، وهو المتحكم في الطبيعة ويمنح الأرض الخصب ويراقب سلوك البشر ويحاسبهم ،أما غذائه المفضل فلحوم الأضاحي والطماطم وحساء الذرة[2]. وقد اعتقدت بعض القبائل أن الإله الأكبر ترك تدبير شؤون الناس إلى قوى أقل منه شأنا، والبعض الآخر اعتقد بوجود الآلهة الصغرى الموكلة بتدبير شؤون البشر والتي ترتبط بالجن ومن الصعب الفصل بينهما ، وهذا ما يفسر الاستعانة بالسحر التي كانت منتشرة في بلاد السودان الغربي على وجه الخصوص .

أ- عبادة أرواح الأسلاف[3]:

تعتبر عبادة الأسلاف من أهم المعتقدات في إفريقيا جنوب الصحراء و يعتقد وثنيوا السودان الغربي أن الإنسان لما يموت تنتقل روحه وتجوب الكون وبهذا فإن الأسلاف يسكنون أرض الأرواح إذا حققوا أموراً معينة في حياتهم، ويعتقدون أن الحال التي مات عليها الشخص هي التي تحدد درجته ورتبته في هيكل الأسلاف فالشخص لكي يصبح من السلاف لابد له من حياة سابقة ذات قيمة فلا يدخل في الأسلاف من مات ميتة غير سوية [4]،وهذه النظرة والشروط التي تؤهل الروح الشخص لكي تدخل عالم السلاف قد تشابهت فيها كل قبائل البلاد السودان الغربي[5] ،كما اعتقدوا بخلود الروح و مع أنها تبقى على صلة بعالم الأحياء ، ولها

---

1 – سليجمان ،السلالات البشرية في إفريقيا ،تر:يوسف خليل ، مكتبة العالم العربي ،القاهرة ، 1379هـ/1959م ، ط1، ص123 .

2 – حسين مرزوقي،بلاد السودان في كتب الجغرافيين والرحالين العرب والمسلمين إلى حدود القرن الثامن الهجري ، مجمع الأطرش للكتاب المختص ،تونس ،ط1 ،2018 م ،ص166.

3 – عبادة الأسلاف (Ancestor Worship)هو المصطلح الأكثر تداولا عند الباحثين الأنتروبولوجيين الأفارقة مثل هربرت سبنسر عام 1885 في كتابه مبادئ علم الاجتماع principles of sociology ، حيث استخدمه بناءا على تأمله الخاص لعقائد الغرب الإفريقي ، وصار هذا المصطلح شائع الاستعمال عند الكتاب الأفارقة لوصف أديان المنطقة، ينظر : عاصم محمد حسن محمد ، الديانات التقليدية في غرب أفريقيا مدخل دراسي ،https://www.qiraatafrican.com 2017-07-10. 22:15.

4 – صافي الدين محمد ،إفريقيا بين الدول الأوروبية،مكتبة مصر ،القاهرة ، 1959م،ص77 .

5 – عليان رشدي ، الأديان دراسة تأريخية مقارنة ، الديانات القديمة ،مطبعة وزارة التعليم العالي ،بغداد ،ط1،ص33.

القدرة على تحقيق الخير والشر للبشر وهي تراقب أفعال البشر ومن أجل ذلك تقدم القرابين لها في العديد من المناسبات والطريقة الشائعة بين القبائل الوثنية في الاتصال بالأسلاف هي طقوس الإراقة ، التي قد تشتمل أحياناً على تقديم قرابين من طعام وخمر، وقد يمارس هذا الطقس فردياً وجماعياً، فقبل أن يشرب المرء منها يراق البعض منها على الأرض ، كما قد تكون بعض المقادير من الحبوب والثمار والماشية ، كما كانوا يعتقدون بعدم فناء الميت لأن الروح تبقى وتنتقل إلى عالم آخر وقد يلجأ إليهم لطلب الشفاعة وتحقيق الخير لهم وفي حياتهم اليومية ومن وجهة نظر هؤلاء لا يوجد موت بالمعنى الشائع، بل يؤمنون بخلود الروح والأموات عندهم يعاملون كأنهم مازالوا على قيد الحياة، فالموتى قد انتقلوا فقط من عالم مادي إلى عالم روحي دون أن يقطعوا الاتصال مع الأحياء .

كان هذا أحد أهم الأسباب التي جعلت أهل هذه البلاد تتخلف حضاريا ومن زاوية أخرى فقد اعتقدت بعض القبائل أن الروح تأتي من الغرب رابطين ذلك بغروب الشمس [1]، وأن تقديم القرابين ضروري لإرضاء الأسلاف (الآباء والأجداد) وان لم يفعلوا فان أرواح الأسلاف لها الحق في معاقبة المسيئين [2]،أما وسيلة التخاطب التي استخدمها أهل السودان الغربي مع أسلاف هي ارتداء الأقنعة في المراسم و الأعياد المقدسة وأشهرها عيد الغول[3] ،حيث يرتدي المحتفلون الأقنعة وكانت بعض هذه الأعياد تتكرر في نهاية كل ستين عام قصد تبديل القناع الأكبر بقناع جديد لان القناع الأكبر عندهم هو حامل روح الجد الأول للقبيلة والقناع عبارة عن تمثال من الخشب يمثل أفعى هائلة تنتهي برأس دقيقة ، ويضحى عنده بحيوان أو طير وكل قرية كان لها قناعها الخاص وتستمر هذه الأعياد اثنين وعشرين يوما بين الرقص والتنقل واحتساء الخمر[4].

لقد ارتبطت عبادة الأسلاف ببعض الطقوس الأخرى متعلقة بالوشم والخدش والفصد التي يقوم بها الساحر الطبيب كتجربة جسمانية قاسية يثبت من خلالها شجاعته على تحمل

---

[1] – اسود عبد الرزاق محمد ، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ، ج1 ،بيروت ،1980 ص30 .

[2] – ديشان هوبير ، الديانات في أفريقيا السوداء ،ترجمة : أحمد صادق حمدي ، مراجعة : محمد عبد الله دراز ، دار الكتاب المصري ، القاهرة : 1956 ،ص 105 .

[3] – الالوري ادم عبد الله ، المرجع السابق ، ص116 .

4 – هوبير ديشان ، المرجع السابق ،ص54 .

الآلام دون الصراخ أمام أفراد القبيلة ،وهذا ما يجعله في نظرهم قادرا على تحمل القوى السحرية الغيبية التي تمنحها له أرواح الأسلاف باعتبارهم على اتصال دائم ومباشر مع العالم الخارجي[1]،والوشم والخدش بصفة عامة عند المجتمعات البدائية الإفريقية هي ممارسة السحر في الجسم حيث اكتسب الخدش طبيعة سحرية روحانية عقائدية وبقدر تحمل الألم من جراء شق الجلد وخدشه بأدوات حادة تكون قدرته على اكتساب قوى سحرية تمكنه من التحكم في الأفراد والسيطرة عليهم وهي كلها مستمدة من أرواح الأسلاف [2].

ب- **السدانة :**

لقد كانت معظم المعتقدات الوثنية في بلاد السودان الغربي تمارس بواسطة مجموعة من الطقوس الاحتفالية للتقرب من الآلهة ، والذين يقومون على هذه الطقوس هم السدنة أي الوسطاء بين الآلهة وعابديهم والمترجمون لحياتهم وهم من يترأس هذه الطقوس ، وقد كانت مهام السدنة متعددة في المجتمع الإفريقي خلال العصور الوسطى ومازال قائما إلى اليوم في بعض المناطق التي مازالت تمارس الطقوس الوثنية القديمة فمنهم سدنة الأوثان ومنهم من يعدون حكماء وأطباء شعبيون كالعلاج بالأعشاب ومنهم من يعد للطب الروحي كطرد الأرواح الشريرة من أجسام العباد، و منهم من يعدون قضاة لقبائلهم في المنازعات القبلية ، و لم تكن هذه الوظيفة مقتصرة على الذكور فقط بل حتى الإناث يمكنهم تقلد هذه المهمة ، وقد تمتع هؤلاء السدنة كل الاحترام والتقدير من طرف القبيلة ، وفي غالب الأحيان كانت السدانة تورث في بيت معين من القبيلة أما الأشخاص الذين يرشحون للسدانة يجب عليهم إثبات كفاءتهم ، والطريقة الوحيدة التي تؤدي للحصول على هذه الرتبة هي أن يتلبس الإله أو الروح المعينة بالمرشح خلال ممارسة الطقوس[3].

1 – حسين عباسي ، الوشم لدى قبائل أفريقيا الوسطى : الذات والموضوع ،مجلة الثقافة الشعبية الالكترونية ،العدد13 ، 2011، ص90.

2 – حسين عباسي ، المرجع السابق ،ص92 .

3- Kofi Asare Opoku ,West African Traditional religion ,FEP International Private Limited ,1978,p75.

ج- **تقديس الملوك والحكام :**

لم يختلف هذا المعتقد عن غيره في باقي البلدان فقد لقي الملوك تعظيما كبيرا من قبل رعيتهم معتبر ينهم آلهة وهم مصدر القوة الخارقة ويعتقد بعض الوثنيين أن هذه الآلهة أبناء للرب ورسل له وبعضهم يعتقد أنهم وكلاء له على الأرض وكان قسم منهم يختص بحماية المجتمع والقبيلة وكان الملوك يحتكرون التجارة وليس لسلطتهم حدود، وقد كانت الرعية تقدم حتى القربان البشرية له [1] وقد أشار الحموي إلى مثل هذه الطقوس حيث قال : " وديانتهم عبادة ملوكهم ،ويعتقدون أنهم الذين يحيون ويميتون ، ويمرضون ويصحون .... أما الملك فيسترق من يشاء منهم .... وهم يعظمونه ويعبدونه من دون الله تعالى ، ويتوهمون أنه لا يأكل الطعام ..." [2]. ومن بين الطقوس كذلك تقديم ضحايا بشرية كقرابين أثناء دفن الزعيم ، فتتم التضحية بهم من أجل إرضاء روح الزعيم ، وتصل حتى دفن بعض الخدم والعبيد وأحيانا بعض المقربين للملك إلى جانبه حتى يقوم على خدمته في الحياة الأخرى ، وتعتبر هذه القرابين بمثابة عملية تواصلية ، تتكفل برفع الأخبار للحاكم أو الزعيم المتوفى ، حيث تعرفه بأحوال القبيلة وكل ما يقع فهذه الطقوس تضمن استمرارية سلطة الزعيم رغم مفارقته للدنيا فتتحول سلطته إلى نوع آخر لا يقل أهمية على ما كان عليه في الدنيا، ومن خلال ذلك كله يتضح لنا أن ملوك بلاد السودان الغربي قبل الإسلام قد تم تقديسهم لكونهم يمثلون الآلهة أو الواسطة بين الرعية والآلهة .

د- **عبادة الدكاكير (الأصنام) :**

عرفت شعوب أفريقيا جنوب الصحراء عامة وبلاد السودان الغربي خاصة عبادة الأصنام أو ما عرف بالدكاكير حيث كان لكل مجموعة بشرية صنم خاص بهم يصنعونه من مواد مختلفة كالخشب أو البرونز أو الطين والحجر كما أنهم كانوا يتقربون لها بالقرابين المختلفة الأحجام والأنواع وقد ذكر البكري ذلك حيث قال : " مدينة تكرور أهلها سودان وكانوا

[1] - نعيم قداح ، المرجع السابق، ص88 .

[2] - الحموي ، معجم البلدان : ج3 ، دار الفكر بيروت لبنان ، د/ت ، ص142 .

على ما كان سائر السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير ، والدكور عندهم الصنم ..."[1] وقال كذلك : " ولهم ملك كبير وملوك تحت يده ، وفي بلدهم قلعة عظيمة عليها صنم في صورة امرأة يتألهون له ويحجونه ".[2]

ه- الطوطمية [3]:

قام سكان السودان الغربي بتقديس النباتات والحيوانات معتقدين أن أجدادهم الأوائل منحدرين منها ، وقد وجد طوطم الجنس والشخص وحتى القبيلة فعبدوا الحيوانات وامتنعوا عن صيدها وأكل لحومها [4] وقد ذكر الحموي في حديثه عن سكان زافون أو زافقوا [5] بأنهم كانوا يعبدون ثعبان عظيما له مكانة كبيرة في حياتهم حتى أنهم كانوا يشركونه في اختيار ملكهم من خلال تقريب أبناء الملك المتوفى من الثعبان ومن ينفخ في وجهه يصبح هو الحاكم [6] ، وتقديس الأفاعي عرفت كذلك عند أهل غانة فقدموا القرابين البشرية كالفتيات واعتبروا قتلها جلب للمصائب للأهل المدينة وأن هذه الأفاعي تحتفل بتتويج الملوك بخروجها من الأوكار[7] .

وتقول الأسطورة أن سبب خوفهم من الأفاعي جاء بعد قتل مجموعة منهم لثعبان كان يعبده أسلافهم وذلك بعد أن ضاقوا ببطشه بهم ، ولكنهم ندموا على قتله لأن محاصيلهم

---

[1] - البكري ، المسالك والممالك ،تحقيق وتقديم :أدريان فان ليوفن وأندري فيري ،ج2 ،الدار العربية للكتاب ،1992 ، ص868

[2] - البكري ،ج2 ، المصدر السابق ،ص883 .

[3] - الطوطمية : و هو معتقد أو ديانة اعتنقتها القبائل البدائية ، يمثل دور الرمز للقبيلة، وأحيانا يقدس باعتباره المؤسس أو الحامي. حيث تتخذ كل قبيلة حيوانا أو نباتا أو كوكبا أو نجما وشيء آخر من الكائنات أبا لها أو حاميها و أول من أدخل اصطلاح الطوطم إلى اللغة الإنجليزية هو الرحالة ج. لونك عام 1791 إذ استعمله في كتابه "رحلات مترجم هندي وأسفاره"، واستعمل كلمة الطوطمية في الدراسات الأنثروبولوجية لأول مرة العالم الإسكتلندي ج. مكلينين في عام 1870 عند كتابته مقالا بعنوان "الطوطمية." ينظر: حمد حسن علي ، قاموس المذاهب والأديان ،دار الجيل ،ط1 ، بيروت لبنان 1998 ،ص22 .

[4] - الألوري أدم عبد الله ،موجز تاريخ نيجيريا ، دار مكتبة الحياة ،بيروت لبنان 1965 ،ص115 .

[5] - زافون أو زافقوا :مدينة في بلاد السودان وهي مجاورة لبلاد المغرب وهي متصلة ببلاد الملثمين ،ينظر : الحموي ، معجم البلدان :ج3 ،ص127 ، تاريخ الفتاش ،محمود كعت ، وتكملته تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ،ابن المختار، تحرير وتقديم :ولد السالم ، دار الكتب العلمية ط1،2012 ،ص89 .

[6] - الحميري ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، بيروت 1989 ، ص132 -133 .

[7] - نعيم قداح ،أفريقيا الغربية ،المرجع السابق ، ص34-35 .

تأثرت بسبب شح السماء ضنا منهم أن انحباس المطر جاء بسبب ذلك وأن السماء غضبت عليهم، كما تسبب لهم ذلك في تحول مناطق الذهب إلى مناطق أخرى وفي الحقيقة أن وجود هذه الزواحف الضخمة كانت تشكل أكبر تهديد لحياتهم وحياة حيواناتهم لأنها كانت قادرة على ابتلاع إنسان بأكمله .

مازالت هذه الأفاعي موجودة إلى يومنا هذا في المستنقعات ، وقد وصلت حالة الخوف عندهم إلى درجة أنهم لا يمشون على أثرها مخافة الموت ولا يجرؤ أحدهم على حمل أداة لقتلها مخافة الموت[1]، كما أنهم عبدوا الأشجار وقدموا لها القرابين من أجل استرضائها [2] .

نلاحظ من خلال ما ذكرناه أن أهل بلاد السودان الغربي قد ربطوا عباداتهم بالحيوان والغابة وهذا شيء طبيعي لأنه المحيط الذي عاشوا فيه ،ومن معتقداتهم كذالك تقديسهم لعناصر الطبيعة كالمياه و النجوم والأرض حيث أورد محمد بيلو في ذكره لسكان إقليم برنو :" ويفعلون للبحر كما كانت تفعل القبط للنيل أيام الجاهلية ولهم في ذلك أعياد يجتمعون فيها وسلاطينهم ، ويسمون ذلك عادة البلد ..... فإن لم تفعل تلك العادة بطلت معايشهم ، وقلت أرزاقهم ، وضعفت شوكتهم ، وتوارثوا هذه العوائد كابرا عن كابر ...." [3] . و في نفس الصدد قدست قدست أقوام أخرى حيوانات أخرى كالتمساح والبومة وخاصة في بحيرة تشاد وكان الخروف من بين أهم الحيوانات المقدسة في السودان الغربي حيث كثيرا ما كانت صناعة الفخار تحمل مجسمات لهذا الحيوان والراجح أن عبادة الخروف وصلت إلى هذه المناطق من مصر [4].

كانت القبائل السودانية تجعل من رأس حيوانها المقدس "طوطما " يتم الاحتفال به وتصنع منه شارة على بيوتها أو سيوفها أو وشما على صدور رجالها ـــ ويبقى هذا الحيوان الطوطم محترما لدى القبيلة جيلا بعد جيل ، ويبقى الرمز الطوطمي لهذه القبيلة مثبتا على أجسامهم وملابسهم وأغطية رؤوسهم وأقنعتهم وأسلحتهم وخيامهم وتوابيتهم وحتى على

---

[1] – المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،ج1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ،د/ت ،ص195 .

[2] – سيلا عبد القادر محمد ، المسلمون في السنغال معالم الحضارة وأفاق المستقبل ، سلسلة كتاب الأمة ،ط1،قطر 1406 هـــ ، ص 40 -41 .

[3] – بيلو، المصدر السابق ،ص9

4 – ديشان ، المرجع السابق ، ص36 .

قبورهم [1]. وقد ارتبط ارتداء الأقنعة الطوطمية بالسحرة والعرافين وهم الذين يعالجون المرضى كما سبق وأن ذكرنا وهذا بالوشم والوسم والخدش ، وكانت تعني تلك الأقنعة التي يرتديها ذلك المداوي هي بمثابة حضور لروح الأجداد التي تأتي بالشفاء العاجل له .أما عندما يموت ذلك الكاهن أو العراف أو كبير القبيلة وقبل دفنه يقوم أفراد القبيلة بنحت قناع له وينقلون الرموز والخدوش الموجودة على جسده إلى القناع ، ومن ثم يبدؤون في تقديس ذلك القناع من خلال استعماله في طقوسهم الاحتفالية ويصبح ذلك القناع ذو قوى سحرية بموجب انتقال القوى الغيبية من جسد الكاهن إلى القناع عن طريق عملية الخدش التي أقيمت على القناع[2]، وقد استعملت عدة أنواع من الأقنعة عند القبائل الإفريقية بشكل عام والقبائل السودانية في غرب القارة بشكل خاص فمنها ما يحمل العديد من الرموز التي تشبه رموز الوشم والخدش في جلود الأفارقة الزنوج ويستخدم هذا النوع في احتفالات التأهيل ،كثقب الجلد وخدشه والختان وثقب الأذن والأنف والولادة وسن البلوغ والزواج وتنصيب سيد القبيلة وجمع المحاصيل والصيد، وكانت هناك الأقنعة العاجية التي استعملت للاجتماعات البشرية والممارسات السحرية ،أما الأقنعة الخشبية فقد استعملت لحماية أفراد العائلة من الأرواح الشريرة ومن الشياطين ومن الجنون كذلك[3] .

من خلال ما ذكر نلاحظ أن الأقنعة والرموز الإفريقية كانت تحمل قيمة دينية واجتماعية للمجتمع الإفريقي ، وكانت للألوان التي تزين بها الأقنعة دور في التعبير عن الهيئة الطوطمية فمنها من كانت ذات هيئات مركّبة متنوعة الألوان وغريبة الشكل ولكن رغم ذلك كانت توضع في الساحات العامة كمقصد لأفراد القبيلة [4]. ينظر الملحق .

1 – زينب عبد التواب رياض خميس،الطوطمية بين السحر والدين في عصور ما قبل التاريخ بإفريقيا ، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة المسيلة ،مجلد 7، العدد 14،2018 ،ص249 .

2 – حسين عباسي ، المرجع السابق ، ص94 .

3 – المرجع نفسه، ص94-95 .

4- زينب خميس،المرجع السابق ، ص 252.

و- المجوسية [1]:

أشارت العديد من الكتابات التاريخية إلى انتشار المجوسية في بلاد السودان الغربي حيث يذكر الوزان" أن الأفارقة منذ قديم الزمان مجوس على غرار الفرس الذين يعبدون الشمس والنار وكان لهم معابد مزدانة تكريما لهذه وتلك وكانت النار توقد داخلها وتحرس ليل نهار حتى لا تنطفئ "[2] ، وقد عرفت قبائل أخرى على طول الحدود المتاخمة للصحراء جنوبا من شرق أفريقيا إلى غربها معتنقة للمجوسية كالزهري :" اعتناقهم المجوسية ولكفرهم لا يدخل إليهم أحد ،ولا يجلب إليهم من الأمتعة شيء ..." [3] .

2- الديانات السماوية :

لقد اتفق العديد من بحث في ديانات الشعوب على أن فكرة الوحدانية كانت موجودة رغم ما يشوبها من معتقدات وثنية في أفريقيا جنوب الصحراء عامة والسودان الغربي خاصة وهذا شيء طبيعي وفطري بالنسبة للإنسان[4] ،فأصل معتقد بعض أهل السودان الغربي الإيمان بوجود اله واحد قادر وخالق عظيم متعال ولكنهم يختلفون عن باقي الديانات السماوية في كيفية ربط الصلة به وطريقة عبادته والجدوى من ذلك ،وهذا راجع إلى اكتسابهم لمفهوم الألوهية من احتكاكهم بالبيئة المحلية لمدة طويلة وهذا بالطبع لم يتأت لهم من خلال رسالة سماوية أو دعوة دينية . وقد أشار الوزان إلى ذلك بقوله : " إن بعض الأفارقة السود كانوا يعبدون كيغيمو ، ومعناه في لغتهم رب السماء وقد أحسوا بهذا الشعور الحسن دون أن يهديهم إليه نبي أو عالم ..." [5] .

كما نجدهم قد أقاموا له الصروح والمعابد وقد رويت الكثير من القصص طغى عليه الطابع الخرافي حيث هناك أسطورة حول أول الخلق ومفادها أن الخالق الأعظم خلق طفلين وأن

---

1 – المجوسية : مجوس Magi كلمة فارسية أطلقت على أتباع الديانة الزرادشتية، وهي ديانة وثنية تقول بوجود إلهين اثنين، الأول إله الخير أو النور (أهورامزدا) والثاني إله الشر والظلام (أهريمان)،ينظر :قاموس أديان ومعتقدات شعوب العالم ،تأليف مجموعة من المؤلفين ،مكتبة دار الكلمة القاهرة ،ط1،2004 ،ص460 .

2 – الوزان ، المصدر السابق ،ج1،ص76-77 .

3 – الزهري ، كتاب الجغرافيا ،تحقيق ،محمد حاج صادق ،دمشق : 1968 ،ص125 .

4 – ديشان ، المرجع السابق ،ص44 .

5 – الوزان ، المصدر السابق ،ج1 ،ص54 .

كل الكائنات الحية الأخرى نشأت منهما وهذا ما جعلهم يقدسون روح الأسلاف ، كما أنهم اعتقدوا بوجود الجن والأرواح السفلية وآمنوا كذلك بالحياة السرمدية ،حيث كانت وضعية الإنسان ما بعد الموت قد شغلتهم وأخذت من حياتهم حيزا كبيرا ، وهذه الدلائل كلها تشير إلى أن بلاد السودان الغربي كانت لها القابلية لتقبل ديانة جديدة تنادي بوحدانية الله [1] جسدتها الديانات السماوية فيما بعد ووجدت في أهل هذه البلاد قبولا لها رغم ما كان يشوب هذه البلاد من جهل وقلة الاتصال .

أ- اليهودية :

توغلت اليهودية إلى شرق أفريقيا جنوب الصحراء ولا يعرف بالتحديد متى وصلوا إلى هذه المناطق والأرجح أنهم هاجروا إليها بعد دخول الملك نبوخذ نصر[2] سنة 586 ق م إلى بيت المقدس وما قام به اتجاههم من تقتيل وأسر وهناك رأي آخر يقول بأنهم وفدوا إلى أفريقيا في العهد البطلمي[3] في مصر .وقد عرف اليهود الذي توغلوا في شرق أفريقيا بيهود الفلاشة [4] كما يسمون باليهود السود .أغلب الدراسات أشارت إلى أن معظم اليهود عاشوا منعزلين حيث لم يكن أحد يرضى بمعاشرتهم حيث أشار الوزان إلى ذلك عندما تحدث عن حاكم مدينة تمبوكتو فقال :"كان حاكم تمبوكتو عدوا لدودا لهم لا يريد أن يقطن أحدا منهم في المدينة وإذا علم بمخالطتهم أو الاتجار معهم صادر أموال ذالك التاجر ..." [5].

من الملاحظ أن اليهود الذين توغلوا في السودان الغربي ازداد حرصهم على التحكم في الطرق التجارية وخاصة المدن التي بها المحطات التجارية وخصوصا تجارة الذهب فكان لهم

---

[1] – قداح ، حضارة الإسلام ، ص41 .

[2] – نبوخذ نصر : أحد الملوك البابليين حكم البلاد من 605 ق.م إلى 571 ق.م تمكن خلال فترة حكمه من توطيد أركان الدولة البابلية فتوسع في بلاد الشام وعلى حساب الدويلات السورية وقام بسبي اليهود فساق الكثير منهم إلى بابل. ينظر باقر طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد 1971 ،ص84 ص85 .

[3] – العهد البطلمي : دولة حكمت مصر بداية من عام 323 ق.م وتنسب لبطليموس بن لاجوس وهذا بعد اقتسام إمبراطورية الاسكندر الأكبر ينظر: باقر طه ، المرجع السابق ،ص84 ص85 .

[4] – هي مشتقة من كلمة فلاي أو (Flasha) وتعني بالعبرية المهاجر أو الغريب أو المنفي .ينظر :شهاب الدين الجيزاني، تحفة الزمان أو فتوح الحبشة ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ،القاهرة، 1974 ،ص344 .

[5] – الوزان ، المصدر السابق ،ج2 ،ص167 .

حضور اجتماعي وسط المسلمين كما سكنوا مدينة سلجماسة[1] التي أنشأها الخوراج الصفرية عام 140للهجرة 751 م على حدود الصحراء مع بلاد السودان القديم وتقع على خط تجارة الذهب وانتشر اليهود كذلك في مدينة اغمات ومنطقة درعة وإقليم نادلا وجبال فازاز ومنطقة قمنورية وهى ما يعرف اليوم بموريتانيا وكلها اشتهرت بكثافة يهودية واشتغل اليهود بها بالتجارة والسمسرة والخدمات السريعة لوجود المحطات التجارية واشتغلوا كذلك بصناعة الذهب وسك العملة وكانوا يطمعون في الوصول لمنابع الذهب وتمتعوا بحرية دينية كبيرة .وقد اجمع الكثير من المؤرخين على أن هجرات اليهود إلى الصحراء قديم لكن رغم ذلك ظل اليهود يدعون بالجالية ، والغالب أن هذه الهجرات كانت في القرن الثاني للميلاد بين سنتي 132م و135م[2] وتشير دراسات أخرى إلى أن أقدم الهجرات إلى المناطق الصحراوية ترجع إلى القرن الأول الميلادي وذلك من خلال بعض الشواهد لقبور بعض اليهود في جنوب المغرب حيث أشارت إلى عام05 ق.م [3] و لم تتوقف الهجرات إلى هذه المناطق إلا في القرن 9 هـــ /15 م .وقد حددت عدة مسالك لهجرات اليهود إلى بلاد السودان الغربي كان أهمها أربعة مسالك[4]:

– الطريق الأول : عبر الموصل وبلاد الشام ومصر وليبيا وتمنطيط .

– الطريق الثاني : ينطلق من الحجاز (خيبر) باتجاه الشام ومصر ،واتجاه آخر نحو اليمن والحبشة وليبيا و تمنطيط وتوات نحو الجنوب .

– المسلك الثالث : نحو جبل نفوسة وميزاب وتمنطيط وتوات .

– المسلك الرابع : من بلاد الأندلس نحو بلاد المغرب الأقصى باتجاه بلاد السوس ودرعة ثم تمنطيط جنوبا إلى ماوراء الصحراء وباتجاه تافيلالت وباقي بلاد السودان .

---

1 – سجلماسة : هو اقليم يحمل اسم عاصمة يخترق سجلماسة نهر زيز الذي يصب مابين جبال الأطلس الكبير فيمر بغرس العيون وكنانة والمداغرة والرتب ،ويمتد إقليم سجلماسة على مسافة طولها أربعون فرسخا ونيف ،وأهله برابر ينتمون إلى قبائل زناتة و زناكة و هوارة المتاخمين لبلاد المرابطين ، وهي مدينة على نهر يقال له زيز وليس بها عين ولا بئر وأهلها أخلاط والغالبون عليها بربر .ينظر : اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب ،كتاب البلدان ،مطبعة بريل ،ليدن ،1860،ص150، وكذلك : مارمول كربخال ، المصدر السابق ،ج3،ص152.

2- Oleil (Jacob), Les Juifs au sahara ,Le Touat au Moyen Age ,CNRS ,Paris,1994,p17 .

3 – محمد أعفيف ،مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب المغربي توات في القرن 19م ، ص65.

4- Oleil, Op cit ,p14.

رغم هذا التواجد للجالية اليهودية في هذه المناطق إلا أنها ظلت محدودة وقد سجلت لنا المصادر الكثير عن محاربة محمد بن عبد الكريم المغيلي للجالية اليهودية في توات وكيف كانت تستأثر بزمام الأمور في المنطقة حتى أنهم تحكموا بتجارة الذهب .وفي هذا الخصوص فإن المؤرخ محمود كعت من بين مؤرخي السودان الغربي الذين أكدوا على وجود فترة يهودية في غرب إفريقيا وهو يذكر أن اليهود كانت لهم مملكة في الصحراء الكبرى اتخذت عاصمة لها مدينة تمنطيط[1] التي تقع على طريق النخيل الممثلة في مجموعة من الواحات ممتدة على مسافة 800ميل تتم صيانتها بالفجّارا[2]، و يضيف كعت أن الأسكيا محمد رأى حلما عن بني إسرائيل وهو الأساس الذي بنى عليه ديلافوس(1870 م- 1926 م) نظريته على الوجود اليهودي في هذه المنطقة أما السعدي صاحب تاريخ السودان فلا يقول بهذه المقولة . ومع ذلك فإن هذه الفئة تبقى قليلة الذكر في إفريقيا الغربية.

ب- المسيحية :

عند التحدث عن المسيحية فإنها قد توغلت إلى أفريقيا جنوب الصحراء انطلاقا من الحبشة (إثيوبيا) والتي انتقلت إليها المسيحية من الإسكندرية ، ومن أجل ذلك فهاتان النقطتان هما المنطلق للديانة المسيحية إلى باقي القارة الإفريقية .وكانت بداية القرن الرابع إيذانا لدخول المسيحية إلى القارة فظهرت ممالك مسيحية في شرق القارة وتمتع الملك المسيحي فيها بصفة الألوهية لكنهم من جانب آخر جمعتهم صفة واحدة مع مسيحي مصر وهي طبيعة الألوهية للمسيح مع نفي صفة البشر عنه ويعرف أصحاب هذه المبدأ بأصحاب الطبيعة الواحدة [3].

وقد وجدت بعض التعاليم المتشابهة مع تعاليم الإسلام كالاختتان و الاغتسال من الجنابة[4] وعدم اقتراب الزوج من زوجته وهي حائض أو نفساء [5]، ورغم ذلك اختلطت

---

1 - تمنطيط تقع في قلب إقليم توات وعلى بعد 12 كلم من أدرار في الجزائر .

2 - الفجارا أو الفقارة هي نمط تقليدي للانتفاع بالمياه الجوفية في المناطق الصحراوية وهي عبارة عن قنوات باطنية تستخدم للسقي من خلال النفق الضيق الذي يكون تحت الأرض يربط سلسلة من الآبار .ينظر : حوتية محمد الصالح ، المرجع السابق ،ص ص84-85 .

3 - سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ اوربا في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي ، بيروت ،لبنان،1962،ص41 .

4 - الحموي ،المصدر السابق ، ج5،ص309 .

5 - محمود سلام زناتي ،تعدد الزوجات لدى الشعوب الافريقية ،القاهرة ،مصر ،1963،ص15 .

العادات الوثنية مع تعاليم المسيحية وهذا ما ذكرته الرحالة كالتشريط ، والوسم على الوجوه والأجسام عند الجنسين،وهذا ما ذكره الإدريسي [1] .

نستنتج من خلال ذلك أن المسيحية كانت تقريبا غير موجودة بشكل ملموس في بلاد السودان الغربي مثل ما كان للإسلام في هذه البلاد وهذا حتى وصول الهجمة الاستعمارية الأوربية حيث كان شغلها الشاغل إلى جانب استغلال القارة وشعوبها هو نشر المسيحية بكل الطرق مع بداية القرن السادس عشر .حيث ازدهر النشاط التمسيحي المرتبط بالاسترقاق على طول الشريط الساحلي للقارة الإفريقية وكان أول مركز تنصيري في بلاد الهوسا نيجيريا الحالية في حدود عام 1571م ، واستمر توغلها في أعماق القارة مع بداية القرن السابع عشر الميلادي[2] .

[1] – الإدريسي :صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (ماخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)،مطبعة بريل ،ليدن ،1968 ،ص27 .

[2] – عثمان برايما باري ، المرجع السابق ،ص 86 .

ثالثا : المظاهر الاجتماعية في السودان الغربي قبيل الإسلام :

تميزت الحياة الاجتماعية في بلاد السودان الغربي كغيرها في سائر البقاع بخصوصيات وملامح انفردت بها عمن سواها ، وذلك راجع لكون الإنسان بشكل عام مرتبط بالبيئة التي يعيش فيها فكما يمكن له أن يؤثر فيها فهي الأخرى حتما تؤثر فيه .فبحكم بيئة هذه البلاد التي تحدها الصحراء شمالا وهي بمثابة حاجز طبيعي فإنها قد ساهمت بشكل أو بآخر في عزلة المنطقة عن الحراك التي كانت تعرفه المناطق الشمالية لإفريقيا ، ومن أجل ذلك سنحاول أن نعطي بعض المعالم التي ميزت المجتمع في هذه المنطقة من القارة الإفريقية ، سواء في البدو أو الحضر .

1- النظام الأسري :

يبنى أي مجتمع بشري على لبنة أساسية وهي الأسرة ، التي تتشابه من حيث المكونات في كل المجتمعات الموجودة التي تعتنق ديانة في بادئ الأمر ولكن تختلف في طبيعة العلاقة الموجودة بين أفرادها تبعا لاختلاف معتقدها ،ومن أجل ذلك سنذكر طبيعة النظام الأسري في بلاد السودان الغربي قبيل الإسلام .

- مكانة المرأة :

إن الحديث عن المرأة في بلاد السودان الغربي قبيل الإسلام يحتم علينا ذكر ما كانت عليه من عدم الاحتشام والعفة وحيات البهيمية ،حيث كانت لا تكترث إحداهن بالمحافظة عل عفتها ولا بأخلاقها إلى جانب ظاهرة العري التي ميزهن في كثير من مناطق هذه البلاد [1] ، وقد ذكر في هذا الخصوص البكري ما يدعم ذلك " والزنا عندهم مباح وهن يبادرن التجار ... ويأخذونهن إلى بيوتهن [2]" وعلى الرغم من ذلك فقد كان للمرأة دور مهم وخاصة الحرائر منهن حيث كان لها الحق بالاحتفاظ بثروتها كما كان الإفريقي يحمل اسمه ثم اسم أمه أو قبيلتها لان النظام العائلي كان يقوم على سيطرة الأم [3].

[1] - ينظر : الوزان ،المصدر السابق ،71/1 ، 176/2 ، المقريزي ،المصدر السابق ،194/1، محمد بيلو ، المصدر السابق، ص11.

[2] - البكري ، المصدر السابق ،ص182 .

[3] - نعيم قداح ،افريقيا الغربية في ظل الإسلام ،مراجعة عمر الحكيم ،دمشق:1960،ص95.

كما ساهمت في مساعدة زوجها في مختلف الأعمال ،وبما أن المجتمع كان وثنيا فقد سجلت لنا المصادر بعض العادات الوثنية فيما يتعلق بتعدد الزوجات دون شرط العددأو القدرة المادية وكذا الجمع بين الشقيقتين [1]، ومما كان يعرف ن المرأة كذلك أنها كانت تنكح بدون صداق أو مهر[2] ولا يسمح لها بالميراث فلا تورث الأخت ولا البنت وخاصة التي تتزوج من رجل من خارج القبيلة أو العشيرة وهذا مخافة أن تنتقل الأموال إلى قبيلة أخرى من جهة الزوج [3] ، ومع ذلك كانت المرأة تدلي بدلوها وتشارك في شؤون السياسة والحكم خاصة في بلاط الحكم [4].

– الزواج :

تميز الزواج في بلاد السودان الغربي بالعادات الوثنية التي لا تختلف على باقي الممارسات ومن أكثرها انتشارا هو التبادل فالرجل الخاطب يعطي هو الآخر بالمقابل أخته أو قريبته لقبيلة خطيبته فتحدث المبادلة .وغالبا ما كان الزواج يشوبه نوع من الاستعباد بالنسبة للزوجين فالزوجة لا تبرح بيت زوجها وتقوم بكل الأعمال ، في البدو أو الحضر ولم تكن لها حرية التصرف في شؤون البيت إلا بعد الرجوع لزوجها رغم أنها تقاسمه عناء الحياة سواء في البدو أو الحضر . وهذا غالبا ما كان بسبب غلاء المهر فيكون الزواج بمثابة الشراء لهذه الزوجة ، وأما الزوج فغالبا ما كان يحمل أعباء صهره في كل متاعب الحياة ،كما كان الزوج لا يقرب زوجته أثناء الحمل وطيلة فترة الرضاع ولا يسمح لها بلمس مقتنياته[5]، ولم تكن تختلف معاملة الرجل لزوجته عن معاملته لحيواناته من قسوة وعدم الاكتراث لما قد يحدث لها [6].

نستنتج من خلال ذلك أن الروابط الأسرية والعلاقة بين الزوجين في بلاد السودان الغربي قبيل لا تربوا أن تكون علاقة غريزية لا غير لان الزوجة ظل دورها بعيد عن معناه

---

[1] – السعدي ، المصدر السابق ،ص5 .

[2] – الادريسي ،المصدر السابق ،ص6.

[3] –محمد محمد عوض ، المرجع السابق،ص268.

[5]- T.hodgkin,Nigerion Prespectives AnHistorical Atholoy (London : 1960) , P22.

[5] – محمود سلام الزناتي ، المرجع السابق ،ص15.

[6] – بعض هذه العادات بقيت مستمرة في المجتمعات الإفريقية حتى عهد مـــتأخر وذلك لعزلة هذه المجتمعات ،ينظر :دنيس بو لم ، المرجع السابق ، ص84 .

الحقيقي لكونها جزء أساسي في بناء الأسرة ،والزوج هو مصدر السلطة التي لا تناقش ولا تنتقد لأنه أصل الحياة والنسل [1].

- **الأبناء :**

تميز المجتمع في بلاد السودان الغربي كغيره في مناطق جنوب الصحراء الإفريقية بانتشار العلاقات المتعددة للمرأة وهذا ما سبق وأشرنا إليه من عدم المحافظة على العفة والشرف حيث ذكر الإدريسي: " وهم أكثر الناس فسادا ونكاحا وأغزرهم ابناءا و بناتا ،وقلما توجد منهم المرأة إلا وتبعها أربعة أولاد أو خمسة، وهم في ذاتهم كالبهائم لا يبالون بشيء من أمور الدنيا إلا بما كان من لقمة أو نكحة " [2]. كما يقول الوزان في هذا الشأن كذلك " هم كالبهائم بدون قواعد ولا قوانين وتكثر عندهم العاهرات والأزواج المخدوعون، إلا قليلا من النساء يعيش في أمهات القرى فلهن نصيب أوفر قليلا من الكرامة الإنسانية " [3] .

ظهر عدد كبير من الأطفال مجهولين النسب الذين لا يعرف آبائهم ،مما كان يعرضهم للوأد خاصة الذكور أما الإناث فيبقين عليهن لتصبحن جواري [4] وقد مورست هذه العادة لأسباب عدة كتزول المولود على قدميه أو منقوص من احد الأطراف وبشكل عام إذا جاء المولود على خلاف ما هو معهود فسيتم وأده بدعوى أنه نذير شؤم عل عائلته أو قبيلته ، وهذه العملية تقوم بها الأم في الغالب ومناف للطبيعة البشرية لكون الأم مصدر العطف والحنان ولا يوجد من هو أحن من الأم على ابنها [5]. إلى جانب ذلك فقد انتشرت في بلاد السودان الغربي الغربي وسائر المناطق في جنوب الصحراء الإفريقية ظاهرة أخرى هي الاتجار بالأبناء إذ يبيع الأب ابنه مقابل رؤوس من الماشية أو امتيازات أخرى ،كما يقوم برهنه مقبل دين بحيث في

---

[1] – هذه هي النظرة التي كانت سائدة في افريقيا جنوب الصحراء عامة والسودان الغربي خاصة للمزيد من الإطلاع ينظر: محمد عوض ،المرجع السابق ، ص 48 ، عبد المنعم شميس ،من الشرق والغرب – غانا – عادات وتقاليد ،القاهرة (د.ت)، ص55.

[2] – الإدريسي ،المصدر السابق ،ص33.

[3] – الوزان ،المصدر السابق ، ص71 .

[4] – المقريزي ،المواعظ ،المصدر السابق،194 .

[5] – محمود سلام زناتي ،نظم وعادات – مجموعة مقالات – دار النهضة العربية للنشر والتوزيع ،مصر ،1993،ص10.

حالة عدم السداد يحق للدائن التصرف في الابن [1] .وقد ظهر التبني في هذه المجتمعات بسبب الظروف الاجتماعية و الاقتصادية المتردية للأسر أو في حالة انفصال الزوجين ، ونادرا ما يبقى الطفل مع أمه لأن الأب هو الذي يأخذه للعيش معه ،كما يعتبر الابن البكر الذكر هو الأحق بالميراث عن بقية إخوته [2].وقد ذكر ابن بطوطة فيما يتعلق بالميراث فقال :"ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه ،بل ينتسب لخاله ،ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه ... "[3]

2- الموروث الاجتماعي و الثقافي :

تزخر المناطق الواقعة جنوب الصحراء بموروث ثقافي واجتماعي هائل ومنها بلاد السودان الغربي التي هي محط دراستنا فالمجتمعات الإفريقية موغلة في القدم مما جعل بعض العادات والتقاليد تمتد بجذورها لآلاف السنين مازالت مستمرة ليومنا هذا رغم أن المنطقة لم تبقى في غالبها وثنية كما كانت بسبب اعتناق مجتمعاتها عدة ديانات ومنها الإسلام الذي يطغى على بلاد السودان الغربي،إلى أننا نحاول أن نعطي لمحة على بعض العادات والتقاليد التي صورتها لنا المصادر التاريخية والجغرافية وابدوا دهشتهم لأنهم لم يروا مثلها أو يسمعوا عنها وسنسوق أهم هذه المظاهر من خلال ما ذكرته لنا المصادر .

- التعري :

عرفت المجتمعات الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء سواء في الشرق أو الوسط أو الغرب هذه الظاهرة ،سواء التعري الكامل للجسم أو جزء منه ولم يكن يشكل أي حرج لصاحبه ، وقد أشار ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد السودان الغربي بأن النساء يتجردن من ثيابهن إذا دخلن على السلطان في مجلسه [4] ، وهي حتما عادة موروثة منذ القدم أي قبل دخول الإسلام إليهم .وهذه الظاهرة مازالت مستمرة إلى يومنا هذا ، وكان البعض منهم يستتر بجلد الحيوانات أو بخرزات العقيق أو العظام المنظومة بخيوط [5].كما كان الرجال والنساء يرتدون العديد من الحلي الحلي المصنوعة من النحاس أو من الودع ويتزينون بها على أذرعهم و أعناقهم أو أقدامهم

---

[1] - القلقشندي ، المصدر السابق ،ص474.

[2] - البكري ، المصدر السابق ،ص179 .

[3] - ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ج2،ص370 .

[4] - ابن بطوطة ، نفس المصدر السابق ،ج2،ص375 .

[5] - الإدريسي ،المصدر السابق ،ص12،القزويني ،آثار البلاد وأخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ،1960،ص26 .

.عند بعض القبائل لم تكن النساء يسترن فروجهن إلا بقطع من القماش أو بشريط من الجلد [1] ،ومما أشارت إليه المصادر كذلك هو تشبه الرجال بالنساء في وضع بعض الأقنعة وأغطية الرأس حيث مورست هذه العادة حتى عند الملوك وهذا ما ذكر عن ملوك غانة الوثنيين [2].

– إقامة الطقوس و الاحتفالات :

تعددت أوجه الاحتفالات والطقوس وأسبابها عند أهل السودان الغربي كما اختلفت من قبيلة لأخرى ولعل أشهرها هي التي ترافق مراسيم التتويج بالحكم ، وهي تعبير عن فرحة القبيلة حيث يجتمع زعماء القبيلة وأعيانها ويقوم الكاهن الكبير بتتويج الحاكم[3] ، وقد وصفت المصادر مجلس الملوك وعروشهم الذي بالغوا في تزيينه بالفضة والذهب لتمتد حتى إلى الأواني التي كانت في المجلس والحيوانات التي تستأنس من قبل الملك [4]،ومما يجب الإشارة إليه كذلك هو ظاهرة التذلل وتعظيم الملوك وتقديسهم كتتريب رؤوسهم والتمرغ في الأرض والتعري بين يدي الملوك من أجل إرضائهم[5].

وقد ذكرنا فيما سبق بعض الطقوس المتعلقة بممارسة الشعائر الوثنية لدى قبائل السودان الغربي بشكل عام ،ومنها الاحتفال بالسنة الخصبة وعند هطول المطر وتقديم القرابين للآلهة[6]،وكانت من بين أهم الطقوس الممارسة في بلاد السودان الغربي هي اقامة التلقين وهو تهيئة الغلمان والفتيات و إعدادهم للانتقال من مرحلة الطفولة إلى مرحلة المراهقة ويقوم هذا التلقين على تثقيف ديني وخلقي في خلوة وعزلة ، ويتلقى الجنسان هذا التلقين كل منهما على حدا ويضم هذا الاحتفال التلقيني كل الأطفال من الخامسة إلى الخامس عشر وهذه الشعائر

---

[1] – محمود سلام زناتي ، المرجع السابق ،ص11 .

[2] – بعض الملوك كانوا يضعون على رؤوسهم بعض الأغطية تعرف بالطراطير وهي عل شكل طاقية مخروطية الشكل يرتديها الرجال والنساء ومنهم من كان يرتدي فوقها عمائم من القطن للمزيد ينظر : ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ص 373. وينظر :رينهارت دوزي ،تر: أكرم فاضل ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ،وزارة الاعلام العراقية،بغداد 1971،ص223.

[3] – الألوري ، المرجع السابق ،ص100.

[4] – يذكر البكري وابن بطوطة بأن ملوك السودان الغربي كانوا يزينون مجالسهم بالذهب ،ينظر : البكري ،المصدر السابق ،ص176 ،ابن بطوطة المصدر السابق ،ص373 .

5 – ابن بطوطة ،نفس المصدر السابق ص 373 ، العمري ،مسالك الأبصار ،الرباط ،1988 ، الباب 9 ،ص68 .

6 – بيلو ،إنفاق الميسور، المصدر السابق ،ص9 .

الأولى حد فاصل بين حياة الطفولة وبين حياة المراهقة إذ يعتقدون أن الطفل بعد اجتيازه هذه المرحلة قد مات ماضيه ،وأنه خلق خلقا جديدا ،وهي تختلف بين قبيلة وأخرى ومعظمها يبدأ مع بداية فصل الجفاف وترافقها عمليات الختان للجنسين لكن هذه العملية لم تكن عند كل القبائل بل بعضها أما الباقي فقد كان يقوم على حرج وجه الطفل بآلات حادة وهذا لتعلمه معنى التحمل ،ويبقى على هذا الحال لمدة تتراوح مابين خمسة عشر يوما وشهرا قمريا عند الإناث خاصة وبعدها تعطى الأطفال أسماء جديدة وتحرق كل ملابسهم في المكان الذي كانوا فيه .[1]

– ممارسة السحر[2] و الشعوذة[3]:

اشتهرت بلاد السودان بممارسة السحر سواء عند الرجال أو النساء وكثير ما كان يستخدم في التطبيب من الأمراض المستعصية ،وقد ذكر الإدريسي انتشار الساحرات في مدينة كوغة [4] ،وقد قسم السحر حسب معتقدهم إلى أبيض وأسود أي ضار ونافع حيث يستخدم السحر الأبيض أو النافع في خير الأفراد والجماعات كإبعاد الأوبئة والأمراض ،أو جلب المطر إذا تأخر سقوطه ، ومن يفشل في إسقاط المطر فإنه يتعرض للقتل . وفي الغالب كانت تسند هذه المهمة للكاهن الكبير ،هذا السحر لم يقتصر على طلب الرزق أو الحماية من الأعداء و الظفر عليهم بل تعدتها للأشخاص قصد حل مشاكلهم الزوجية أو طلبا للشفاء من الأمراض

---

1 –ديشان، المرجع السابق ،ص77 .

2 – السحر، Magicكلمة مشتقة عبر الإغريق من الفارسية "مجوس " Magi تطلق على أي ساحر في مغزى سيئ ، وبشكل خاص على الدجالين والمشعوذين ،وتوجد الممارسات السحرية في جميع البلدان وعند جميع مستويات المجتمع ، ينظر : صلاح قنصوه وآخرون ،قاموس أديان ومعتقدات شعوب العالم ، دار الكلمة ،ط1،القاهرة ،2004،ص311-312.

3 – الشعوذة : خفة في اليد ، وأخذ كالسحر يرى الشيء بغير ما هو عليه أصله في رأي العين ، ينظر : الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ،إشراف محمد نعيم العرقسوسي ،مؤسسة الرسالة ،ط8،2005م ،ص334.

4 – كوغة : مدينة تابعة لونقارة من بلاد السودان ،ينظر : الإدريسي ،المصدر السابق ص10 ، ويزيد على ذلك الحميري الحميري :" هي مدينة بينها وبين بلاد السودان بالمغرب خمسة عشر يوما عل ضفة النيل ،(يقصد به نهر النيجر لأن الأماكن المشار إليها تؤكد ذلك) وفي شماله ،ومنه شرب أهلها وهي من عمارة ونقارة ،ومن السودان من يجعلها من كانم .....ونساء هذه المدينة ينسب إليهن السحر وهن عارفات به ،وبه مشهورات "، الحميري ،الروض المعطار في خبر الأقطار ،تحقيق إحسان عباس ،مكتبة لبنان ،ط2،1984 ،ص504 .

وحتى للانتقام من الأشخاص وذلك كالاستعانة ببعض النباتات الضارة ،وفي هذا السياق يذكر العمري بعض المحاكمات لأشخاص اتهم بعضهم البعض باستخدام السحر ضد بعضهم ليصل حد القتل به[1].

من الملاحظ أن الحكام في بلاد السودان الغربي بشكل عام قبل الإسلام كانوا لا يتوانون في الاستعانة بسحرة البلاط في أمور حكمهم وعلاقتهم مع الرعية ، حيث ربطتهم علاقة قوية مع السحرة الذين يقدمون كل ما في وسعهم لإرضاء الملك وهذا ما سجله لنا صاحب الاستبصار في ذكره لحكام غانة قبل الإسلام حيث قرب حاكم هذه الدولة عدد من السحرة من قصره وأسكنهم بجواره [2] . وقد ساد الاعتقاد لمدة طويلة قبل إسلام هذه البلاد بأن السحرة يستطيعون ضر الناس بأعمالهم ،سواء في أجسامهم أو أملاكهم وقد يصلون لحد القتل[3]،كما كان يستعان بهم في التنبؤ ومعرفة المستقبل [4].

كثيرا ما كانت تناقش مثل هذه المسائل في مجالس الحكام في بلاد السودان الغربي سواء عند حكام دولة مالي أو غانة الوثنيتين، ولا تزال هذه العادات متواجدة إلى يومنا هذا حتى في بعض المجتمعات المسلمة رغم تحريمها [5]، وبهذا كان السحر في عرفهم ما هو إلا وسيلة لجلب القوى الحيوية الكونية وكانت الطلاسم مثلها مثل المحاريب في البيت[6]،وقد عرف السحرةو العرافين أو الكهان بحملهم لخرج من جلد الماعز وهو يحتوي خليطا من أدوات العرافة تضم جذور النبات وخيوط ووعاء من طين يابس به ماء وتمثالان لرجل وامرأة ونصلان مقوسان ، وأربعة أجراس اسطوانية ، وصرة من الودع وقرنان مزركشان .وبعد استكمال الساحر للطقوس المتمثلة في تلاوة العزائم يفرغ خرجه على الأرض ثم ينثر الودع على الجلد ويشرع في

---

[1] – القلقشندي،المصدر السابق ،ج5 ،ص280 .

[2] – مجهول ،الاستبصار في عجائب الأمصار ،نشر وتعليق ،سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ص220 .

[3] – زناتي ،المرجع السابق ،ص210.

[4] – نقصد هنا ما يطلق عليه بالعرافة وهو الكشف عن ما هو مجهول باستخدام بعض الطقوس و التعويذات .، ينظر : نوري ، المرجع السابق ،ص44.

[5] – هوبير ديشان ، المرجع السابق ،ص86.

[6] –هوبير ديشان ، نفس المرجع السابق،ص107.

استنباط الأجوبة انطلاقا من الشكل الذي اتخذه هذه الودع على الجلد كما يستبدل الودع بالعصي والحصى وقطع الحديد ، وفي مناطق أخرى ينتشر نوع آخر من السحر يتكهن أصحابه عن طريق ما يعرف ضرب الرمل[1]،وقد لعب هؤلاء الكهان والسحرة دور كبير في المجتمع السوداني حتى أصبحت لهم مكانة عظيمة في بلاطات الملوك والحكام في هذه البلاد إلى غاية مجيء الإسلام الذي حارب هذه الظاهرة باعتبارها من المحرمات المنهي عنها وهي من الكبائر ، ولكن رغم ذلك فإنها استمرت إلى يومنا هذا.

– الطبقية:

تميز المجتمع في بلاد السودان الغربي قبيل الإسلام كغيره من المجتمعات في المناطق الأخرى وهو الانتماء للقبيلة والدفاع والذود عنها ،وانتشرت بذلك عدة ظواهر كانت ملازمة لهذه المجتمعات كالحروب من أجل المراعي والماشية ،أو الثأر من قبيلة لأن أحد أفرادها قتل من طرف قبيلة أخرى كما كانت كل قبيلة ترى أنها أحسن وأرقى من القبائل الأخرى [2] . فكان المجتمع في العديد من ممالك السودان الغربي قبيل الإسلام طبقيا وأكبر دليل على ذلك يتمثل في كون كل الممالك والإمبراطوريات القديمة التي تأسست في بلاد السودان الغربي قامت على أساس قبلي كمملكة غانة القديمة التي قامت خلال القرن الأول الميلادي[3] ، وامتد عمرها حتى القرن الثالث عشر الميلادي [4]، حيث نجد أنها استمدت هذا الاسم من لقب ملوكها والذي أصبح هو اسم المملكة فيما بعد [5]ونفس الشيء بالنسبة لدولة مالي على أساس قبلي وكان الجزء الجزء الكبير من شعبها هي قبائل الماندينغ [6] ونفس الشيء يقال على مملكة صنغاي[1] التي

---

1 – ضلت هذه الممارسات قائمة ي بلاد السودان الغربي إلى يومنا هذا رغم انتشار الإسلام في هذه المناطق وتحريمه للسحر قطعيا باعتباره من الكبائر. ينظر : ديشان ،المرجع نفسه ،ص89 .

2 – زناتي ، نفس المرجع السابق ،ص246 .

3 – وقع اختلاف حول تاريخ ظهور هذه المملكة ولكن الراجح هو ما أشار إليه المؤرخ أحمد شلبي كونه عاش في القرن العشرين واطلع على الكثير من المصادر العربية وغير العربية حيث أشار الى أنها تبدأ في القرن الأول الميلادي ،ينظر : شلبي أحمد ،موسوعة التاريخ الإسلامي ،مكتبة النهضة المصرية القاهرة ،1981-1982 ،مج6 ،ص103 .

4 – دافيدسون ، إفريقيا تحت أضواء جديدة ،ترجمة: م أحمد بيروت لبنان 1963،ص183 .

5 – البكري ، المصدر السابق ، ص174.

6 – عرف أيضا بإسم مالينك أي شعب مالي وهي قبائل زنجية بدأت في اعتناق الإسلام منذ القرن 11 م وتسكن المناطق المناطق التي هي الآن ضمن دولة مالي الحالية وعلى السنغال الشرقي وشمال غينيا وبوركينافاسو والبنين والجنوب الأقصى=

تأسست على يد قبائل الصنغاي[2] وأصبحت تعرف باسمهم هي الأخرى ، ومن خلال هذا كله نستطيع القول بأن هذه الممالك في السودان الغربي في العصر الوسيط قامت على أساس قبلي وخلال هذه القبيلة التي تعد الركيزة الأولى للدولة تشكلت العديد من الطبقات الاجتماعية المختلفة حسب المستوى الاقتصادي والاجتماعي بالدرجة الأولى حيث تكون الطبقة الأولى مكونة من الملك وهو قمة الهرم الاجتماعي فهو زعيم القبيلة وقائدها العسكري ورئيسها الديني وتشترط فيه القوة التي هي عنصر مقدس[3] ويليه أفراد العائلة المالكة وكبار الملاك وقادة الجيش، أما الطبقة الثانية فتتكون من التجار و أصحاب الحرف، أما الطبقة الثالثة فتضم العبيد[4] .

لقد تميزوا بالطاعة العمياء للملك حيث قادتهم عاداتهم الوثنية إلى القيام بأشياء غريبة ذكرتها المصادر التي زار أصحابها بلاد السودان الغربي كوضع التراب على الرؤوس ونزع الثياب عند مقابلة الملك وهذا في معتقداتهم من الأدب[5]، ومما يجدر ذكره كذلك هو قيام أهل هذه البلاد بالوسم أوماعرف بالشلوخ[6]،ومن خلال المصادر التي أرخت لبلاد السودان الغربي تبين أن الطبقية كانت تستمد جذورها من الواقع القبلي القديم، ووصلت أعلى درجات من الإذلال للبشر[7]. فالطبقة الأولى لم يكن يطبق عليها القانون وهذا ما جعلها تصل لحد البطش والظلم مادامت لا تخضع للقانون كبقية الرعية .

– ظاهرة التوحش وأكل البشر :

=لموريتانيا. ينظر :زبادية عبد القادر ،المرجع السابق ، ص21 .محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كريدية ، المسلمون في غرب إفريقيا ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،ط1،ص 77 .

[1] – تأسست دولة سنغاي في القرن السابع الميلادي واستمرت حتى القرن السادس عشر ينظر : زبادية ، المرجع السابق، ص25.

[2] – السنغاي مجموعة من القبائل الزنجية كانت تعيش أصلا على ضفاف نهر النيجر و الواقعة اليوم بين شمالي بنين وغربي نيجيريا ،ينظر : محمد فاضل ،المرجع السابق ،ص110 .

3 – نعيم قداح ،إفريقيا الغربية ...، ص33.

[4] – الملاح بشار أكرم ،المرجع السابق ،ص99 ،زبادية ، نفس المرجع السابق ،ص124 .

[5] – ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ص 373-374 . كعت ،المصدر السابق ،ص43 .

[6] – الشلوخ : هي رسوم وعلامات هندسية توسم بها الخدود باستخدام السكاكين أو أية آلة حادة ، ينظر ابن منظور ، لسان العرب المحيط ،دار صادر للطباعة ،بيروت ،لبنان ،1997 ،ط6 ،ج3،ص351.

[7] – كعت ، المصدر السابق ،ص114.

تميزت شعوب السودان الغربي الوثنية بمظاهر بدائية وهي التوحش كأكل لحوم البشر والتقرب إلى الآلهة بالقربان البشرية وكثيرا ما ذكرت المصادر العربية التي تحدثت عن بلاد السودان الغربي هذه الظاهرة [1].ويتضح ذلك من خلال رواية ابن بطوطة عند زيارته لملك دولة مالي و ما حدث له عندما زارته جماعة من أكلة لحوم البشر حيث قال : " فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادمة ،فذبحوها وأكلوها و لطخوا وجوههم وأيديهم بدمها وأتوا السلطان شاكرين .....وذكر لي عنهم أنهم يقولون إن أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي..."[2].

لقد كان من الشائع عندهم أن يقوموا بنفي من يغضب عليه الملك إلى بلاد أكلة لحوم البشر عقابا له[3]. ومن عاداتهم كذلك تقديم القربان البشرية للآلهة سواء إناثا أو ذكور مع أكل بعض الأعضاء من قبل أسرة القربان والمتمثلة في اللسان والعين والأنف، أما الجمجمة تبقى في فناء الدار لتدفن بعد ذلك[4] ،كما اتبعت عادة خصي بعض القبائل لكل من وقع في أسرهم أو حتى من سرق من بين القبائل الأخرى ليتم بيعه .[5]

– المراسيم الجنائزية واعتقادهم في الموت :

عرفت مجتمعات السودان الغربي كغيرها من المجتمعات القديمة بممارسة بعض الطقوس الجنائزية بحكم أن معتقداتهم وعبادتهم لأرواح الأسلاف جعلتهم يقدسون روح الميت ،خاصة إذا كان من الطبقة الأولى كالملوك وأقربائهم وقد اختلفت هذه الطقوس والممارسات بين الطبقات فالميسورين هم الوحيدين الذين يدفنون أما عامة الناس فكانت جثثهم تترك في العراء تأكلها الوحوش ،أما الحكام والأمراء فكانت تبنى لهم قباب من الخشب توضع فيها مقتنيات الحاكم في حياته كما كان يدفن معه عبيده وتطمر هذه القبة بالرمل ولا تركلها سوا منفذ

[1] – البكري ،المصدر السابق ،ص176 . ابن خلدون ،العبر، المصدر السابق ،ج1 ،ص70 .

[2] – ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ص 377 .

[3] – ابن بطوطة ،نفس المصدر السابق ،ص377 .

[4] – زناتي ،المرجع السابق ،ص198 .

[5] – كانت هذه العملية شائعة عند بعض القبائل الإفريقية والقصد منها تحصيل الأموال في تجارة العبيد المخصيين .ينظر : القلقشندي ، المصدر السابق ، ج5، ص313 .

واحد يمكن الدخول منه فيما بعد لتقديم القرابين[1] عند بعض القبائل كان الكوخ الذي تدفن فيه الجثة يهدم فوقها وكانت الجثة إذا دفنت وجه رأسها إلى الغرب [2] .الملاحظ من خلال ذلك أن هذه العادة كانت موجودة عند الحضارات القديمة كالحضارة المصرية وهذا دليل على انتقال الثقافات القديمة نتيجة الهجرات البشرية التي عرفتها المنطقة .كما وجدت عندهم ظاهرة التحنيط والتي في الغالب كانت من خلالها تلف الجثة بجلد حيوان وتتبعها بعض الأعمال كترحيل أفراد أسرة الميت ومنع زوجة الميت من الاقتراب من ماشيتها وأكل بعض الأطعمة كاللحم النيئ والماء البارد وبعد فترة الحداد تطهر الأرملة بمعاشرة رجل غريب لمدة ليلة واحدة للتخلص من أثار الميت[3]، وعند بعض القبائل في غانا كانت تدوم فترة الحداد لمدة سنة [4]. وعند بعض القبائل الأخرى كان الملك إذا تقدم به العمر أو مرض فيتم تسريع موته بالخنق أو تقديم السم له .[5]

إن المتمعن في نظرة شعوب بلاد السودان الغربي ونظرتهم للموت يستشف حقيقة إيمانهم بحياة ما بعد الموت وهي كما سبق وأن أشرنا ، لا تختلف عن نظيرتها في الحضارة المصرية القديمة في كون أن الميت أكمل حياته الجسدية وبعد موته بشهر سيرجع ، فكانت شعوب المنطقة وخاصة في غانة يرجون عودة ملوكهم [6] . كما عرفت المجتمعات الريفية في بلاد السودان الغربي تكافلا وتعاونا وكان رئيس كل عشيرة يقدم الفروض الدينية للموتى وهو من يتكفل بالنفقة الخاصة بتجهيز الموتى في الغالب [7] .إلى جانب هذه الطقوس عرفت قبائل أخرى الإعلان عن الطقوس الجنائزية بقرع طبل كبير لا يقرع إلا لأمر خطير كموت كبير من

---

[1] – البكري ، المصدر السابق ، ص176، مجهول ،الاستبصار ،المصدر السابق ،ص221 .

[2] – العمري ، المصدر السابق ،الباب التاسع ،ص67 .

[3] – بو لم دنيس ،المرجع السابق ، ص79 .

[4] – شميس ،المرجع السابق ،ص64 .

[5] – أوليفر ،رولاند وجون فيج ،موجز تاريخ أفريقيا ،ترجمة :دولت أحمد صادق ،مراجعة :محمد السيد غلاب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ،القاهرة ،د.ت ،ص49 .

[6] – الملاح ،المرجع السابق ،ص105 .

[7] – سينيكي مودي سيسوكو ، الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر ، تاريخ أفريقيا العام ، اليونسكو ،1988، ص219 .

كبراء القبيلة أو إعلان الحرب[1]، وعند بعض القبائل فعندما يموت أحد في القبيلة فأول من يدخل عليه هو الكاهن الأكبر أو الطبيب الأول في القبيلة ثم تتجمع العديد من النسوة عند بيت الميت ويقوم الرجال المسلحون باحتلال سطح المترل وبعد التجمع وتلاوة تراتيل بلغة سرية تحمل جثمان الميت إلى مغارة محفورة في الصخر وعده بأيام تبدأ مراسم الجنازة الثانية كدليل على رحيلهم الأبدي من هذه الدنيا مستمرة عدة أيام تتخللها رقصات مقدسة وترتيلات دينية وبنصب خلالها محراب لكل ميت من أسرة الميت نفسها مع تقديم القرابين والذبائح التي يراق دمها فوق قبر الميت ، كما تقدم للميت بعض المقتنيات الموجودة في حياتهم ، والهدف من كل ذلك هو أن إكرام الميت كلما كان كبيرا كانت حمايته لأسرته وقبيلته كبير حتى أن الطقوس الجنائزية تنتهي بتوسل الأحياء من الميت بأن لا يؤذي الأحياء في قبيلته كما يتوسل إليه أن يمنحهم النماء والخصب في محاصيلهم [2] .

أما إذا أهمل الأحياء واجباتهم نحو موتاهم انتشر المرض بينهم ونزلت بهم الكوارث انتقاما منهم ، وكانت توضع كراسي خشبية للأفراد فإذا ماتوا تتطلى تلك الكراسي باللون الأسود المكون من مح البيض معجونا ببقايا الدخان ثم ينقل الكرسي إلى بيت تحفظ فيه كراسي الموتى من الأسرة و تؤدى له مجموعة من الشعائر ، وبذلك يمكن القول أن المعتقدات الوثنية ترسخت في شعوب بلاد السودان الغربي بشكل كبير واستمرت حتى بعد دخول الإسلام إليها.

الخلاصة :

نستنتج من خلال كل هذا أن الواقع الاجتماعي في بلاد السودان الغربي ميزته الوثنية التي اعتمدت على معتقدات ربطت الإنسان الإفريقي بشكل عام بالطبيعة التي يعيش فيها ،لأنها هي المحور الذي ترتبط به حياته ومماته . فاتخذ معبودا ته من بيئته وقدس أسلافه ، ومارس طقوسا انفرد بها عن باقي المجتمعات رغم اشتراكه معها في بعض الجزئيات باعتبارها عامل مشترك بين الحضارات القديمة التي امتزجت ثقافاتها مع بعضها بحكم حركة الهجرة الدائمة التي عرفتها المجتمعات القديمة ،من الشمال إلى الجنوب أو العكس ، فاستطاعت شعوب هذه المنطقة أن تصنع ثقافة خاصة بها وظلت تحافظ على هذا الموروث حتى مجيء الإسلام الذي سيهذبها

[1] – عوض محمد ، المرجع السابق ،ص27.

[2] – ديشان ، المرجع السابق ،ص ص26-28 .

ويلغي العديد منها وخاصة تلك التي تتنافى مع الدين الإسلامي ،وتعرف بذلك هذه المنطقة منطلقا جديدا مع دخول هذا الدين وتصبح ذات شأن كبير على المستوى الحضاري.

الفصل الثالث

الفصل الثالث : الواقع الاقتصادي والتجاري للسودان الغربي مابين القرن 7- 10ه /13-16م

أولا : الأوضاع الاقتصادية لبلاد السودان الغربي مابين القرن 7-10ه/13-16م

- الفلاحة
- الصناعة

ثانيا: الأسواق في السودان الغربي

- أنواع الأسواق
- النقل
- العملة

ثالثا : المبادلات التجارية في بلاد السودان الغربي

- الذهب
- الرقيق
- بضائع أخرى

أولا: الأوضاع الاقتصادية لبلاد السودان الغربي مابين القرن7ه -10 ه / 13 م – 16م:

إن الحديث عن اقتصاد بلاد السودان الغربي حتما يقودنا إلى الحديث عن ثراء هذه البلاد وما اشتهرت به من تجارة القوافل والذهب والملح في كتابات الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين بالدرجة الأولى باعتبارهم أهم مصدر ساق لنا خبر هذه البلاد، وفي فترات متأخرة الكتابات الأجنبية التي تزامنت مع الفترة الحديثة والمعاصرة والتي اعتمدت على التنقيب الأثري بالإضافة إلى المصادر العربية .

1- الفلاحة :

أ- الزراعة :

ترتبط الزراعة بالدرجة الأولى بالمناخ والتربة ، وبما أن هذا النشاط هو أول ما عرفه الإنسان فان الإنسان الإفريقي مارس هذه المهنة لارتباطها بأسباب بقائه ، وقد مورس هذا النشاط من قبل أهل بلاد السودان الغربي بشكل كبير وبكثافة في المناطق الخصبة الواقعة على ضفتي نهر النيجر ،وهذا ما ذكرته معظم المصادر التي تحدثت عن هذه البلاد [1].ويعتبر نهر النيجر شريان الحياة في السودان الغربي بالنسبة لطوله الذي كان يصل إلى حد 4200 كلم [2]. وقد عرف هذا النهر في كتابات الرحالة والجغرافيين باسم النيل [3]، ومعظم الزراعات كانت تمتد بالدرجة الأولى على ضفاف الأنهار نتيجة خصوصية المنطقة ومناخها .

كما وردت إشارات عن الزراعة المروية في شمال شرق بحيرة تشاد ، إذ كان معظم الناس العاديين يمضون وقتهم في زراعة الأرض بمختلف أنواع المزروعات وتربية الماشية[4] .وقد مثل هذا النهر استمرارية هذه البلاد من خلال ذلك عاملا لنقل المنتجات و حتى الناس ، لان معظم المدن الكبيرة كانت بمحاذاته كجني وغاو و تومبوكتو كما كان همزة الوصل ونقطة التقاء

---

[1]- حسن الوزان ، المصدر السابق ،ج1،ص30 .

[2]- مارمول كربخال ،المصدر السابق،ج3 ،ص183 .

[3]- نهر النيل هو من أكبر الأنهار اذ يبلغ طوله 6670 كلم ومساحته 3300000 كلم2 ومجراه بعيد عن السودان الغربي لأنه يجري بشرق قارة إفريقيا ويصب في البحر الأبيض المتوسط .

[4]- ا.ج.هوبكنز ،التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية ،تقديم محمد عبد الغني سعودي ،ترجمة أحمد فؤاد بلبع ،المجلس الأعلى للثقافة ،1998 ،ص58 .

للتجار من أجل تبادل السلع الكثيرة التداول كالعبيد والعاج والذهب [1]، كما لعب نهر السنغال(حاليا) دورا هاما كذلك في أقصى غرب بلاد السودان الغربي وهي جبال الفوتاجالون وله نفس المنبع مع نهر النيجر ، وكثيرا ما كانت هذه الأنهار تفيض في موسم المطر مما أدى إلى خصوبة الأراضي المحيطة بها ،وقد كانت لهذه العوامل مجتمعة دور بارز في ازدهار الزراعة في ممالك هذه البلاد كمملكة مالي في القرن الرابع عشر ميلادي و مدنها الكبيرة آنذاك ،ومملكة سنغاي خلال القرنين الخامس والسادس عشر ميلادي حيث نجد الحسن الوزان يشير إلى معظم المحاصيل الزراعية في مدينة جني بقوله :" أما الشعير والروز والماشية والسمك والقطن فتوجد بكثرة .... "[2].

كما تجب الإشارة إلى الدور الذي لعبه ملوك السودان الغربي في تطوير الزراعة ، وعلى رأسهم أسكيا الحاج محمد الكبير ، وذلك من خلال إدخال عدة أساليب جديدة كان الهدف منها مضاعفة الإنتاج معتمدا على خبرات أهل بلاد المغرب [3] .وقد كانت الأراضي الزراعية مقسمة بين القطاع العام والخاص حيث كان لحكام سنغاي مزارعهم الخاصة ، وقد ذكر كعت أن هذه الأراضي كان يشتغل فيها عبيدهم وأن الإنتاج كان وفير في هذه الأراضي [4].

من الأمثلة التي ذكرها لمصادر ،مزارع الأسكيا دوود التي كان يشتغل فيها عبيده ويشرف عليها رئيس خدمه ،وكان يحصل من الكزرعة الواحدة على ألف صينية [5]،وقد قسّمت هذه الأراضي حسب المحصول فمنها أراضي الأرز ومنها أراضي القطن وغيرها وفي المقابل كانت هناك الأراضي العامة التي يملكها عامة الناس ذات سند ملكية جماعي[6] ، لكنها كانت صغيرة مقارنة بالأخرى حيث أورد الهادي مبروك مقتطف من رسالة مخطوطة اطلع عليها بخصوص ما ذكرناه وكيف شهدت أراضي بلاد السودان الغربي بعض الظواهر كظاهرة الوكلاء وهذا ما

---

[1]- دونالد ويدنر ،تر،راشد البراوي ، تاريخ افريقيا جنوب الصحراء ،دار الجيل للطباعة ،القاهرة ،د.ت ،ص38 .

[2]- الحسن الوزان ،المصدر السابق ،ص162 .

[3] -Zakari Draman Issifou , Afrique Noire Dans les Relation Internationales au VI e siecle Editions Karthala,Paris 1982,p154 .

[4]- كعت ، المصدر السابق ، ص95-96 .

[5]- الهادي ،الدالي ،التاريخ السياسي ...، مرجع سابق ، ص268.

[6]- ا.ج.هوبكنز ، المرجع السابق ،ص74-75 .

جاء في نص هذه الرسالة حيث تشتكي امرأة لزوجها المسافر جور وظلم أحد الوكلاء اليهود الذين تركهم زوجها للإشراف على الأراضي الزراعية [1] .وفي معظم المراسلات التي كانت تتم بين أهالي هذه البلاد توصلنا أن السكان أولوا اهتماما كبيرا للزراعة وحثوا أبنائهم عليها ومن أجل ذلك كله استصلحت العديد من الأراضي وأنتجت مختلف المحاصيل ،فكانت معظم المنتجات الزراعية في بلاد السودان الغربي والمنتشرة بكثرة في أسواقها هي :

1- الحبوب :تمثلت فيما يلي :

- الأرز :

كان هذا المنتج الأكثر انتشارا نتيجة ملائمة المناخ المداري وكثرة المياه باعتباره زراعة مروية فكانت جل الأراضي المزروعة به على ضفاف نهر النيجر وروافده ، حيث ذكر ذلك العمري في حديثه عن مالي على أن غالب ما يقتاتون منه هو الأرز[2] وقد عرفت سنغاي بزراعة نوع من الأرز يسمى (النوبي) وهو ليس من الأنواع الجيدة [3].وقد انتشرت زراعته بشكل كبير في جاو بسبب وفرة المياه في المزارع وكانت فيضانات نهر النيجر في فصل الصيف سبب في نجاح هذه الزراعة باعتبارها تحتاج لكميات كبيرة من المياه [4]. وكان هذا المحصول من بين أهم أغذية الطبقة المترفة من المجتمع السوداني وعلى وجه الخصوص الطبقة الحاكمة وهذا ما قاله صاحب الاستبصار **"وإنما يأكله عندهم الملوك وأهل اليسار منهم وسائر أهلها يأكلون الذرة"[5]**

- الدخن[6]:

كان يزرع في أنحاء البلاد وهو الغذاء الأساسي لدى العامة من الناس أما الطبقة الغنية فكانت تعوضه بالقمح الذي كانت أثمانه ليست في متناول العامة .

---

[1]- الهادي مبروك ، المرجع السابق ،ص269 .

[2]- العمري ،المصدر السابق ،مج4،ص111 .

[3]- عبد القادر زبادية ،المرجع السابق ،ص173 .

[4]- كعت ،المصدر السابق ،ص 205 .

[5]-مجهول ، الاستبصار ،المصدر السابق ، ص215 .

[6]- الدخن : بالضم :حب الجاورس ،أو حب أصغر منه أملس جدا ،بارد يابس ،حابس للطبع ، ونباته شبيه بالذرى ينتج في آسيا وإفريقيا. ينظر :الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ،المصدر السابق ،ص 1195 ..

- الشعير :

كان يزرع في الأطراف الشمالية للصحراء وفي الواحات وكان كذلك مادة أساسية لأهل هذه البلاد ولدوابهم وكانت تقل زراعته في المناطق الأخرى .

- القمح :

كان إنتاجه قليل في أراضي السودان الغربي ، وأغلبه كان يؤتى به من الخارج ، استأثرت به الطبقة الثرية ونادرا ما كان يصل إلى عامة الناس [1].وقد أدخله أهل المغرب وقاموا بزراعته في ضواحي تمبكتو وكذا أطراف جني وغاو[2] لكن مع ذلك بقي إنتاجه محليا قليل لا يغطي احتياجات البلاد

- الفوني[3] :

كان من الأغذية الرئيسية في بلاد السودان الغربي ،وقد استخدمت حبوبه بعد طحنها في صنع الكسكسي والخبز والعصيدة [4]، وهو شبيه بالخرطال وقد استخدم في عهد دولة سنغاي لصناعة المشروبات المنعشة ولكن بعد الغزو المغربي لهذه البلاد أبطل زراعته [5].

- السورغو: كان يزرع على ضفاف نهر النيجر و لم يشكل غذاء أساسيا لأهل هذه البلاد وهو نبات حباته تشبه الحمص ولكنها أدق منه ولونها أبيض تتخلله نقاط سوداء ومازال إلى يومنا هذا يزرع في هذه البلاد .[6]

- الذرة :

كانت تمثل أحد الأغذية الرئيسية للسكان ودوابهم، وكانت أسعارها مناسبة للعامة حيث كانت تزرع بأراضي مملكة مالي وتنبكت على وجه الخصوص.[7] ويذكر العمري "الذرة فيها

---

[1]- زبادية ، المرجع السابق ، ص174 .

[2]- زبادية ، نفس المرجع السابق ، ص221.

[3]- نوع من الحبوب الدقيقة مزغّبة تدرس فيخرج منها شبيه حب الخردل أو أصغر من ذلك وهو أبيض اللون يتم غسله وطحنه وبعدها يعجن ليأكل.ينظر : العمري ،مسالك الأبصار ،ج4،ص112 .

[4]- ابن بطوطة ،المصدر السابق،ج2 ،ص371 .

[5]- زبادية ، المصدر السابق ،ص174 .

[6]- عبد القادر زبادية ، نفس المرجع السابق ،ص174 .

[7]- مارمول كربخال ،المصدر السابق ، ج3 ، ص202.

لهم قوت وعلف خيلهم وطعم دوابهم "[1]،ويمثل ذلك أهمية هذا المحصول الاقتصادية في حياة أهل السودان الغربي .

2- البقوليات :

عرفت بلاد السودان الغربي زراعة العديد من أنواع البقوليات وقد ذكرت في العديد من المصادر التي تحدثت عن بلاد السودان الغربي ، فقد كانت تنتج حد الكفاف ومنها الفول الذي كانت زراعته منتشرة في بلاد مالي لكثرة استهلاكه من طرف السكان وكان من النوع الخشن المنتشر في المغرب ، ونفس الشيء بالنسبة للحمص و اللوبيا والذي كان زراعتها في الجنوب خاصة وكلها كانت تكفي حاجة البلاد .[2]وفيما يتعلق بالخضروات والفواكه فقد كانت كثيرة في بلاد السودان الغربي منها البري ومنها ما تم غرسه وهذا ما استقيناه من المصادر التي أشارت لهذا في الكثير من المرات سواء في عهد دولة مالي أو مملكة سنغاي ، فكانت جد متوفرة بشتى أنواعها فمنها القرع واللفت والبصل والثوم والباذنجان وقد تميزت برخص أثمانها، حتى أن القرع و الفقوس العنابي والبطيخ الأخضر كان يستخدم لأغراض أخرى غير الأكل كصنع أدوات للأكل [3].

- الخضار :

عرفت بلاد السودان الغربي مختلف أنواع الخضار حيث أدخل المغاربة عدة أصناف لم تكن موجودة في هذه البلاد كالقرع الصغير والبقدونس و النعناع المروي وقد كانت أثمان الخضار متدنية حيث كان الإقبال عليها ضعيفا ، كما أدخل البطيخ الأحمر إلى هذه البلاد مع حلول القرن السادس عشر للميلاد / العاشر الهجري وأصبح هو الفاكهة المفضلة في الأكثر شعبية في بلاد السودان الغربي [4] .

1- العمري :المصدر السابق ،ج4،ص111.

2- عبد القادر زبادية ، نفسه ،ص175 .

3- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص371-373.

4- الغربي ، المرجع السابق ، ص484.

3- المزروعات الصناعية :

ذكرت المصادر التاريخية بعض المزروعات الصناعية أيام حكم دولة مالي و سنغاي خاصة ومنها :

- القطن:

ذكر في العديد من المصادر وكان يزرع على ضفاف نهر النيجر مما يعني أن زراعته في المناطق الشمالية كانت منعدمة وهو محصول مداري يحتاج إلى كميات كبيرة من المياه وقد كان إنتاجه وفير مخصص لصنع الألبسة التي كانت تنسج حيث ذكرت معظم المصادر ذلك[1] . وقد ذكر صاحب الاستبصار أن أهل السودان الغربي قد برعوا في صناعة الملابس القطنية بحيث لا يوجد بيت إلا وفيه شجرة القطن[2] .وقد أقبل أهل السودان الغربي إلى زراعة القطن للاستفادة من نسيجه في صناعة الملابس القطنية الباردة الناصعة البياض ،وهي التي كانت منتشرة وبشكل كبير خاصة بعد اعتناق أهل هذه المناطق للإسلام الذي حث على ستر العورات وحرم ظاهرة التعري التي كانت منتشرة بشكل كبير في بلاد السودان الغربي .[3]

- الكتان :

هو من النباتات التي كثيرا ما زرعت في بلاد السودان الغربي وكانت تصنع منها الحبال وكانت تغطي حاجياتهم .[4]

- أشجار الزيت :

تعرف في بلاد السودان الغربي " بُلَنْغة "وهي باللغة المحلية شجرة الزيت وزيتها يستخدم في الأغذية وحتى في إنارة المصابيح وقد كانت من بين المواد التي تصدرها مناطق السودان

---

[1]- حسن الوزان ،المصدر السابق،ج2 ، ص173-174 . ابن بطوطة ،المصدر السابق ، ص379 .

[2]- مجهول ،الاستبصار ، المصدر السابق ،ص 225 .

3- نوري دريد عبد القادر ، ازدهار الصناعة والزراعة في بلاد السودان الغربي بعد القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كما وصفته المراجع العربية الإسلامية ،المجلة العربية للعلوم الإنسانية ، ع21،1986 م،ص96.

[4]- عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ،ص176 .

الغربي ومازالت إلى يومنا تستخدم في الصناعات الغذائية و التجميلية، وقد ذكرها محمود كعت والعمري في ذكرهم لأخبار مالي [1].

- قصب السكر :

تركزت زراعته في بلاد سنغاي في المناطق الوسطى والجنوبية ومع ذلك نجد أن هذا المنتوج كان من الواردات التي تجلب لهذه البلاد[2] .

كما أنتجت بلاد السودان الغربي محاصيل أخرى كنبات الكولا و المعروف بالغورو[3] والتي ورد ذكرها عند مارمول في كتابه أفريقيا إذ قال " أنواعا من الأشجار السامقة تحمل ثمارا تشبه القسطل، يسمونها كور"[4]. وقد احتلت ثمرة الكولا مكانة كبيرة حتى أن السوداني كان يتخلى عن جزء من قوت أبنائه من أجل شراء بعض ثمار هذه الأخيرة حيث كان يمتصها طيلة النهار يتلذذ بطعمها الذي لا يقاوم وقد عمد المزارعون على لفها بأوراقها حتى لا تتصلب أثناء نقلها إلى أماكن بعيدة و لم تكن تخلوا مجالس السودانيين من شراب هذه النبتة ، كما أنهم كانوا

---

[1]- واسمها العلمي (Butyrospermum) وتعرف عند شعب البمبارا " سيي" (Sii)، والتي تعني العمر أي الشجرة المعمرة وهي بالإنجليزية (shea)، وتشتهر كذلك في تلك المنطقة باسم (Karite)،وهي بالفلانيّة أما معناها فهي الشجرة التي لا تأكلها البهائم ، وهي شجرة ذات ثمار مفطاة بطبقة رطبة خضراء اللون ،حلوة المذاق ، وتحت هذه الطبقة قشرة صلبة بنية اللون ،تكسر وتستخرج منها جوزة كروية الشكل ،تحرق وتدق ،و تغلى فوق النار،،فيستخرج منها زيتا يستعمل في= =الأغذية ،وإنارة المصابيح ،وعندما يتجمد هذا الزيت ،يكون لونه أبيض ناصعا ، ولا يوجد فرق بينه وبين السمن في اللون ،وهو سريع الذوبان في الحر.ينظر : كعت ،المصدر السابق ، ص123.العمري ، المصدر السابق ،ص122.

[2]- عبد القادر زبادية ، نفس المرجع السابق ،ص176 .

[3]- الغورو: هي شجرة تنمو في الغابات الماطرة على امتداد سواحل غيني وحتى الكونغو الحالية وتعرف هذه الشجرة علميا ب نتيدا (Nitida) وهي ذات أسماء متقاربة عند معظم الشعوب الإفريقية جنوب الصحراء وخاصة في غرب الصحراء ومن هذه الأسماء (Guro,Giro,Wuro,Woro) ، ولهذه الشجرة خصائص مميزة كاحتوائها على مواد منشطة ومنعشة ،كان يستعملها التجار فتساعدهم على قطع المسافات الكبيرة دون عطش وجوع أو تعب ، وقد أصبحت ذات قيمة كبيرة إذ أصبحت تستعمل في المناسبات الخاصة كإرسال الخاطب إلى أولياء الفتاة التي يريد الزواج بها وقبول هذه الهدية يعني قبول الخاطب ، كما كانت ترسل إلى المتخاصمين طلبا للصلح ، و يتهاداها الأصدقاء والأهل وحتى في الطقوس السحرية والأدوية الشعبية ، وقد لعبت تجارة الغورو دور كبير في المبادلات التجارية بين شعوب إفريقيا ومع حلول القرن الثامن عشر الميلادي، الثاني عشر للهجرة تعدت تجارتها القارة الإفريقية إلى القارة الأمريكية حيث دخلت في تصنيع المشروبات المعروفة بالكولا .ينظر : كعت ،المصدر السابق ،ص128-129.

[4]- مارمول كربخال ، المصدر السابق ،ج1،ص53 .

يتداوون بها من التسمم والإسهال والنحافة ، ومع ذلك فإن المنتوج المحلي لم يكن يكفي أهل البلاد فكان يجلب من الجنوب الشرقي .

أما أثمانها فقد كانت باهظة وهذا ما جعل التجار من أهل السودان يسعون إلى الاتجار فيها حيث وصلت أحمال هذا المنتج حتى سواحل البحر المتوسط مع بداية القرن السادس عشر ميلادي /العاشر للهجرة[1] .

وزرعت الحناء ببلاد السودان الغربي فكانت استعمالاتها للزينة والعلاج كما زرع التبغ و والذي يرجح أنه وصل إلى بلاد السودان الغربي مع الغزو السعدي المغربي إلى هذه البلاد وكان التبغ يشكل أهم الصادرات السودانية بالرغم من أن هذه الزراعة كانت تحت الرقابة الشديدة من طرف الإدارة المغربية أثناء تواجدها بهذه البلاد خاصة بعدما أثيرت مسألة تحريمه في المغرب [2]و بهذا فإن هذه المنتجات أصبحت منتشرة في أسواق هذه البلاد [3] .

4- الأشجار المثمرة :

ذكرت لنا كتب الرحالة والجغرافيين وجود العديد من أصناف الأشجار المثمرة في مملكة مالي وسنغاي وأهمها :

- النخيل :

أشارت إليه المصادر وقد كان ينتشر في الواحات الشمالية ، ولكن كانت بكميات قليلة وهذا ما أدى إلى استيرادها بكميات كبيرة وخاصة من الواحات الشرقية للمغرب الأوسط حيث كان من أحب الأنواع عندهم حيث ذكر محمود كعت أنه في أواخر القرن السادس عشر الميلادي ، أن التمر كانت أثمانه مرتفعة [4].وذكرها صاحب الاستبصار فقال :" **وبلاد السودان لها بساتين كثيرة ونخيل** ..." [5]وهذا يتعارض مع ما ذكره كعت لأن هذه الأشجار لم تكن تنمو إلا في شمال بلاد السودان الغربي وثمارها لم تكن متوفر لعامة السكان .

---

[1]- الغربي ، المرجع السابق ، ص486 .

[2]- الغربي ، نفس المرجع السابق ،ص485 .

[3]- الهادي المبروك الدالي ، التاريخ السياسي ..... المرجع السابق ، ص 275 .

[4]- محمود كعت ، المصدر السابق ،ص219 .

[5]- مجهول ، الاستبصار ، المصدر السابق ، ص215 .

- الكروم والتين والزيتون :

عرفت الزراعة في هذه البلاد وخاصة في المناطق الشمالية والوسط بالقرب من نهر النيجر ولكنها في الغالب لمتكن تكفي حاجيات البلاد ولهذا نجدها من المنتجات التي كانت تستوردها ممالك السودان الغربي،لقد أورد الهادي المبروك مقتطفا من مخطوطة يذكر فيها صاحبها أنه زرع كرمة في دار سكناه ونمت حتى أكل منها وهذا دليل على أن زراعة الكروم كانت موجودة إلى جانب زراعة الزيتون والتي أشرف على زراعتها أحد أهل الأندلس [1].

- الحمضيات :

لقد أثبتت العديد من النصوص توفر هذه الأصناف من الفاكهة في بلاد السودان الغربي وخاصة في سنغاي ، في الواحات الشمالية و في المناطق الوسطى والجنوبية لنهر النيجر ، وقد اعتنى أهل البلاد بزراعتها ومنها ما كان بريا لكنه لا يختلف عن المزروع [2].

زرعت أنواع أخرى من الأشجار المثمرة ولكن لا نجد معلومات وافية عنها سوى الشذر القليل وبعض الإشارات المقتضبة في المصادر ومنها شجر الجميز والذي كان منتشر بشكل كبير عندهم في بلاد السودان الغربي .[3]

يتضح من خلال هذا كله أن الزراعة في بلاد السودان الغربي لعبت دورا مهما في حياة السكان وحكامهم وان أراضي هذه البلاد كانت في عدة مناطق منها خصبة وملائمة لزراعة العديد من المنتجات والذي زادها خصوبة هو نهر النيجر حيث كان شريان حياتها بالدرجة الأولى.

5- نظام الري :

لقد عمد أهل السودان الغربي إلى ري محاصيلهم و ذلك بالاستعانة بمياه الأنهار التي تجري بها خاصة نهر النيجر ، وقد تحكموا في مياه الفيضانات وقاموا ببناء السدود لاحتجاز هذه المياه، كما نجدهم قد حاولوا شق قنوات في الشمال الغربي من ولاتة و استغلوا مياه الآبار وشقوا القنوات لمسافات بعيدة وصلت حتى 20 ميلا لنقل المياه الجوفية ومياه البحيرات و هذا ما

---

[1]- الهادي المبروك الدالي ،المرجع السابق ،ص274 .

[2]- العمري ،المصدر السابق ، ج4 ،ص112 ، القلقشندي ،ج5 ، ص277 ، الحسن الوزان ، المصدر السابق ،ج2 ، ص 173 .

[3]- نوري دريد عبد القادر ،المرجع السابق ،ص104 .

أشار إليه السعدي ، قد ذكر كذلك ابن خلدون أن مياه الآبار كانت تنبعث في السماء ومن شدة تدفقها كانت تجري كالوديان [1] .وقد سعى ملوك مالي ومن بعدهم ملوك سنغاي إلى القيام بمشاريع ضخمة في إطار إيصال المياه إلى مناطق بعيدة عن مجرى مياه الأنهار وكانت مشاريع كبيرة لكنها لم تتحقق كما كان مخطط لها إذ حال دون تحقيقها حالة عدم الاستقرار التي تسببت فيها الحروب الدائرة بسبب الحكم وبين أفراد الأسر الحاكمة من الأساكي والحروب المستمرة مع القبائل المتاخمة لحدود مملكة سنغاي . ونتيجة لامتلاك الخبرة في هذا المجال نتيجة الوافدين إلى هذه البلاد أصبحت الأرض تستغل بصورة جيدة وانتشرت المساحات الزراعية في المناطق الجبلية والداخلية وبهذا أبح لزاما تطوير أساليب الري كلما أتيحت لهم الفرصة في ذلك [2] وقد استمرت هذه المشاريع ولكن ليس بنفس الوتيرة أثناء فترة الحكم المغربي لبلاد السودان الغربي إذ تشير المصادر إلى أن مشاريع الري جعلت المزارع السودانية على شاكلة البساتين الأندلسية ومما نستنتجه من عند الفشتالي أن مشاريع الري شملت مختلف أنحار السودان الغربي وأن الانتفاع بالمياه لم يعد مقتصرا على زمن الفيضان بل تعداه بسبب التحكم في هذه المياه وكيفية تصريفها[3] .وقد حضر السعدي صاحب تاريخ السودان شق قناة للمياه طويلة تصل إلى حوالي 230 كلم من تمبكتو نحو الجنوب [4].

---

[1]- السعدي ، المصدر السابق ، ص70. وينظر كذلك ابن خلدون ، المصدر السابق ، مج7،ص119 .

[2]- نبيلة حسن محمد ، المرجع السابق ،ص242 .

[3]- لقد شبه الفشتالي إحدى القنوات التي أقيمت في بلاد السودان الغربي بنهر الفرات بسبب ضخامتها وقال بأنها ستضفي على البلاد الخير والبركات لأنها ستكون أول تجربة في مشاريع كبيرة أخرى ،ينظر: الفشتالي ، المصدر السابق ، ص167.

[4]- يذكر السعدي أن الباشا المغربي على بلاد السودان وهو محمود بن زرقون (خلف الباشا جودر على بلاد السودان بأمر من المنصور السعدي وهو ابن أحد العلوج الإسبان الذين تربوا في القصر السلطاني وقد تولى وظيفة أمين الخزينة السلطانية الخاصة وقائد الكتيبة الأندلسية) أراد الانتقام من حاكم مدينة تمبكتو الذي كانت له أراضي مروية فأمر بقطع الساقية عن زرع الحاكم فاضطر هذا الأخير إلى طلب الأمان فعزله الباشا السعدي وعين أخاه مكانه وأعاد الساقية إلى سابق عهدها ينظر : السعدي ، نفس المصدر السابق ، 145-146.ينظر:محمد نبيل ملين ، السلطان الشريف الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب ،تر: عبد الحق الزموري وعادل بن عبد الله، المعهد الجامعي للبحث العلمي، 2013، ص377.

ب – الثروة الحيوانية :

ضمت بلاد السودان الغربي ثروة حيوانية مهمة شملت الحيوانات الأليفة والبرية ، وقد اهتم أهل هذه البلاد بتربية الحيوانات الأليفة والاستفادة منها في أعمالهم ومن ألبانها و أوبارها وجلودها ، أما الحيوانات البرية فكانوا يستفيدون منها في معيشتهم وتجارتهم من خلال صيدها كالفيلة فكانت منتشرة بكثرة في جنوب البلاد حيث الغابات الكثيفة فتأكل لحومها وتباع أنيابها خاصة للتجار المغاربة ، وكان العاج من المواد الغالية الثمن وقد ذكر لنا الحسن الوزان والعمري وابن بطوطة وجود هذا الحيوان في المناطق المطلة على نهر النيجر وذكرت طرق اصطياده بالشباك خاصة [1] .

أما حمر الوحش فكانت كثيرة في هذه المناطق خاصة في حوض النيجر وهي تعيش في قطعان، كانت لحومها تؤكل وجلودها تلبس [2]. وكانت هناك الزرافات التي كان يصطاد منها صغارها فقط من طرف أهل بلاد السودان الغربي لسهول اصطيادها وكانت جلودها للزينة أما لحومها للأكل وقد وجد كثير منها في بلاد التكرور كما كانت تهدى من طرف الملوك وهذا ما ورد عند ابن خلدون[3]. وقد وجدت حيوانات أخرى مثل النعام و الثعالب والتماسيح فكانت تصطاد لشحومها أو ريشها وللزينة حتى من طرف الملوك و الأغنياء [4]. ومنها ما كان يستعمل للتداوي من السحر كالقنفذ والأرنب والسلحفاة و الحرباء و الضب [5] .

لقد مارس أهل بلاد السودان الغربي صيد الأسماك النهرية منها الكبيرة والصغيرة حيث كانت هذه الحرفة ذات شأن بالنسبة لعامة الناس في بلاد السودان الغربي آنذاك لما تدره على أصحابها من أموال ، فيتم تناولها طرية أو بعد تجفيفها بعد أن يملحونها للادخار [6]، وبهذا فإن

---

[1] – العمري ، المصدر السابق ،ج4 ، ص 114، الحسن الوزان ،المصدر السابق ،ج 2 ،ص258 ، ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص377 .

[2] – كانت سمة أهل هذه البلاد هو لبس جلود الحيوانات سواء البرية أو الأليفة ، ينظر : ابن الفقيه ، مختصر كتاب البلدان ،دار صادر ،بيروت ،1302 ه ،ص87 .الحسن الوزان ، المصدر السابق ،ص 264 .

[3] – ابن خلدون ، المصدر السابق ،ج6 ،ص417 .

[4] – ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ص371 .

[5] – الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ،ص276 .

[6] – كعت ،المصدر السابق ،ص32. الهادي ،نفس المرجع السابق ،ص280 . عبد القادر زبادية ،المرجع السابق، ص182.

اقتناص الحيوانات وصيد الأسماك كانا نشاطين أكثر تخصصا من جمع الثمار لأنهما يتطلبان مهارة عالية تسمح لأهل البلاد توفير الحاجة الماسة للغذاء بالدرجة الأولى ويليها بيع ما يجلب من جلود ولحوم و شحوم أو أنياب وسمك مجفف يتم تداوله في الأسواق .وهناك بعض الأمثلة لجماعات كانت تمتهن الصيد استقرت في مناطق واستوطنتها وأصبح أفرادها من المزارعين .[1]

كان نهر النيجر المصدر الهام لصيد الأسماك وذلك بسبب اتساع مجراه وطوله فاعتمدت العديد من العائلات السودانية على صيد الأسماك النهرية واتخذتها أساسا للمبادلات التجاري مع المناطق المجاورة لها بعد تجفيفها، وحتى استخدام عظامها في صنع الأدوات المترلية واستخراج الدهن منها للاستعمالات المترلية وكان يتم استخراج مادة العنبر الباهظة الثمن من رؤوس نوع من الأسماك وهو العنبر الذي كانت الأمواج تلقي به على الساحل. وكانت الأسماك كثيرة في نهر النيجر ولكن أهل السودان لم يكن اهتمامهم إلا بالكبيرة منها.وقد استخرجت العديد من الأعشاب والجذور من نهر النيجر استعملت في تحلية الأغذية وكانت تعرف بالبورغو[2]. وقد لعب الصيد النهري دورا بارزا في التجارة السودانية ، وعرفت هذه الحرفة هي الأخرى تنظيما حيث كان لها أمين ، وعرفت طبقة الصيادين في تمبوكتو وجني باسم **"الصوركو"** والتي كان أغلب أفرادها من العبيد[3] مع وجود بعض الأحرار ،حيث كانت لهم أحياء وألبسة خاصة بهم واهم ما ميز الأحرار منهم هو الفقر الشديد حيث لم يكن في مقدورهم اقتناء عتاد الصيد ، فكان غالب ما يأخذونه من الأسماك هو ما كانت تلقيه الأمواج على ضفافا النهر فيكتفون بتجفيفه وبيعه في الأسواق [4].

---

[1]- يذكر هوبكتز أن صيادي الأسماك أقاموا مستوطنات جديدة كمدينة لاجوس الحالية بنيجيريا أسسها صيادو الأسماك.ينظر : هوبكتز،المرجع السابق،ص85 .

2- البورغو: هي عبارة عن نباتات وجذور شديدة الحلاوة تنمو على ضفتيه يعمد الأهالي إلى قطعها واستخدامها في تحليت الطعام والشاي أو في تغذية الأبقار والدجاج ،وقد دخلت نبتة البورغو كمادة أساسية في التجارة الداخلية بالسودان الغربي .ينظر : الغربي ،المرجع السابق،ص478.

3- عرفت هذه الطبقة من العبيد **بالزناجية** وهم العبيد الخاص بالأسكيا والذين كان يحق له التصرف فيهم بوصفهم من قبيلة معينة ، وكانو يختلفون عن باقي العبيد الذين تملكهم الأسكيا عن طريق الأسر أو الشراء ، و لم يكن يسمح لأحد غي الأسكيا وورثته باسترقاق الزناجية أو تسخيرهم في أي عمل إلا بإذن الأسكيا .ينظر : كعت ، المصدر السابق ،ص156 .

4- كعت ، نفس المصدر السابق ، ص156.

عرف سكان بلاد السودان الغربي باستئناس العديد من الحيوانات والتي تطورت كثيرا ولكن كانت تمارس بكثرة في الجزء الشمالي من السودان الغربي والجزء الجنوبي من الصحراء الكبرى وهذا نتيجة ملائمة الظروف الطبيعية وقد اعتمدت تربية الحيوانات على الهجرات الرعوية المرتبطة بالمراعي وكذا نسبة القطعان [1]، وأهمها الأبقار التي كانت منتشرة بكثرة في هذه البلاد على أطراف الصحراء وكان في استطاعة كل فرد امتلاكها ولحومها هي الأشد انتشارا واستهلاكا إلى جانب ألبانها والجلود كانت لصنع السروج والأحذية و أسبات للنشاشيب وكانت قطعان الأبقار كبيرة جدا خاصة في سنغاي ، وكانت أبقار السودان الغربي صغيرة الحجم كبيرة القرون وقد تلتوي فوق الرأس بشكل حلزوني وسنام قليل البروز حيث نجد الرحالة الذين زاروا هذه البلاد قد شد انتباههم هذا المنظر[2]. ولم يكن أهل بلاد المغرب مهتمين بتربية الأبقار وبذلك فقد كانت مقتصرة على القبائل المحلية وبعض القبائل من التوارق، وقد أقبل أهل السودان الغربي على شرب اللبن البقري و قد استخدم السمن المملح من لبن البقر أما الجبن لم يكن معروفا في هذه البلاد [3]. أما الأغنام والماعز فكانت في المرتبة الثانية من حيث الأهمية والكثرة ، استخدمت أصوافها في صناعة الزرابي والخيام [4].

كما استخدمت الحمير والبغال للركوب والحمل وكانت متوفرة لعامة الناس أما الطبقات الغنية و الحكام فكانوا يملكون الخيول وذلك لغلاء أسعارها وهذا ما نجد المصادر قد أشارت إليه[5]، أما الإبل فكانت من الحيوانات المهمة كوسيلة للنقل ولحومها غذاء أساسيا لسكان الصحراء و الواحات الشمالية وجلودها كانت مادة أولية للعديد من المنتجات الجلدية مثلها

1- لقد تم تفسير تنقلات الرعاة بين مناطق السودان الغربي والهدف منها .ينظر : ا.ج.هوبكنز ، المرجع السابق ،ص80 .

2 - ابن بطوطة ، نفس المصدر السابق ،ص371 .الوزان ،المصدر السابق ،ج2 ،ص264 .مارمول ،المصدر السابق ، ج3 ،ص202 .

3- محمد الغربي،نفس المرجع السابق ،ص476 .

4- هذا ما تم استنتاجه من المصادر عندما تشير إلى بعض الصناعات خاصة عند النساء وحتى الرجال في ذكر الحرف .

5- كثير من المصادر أشارت إلى أن الخيول لم تكن في متناول العامة وأنها قد ملكت من طرف حكام مالي وغانة وسنغاي وكان ركوبها يعبر عن مكانة الراكب وعلو شأنه وقد وجد نوعين من الخيول في بلاد السودان الغربي النوع الإفريقي القصير القامة والنوع العربي .ينظر : عبد القادر زبادية ،المرجع السابق ،ص185 .

مثل جلود الأبقار.وقد استبعدت تربيتها في المناطق الرطبة وخاصة في المناطق القريبة من نهر النيجر وذلك بسبب تعرضه للأمراض .

أما الدواجن فقد كانت من مستلزمات البيوت السودانية وقد كان الدجاج السوداني صغير الحجم وقليل البيض وطعم لحومها يميل إلى طعم السمك ، بحكم ما يتناوله من ديدان وحيتان نهرية وهذا في المناطق القريبة من ضفاف الأودية ، أما الحمام فلم يكن أهل المدن في بلاد السودان الغربي يميلون إلى أكل لحمه بالرغم من تواجده الكبير وذلك راجع لكونه كان يضع أعشاشه في المساجد والزوايا .[1]

نستنتج من خلال ما سقناه من حديث إلى أن الثروة الحيوانية في بلاد السودان الغربي كانت تحتل المكانة الثانية بعد الزراعة ،كما أن هذه البلاد كانت غنية بحيواناتها باعتبارها بلاد رعوية خاصة في الجنوب ،وإلى جانب ذلك فقد استقدمت بعض الحيوانات إلى هذه البلاد من خلال المبادلات التجارية التي وجدت بين ضفتي الصحراء وخاصة مع بلاد المغرب .كما أن الماشية كانت موضع تقدير كبير و لهذا فالرجل الذي يمتلك عددا كبيرا من الماشية كان يحترم بسبب امتلاكه مصدر ثروة هام [2].

2- الصناعة :

عرف سكان السودان الغربي ممارسة عدة حرف وصناعات يدوية بسيطة في دكاكين صغيرة وهذا ما ذكره حسن الوزان بأن أصحاب الحرف كانت لهم دكاكين في المدن والقرى كذلك ولكن بنسب أقل[3] ، وكانت هذه الصناعات قصد توفير حاجياتهم حسب ما توفره لهم الأراضي من مواد أولية ومن أجل ذلك سنحاول أن نتعرف على مختلف المواد الأولية التي كانت موجودة وكذلك المنتجات التي كانت تنتج في بلاد السودان الغربي .

أ – المواد الأولية :

تنوعت المواد الأولية في بلاد السودان الغربي وكانت المعادن أهم هذه المواد ومنها : الذهب والملح والنحاس والكحل وقد عرفت بلاد السودان الغربي في الكتابات التاريخية ببلاد

1- محمد الغربي ، نفس المرجع السابق ،ص476.

2- ا.ج.هوبكنز ، نفس المرجع السابق ، ص82 .

3- حسن الوزان ،المصدر السابق ،ج2 ، ص165 .

الذهب إذ يعد من أهم المعادن التي لقيت اهتماما كبيرا من طرف ملوك وحكام السودان الغربي قبل دخول الإسلام إلى هذه البلاد أو بعده وكان سببا في تعرض البلاد للعديد من الهجمات للقوى المجاورة وقد مثل الذهب قوام اقتصاد البلاد .

أما مناطق انتشاره فكانت جلها في أعالي نهر النيجر على طول مجراه في غاو و تنبكت كما وجد كذلك في بلد ونقارة [1]. وهذا الانتشار ناتج عن فيضان نهر النيجر وما يحمله من أتربة تلقى على الضفاف [2]. وأهم ماذكره البكري بهذا الشأن : " إن أفضل الذهب ما كان بمدينة غياروا " ويضيف :" إن حوالي مدينة كوغة معادن التبر كثير وهي أكثر بلاد السودان ذهبا " [3]أما الإدريسي فيقول " وبلاد ونقارة هذه هي بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة ....،وفيها بلاد معمورة ومعاقل مشهورة وأهلها أغنياء والتبر عندهم وبأيديهم كثيروالخيرات مجلوبة إليهم... "[4].

لقد أشارت الدراسات الحديثة إلى فك لغز الذهب الذي ذكر من طرف الرحالة العرب وخصوصا ما تعلق بونقارة في إفريقيا الغربي والتي تعني أرض الذهب وتعني كذلك كل الناس القدمين من أرض الذهب ، وهذا ما يفسر أن ونقارة كانت خزانا للذهب الذي كان يجلب من الجنوب وأن ونقارة لم تنتج هذا المعدن بل كانت توزعه بعدما يتم نقله من المناطق الجنوبية المحاطة بالسرية التامة [5] . وبذلك فإن الرحالة العرب قد أشاروا فقط إلى المناطق التي احتكرت وخزنت هذا المعدن ، وان الإمبراطوريات التي تقوت شوكتها بفضل معدن الذهب ، لم تكن هي المنتجة الفعلية له بل كانت هي الموزعة والمحتكرة له ، و لم يتم تحديد مناطق إنتاجه إلا بعدما كشفت عليه الدراسات الحديثة الغربية والأفريقية .

عمل أهل بلاد السودان الغربي على استخراجه وذلك بالحصول عليه من ضفاف الأنهار وكانت هذه هي الطريقة الأكثر سهولة لأنها تجده ممزوجا ببعض الصخور والترسبات القديمة

---

[1]- توجد اليوم إلى الجنوب الغربي من العاصمة باماكو بمالي وتعرف حاليا ب بمبوك وهي بين " بافينغ وفاليمي وهي من أهم روافد نهر السنغال .

[2] - Mauny .R.Tableau deographique de l,ouest Africaine au Moyen Age ,Dakare ,1961,p 295.

[3]- البكري ، المصدر السابق ،ص176- 179 .

[4]- الإدريسي ، المصدر السابق،مج1 ، ص 24- 25 .

[5]- GIRI ,Jaques, Histoire économique du Sahel, Paris, Karthala,1994.p89.

والمغطاة بالترسبات الحديثة الجارية في الأنهار ، أما الطريقة الثانية وهي الشكل الطبيعي الذي وجد عليه الذهب والمتمثل في العروق المعدنية أي عروق الذهب المطمورة والتي كانت تتم عن طريق ممارسة بعض الطقوس وذلك راجع لكون معدن الذهب حسب معتقدات هذه الشعوب فإنه ملك للجن ومن أجل استخراجه وخوفا من التعرض إلى أي أذى ،كان لابد من الاستعانة بالسحرة الذين يقومون بتأدية التعزيم لتطهير المكان المراد استغلاله من الأرواح الشريرة ،كما يشترط لبس ألبسة متواضعة لمباشرة أعمال الحفر بتناول طعام يباركه الساحر المكلف بتطهير المكان [1] .

كما أن الذهب كان يستخرج بأبسط الوسائل و لم يتطلب تقنيات كبيرة أو معقدة ، إذ كان يقوم على حفر آبار دائرية بقطر لا يتعدى 80 سم مما يسمح للعامل الصعود والنزول بأريحية كما كانت هذه الآبار والدهاليز التي تحفر في باطن الأرض والتي يصل عمقها إلى ثمانية أمتار في غالب الأحيان ، يتم تدعيمها بالأخشاب و لم تكن السلالم تستخدم في هذه العملية ، وقد كانت تتخللها العديد من المخاطر وعلى رأسها الانهيارات مما أدى بعمال المناجم إلى اللجوء إلى العمل التعاوني أي يتشارك أفراد القبيلة أو العائلة في هذا العمل قصد تسريع وتيرة الحفر مخافة حدوث الانهيار إذا ما طالت هذه العملية في باطن الأرض[2] ، وإذا عثر على كتلة ذهبية فيتم إحضار حيوان كالماعز أو الغنم أو البقر لتنحر وبعدها تصبح تلك الكتلة من حق من وجدها أن يملكها[3] وما يستخرج من تراب يتم غسله بالماء في أواني تصنع من نبات القرع الكبير [4].

لقد ذكرت العديد من المصادر أن ملوك السودان الغربي لم يتركوا لغيرهم من العامة سوى التبر ويبقون السبائك بأيديهم[5]، كما نجد أن أهل السودان الغربي حرصوا كل الحرص على حماية هذا المعدن من غزو الأجانب ،وبعد وصول الإسلام إلى هذه البلاد ارتفع إنتاج هذا المعدن وبذلك زادت أهميته الاقتصادية وازداد توافد التجار إلى هذه البلاد ، ومن الأمثلة التي

---

[1] -BATHILY ,Abdoulaye, Les portes de l'or- Le royaume DE Galam Sénégal de L'ère musulmane au temps de négriers XIII[e]_ XVIII[e] siècle ,Paris ,L'Harmattan,1989 .P76.

[2] - Bathily, op.Cit, p175.

[3] -, Ibid, p 175.

[4] - بوفيل ، المرجع السابق، ص226 .

[5] – العمري ، المصدر السابق ،ج4 ، ص119 .

كثيرا ما تداولتها الكتابات التاريخية وهي رحلة ملك مالي منسى موسى إلى الحج والكمية التي حملها معه وما نجم عن ذلك من تأثير على أسعار الذهب لشدة ما أنفق في طريقة ، أما طرق استخراجه فحسب ما نقله لنا الإدريسي بقوله : " فإذا كان في شهر أغشت وحمى القيظ وفاض النيل وغطى هذه الجزيرة ..... رجع كل من في بلاد السودان إلى تلك لجزيرة بحثا يبحثون طول أيام رجوع النيل .... هناك من أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر ...."[1].

لعب الذهب دورا كبيرا في ربط بلاد السودان الغربي ببلاد المغرب ومصر وبقي كذلك إلى غاية القرن العشرين وكان يصدر قسم كبير منه إما تبرا أو مصنوعا في شكل خيوط دقيقة ،لأنه كما هو معلوم فإن الذهب من المعادن القابلة للسحب والطرق ،فكان الحرفيون هم من يصنعونه وفق عدة أشكال فلبسه ملوكهم وتزينوا به وكثيرا ما كانت مجالسهم تعج بالذهب،كما عرفوا بملوك التبر[2] لوفرته عندهم ،وقد ضرب منه النقد وسمي في بلاد السودان بالمثقال ،كم كانت تصنع منه العديد من الأدوات التي هي زينة في الغالب كزركشة السيوف والخناجر بالذهب والأساور التي كانت توضع من طرف قادة الجيش في هذه البلاد[3]، وقد عظم شأنه في العهد المغربي في بلاد السودان الغربي . كما كان الذهب رمز قوة وسلطة وثراء حيث يتفاخر به الملك أمام سائر الملوك وهذا ما ذكره لنا البكري عندما ذكر ملك غانة وتفاخره بالحجر الكبير من الذهب الذي كان يملكه [4].

لقد عرفت العديد من المعادن المهمة كذلك في بلاد السودان الغربي ،هو معدن النحاس ولكنه كان قليلا وقد أورد لنا ابن بطوطة معلومة عن النحاس إذ قال : " ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون به إلى البلد ، فيسكبونه في دورهم ،يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم ، فغدا سكبوه نحاسا أحمر ، صنعوا منه قضبانا في طول شبر ونصف ،

---

[1]-الإدريسي ، المصدر السابق ، مج1 ، ص 24 – 25 .

[2]- بلاد التبر : عرفت بكثرة الذهب ونعت بذلك ملوك مالي وغانة وسنغاي حتى شاع عنه أنه ينبت كالنبات وهذا بطبيعة الحال غير صحيح لأنه معدن وفي هذا الصدد قال ابن الفقيه : والذهب ينبت في هذه البلاد كما ينبت الجزر في أرضنا ، و أهلها يخرجون عند بزوغ الشمس و يقطفون الذهب .ينظر :القزويني ، المصدر السابق ،ص18 .

[3]- زبادية ، المرجع السابق ، ص190.

[4]- البكري ، المصدر السابق ،ص175 .

بعضها رقاق وبعضها غلاظ ..... وهي حرفهم يشترون برقاقها اللحم ، والحطب ويشترون بغلاظها العبيد ، والخدم ، والذرة ، والسمن ، والقمح " [1].

أشار كذلك القلقشندي إلى وجود هذا المعدن في مالي وأنه كان يباع فيها [2]، وقد كان له دور هام في حياة السكان باعتباره المادة الأساسية للصناعات الحربية كأغمدة السيوف والرماح وللزينة كزركشة ألبسة الملوك والحكام والأواني، وكانت أهم منطقة يستخرج منها النحاس هي تكدا و أكجوجت وهي إلى الجنوب الغربي من موريتانيا الحالية [3]. ومن خلال هذا فإن معدن النحاس كان يحتل مكانة هامة في حياة أهل السودان الغربي .

كما عرفت بلاد السودان الغربي استعمال معدن آخر وهو الحديد ، فكانت مناجمه منتشرة في عدة مناطق من السودان الغربي وازداد استعماله خاصة في عهد دولة سنغاي خاصة في صناعة الأدوات الحربية كالحراب والسيوف ، والرماح ، والدروع وكانت الدكاكين التي تمتهنه كثيرة . ومن جانب آخر استخدمت معادن أخرى كمعدن الرصاص والكحل وكانت نساء السودان الغربي تتزين به بوضعه في عيونها ولكن الملاحظ أن هذه المعادن لم تكن واسعة الاستعمال[4]. أما المعدن الذي يأتي بعد الذهب من حيث الأهمية في بلاد السودان الغربي فهو الملح وقد اشتهرت به هذه البلاد ، كما اشتهرت بالذهب تماما و من المناطق التي اشتهرت بإنتاجها للملح هي تغازا[5] لكن لم تكن الملاحة الوحيدة في بلاد السودان الغربي فقد ذكرت المصادر ملاحات أخرى .

وكان معظم من يستخرج الملح ليسو من أهل تغازا لأن معظمهم يأتي مع القوافل ويستقر ليمتهن هذه المهنة وكان الملح يحمل منها إلى داخل وخارج البلاد وقد ذكرت المصادر أن ملحها من أجود أنواع الملح [6] وقد ذكر السعدي أن أسواق مدينة جني كانت يجلب لها

---

[1]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج2،ص380 .

[2]- القلقشندي ،المصدر السابق ،ج5 ،ص291 .

[3] - عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ،ص190 .

[4] - Mouny.M.op,cit p 205 .

[5]- تغازا تقع جنوب المغرب بقرب البحر المحيط .ينظر : القزويني ،المصدر السابق ،ص25وينظر: الفشتالي ، مناهل الصفاء في مآثر موالينا الشرفاء ،تحقيق عبد الكريم كريم ،الرباط ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،1972 ،ص120 .

[6]- الحسن الوزان ،المصدر السابق ،ج2 ، ص108 .الفشتالي ،المصدر السابق ،ص120 .

الملح من تغازا في قوله : " يأتيها أرباب الملح من معدن تغازة"[1].ومن ملاحات السودان الغربي كذلك ملاحة أوليل ، قال عنها الإدريسي : " ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها ومنها يحمل إلى جميع بلاد السودان إلى سلى و تكرور و بريسي وغانة وكافة بلاد ونقارة وغيرها"[2].

أما ملاحات السودان الغربي فكانت إما عامة يمتلكها أصحاب المنطقة التي توجد بها ويأخذ عليها السلطان خراج على الملح بعد بيعه للتجار ،ومنها ما هو ملك للسلطان أصلا ، وعادة ما يكون من حق السلطان ، ولا يباع ملح أحد إلا بعد بيع ملح السلطان . وقد وصل الخراج الذي يأخذه الملك عن مجموعة من الملاحات ثلاثين ألفا [3]ولقد كان معدن الملح يساوي وزنه ذهبا في بلاد السودان الغربي وهذا ما أكده ابن بطوطة حيث أشار إلى أن الملح كان لا يختلف عن الذهب في الأهمية [4].

ب- المنتجات الصناعية:

ازدهرت الصناعات المحلية في بلاد السودان الغربي ولقيت رواجا كبيرا وكان أهمها :

- صناعة الجلود :

لقد تطورت صناعة دبغ الجلود وأصبح محترفوها كثر وذلك يرتبط أساسا بتربية الماشية كما أشرنا سابقا فمع ارتفاع قطعان الماشية في بلاد السودان الغربي كثرت هذه الحرفة قصد تلبية حاجيات السكان من المنتجات الجلدي، فصنعوا القرب والملابس والنعال و أغمدة السهام والآلات الموسيقية ومنها الطبل والأكياس والصنادل و الأجمة ، أما صناعة القرب فكانت من جلد الماعز وكان يفضل الذكور منها وذلك بإخراج الجلد من الرقبة بعد ذبحه ويحافظون عل سلامته من الثقب ، ويطمر في الأرض لفترة من الزمن وبعد ذلك يتم إخراجه بعد زوال شعره ، وبعدها يوضع له الدباغ والمعروف بالجداري[5] وبعد وضعه شهر في الدباغ يتم

---

[1]- السعدي ، المصدر السابق ،ص11 .

[2]- الإدريسي ، المصدر السابق ،مج1، ص17 .

[3]- الهادي ،المرجع السابق ،ص287 .

[4]- ابن بطوطة ، المصدر السابق، ص 368 .

5- الجداري أحد النباتات المحلية التي كانت تستخدم لصناعة الدباغة ، كما استخدمت قشور الرمان والأملاح ، وكانت الدباغة تعتمد على الغلي والنقع ، وفي الغالب كان محترفو الدباغة غير محترفي صناعة الجلود .ينظر : عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ، ص192 .

إخراجه في حالة جيدة وجاهزة للاستعمال ،كما كانت الصباغة تجلب من المغرب ومن مدينة غدامس وفي الغالب كانت يضاف للصباغة الشب ، و الملح لتثبيت الألوان ، وقد نشطت هذه الحرفة حتى نهاية القرن العاشر الهجري السادس عشر الميلادي وكما يذكر موني فإن سكان السودان الغربي و خاصة سنغاي كانوا يلبسون خلال فصل الشتاء الجلود المصبوغة [1]. وقد عرف الدباغون باسم "**كورو**" .

أما الاسكافيون في بلاد السودان فقد عرفوا باسم "**طام تيكو** " وعرفت صناعة الأحذية رواجا كبيرا في هذه البلاد بحيث اعتمدت على العديد من الأدوات التي كانت مستعملة في بلاد المغرب وقد تميزت أحذية النساء عن الرجال حيث أن الأولى كانت ناعمة وملساء تضاف إليها قطع جلدية في مؤخرة الحذاء لستر القدم وعرف هذا النوع عند أهل السودان باسم " التلة " وقد كان يقتنيه الأثرياء ، أما البسطاء فكان لباسهم "السلبى" وهو نوع من الأحذية المصنوعة من الجلد الخشن مخصص للمرأة البدوية ، أما الرجال فكانت لهم نعال بسيطة ومتباينة الأنواع ومنها البلغة التي تصنع من جلد الماعز وقد عرفت كذلك في بلاد المغرب وهي لا تزين كما كانت يوضع لها عقب من اجل ارتدائها في الشتاء وإلى جانب البلغة ارتدى الرجال الخف وهو من الجلد اللين و السباطو وهو شبيه بالبلغة ولكن له جوانب مرتفعة تلتصق عند ربطها بخيط على الساق أما التيماكو فهو شبيه به ولكنه مطرز بزخارف ويلبس حتى من طرف النساء[2] .

كما كانت تصنع من الجلد السروج والآلات الموسيقية ، وبسبب اهتمام أهل السودان الغربي بالكتب والمخطوطات والأوراق الموثقة صنع أهل هذا البلد ما عرف بالجبير لحفظ الوثائق والعقود وخاصة عند بيوتات العلم [3]، وكذلك المحافظ التي كان يتقلدها الرجال والنساء ومنها كيس التبغ والوسائد المطرزة أو العادية والتي كانت تملأ بالقطن أو الصوف أو القش وصنعت كذلك من الجلد أغلفة الكتب ، باعتبار كون الكتاب كان من بين السلع الرائجة في

---

[1] - Mauny : Op .cit.p102.

2 - Dupuis, yakouba, Industries et principales professions des Habitants de la région de Tombouctou, paris, 1921, p70.

[3] – الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ،ص291. جعفري مبارك ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13 هـ /19 م .ص298 .

بلاد السودان الغربي وأغلفة التمائم والحجب [1]. و على العموم فإن هذه الحرفة كانت من بين الحرف الكثيرة الانتشار بحكم وفرة المادة الأولى والمتمثلة في جلود الحيوانات .

- صناعة النسيج : (الأقمشة)

كانت الملابس من أهم المنتجات الصناعية ، و تكونت بالدرجة الأولى من القطن لأن القطن كان من المحاصيل الوفيرة في البلاد وقد جرى تصنيعه منذ فترات مبكرة ولكن الغالب أن التوسع في تصنيعه بدأ مع دخول الإسلام إلى هذه البلاد ابتداء من القرن الثامن وذلك من خلال الاتصال بشكل كبير مع أسواق العالم العربي وأوروبا[2] ، وبلغت أوجها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر للميلاد. وكانت كل مراحل التصنيع تتم محليا بدية من التسريح والغزل والصباغة والنسيج ،لأن الملابس كانت تصنع كذلك من صوف الحيوانات و أوبارها .وخلال القرن السادس عشر وجد في مدينة تمبوكتو ستة وعشرون خياطا من أصحاب العمل يستخدم كثيرون منهم مابين خمسين ومائة من المتدربين والعمال [3]. وبما أن الخياطين كانوا من الرجال فقط فقد عرف الخياط الماهر ب " الفا" [4]أي المعلم وقد برع أهل مدينة " سغ" وهي إحدى مقاطعات السودان الغربي في صناعة البيوت من الوبر ، وفي منطقة أخرى كانت الثياب والأكسية تصنع من خيوط تخرج من ثمار بعض الأشجار[5].وكانت النسوة هن اللائي يأخذن القطن في دكاكين الحياكة ويقومون بعملية الغزل عن طريق تمرير القطن على قضيب حديدي عدة مرات حتى تنفصل عنه بذوره ،وتعدها تأتي عملية الغزل بربط القطن بعضه البعض وتدار على آلة دوارة متصالبة الأركان تدعى البربرية وبهذه الطريقة يمكن حياكته بشكل جيد [6] ، وقد صنعت من القطن العديد من الأنسجة ، فمنها النسيج الناعم الذي تتخذ منه السراويل وأغطية

---

[1] -Dupuis, op, cit, p79.

[2]- ذكر ذلك مارمول كربخال عن مدينة تمبكتو فقال : " تزخر تمبوكتو بكثير من الدكاكين للتجار والصناع ،أهم تجارتهم الثياب القطنية التي يستبدلونها بثياب مصنوعة في أوروبا يأتي بها تجار من بلاد البربر .ينظر :مارمول ،المصدر السابق ،ج3 ،ص202 .

[3]- الحسن الوزان ، المصدر السابق ،ج2 ، ص 166 .ا.ج.هوبكنز، المرجع السابق ، ص94-95 .

[4]- وهي مشتقة من الفقيه وكانت هذه التسمية تطلق كذلك على الأستاذ .

[5]- مجهول ، الاستبصار ، المصدر السابق ،ص218-225.

[6]- الغربي ، المرجع السابق ، ص498 .

الرأس وحتى بعض القطع الشفافة للوقاية من الذباب والحشرات أما النسيج الخشن يخاط عصابات وبرانس .

كما كانت تخاط العديد من الملابس لمختلف الطبقات منها الدراعية وعرفت "**بتوبا**" وهي لباس فضفاض واسع يطرز برسوم من خيوط القطن أو الفضة أما البرنس فكان لباس المغاربة والعلماء في بلاد السودان الغربي ، و"**الكوسابو**" وعبارة عن ثوب بدون خياطة على الجوانب ، والسراويل التي كانت تدعى "**سيبي تاموسو**" وكانت تطرز في أسفل فتحتيها وتزين بأربعة خطوط ،اثنين في الخلف واثنين في الأمام وكانت هي أرقى الأنواع وكانت تخاط كذلك السراويل القصيرة الضيقة ولواسعة الطويلة ولكن منها اسمه الخاص أما الأصباغ [1]لهذه الملابس فكانت معظمها تستخرج من النباتات .والى جانب صناعة الأقمشة كانت هناك صناعة الزرابي من صوف الأغنام وشعر الماعز ووبر الإبل ،حيث اختص النساء بصناعتها إلى جانب صناعة الحصير ،التي تنسج من نبات يشبه الديس ، إلا أنه أقوى منه وأكثر سمكا ، إضافة إلى الحبال التي كانت تفتل من الحلفاء وكان يقدم على هذه الحرفة العبيد والغلمان في أوقات الفراغ أو بدافع التسلية واستخدمت هذه الحبال لعقال الدواب وشد أعمدة الخيام واستخراج مياه الآبار كما صنعت بسعف النخيل الأطباق لتقديم التمروالخبز[2]و معظم هذه الصناعات انتقلت إلى هذه المناطق من بلاد المغرب[3].

- صياغة الذهب :

كانت من الصناعات المتطورة والهامة في أرض السودان الغربي وهذا ما أشرنا إليه سالفا كون البلاد عرفت ببلاد الذهب لكثرة ما كان ينتج بها من ذهب، وقد اشتهرت تمبكتو بذلك وخاصة في حي الغدامسية ، حيث توارثت العديد من العائلات هذه الحرفة أبا عن جد، وكانوا يصنعون الأساور، و الأغمدة ، والسيوف ،و الرماح . كما قد شكلت وفرة هذا

[1]- لقد استعملت حوالي خمسة أصباغ محلية في بلاد السودان الغربي هي اللون الأصفر الذي كان يعتصر من نبات محلي اسمه كومه ،أما الأحمر من صخر مشبع بمادة اللاتريت ،والسود المأخوذ من النخيل القزم والأخضر من نبات فمري والأحمر الباهت من نواة الكولا ينظر:الغربي ،نفس المرجع السابق،ص499 .

[2]- محمد بن مختار الكنتي ، الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد ،مخطوط في خزانة الشيخ عبد القادر بن عبد الكريم المغيلي بالحي الغربي بأدرار ، الجزائر ، ورقة 105 .

[3]- الهادي المبروك، المرجع السابق، ص290 .

المعدن في بلاد السودان الغربي إلى فتح العديد من مراكز ضرب العملة لأبوابها خارج هذه البلاد كسجلماسة التي مثلت أهم الأسواق التجارية التي سوق بها التبر المجلوب من بلاد السودان[1]،وتعتبر دولة بني مدرار (140ه-345هـ/707م-958 م) أول من سك نقود الذهب فيها كون هذه المدينة هي المحطة الصحراوية الكبرى الأولى التي تستورد ذهب السودان الغربي بمختلف أشكاله، وقد أكد البكري و الاصطخري على شهرة هذه المدينة بالذهب وعلى نقائه بها[2]، وقد أشار إليه الونشريسي فقال : " الذهب والفضة هما مادة الدنانير والدراهم المضروبة منهما المتواصل بها إلى الأغراض ،وأثمن الأشياء وقيمتها تقوم بذاتها ،ويقوم غيرها بها بخلاف سائر المتمولات "[3].

أما الصياغة فقد كانت تخضع لتقنية وذلك عن طريق إذابته في النار ، فيخضع للتصفية أين يتم إزالة الشوائب منه، ومن ثمة يتم إفراغه في قوالب تسمى السبائك ، لتأخذ هذه الأخيرة إلى مصانع سك العملة في بلاد المغرب ومصر[4] .

– الصناعات الفنية :

تمثلت هذه الصناعة في صقل المجوهرات والأحجار الملساء والتطريز وحتى الصياغة وقد انتشرت دكاكين الطرازين في أحياء المدن الكبرى لبلاد السودان الغربي ،حيث كان الطرازون يستعينون بالعبيد والأطفال في عملهم داخل دكاكينهم ، وفي البيوت كانت النسوة يباشرون أعمالهم ويقمن ببيع منتجاتهم المتمثلة في الأثواب والجلد المطرز إلى أصحاب الدكاكين ، وفي الغالب كان هذا التطريز يتم بخيوط الحرير والذهب[5] . وعرف الصائغ ببلاد السودان باسم "**جام** "و" **غراسا** " ، وقد برع أهل هذه الحرفة في الذهب والنحاس والخشب المطعم ، وتعد هذه الحرفة من بين الحرف القديمة التي تميزت بها مدن السودان الغربي كتمبكتو وجني وغاو ،خاصة أن هذه الشعوب تعرف بارتدائها للأساور ،والخلاخل، والخواتم والعديد من الأسلحة

---

[1]– حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ،دار الكتاب الحديث ،ط2 ،1996 ،ص350 .

[2]– البكري ،المصدر السابق ،ص149 .الأصطخري ،المصدر السابق ،ص34 .

[3]- الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب ،ج6،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،1401هـ/1989م ،ص337 .

[4]– الهادي المبروك الدالي، المرجع السابق، ص284.

[5] - Dupuis, op, cit, p79

المطعمة بالذهب والفضة وكانت في الغالب تصنع لأكابر القبيلة[1] ، وقد أشارت الكتابات التاريخية المتخصصة في تاريخ بلاد السودان الغربي إلى ظاهرة هي احتقار المجتمع السوداني لهذه الفئة وذلك لسيادة اعتقاد مفاده أنها تقوم بالغش والتدليس في عملها حتى أنهم كانوا يرفضون تزويج بناتهم لأفراد هذه الفئة[2].

- صناعة الحديد:

كان معدن الحديد كثير الانتشار في جميع أنحاء البلاد، وتميزت أسعاره بالانخفاض، وقد تم استخراجه بكثرة وهذا ما أثر على أثمانه، وأهم ما صنع من هذا المعدن هو الخناجر والسيوف وبعض الدروع والخوذات والرماح والفؤوس وحدائد الخيل والمطارق و الإبر[3].وكانت تتم بصهر كميات كبيرة من خام الحديد في أفران كانت تسمى ب "مرمرة"، ومن أهم المدن التي انتشرت بها الحدادة تنبكت و غاو فصنعت بها المحاريث وأدوات الحرب كالخناجر والسيوف والرماح والدروع والخوذات ،حيث يتم تطريزها بنقوش ورسومات فائقة الدقة ، كما صنعت الفؤوس وحدائد الخيل ، والمطارق والإبر والسكاكين وحلي النساء كالخواتم والأقراط والأساور والخلاخل ، كما كان هؤلاء الصناع يصلحون للناس ما ضاع لهم من أدوات يستخدمونها في حياتهم المعيشية [4]وفي نفس الإطار ونظرا لاهتمام أهل السودان الغربي بالرسائل وخاصة ذات القيمة العالية كالمراسلات ، كانت تصنع لها حوافظ الورق والأواني و زركشة الألبسة من معدن النحاس [5]. وقد سجلت لنا المصادر وجود العديد من ورش الحدادة في نياني العاصمة [6]،كما اشتهرت بلاد الموسي بالتعدين والحدادة حيث اشتهرت قبائل الياتنغا على باقي

---

[1] - Mauny ,Tableau,op,cit, P294.

[2]-Dupuis,Ibid,P93.

[3] - Bovill, E.W, The Golden Trade of the Moors, Oxford London, 1957 .p16 .

[4]-محمد السعيد القشاط ، المرجع السابق ،ص 69 .

[5]- كعت ، المصدر السابق ،ص67 .جميلة التكيتك ، مملكة صنغي الإسلامية في عهد الأسقيا محمد الكبير 1493-1528 م ،مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ،الجماهيرية الليبية ،1998.ص110

[6]- نياني (ج.ت) ، مالي والتوسع الثاني للماندنغ ، تاريخ إفريقيا العام ، اليونسكو ، مج4 ،1988،ص176 .

باقي القبائل في بلاد الموسي وذلك نتيجة وفرة معدن الحديد في هذه المنطقة كما نجده متوفر في منطقة فولتا العليا (بوركينافاسو الحالية)[1].

– صناعة الخشب : (النجارة)

كانت صناعة الخشب من الصناعات الواسعة الانتشار في بلاد السودان الغربي ومن أهم أنواع الأخشاب خشب الأبنوس[2]، وهذا ما نجده عند الإدريسي الذي أكد كذلك وجود هذا النوع من الشجر في بلاد السودان وعلى ضفاف نهر النيجر الذي يسميه الكثير من الرحالة بالنيل وهذا سبق وأن أشرنا إليه بقوله :" وينبت على ضفتيه القصب الشركي وشجر الأبنوس "[3].كما استخدم نوع آخر من الخشب هو خشب الخيزران ،فصنعت منه الأبواب ،و النوافذ ، والأعمدة، و أدوات الصيد، والحرب من نشا شيب ،و رماح ، ودبابيس،و الكنو [4].

– صناعة الفخار والخزف:

عرف سكان السودان الغربي صناعة الفخار وقد أثبتت الحفريات الحديثة على ازدهار هذه الصناعة في هذه المنطقة لتوفر المادة الأولية ، وباعتبار نهري النيجر والسنغال وروافدهما يغطيان مساحة كبيرة من بلاد السودان الغربي فجزء مهم من البلاد أراضيه طينية وهي المادة الأساسية في هذه الصناعة .فصنعت الجرار وأوان للشرب والأكل ،كما عرفوا صناعة "الزق" وهو من الفخار وعادة ما يكون صغيرا يستخدم لصنع القداح لشرب الحليب والماء [5]، وقد كانت تصنع بالأيدي وبعد التجفيف يتم شويها [6] .

إلى جانب صناعة الفخار عرف سكان بلاد السودان الغربي صناعة الطوب المشوي ، وهذا ما أشارت له معظم المصادر العربية والغربية على السواء ،كما تطلب إنشاء وصيانة

---

[1]– ميشيل إيزارد ، شعوب وممالك منعطف نهر النيجر وحوض الفولتا من القرن 12إلى القرن 16م،موسوعة تاريخ إفريقيا العام ،مج4،ص244.

[2]– الأبنوس : هو شجر خشبه أسود صلب ،تصنع منه بعض الأدوات والأواني والأثاث . ينظر : العمري ، المصدر السابق ،ص 89 .

[3]– الإدريسي ،المصدر السابق ، ص20 .

[4]– الكنو : هي الزوارق الصغيرة التي كان يتم بواسطتها الصيد في النهر . ينظر : الإدريسي ،نفس المصدر السابق ، ص20 . ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ،ص 91 .هويكتر ، المرجع السابق ،ص98 .

[5]– محمود كعت ، المصدر السابق ، ص35-36 .

[6]– عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ، ص193 .

المساكن المتينة في المدن الكبرى الطلب على مجموعات أكثر تخصصا من البنائين والمبيضين والنجارين خاصة مع ازدهار المدن الكبرى كجني و تمبوكتو .وقد شكل الفخارين طبقة اجتماعية خاصة في المدن وعرفوا باسم "المابي "،وكانوا في بادئ الأمر قبيلة منعزلة ولكن تم استقدامهم من طرف الأسكيا داود سنة957ه/1550م إلى مدينة تمبكتو ومنها غلى العاصمة غاو. وما تزال إلى يومنا هذا بعض الآثار التي ترجع للقرنين الرابع و السادس عشر للميلاد والتي تبين مدى تطور هذه الحرفة وبراعة حرفييها .

- صناعة القوارب :

برع فيها سكان السودان الغربي وقد عملك مولوك غانة و مالي على تشجيع هذه الصناعة فأبدع الصناع فيها وأنتجوا قوارب مختلفة الأحجام بين الصغير والكبير وكثيرا ما استخدمت في الحروب وفي السلم لنقل المنتجات والبضائع[1]، وتطورت هذه الصناعة في عهد الأسيقيين في سنغاي 1493-1591 م . وكانت القوارب الكبيرة تصنع من الأشجار الكبيرة فكانت تخصص قوارب كبيرة أنيقة للسلطان [2]، وتجهز أخرى لأغراض الحرب أو التجارة وهذا ما أورده السعدي في هذا الشأن حيث قال : " ... فقطعوا جميع الأشجار الكبار الذين كانوا في داخل مدينة تنبكت ، ونجروا منها الألواح وغصبوا الدفوف الغلاظ الكبار الذين كانوا على أبواب الديار وركبوا منهن قاربين وأنزلوا الأول في البحر ...." [3] . وقد أشار السعدي إلى هذه الحادثة عندما دخل الجيش السعدي على تمبكتو واستطاع الأسكيا من الفرار من جيش السعدين عبر النهر ونقل معه كل السفن التي كانت موجودة إلى الضفة الأخرى حتى استحال اللحاق به وهذا ما عرض القائد جودر إلى العزل وتعويضه بمحمود بن زرقون كما سبق وان أشرنا إليه ، وكان هذا الحدث دليل واضح على الأهمية التي كانت تكتسيها صناعة القوارب في بلاد السودان الغربي وخاصة في المناطق المحاذية لأنهار بلاد السودان .

[1]- كعت ، المصدر السابق ،ص50 .

[2]- الفشتالي ، المصدر السابق ،ص147 .

[3]- السعدي ، المصدر السابق ، ص145 .

- صناعة الأدوية :

عمل أهل السودان الغربي في صناعة الأدوية ولكن لم يكونوا يصنعونها بالمفهوم الكامل بل اجتهدوا في استخلاصها مما يصيدونه ويجمعونه من البيئة التي يعيشون فيها ، فكانوا يستعملون بعض العقاقير والأدوية من جلود بعض الحيوانات ومن بيضها كبيض النعام مثل البرد (الرشح) وداء المفاصل من شحمها واستخدام الملح في صناعة العقاقير الطبية ، كما استخدموا من ورق العديد من الأشجار أدوية لمختلف الأمراض وما ساقه لنا ابن بطوطة عند مرضه بسبب أكله لأحد الأطعمة التي اعتل بسببها لدليل واضح لامتهانهم وصناعتهم لبعض الأدوية من النباتات التي كانت تنمو عندهم[1] .

- الصناعة الغذائية :

اشتهر أهل السودان الغربي بتجفيف السمك الذي يتم صيده ، ويصدر إلى الخارج، ومن شدة انتشار هذه الصناعة كان ملوك سنغاي يفرضون الضرائب على محترفيها وهذا ما ذكره كعت أن الضريبة كانت بالحزمات من السمك المجفف [2].كما عكف أهل المنطقة على صناعة مخازن الحبوب من الطين المخلوط بالتبن والملح حيث يصل ارتفاع الواحدة منها أربعة أمتار ، و لا تزال هذه المخازن تصنع وتستعمل إلى يومنا هذا في بلاد السودان الغربي ، وصنعوا حوافض للحبوب من جلود الحيوانات وسموها صينية .[3]

- صناعة الصابون :

كانت هذه الصناعة قليلة وقد ذكر القلقشندي طريقة صناعتها في بلاد السودان الغربي حيث كانت لهم شجرة يصنع من نواها الصابون ، وقد أورد كعت حكاية كذلك تدل على صناعة هذه المادة في أرض السودان الغربي [4].

من خلال ما تعرفنا عليه خلصنا لمجموعة من الاستنتاجات كشفت لنا الواقع الاقتصادي لبلاد السودان الغربي نحاول أن نلخصها فيما يلي :

---

[1]-ابن بطوطة ، المصدر السابق،ص372 .

[2]- كعت ، المصدر السابق ، ص 57 .

[3]- كعت ، نفس المصدر السابق ،ص35 .

[4]- القلقشندي ،المصدر السابق ،ج5 ،ص288 .كعت ، المصدر السابق ، ص106 .

– من خلال التعرف على واقع الفلاحة توصلنا إلى مدى الخصوبة التي ميزت العديد من مناطق السودان الغربي .

– تنوع المحاصيل الزراعية في هذه البلاد مما جعلها تحقق اكتفائها في العديد من المنتجات إلا بعضها التي لم تكن تنمو في البلاد بحكم المناخ .

– تنوع الثروة الحيوانية وخاصة في الجنوب كونها منطقة مراعي واسعة مما أعطى دفعا قويا للعديد من الصناعات .

– ثراء بلاد السودان الغربي بالمعادن وخاصة النفيسة وحرصهم على إخفاء مناطق استخراجها على الأجانب ولهذا ما ذكرته المصادر العربية وغيرها في تلك الحقبة لم تشر أبدا إلى أماكن استخراج المعادن النفيسة وخاصة الذهب رغم شهرة بعض المناطق بها ،إلا أنها كانت مناطق تخزين لا غير ،أما المناطق الحقيقية فقد اكتشفت في عصور متأخرة وخاصة بعد الحملة الاستعمارية على هذه البلاد .

– ظهور العديد من الصناعات و ازدهارها وهذا له علاقة وطيدة بالعلاقات التجارية التي عرفتها بلاد السودان الغربي وتحولها قبلة للتجار الأجانب ناقلين بذلك معارفهم وثقافاتهم إليها.

ثانيا : الأسواق في السودان الغربي:

ارتبطت الأسواق في بلاد السودان الغربي بالحاجيات المتكاملة للقبائل والجماعات البشرية التي استقرت في هذه البلاد وكانت شديدة القرب من بعضها البعض ، وهذا ما يعرف بالتبادل المحلي أي أن الحاجيات المحلية هي التي أدت إلى خلق الأسواق المحلية ، وكانت الغاية من هذه السواق هو ضمان المنتجات للحفاظ على المستويات المعيشية التي كانوا عليها .وقد عرفت الأسواق تداول العديد من السلع المحلية والمجلوبة من مناطق بعيدة ولذلك سنحاول عرض الأسواق التي عرفتها بلاد السودان الغربي .

1- أنواع الأسواق :

لقد وجدت ثلاث نماذج للأسواق في السودان الغربي وهي على النحو التالي :

- **النوع الأول** : كانت محلية و بسيطة ويرتادها أهالي القرية وما جاورها من قرى تضم بعض الدكاكين الصغيرة والبضائع المحلية تقريبا ، وكانت أسبوعية ومعظم السلع فيها رخيصة[1]. فهي تختلف على أسواق المدن من حيث شكلها وأوقات انعقادها والمواد المعروضة فيها وأشكال التبادل وطبيعة المترددين عليها .

- **النوع الثاني** : كانت جهوية وجدت في المناطق التي بها مراكز السلطة في الأقاليم الكبرى ، أما المنتجات المتداولة بها فهي كثيرة مقارنة مع الأسواق المحلية بسبب وفود العديد من التجار خارج المنطقة التي هي فيها وتزداد أهميتها حسب عدد المترددين عليها وطاقتهم الشرائية ، وترتبط هذه الأسواق بهذه المناطق حيث توجد المراكز الحكومية قصد توفير الأمن في السوق وحتى إلى الطريق المؤدية إليه [2].

- **النوع الثالث**: وتعرف بأسواق المدن و كانت معظم هذه الأسواق في شمال بلاد السودان الغربي ومن خلالها تتم المبادلات الكبرى ، و الاتصال بالخارج ، حيث تتم الصفقات الكبرى ، أو التبايع بين كبار التجار من الطرفين كما كانت هذه الأسواق مقصدا للكثير من التجار من كل البلدان وقد انفردت كل صناعة بناحية من السوق كسوق الفخار، وسوق الثياب ،

---

[1]- عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ، ص 195 .

[2]- الحسن الوزان ،المصدر السابق ص24 .ينظر كذلك : عثمان المنصوري ، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر ، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء ،ط1 ،2001 ،ص178-179 .

وسوق الفاكهة[1]وقد اعتمدت هذه المدن على القرى والمدن الأخرى لسد حاجياتها في المواد الغذائية[2]، و المواد الأولية التي تحتاجها في الصناعة ، وكانت هذه الأسواق تشهد من الاكتظاظ ما جعل الناس لا يقدرون على سماع بعضهم البعض لكثرة الهرج والمرج والضوضاء [3]. وتختلف أهمية هذه الأسواق حسب موقعها.

كانت الأسواق تخضع لإشراف السلطة وذلك ببعث موظفيها لإقامة الأمن واستخلاص الضرائب و معظم السلع التي كانت تدخل السوق يتم تبادلها عن طريق المقايضة والتي عرفت بالتجار الصامتة أو المقايضة الخرساء[4]،ومن المحتمل جدا أنها كانت موجودة في بلاد السودان الغربي كما أشارت بعض المصادر حيث ذكرها ابن بطوطة حين ذكر أكلة لحوم البشر الذين كانوا يحتكرون الذهب[5]و قد ذكر الونشريسي في نازلة حيث قال :"من يشتري الملح وهو غائب في أوعية والزرع في بيته فانعقد البيع رأسا برأس وملح أو أقل أو أكثر "[6].

2- النقل :

عرفت بلاد السودان الغربي استعمال الحيوانات والقوارب في نقل البضائع إلى الأسواق، أما في الجنوب فقد استعمل العبيد في نقل البضائع[7]،أما نقل البضائع في القوافل التجار بين ضفتي الصحراء نحو بلاد المشرق أو بالمغرب فكانت تستعمل الإبل وكانت هذه الجمال المحملة

---

[1]- خيرة بلعربي ، المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي(5-10ه/11-16 م) مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ ، جامعة تلمسان ،2009-2010 ،ص 92 .

[2]- ذكرت المصادر أن بعض المدن كانت جل المواد الغذائية التي تفد إلها من خارج المدينة حيث ذكر الوزان ذلك بالنسبة لمدينة تمبوكتو حيث قال أن نصف المواد الغذائية تيتورد من مدينة كبرة .ينظر: الوزان ، نفس المصدر السابق ،ص169 .

[3]- الحميري ، المصدر السابق ، ص 185 .

[4]- التجارة الصامتة هي حدوث المقايضة بدون كلام أو بفعل حركات أو أصوات تعبر عن السعر و اكتمال الصفقة، وقد أورد الحموي بعض مظاهرها وذلك بقرع الطبول .ينظر : ك.مادهوبانيكار المرجع السابق،ص36 . Hatier, Casablanca, 1976,p131. Brignon.J, et autre, Histoire du Maroc و ينظر:

[5]- ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2 ، ص377 .

[6]- هذا يدل على أن المقايضة كانت موجودة في السودان الغربي وهو وجه من أوج البيع الذي كان موجودا هناك . ينظر : الونشريسي ، المصدر السابق ،ص 36 .

[7]- عبد القادر زبادية ،المرجع السابق،ص196 .

بالبضائع تتوقف في المدن الواقعة شمال بلاد السودان الغربي ليتم توزيع السلع في المناطق الداخلية من طرف التجار المحليين إلى الأسواق الداخلية[1] .

كانت البضائع التي تنقل إلى المناطق الداخلية تتم ببعض الحيوانات الكثير الانتشار هناك كالحمير و البغال [2] وفي بعض الأحيان يقوم بهذا العمل العبيد لكثرتهم في بلاد السودان الغربي و خاصة في المناطق الجنوبية حيث تكثر الغابات ، وكان الواحد منهم يقطع في المتوسط حوالي ثلاثين كيلومترا في اليوم و هذه الطريقة كانت هي المفضلة لما لها من فوائد على رأسها تأمين البضائع من سطو اللصوص ،حيث كان هذا من أكبر الأخطار التي تهدد البضائع خاصة عندما تكون الأوضاع السياسية غير مستقرة .

لعب النقل النهري دورا مهما بالنسبة لتجارة السودان الغربي وقد سبق وأن أشرنا إلى أن صناعة القوارب كانت منتشرة على ضفاف نهر النيجر ونهر السنغال ، ومن المعروف أنها أرخص وسيلة نقل فاستخدمت لنقل البضائع والأشخاص وساهمت هذه الوسيلة إلى وصول البضائع إلى نقاط بعيدة من الشمال إلى الجنوب،رغم ذلك كانت تعترضها العديد من الصعاب إذ كان يوجد بها العديد من الشلالات الخطيرة ومن جهة أخرى موسم الفيضانات حيث تصبح الملاحة صعبة ومن جهة أخرى جفاف بعض الروافد في موسم الجفاف ، وكان " الكَنُو"[3] هو النوع المستخدم في بلاد السودان الغربي.

كان النقل النهري من أهم وسائل النقل في نهري النيجر والسنغال أو بحيرة تشاد وكانت الممرات النهرية الداخلية تعج بالحركة والنشاط خاصة الطرق الرابطة بين كبريات المدن الأسواق حيث استخدمت مئات القوارب وكان الواحد منها يحمل مابين عشرة أطنان وثلاثين طنا من البضائع ، وكان لهذه القوارب والسفن موانئ في المدن الكبرى كمدينة تنبكت حيث كانت ترسوا به السفن الداخلة والخارجة ، كما كانت تمثل موردا مهما للضرائب التي تجبى من

---

[1]- الوزان ،المصدر السابق ،ص21 .ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص368 .

[2]- السعدي ،المصدر السابق ،ص181 .

[3]- زورق طويل خفيف مدبب الطرفين يقاد بمجداف ،وكانت أحجامه متفاوتة وصل البعض منها إلى 25 م أو أكثر ويستطيع حمل حتى 100 فرد وكانت غالبية أنواعه تدفع بالمجاديف برغم استخدام الأشرعة في بعض المناطق . ينظر : ا.ج. هوبكنز ، المرجع السابق ،ص144 .

ركابها وبضائعها[1]،وعرفت هذه الموانئ نوعا من التنظيم حيث لها رياس ينظمون حركة السفن[2]وبهذا فان النقل النهري ساهم بشكل فعال في تطور وازدهار العديد من الحرف كصناعة القوارب ، وساعد على ربط كل أنحاء السودان الغربي وتوحيدها اقتصاديا [3].

3- العملة :

لم تكن السلع دائما قابلة للتبادل بسهولة عن طريق المقايضة كما سبق و أن ذكرنا فكانت النقود لازمة لتسيير التبادل ولهذا وجدت مجموعة متنوعة من العملات في بلاد السودان الغربي كان يؤتى بها من مختلف المناطق وبهذا كانت توجد مجموعة من العملات منها الذهب ، والودع ، وقطع القماش الطويلة ،و النحاس وقضبان الحديد ، وأهم هذه العملات المصنوعة من الذهب لأنه كان شائعا على نطاق كبير من السودان الغربي وفي بعض المناطق الجنوبية المعروفة بالغابات حيث كانت العملات الذهبية تنقسم إلى قسمين مهمين هما : التبر[4] و المثقال[5] وقد كان المثقال متداولا في شرق السودان الغربي بدرجة كبيرة حتى بعد القرن السادس عشر للميلاد العاشر الهجري .عموما عرفت بلاد السودان الغربي باستخدام الذهب كعملة سواء تبرا أو مثقالا ،وهذا ما ذكره الوزان حيث قال على المناطق التي مر بها وخاصة سنغاي بأن أغلب الناس كانوا يتعاملون بالذهب دون سكه وقد أسماه البكري بالصلع [6].

---

[1]- السعدي ، المصدر السابق ، ص157-178 .

[2]- الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ، ص336 .

[3]- ا.ج. هوبكنز، نفس المرجع السابق ، ص145 .

[4]- التبر : بالكسر : الذهب والفضة ، أو فتاتهما قبل أن يصاغا ،فإذا صيغا فهما ذهب وفضة ،أو مااستخرج من المعدن قبل أن يصاغ . ينظر : الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ، المصدر السابق ، ص356 . وهي شذرات الذهب المخلوطة بالتراب ، وكان ينقل في أكياس صغيرة ويقاس على ميزان محمول .

[5]- المثقال : تسمية بديلة للدينار ،وكان يستعمل سواء كعملة أو كوحدة وزن التبر . ينظر : ا.ج.هويكنز ،المرجع السابق ،ص134 .

[6]- الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ص 163 . البكري ، المسالك والممالك ،المصدر السابق ،ص880 .

كانت ونقارة التي تحدث عنها الإدريسي في سياق حديثه عن مملكة غانة أهم مصادر الذهب فأشار إليها بقوله :" ومن غانة إلى ونقارة[1] ثمانية أيام "[2] . كما تحكمت غانة في هذا المعدن وأحكمت سيطرتها عليه مما جعلها تتحكم في أسعاره وكمياته المعروضة في السوق وطريقة المتاجرة به ، ومن جانب آخر تم تداول عملات إسلامية فاطمية ومملوكية ومغربية وهذا كان نتيجة العلاقات التجارية التي كانت تربط بلاد السودان الغربي مع باقي أقطار العالم الإسلامي. وقد استعملت إلى جانب برادة الذهب النحاس ولكن بقي التعامل يغلب عليه المقايضة العينية التي كانت منتشرة بشكل كبير في البضائع المرتفعة الأثمان وحدها تقريبا ، فالملح على سبيل المثال كان يعتبر نقودا في بلاد السودان الغربي وهذا ما أشارت إليه المصادر العربية وتليه في ذلك الأقمشة والخيول والعبيد[3].

لقد ذكر ابن بطوطة فيما يتعلق بمادة الملح على أنها لعبت دورا أساسيا في تجارة هذه البلاد والعلاقات التجارية بين شمال وجنوب الصحراء وقد ارتبطت قيمته النقدية بالذهب وهذا ما ذهبت إليه معظم المصادر، حيث قال ابن بطوطة في هذا الشأن :" وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا و يتبايعون به "[4].

و قدى كانت قيمة الملح تحسب بالعديلة[5] و العديلة هي نصف ما يحمله الجمل ، أما العديلتان فهما الغرارتان ولكن هذا اللفظ لم يرد عند الجغرافيين بل وردت كلمة الحجارة والألواح ، وذكر سعر الحمل في رواية ابن بطوطة في منطقة إيولاتن كما ذكرناه سابقا .أما الإدريسي فقد ذكر أن أهل الصحراء كانوا يستخرجون الملح ويقطعونه ألواحا كألواح الرخام ، فيحمل الجمل منها لوحين ، أحدهما على الجانب الأيمن ،والآخر على الجانب الأيسر ويسمى بالحمل ، أما أثمانها فإنها تختلف باختلاف أحجامها ،التي تشترط فيها السلامة من الكسر ،

---

[1]- ونقارة أو وانكرة أو نكارة ، هو إقليم شاسع الأطراف عديد السكان متاخم لإقليم زهري من جهة الجنوب الشرقي في هذه البلاد ، هي مدينة ميسورة تحمل اسم إقليم ، فلا يوجد بها إلا قرى منازلها قبيحة الهيئة ، وشبيهة بالأكواخ وتعني أرض الذهب وكل الناس القادمون من أرض الذهب ، ينظر : الحسن الوزان ، المصدر السابق ،ج2 ،ص174 .

[2]- الإدريسي ، المصدر السابق ، ص25 .

[3]- عبد القادر زبادية ، المرجع السابق ، ص208 .

[4]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص 368 .

[5] - Mauny. R.,Op,cit, P430.

وتقدر قيمتها بالشبر في طولها وعرضها وغلظتها ،ولذلك اختلف الفقهاء حول وزنه هل يقدر بالشبر أم بالوزن ؟[1] كما استعمل أهل السودان الغربي الودع[2] ،التي كانت تستورد عبر طريق بري من بلاد المغرب ومن بلاد فارس وقد استخدمت في الأسواق الرئيسية في هذه البلاد قبل القرن الخامس عشر للميلاد ليستمر حتى القرن التاسع عشر .

أما سعره فكما ذكره الوزان في سنة 1510 م أربعمائة ودعة مقابل الأوقية الواحدة من الذهب ،وهذا ما يجعل الودعة الواحدة ثمنها بالذهب حوالي 0.35 فرنكا [3]، وحسب الوزان فكان يشترى بالودع الأشياء التافهة .وكانت قيمة الودع ترتفع وتنخفض تبعا لكثرة ورود القوافل.أما فوائد الودع فقد ذكرها العمري "أن التجار أكثر ما تجلب إليهم الودع وتستفيد به فائدة جليلة"[4] ،وقد استعمل الودع كبديل عن العملة في المبايعات في بلاد السودان الغربي فأخبرنا البكري في حديثه عن غانة وأعمالها وعن مدينة كوغة يقول :" وأكثر مايتجهز إليها بالودع ... والودع أنفق شيء عندهم ..."[5] وقد استعمل في باقي بلاد السودان الأوسط كمملكة كانم و بورنو [6] .

إلى جانب الودع كان القماش وفي هذا الشأن ذكر لنا العمري أنهم كانوا يتعاملون بقماش نسيج اسمه دندي وطول كل ثوت عشرة أذرع ونفس الشيء أكده القلقشندي ، وفي بعض المناطق كان يعرف هذا القماش بالشكيبات[7].وكانت القضبان والأسلاك النحاسية هي الأخرى الأخرى متداولة[8] ،أما الخرز وقطع الزجاج وبعض الأصداف شكلت هي الأخرى كمادة

---

[1]- يذكر الطول ب5 أشبار والعرض 3أشبار وفي الغلط على الوسط لا رقيقة ولا غليظة.ينظر الونشريسي ،المصدر السابق ،ج5 ،ص136-137.

[2]- الودع : هو نوع من حلازم البحر وكان يجلب من جزر الهند ومن جزر المالديف في لمحيط الهندي .ينظر : الزهري ، المصدر السابق ،ص126.

[3]- الحسن الوزان ، نفس المصدر السابق ،ص167 .

[4]- العمري ،المصدر السابق ، الباب العاشر ،ص71 .

[5]- البكري ،المسالك ،ج2،ص877 .

[6]- القلقشندي ،المصدر السابق ،ج5 ،ص280.

[7]- العمري ، نفس المصدر السابق ،الباب التاسع ،ص54 .القلقشندي ،المصدر السابق ،ج5،ص280،البكري ،المسالك ،ج2،ص868 .

[8]- أ.ج.هوبكنز ،المرجع السابق ،ص135 .

للتعامل بها في عروض التجارة والمبادلات ، وذكر العمري أن الخرز هو من ضمن العملات التي تم تداولها في مملكة مالي [1]، أما الصدف فجاء التعامل به نتيجة التأثير العربي الإسلامي على هذه البلاد انطلاقا من اليمن والسودان الشرقي ولعل ندرته في البلاد هي التي اكتسبته القوة الشرائية في الأسواق السودانية . وبهذا فإن الودع و الذهب قد شكلا نظاما واحدا للعملة على نطاق كبير من بلاد السودان الغربي ، وفي بعض الأحيان كان سعر الصرف بينهما يثبت وفي أحيان أخرى يترك بدون تثبيت .أما الودع فقد لقي نجاحا كبيرا بسبب حجمه وشكله الذين جعلا تداوله يسيرا وعده مريحا وتزييفه مستحيلا وكان بالإمكان ادخاره في أمان وكان ممكن المضاعفة عن طريق خيوط أو أكياس للأغراض المحاسبية [2].

– الدينار الذهبي :

عرف أيضا باسم الدينار السلطاني وفي الغالب كان يعني الدينار العثماني الذي تم سكه في سنة 923ه/1517 م في عهد السلطان سليمان الأول ، وكتب عليه كلمة سلطان ،كما عرف باسم الدينار الأشرفي وكذلك المحبوب ، أي الذهب المحبوب وكان له أجزاء بمقدار النصف والربع [3]. ومع نهاية القرن السادس عشر للميلاد ورد ذكر العملات الورقية السلطانية المختومة بالختم السلطاني في النوازل وعرفت بالكاغد ،كمااستعملت الدنانير النحاسية المختومة بختم سلطاني كذلك [4].

– النحاس كعملة :

استخدم النحاس كعملة شرائية وخاصة في مدينة تكدا ،حيث كان يسك على شكل قضبان صغيرة على طول شبر ونصف منها الغليظة والأخرى رقيقة وكانت هي الأخرى تباع بالذهب وتستخدم لشراء العبيد والغذاء المختلف من قوت أهل البلد وخاصة السمن والقمح التي كانت

---

[1]- العمري ، نفسه ، الباب العاشر ،ص54.القلقشندى ، نفس المصدر السابق ، ج5 ،ص280 .

[2]– أ.ج. هوبكنز ، نفس المرجع السابق ،ص138 .

[3]– مبارك جعفري ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13 هـ 19 م أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ،جامعة الجزائر 2013،2-2014 . ص376 .

[4]– فرح سعد ،الحياة الاجتماعية والاقتصادية في السودان الغربي من خلال نوازل الشيخ باي بن عمر ، رسالة مقدمة لنيل لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية ،جامعة وهران 1، 2015-2016 ،ص236 .

أثمانه باهظة بسبب قلته في بلاد السودان الغربي [1]،وفي هذا الصدد ذكر لنا القلقشندي" أن الملك منسا موسى كان يملك في مدينة تكدا معدن نحاس أحمر يجلب منه قضبان إلى مدينة بنبي قاعدة مالي ،فيبعث منه إلى بلاد الكفار السودان فيباع وزن مثقال بثلثي وزنه من الذهب ويباع كل مائة مثقال من هذا النحاس بستة وستين مثقالا وثلثي مثقال من الذهب "[2] .

ومن خلال هذا نلاحظ مدى أهمية النحاس في المعاملات التجارية عند أهل السودان الغربي وكيف كان النحاس يبدل بالذهب.

– العملات الحديدية :

لقد تم التعامل بهذه العملات في بلاد السودان الغربي واستخدمت لشراء الأشياء البسيطة الرخيصة الثمن ،كشراء بعض الأنواع من الأغذية منها الخبز والحليب والعسل [3].

– الدراهم التكرورية :

لقد أشارت المصادر إلى وجود دراهم تكرورية والمعلوم بأن كلمة تكرور كانت تطلق على كانت بلاد السودان الغربي ،وقد استخدمت في أسواق مصر نتيجة العلاقات التجارية المزدهرة بين مصر وممالك بلاد السودان الغربي وفي هذا الشأن أورد ابن الصيرفي (900هـ-1494 م)نصا مهما قال فيه:" رسم السلطان برسباي[4] ألا يتعامل إلا بالدراهم المسكوكة بالديار المصرية و الشامية ، و تبطل ما سوى ذلك خلا الدراهم التكرورية[5]، فنستنتج من هذا المرسوم السلطاني الذي أقره برسباي لإصلاح العملة المصرية التي كانت متدهورة أقر العمل فقط

---

[1]–ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ج2، ص320 .

[2]– القلقشندي ، المصدر السابق ،ج5،ص291.

[3]– الوزان ، المصدر السابق،ص537 .

[4]– السلطان الملك الأشرف سيف الدين أبو النصر برسباي الدقماقي الظاهري سلطان الديار المصرية وهو جراكسي الجنس ، جلب من هذه البلاد فاشتراه الأمير دقماق المحمدي الظاهري نائب ملطية ، و أقام عنده مدة ،ثم قدمه إلى الملك الظاهر برقوق في عدة ممالك أخر .جلس على عرش الدولة سنة 825هـ/1422 م وتوفي سنة 842هـ/1438 م وهو السلطان الثاني والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية والثامن من الجراكسة وأولادهم .ينظر : ابن ثغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،تحقيق : جمال محمد محرز ،فهيم محمد شلتوت ، الدار المصرية العامة للتأليف والنشر 1971، مج14،ص242 .

[5]– الخطيب الجوهري علي بن داوود ، نزهة النفوس و الأبدان في تواريخ الزمان ،تح: حسن حبشي ،ج3،ص24 .

بالعملة المضروبة في مصر والشام وأضاف غليها العملة التكرورية وهو ما يوحي بقوة هذه العملة ونقائها وجودة عيارها ما جعلها مفضلة عند السلطان المملوكي .

– التعامل بالصكوك :

لقد استخدمت الصكوك في الأنشطة التجارية في بلاد السودان الغربي وهي في الحقيقة عبارة عن عقود بين التجار تتم في حالة الديون ، وفي هذا الصدد ذكرلنا ابن حوقل الكثير من الأمثلة عن مشاهداته لهذا الصكوك والتي كانت في حقيقتها تذكير بالديون الموجودة بين التجار[1]. ومما يستنتج من هذه المعاملات هو أن حجم المبادلات التجارية بين ممالك السودان الغربي ودول العالم الإسلامي تزايد بشكل كبير مع مراعاة الشريعة الإسلامية في هذه المبايعات سواء في كتابة هذه الصكوك إذ كان يؤتى بالشهود العدول للشهادة أثناء كتابة الصك بين المتبايعين وهذا قصد ضمان الحقوق لجميع الأطراف.

– المعاملة بالمقايضة :

عرفت المقايضة منذ أقدم العصور وهي أول مرحلة مر بها الإنسان القديم في مبادلاته التجارية ، وكان نفس الشيء مستمرا في بلاد السودان الغربي وذلك بمقايضة الملح بالذهب ،إذ شكل الملح بضاعة نفيسة وذلك لندرته في هذه البلاد فلم يبالوا بمقايضته بالذهب وزنا بوزن وهذا ما أكده البكري حين قال يتبدل الملح بالذهب [2] ، وقد تعدت مقايضة الملح بالذهب إلى مواد أخرى أي سلعة بسلعة [3]حيث وضّح لنا ابن بطوطة نظام مقايضة سلعة بأخرى في الأسواق التجارية في مملكة مالي حيث قال :" وكنا نزل كل ليلة بالقرى فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن بالملح و العطريات وحلي الزجاج ..."[4] . ومن خلال هذا القول يتضح لنا

---

[1]– يقول ابن حوقل أنه رأى صكا بأودغست ذكر فيه دين لرجل من تجار أودغست وهو من أهل سجلماسة وقيمته اثنين وأربعين ألف دينار،وأضاف أن إبراهيم بن عبد الله هو صاحب الدين المكتوب في أودغست ، وشاهد كذلك صكا بدين كتب على محمد بن أبي سعدون بأودغست وشهد عليه عدول باثنين وأربعين ألف دينار. ينظر ابن حوقل ، المصدر السابق ،ص ص 61-99-100 .

[2]– البكري ، المصدر السابق ،ج2،ص76 .

[3]– يتحدث الإدريسي عن مدينة كوكو أن أهلها يتعاملون مع التجار ويتعاملون معهم بالمقايضة.ينظر : الإدريسي ، وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ،تصحيح ونشر ،هنري بريس،الجزائر ،1957 ،ص12.

[4]– ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ج2،ص 316 .

بالدليل القاطع أن التجار العرب والمسلمين كانوا يتاجرون ويقايضون بضائعهم مع تجار بلاد السودان الغربي ،وفي مقابل البضائع المتنوعة تحصلون على الذهب ،وهذا ما يفسر الثراء الذي عم مختلف التجار الوافدين من بلاد الإسلام على بلاد السودان الغربي وخاصة المغاربة [1].

عرفت بلاد السودان الغربي تطورا ملحوظا في حركية أسواقها وطلك يكمن في تحول العديد من الأسواق الصغيرة المحلية إلى أسواق عامرة تدخلها كبريات القوافل ،والتي بدورها ستساهم في تأسيس كبريات الحواضر والمحطات التجارية في هذه البلاد ،كما أن هذه الحواضر والمحطات عرفت هي الأخرى تطورا في الممارسات التجارية ونظم البيع التي كانت متداولة في باقي البلاد الإسلامية وهذا دليل على مدى التأثير الذي خلفه التجار الأجانب .

ثالثا : طبيعة المبادلات التجارية في بلاد السودان الغربي :

تميزت الحركة التجارية بنشاط كبير وذلك راجع لحجم المبادلات التي كانت قائمة بين هذه البلاد وأقطار العالم الإسلامي مشرقا ومغربا والتي مافتئت تتزايد في الفترة الوسيطة ،الأمر الذي أدى إلى تضاعف حجم البضائع المتداولة في الأسواق السودانية والتي كان أهمها:

1- **الذهب** : مثل أول سلعة متداولة وهذا ما جعل التجار يتهافتون عليه ، وازدادت أهميته منذ عهد مملكة مالي الإسلامية وخاصة بعد زيارة الملك منسا موسى إلى البقاع المقدسة وما حمله معه من ذهب حتى أن المصادر اختلفت حول حمولة الذهب الذي سافر به حتى أن قيمته انخفضت في أسواق مصر وقد اشتهر ملوك مالي كمن سبقهم من ملوك غانة بالذهب ، وكان تجار ورجلان والتجار المغاربة هم أكثر التجار شراء للذهب ومعظمه كان يوجه لدور السكة كما اشرنا سابقا ، وهذا ما أشارت إليه معظم المصادر[2] ، كما كان ذهب بلاد السودان الغربي هو الممول الرئيسي للأسواق المصرية وحتى الأوروبية فقد أخذ التجار الأوروبيون جزء مهما من هذا الذهب [3]، وكان أحد السباب التي أدت إلى تكالب الحركة الاستعمارية على هذه المنطقة في القرن السابع عشر والثامن عشر للميلاد .

---

[1]- ابن الوردي ، المصدر السابق ،ص56 .

[2]- يذكر الإدريسي توافد التجار من المغرب الأقصى على مدينة تكرور بهدف جلب التبر والخدم .ينظر الإدريسي، نزهة المشتاق ،المصدر السابق ،ص18.

[3]- زبادية ، الحضارة العربية .....، المرجع السابق، ص38.

2- الرقيق :

اعتبر الرقيق أحد أهم السلع الوافدة من بلاد السودان وذلك من فترات قديمة ،حيث كان يتم نقلهم إلى دول بلاد المغرب ومنها من يتم نقله إلى أوروبا انطلاق من السواحل الغربية لبلاد السودان الغربي ،مع العلم أن الرقيق في حد ذاتهم لم يرتبطوا بلون البشرة فلم يكن الزنجي هو المعني بالعبودية فقط وإنما كانت باقي الأجناس هي الأخرى تعرف العبودية كالرقيق الأبيض ولكن البيض كانوا قلائل في سوق النخاسة أما الأسباب التي تؤدي إلى تحول الحر إلى عبد فكانت متعددة بالطبع وعلى رأسها الأسر في الحرب أو الاختطاف والبيع في فترة الطفولة وهذا ما أشارت إليه العديد من المصادر[1] .وكان ملوك السودان الغربي يحيطون أنفسهم بعدد كبير من العبيد فقد أحاط السلطان منسا سليمان بلاطه بنحو ثلاثين مملوكا من الترك [2] ،وكذلك في فترة الأساكي في عهد مملكة سنغاي وقد تعددت وظائفهم في البيوت وفي بلاط الملوك وأراضيهم أو في مناجم الملح والذهب ،وكانت المعلمات من الجواري لا تباع إلا نادرا وذلك لحاجة أهل البيت لها [3].وقد تعددت المهام التي كانت توكل إليهم سواء في المدن أو البوادي وكان يطلق على العبيد العاملين في الأراضي خارج المدن أي في الإقطاعيات الملكية خاصة بالأقنان.ولكن مع تجذر الدين الإسلامي في هذه البلاد بدأت تعرف هذه التجارة استنكارا كبيرا من طرف العلماء فأصدروا الفتاوى التي لا تجيز هذا النوع من التجارة [4] وخاصة في بلاد الإسلام .

3- بضائع أخرى :

لقد تم تسويق العديد من البضائع والسلع من بلاد السودان الغربي إلى أسواق البلاد الإسلامية وغيرها ومنها الجلود باعتبارها كانت متوفرة عند القبائل السودانية التي تمتهن حرفة

---

[1]- لقد ذكر ابن بطوطة مصادفته لجارية دمشقية عند أحد ملوك مالي .ينظر ، ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ص371.

[2]- القلقشندي المصدر السابق ،ص300 .

[3]- ابن بطوطة ، نفس المصدر السابق ، ص372 .

[4]- لقد أصدر العديد من العلماء فتاواهم بخصوص تجارة العبيد ومنهم عالم بلاد السودان أحمد بابا التمبكتي حين كتب كتاب "معراج الصعود إلى نيل حكم مجلب السود ،أو الكشف والبيان لأصناف مجلوب السودان".وفيه إجابات هذا العالم على الأسئلة التي وردته بخصوص حكم الرق في الإسلام ،فأشار إلى أن الأصل في الإنسان الحرية والرق حالة طارئة عليه وامتحان له .

الرعي ووفرة الحيوانات البرية وخاصة جلد بقر الوحش وإلى جانبها مادة العاج التي كانت تؤخذ من الأفيال بعد اصطيادها وقتلها حيث وكان الطلب في تزايد مستمر على مثل هذه البضاعة من طرف التجار المغاربة والأوروبيين و ما تزال إلى يومنا هذا بلاد السودان الغربي أهم مصدر لأنياب الفيل الإفريقي رغم أن هذه التجارة أصبحت ممنوعة في عصرنا وهذا قصد منع القتل الجائر لهذه الحيوانات المهددة بالانقراض، وكان الإقبال عليها بسبب صلابتها وفي نفس الوقت طواعيته في النقش مقارنة بأنياب الفيل الآسيوي التي كانت صلبة للغاية [1] .كما صدرت بلاد السودان الغربي ريش النعام وبيضه[2] والصمغ والمسك[3] و الشب والقرفة التي كانت تستعمل في العقاقير الطبية [4]،وصدرت بلاد السودان الغربي بذور القطن والفول السوداني،والكولا التي كانت تصدر حتى إلى أوروبا [5].

لقد استوردت بلاد السودان الغربي العديد من السلع وعلى راسها الملح والذي عرف بالذهب الأبيض لكونه كان حجر الأساس في التجارة الصحراوية إلى جانب الذهب وقد أشرنا في السابق إلى أنه كان يباع بالذهب ، أما استيراده فكان راجع لقلته في هذه البلاد وعدم تحقيقه لحاجة السكان الذي تزايدت حاجتهم له خاصة في عملية تجفيف الأسماك وقد عرفت كل من شنقيط و تغازا بتصديرها للملح إلى بلاد السودان[6] ، وقد أشار ابن بطوطة والوزان لغلاء أثمان الملح حتى كانت تصل إلى أربعين وفي بعض الأوقات ثمانين مثقال [7].وقد ساهم

---

[1]- نياني (ج.ت)، العلاقات بين مختلف المناطق والمبادلات بين مختلف المناطق ، تاريخ إفريقيا العام ، مج4 ، المرجع السابق ،ص619.

[2]- لقد كان بيض النعام من البضائع البالغة الأهمية في تحضير العديد من العقاقير الدوائية وفي نفس الوقت كان يستخدم للزينة كوضعه على المناضد وتعليقه على الحيطان .ينظر: زبادية ، الحضارة العربية ....،المرجع السابق ،ص439 .

[3]- ك.مادهو بانيكار ،المرجع السابق ،ص297 .

[4]- الهادي المبروك ،المرجع السابق ، ص323.

[5]- الشيخ الأمين عوض الله ، طرق القوافل بين المغرب و السودان الغربي و أثارها الحضارية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر ، معهد البحوث والدراسات العربية ،بغداد ،1404 هـ/1984 م،ص89 .

[6] -Jean Suret Canale, Histoire Africaine de la traite des noirs au néocolonialisme, édition sociales, paris ,1980,p42.

[7]- ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ص213 .،الوزن ،المصدر السابق ،ص166 .

الملح بدور كبير في مداخيل الدولة من خلال الرسوم المفروضة عليه من طرف الحكام .[1] واستوردت بلاد السودان الغربي كذلك النحاس والذي أشرنا إليه في السابق بأنه استعمل كعملة وكذا أدوات للزينة كالأقراط وللمترل ،ولوازم الخيل وحلق البواب[2] ، أما أثمانه فقد كانت هي الأخرى غالية فكان يباع وزن مثقال بثلثي وزنه ذهبا أي أن كل مائة مثقال من النحاس ب66 مثقال وثلثي مثقال من الذهب [3]ومن جملة ماكان يستورد من النحاس هو القضبان النحاسية والتي يتم تحويلها إلى المستلزمات السالفة الذكر .وقد استوردت بلاد السودان الغربي الأقمشة والمنسوجات القطنية والصوفية والحريرية المختلفة وهذا للإقبال المتزايد عليها من طرف السكان حتى أشاد بذلك العديد من الرحالة الذين زاروا البلاد فيذكر ابن بطوطة ملابس أهل ولاتة المستوردة من مصر بأنها ثياب حسان [4]ويذكر كعت كذلك جمال الألبسة القطنية التي كانت حكرا على الملوك كالقميص السوسي الأخضر الدائم اللمعان والذي كان اللباس الخاص بالأسكيا داوود [5]، وكانت معظم الأقمشة القطنية مصدرها أوروبا أوروبا عبر تجارة قوافل شمال أفريقيا وقد بلغت أثمان الأقمشة الحريرية ذات الألوان الزرقاء والحمراء ارتفاعا كبيرا وصل إلى عشرين مثقال مقابل الذراع الواحد وهذا ما جعلها تقتنى من طرف الميسورين فقط[6] ،فكانت هذه الأقمشة ترد إلى بلاد السودان عن طريق التجار المغاربة على وجه الخصوص .ومن بين أهم السلع التي كانت تفد إلى بلاد السودان الغربي هي الكتب والتي لقيت رواجا كبيرا في الحواضر السودانية كتمبكتو وغاو وجني ، حيث كان الطلب عليها كبيرا من طرف طلبة السودان الغربي [7]وقد كانت أثمانها باهظة بسبب الإقبال عليها من طرف ملوك بلاد السودان الغربي وتشجيعهم للحركة العلمية ببلادهم وكان مصدر معظم الكتب من

---

[1]- نياني (ج.ت)، العلاقات بين مختلف المناطق .....، المرجع السابق، ص617.

[2]- زبادية ،الحضارة العربي والتأثير الأوروبي .....، المرجع السابق ،ص33 .

[3]- القلقشندي ،المصدر السابق ،ج5 ،ص291 .

[4]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ص250 .

[5]- كعت ، المصدر السابق ،ص226 .

[6]- مارمول ،المصدر السابق ، ج3 ،ص204 .

[7]- الحاج محمد بن رمضان شاوش ،باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1995،ص339 .

بلاد المغرب ومصر والمشرق العربي وإلى جانب تجارة الكتب كانت هناك تجارة المخطوطات التي كانت تفد من بلاد المغرب والتي فاقت أرباحها كل السلع [1] .وبنسب قليلة كانت بلاد السودان الغربي تستورد القمح الذي لم يكن ينتج بكميات كافية تغطي احتياجات السكان والتمر من واحات الشمال كورجلان ،وسجلماسة، وغدامس [2] ، إلى جانب الفواكه الرطبة وزيت الزيتون والشحوم التي كانت هي الأخرى تجلب من بلاد الزاب و سجلماسة .[3]أما الأدوات الحديدية والمواد الزجاجية كالمصابيح الزيتية والمرايا والأمشاط، والعطور ،والسكر والشاي ومواد الصباغة فكانت تأتي من المدن الأوروبية كبرشلونة وميلان والبندقية[4] . وقد شهدت بلاد السودان الغربي استيراد الخيول خاصة من بلاد المغرب عموما ومن المغرب الأقصى على وجه الخصوص وخاصة الأصيلة منها [5].

الخلاصة :

نستنتج من خلال ما ذكرناه عن حجم المبادلات التجارية التي كانت قائمة بين بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب الإسلامي عامة وحتى أوروبا ،وبلاد المشرق الإسلامي ،أن الروابط التجارية والاقتصادية كانت لا تختلف عن الروابط الثقافية التي مثلت جسرا قويا بين ضفتي الصحراء شمالها وجنوبها .كما ندرك من خلال حجم المبادلات مدى الرخاء الاقتصادي الذي عرفته بلاد السودان الغربي والذي بدوره انعكس بالإيجاب على دول شمال الصحراء وحتى أوروبا وجعلها تعمل على تطوير روابطها التجارية مع بلاد السودان الغربي وتدخل مرة التسابق على الاستفادة من ثروات هذه البلاد .

---

[1]- يحي بوعزيز ، طرق القوافل والسواق التجارية بالصحراء الكبرى ، كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر ،ـــتجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر ،بغداد ،1404 هـــ/1984م،ص135.

[2]- الهادي المبروك الدالي ، التاريخ السياسي ....،المرجع السابق ،ص331 .

[3]- بن عمر حاج عيسى إلياس ،مدينة ورجلان دراسة في النشاط الاقتصادي و الحياة الفكرية (في الفترة 4-10هـــ/10-16 م)،رسالة ماجستير ،جامعة الجزائر ،2008-2009م ، ص91 .

[4]- بن عمر حاج عيسى ،المرجع السابق ،ص92.يحي بوعزيز ،المرجع السابق ،ص135 .

[5]- الهادي المبروك الدالي ، التاريخ السياسي ...، نفس المرجع السابق ،ص333.

الفصل الرابع

الفصل الرابع :التحول الاقتصادي والاجتماعي في السودان الغربي بين الأسباب والعوامل

أولا : العوامل الاجتماعية

- دور العناصر المستقرة بالمنطقة
- عامل التصاهر والاختلاط
- الحج
- دور الطرق الصوفية

ثانيا : العوامل السياسية

- دور السفارات (النشاط الدبلوماسي)
- دور الملوك
- المتغيرات السياسية والتكالب الاستعماري

ثالثا :العوامل الاقتصادية

- تأثير التجار
- دور الرقيق
- دور أصحاب الحرف والصنائع

أولا : العوامل الاجتماعية :

تمهيد:

عرفت بلاد السودان الغربي تحولا كبيرا في النسق الاجتماعي ، والذي انعكس بالضرورة على باقي الأوضاع انطلاقا من القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد وهذا نتيجة تفاعل عدة عوامل مشتركة سنحاول أن نسوقها ونبين مدى تأثيرها على تاريخ بلاد السودان الغربي بشكل خاص وعلى تاريخ إفريقيا ما وراء الصحراء بشكل عام والذي سيكون له دور بارز في بداية الفترة الحديثة التي ستعرف فيها القارة برمتها تغيرا جذريا ، نتيجة ما عرفته في هذه الحقبة التاريخية والتي في الحقيقة لا يمكن أن نفصلها على التحولات العالمية و ما رافقها من تحول صناعي عالمي انعكس بالسلب على هذه القارة.ومن أجل ذلك سنحاول إلقاء الضوء على هذه العوامل .

1- دور العناصر المستقرة بالمنطقة :

إن عملية التحول الذي مس منطقة السودان الغربي بداية من القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي جاء نتيجة تفاعل عوامل مختلفة كان على رأسها العامل الاجتماعي ، والاقتصادي ويضاف إليها العامل الديني الذي لعب الدور الأساسي في تغيير تاريخ السودان الغربي . فكانت للهجرات البشرية العربية و البربرة وحتى اليهودية والأندلسية التي وفدت على هذه البلاد على مراحل ولأسباب متعددة ، انطلاقا من الدعوة لدين الله أو فرارا من البطش والظلم أو التجارة ، وكل هذه العوامل ساهمت في إحداث التغيير الذي سيحول وجه هذه المنطقة على جميع الأصعدة.

لقد ضمت هذه الهجرات فئات اجتماعية مختلفة متعددة الحرف و المهام ، فكان منهم الفلاح، والبناء والتاجر والعالم والطبيب[1] وغيرها من المهن والحرف ، وكان لاستقرار أولئك المهاجرين في بلاد السودان الغربي وتعايشهم مع أهل البلاد أثر كبير في قيام علاقات وطيدة

[1] – يذكر لنا ابن بطوطة عندما مرض بسبب أكله أحد أصناف المأكولات المحلية التي صنعت من نبتة محلية فداواه طبيب مصري .ينظر : ابن بطوطة ،المصدر السابق،ج2 ،ص372 .

بينهم وبين أهل البلاد وهذا ما أدى إلى الانصهار والمصاهرة والتعايش والذي أدى بدوره إلى ظهور جيل جديد مرتبط مع الطرفين الإفريقي ،و الوافد من بلاد أخرى [1] .

ومن نتائج هذا الانصهار هو تعلم كل فئة للغة الفئة الأخرى و عاداتها[2] وقد وصلت إلى بلاد السودان الغربي جماعات من قيس عيلان [3]. وقد نقل هؤلاء العرب العديد منصور الحضارة العربية إلى تلك الأصقاع وأخذوا عنهم الكثير من طبائع معاشهم كإنشاء المساكن وما تعلق بالعمران بشكل عام . ومن أشهر الأمثلة على ذلك ما ذكرته المصادر براعة المهندس والشاعر أبو إسحاق الساحلي و مدى التحول الذي أحدثه في هندسة عمران هذه البلاد إبداع طريقة جديدة تتناسب مع طبيعة هذه البلاد الحارة و مازالت إلى يومنا هذا بعض معالم عمران الساحلي في هذه البلاد بداية من 723ه /1323 م حيث عمل على بناء العديد من القصور والمساجد انطلاقا من مدينة جني ، فأتقنها وبرع في صنعها وهو امن أدخل البناء بالطوب المحروق الذي لم يكن معروفا في بلاد السودان الغربي ومما قاله عنه ابن خلدون " أراد سلطان مالي أن يتخذ بيتا في قاعدة سلطانه مدينة جني محكم البناء ،مجللا ،لغرابته بأرضهم ،فأطرفه أبو إسحاق ببناء قبة مربعة الشكل ،استفرغ فيها إجادته .وكان صناع اليدين ،وأضفى عليه من الكلس ووالى عليها من الأصباغ المشبعة ،فجاءت من أتقن المباني ،ووقعت من السلطان موقع الاستغراب لفقدان صنعة البناء بأرضهم ،وصله باثني عشر ألفا من مثاقيل دنانير التبر مبثوثة عليها ،إلى ما كان من الأثرة والميل إليه ،والصلات السنية " وذكر ابن بطوطة أن سلطان مالي أجزل بالعطاء على الساحلي جزاء تفننه في البناء [4].

لقد تواصلت الهجرات الإسلامية إلى هذه البلاد و خاصة من بلاد المغرب فاندمجوا مع السكان المحليين وتزاوجوا معهم، وأصبحت مدن السودان الغربي عامرة بهم وبعاداتهم وتقاليدهم بصفة

---

[1] – عيسى محمود خيرى ،العلاقات العربية الإفريقية ، دار الطباعة الحديثة القاهرة ، د.ت ،ص39 .

[2] – المقريزي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ،د.ت ، ج1 ،ص196 .

[3] – قيس عيلان : هو بطن من بطون لبطون العربية بالحجاز ، وعيلان ابن مضر بن نزار حيث هاجر بعض أبنائه إلى بلاد السودان .ينظر : ابن حزم ، المصدر السابق ، ص243 .

[4] – يذكر ابن خلدون براعة الساحلي وتفننه في العمارة ينظر ابن خلدون :العبر ، المصدر السابق ،ج6،ص426. ابن بطوطة ،المصدر السابق ، ص376 .

خاصة والعرب بصفة عامة [1].وقد اهتم الرحلة الغربيون منذ بداية اكتشافهم للصحراء و إفريقيا الغربية بتسجيل ظاهرة الوجود العربي والعنصر المغاربي في هذه فأوردوا ذلك في كتاباتهم لهذه البلاد في القرن الخامس عشر والسادس عشر للميلاد، التاسع والعاشر للهجرة [2]. ومما يجدر ذكره تلك الهجرة المعاكسة التي كانت من بلاد السودان الغربي نحو بلاد المشرق الإسلامي ومصر على الخصوص حيث خصص رواق خاص للسودان في الجامع الأزهر بالإضافة إلى وجود حي خاص بأهالي بلاد التكرور في مدينة القاهرة عرف بحي التكروري [3].ومن خلل ذلك نلاحظ مدى التواصل والتلاقح بين العرب المسلمين في أقطار العالم الإسلامي من جهة وبين أهل السودان الغربي. وكيف كانت هذه العوامل أحد الأسباب المهمة لإحداث التغيير في هذه البلاد على المستوى الاجتماعي و الاقتصادي .

2- عامل التصاهر والاختلاط :

لقد جاء التأكيد على عدم التفريق بين الأمم والشعوب امتثالا لقوله تعالى :﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [4]. فلم يكن لون بشرة الزنوج سببا في تعصب باقي المسلمين عليه فتقارب المسلمون وتزاوجوا فيما بينهم وهذا مالم يقدم عليه النصارى أو اليهود مما جعل أهل السودان الغربي يقبلون على الدين الإسلامي ، وأصبح لتلك المصاهرة دور مهم في إعادة بناء المجتمع السوداني على أسس جديدة توجهها تعاليم الإسلام .فتصاهر العديد من المهاجرين من سكان شمال الصحراء فذابت ملامحهم واختفت فوارق اللون والجنس ، وقد أشارت المصادر العربية عن تزويج ملك سنغاي بناته لتاجرين وفدا إلى هذه البلاد [5].وقد تزوج الكثير من تجار

[1] – قاسم جمال زكريا ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ،معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، 1975، ص155

[2] – http://zarkan56.blogspot.com00:55 / 2018-08-08 /

[3] – ابن ثغري بردي ، المصدر السابق ،ص289 .

[4] – سورة الحجرات الآية 13 .

[5] – الوزان ،المصدر السابق ،ج2 ،ص111 .

البربر والعرب من نساء سودانيات ، وأصبح من الصعب التعرف على الأصول إلا من خلال الذين حافظوا عليها جيلا بعد جيل . وقد ذكر ابن الخطيب أن أبناء الشاعر والمهندس الأندلسي إبراهيم الساحلي من إمائه الإفريقيات كانوا شديدي السواد [1].كما ذكر المقري في هذا الشأن أن آل المقري الذين اشتهروا بتجارتهم نحو بلاد السودان ، أنهم قد تزوجوا من السودانيات بقوله :" فاتخذوا بهذه الأقطار الحوائط و الديار ، و تزوجوا النساء،و استو لدوا الإماء "[2].أما ابن خلدون فقد ذكر مثالا آخر عن المصاهرة والجيل المولد بالحديث عن أبو مخلد بن كيداد حيث كان والده تاجرا من منطقة الجريد وتزوج من جارية سوداء من تادمكة فأصبح يعرف بالحبشي للون بشرته [3]

ظهر نتيجة المصاهرة جيل جديد من المولدين ينتسبون إلى العرب لأن أجدادهم العرب تزوجوا من سودانيات ومنهم حكام مالي الذين ادعوا نسبهم إلى عبد الله بن صالح بن الحسن بن علي بن أبي طالب ، وكان نفس الشأن للعديد من الأسر السودانية التي ادعت النسب الشريف وخاصة بعد قدوم العديد من الأسر الشريفة مع السلطان منسا موسى بعد حجه سنة 724ه/1324م [4].كما أدت الهجرات العربية من الشمال الإفريقي وعلى الخصوص من المغرب واستقرارهم ببلاد السودان الغربي ، إلى الانصهار في المجتمع السوداني مما أدى إلى شغلهم للعديد من المناصب الكبيرة في بلاط ملوك هذه البلاد كالقضاء و الإفتاء وإمامة المساجد والتدريس بها وكذا التجارة ،حيث برزت عدة أسر نذكر منها : بيت الفلالي ،و الدكالي ، و السجلماسي ،و التازي ،و التوتي ، الجزولي ،فكانت إيذانا لبروز مجتمع سوداني جديد بملامح وتقاليد عربية بربرية إسلامية.

---

[1] – ابن الخطيب لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ،تحقيق ، محمد عبد الله عنان ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ،ط1،1974 ،مج2، 348 .

[2] – أحمد المقري ،المصدر السابق ،ج5 ،ص608 .

[3] –أبو مخلد بن كيداد :هو قائد الثورة التي قامت ضد الفاطميين سنة 316هـ / 928م ، وكان من الإباضية ، عاد به والده مع الزنجية إلى زناتة . ينظر :ابن خلدون ، العبر ،المصدر السابق ،ج7،ص13.

[4] – كعت ، المصدر السابق ،ص31 .

لقد كان وصول التجار والفقهاء إلى هذه المنطقة سببا في احتكاك مع السكان الأصليين ومع الاستقرار والمصاهرة تقبل السكان عادات الوافدين وأصبحت جزءا من حياتهم المعيشية [1].

لقد نتج عن هذا التصاهر انتشار اللغة العربية فأصبحت بذلك أحد أهم الوسائل لحفظ تراث هذه البلاد ونشر الدين الإسلامي في مجاهل القارة الإفريقية وكانت سلوكياتهم دافعا لاعتناق شعوب هذه البلاد للدين الإسلامي، وازداد التزام المجتمع الأخلاقي وساد التسامح و إقامة الحدود بين الناس والعمل بتعاليم الدين الإسلامي ، مما انعكس على المستوى الحضاري للسودان الغربي في هذه الحقبة الزمنية ، والتي كانت من أزهى فترات هذه البلاد بعلمائها وأعلامها في شتى العلوم والفنون[2] ، ولعل القرنين الخامس والسادس الهجريين يمثلان قمة الازدهار العلمي والثقافي في هذه البلاد ، وهذا ما يفسر ثراء المكتبات بالمؤلفات سواء المحلية أو المستقدمة من المشرق والمغرب الإسلاميين [3] .

3- الحج :

لا يوجد شك حول أهمية الدور الذي لعبته قوافل الحج والتجارة في ازدهار بلاد السودان الغربي وهذا ما سمح بتكور حياة البدو من نمط البداوة المرتحلة دوما إلى الاستقرار الدائم و الاستعاضة عن وجود سلطة مركزية تحفظ الأمن لطريق الحجيج ، وقد مكنت قوافل الحج من صهر الزنوج والبربر في الحضارة الإسلامية وهو ما تشهد عليه العيد من المخطوطات الموجودة في بلاد السودان الغربي ، وقد لعبت هذه القوافل دورا مهما في تعمير حواضر السودان الغربي، وجعلها منارات للعلم والعلماء وذلك بتوظيف الفائض التجاري، لتأدية هذا الفرض المقدس عند المسلمين، وأصبحت بذلك القوافل مرتبطة ارتباط وثيق بركب الحجيج ، حيث أصبح أحد الوسائل المهمة للاتصال بالمشرق العربي خاصة من خلال حمل المسائل الفقهية ، والنوازل ،

---

[1] - Trimingham,Op,cit , p107 .

[2] – نعيم قداح ، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية ، الشركة الوطنية للنشر ،الجزائر ط2،ص9 .

[3] –لقد أشار المؤرخ الفرنسي ديبوا .بما في مكتبة تنبكتو في القرن السادس عشر بالذات من مصادر وذكر أنها كانت حاضرة علمية لاتقل أهمية عن حواضر العالم الإسلامي ، وذكر بالذات إلى شهرة معهد سنكوري بتنبكتو ، ومكانته بالأزهر والقيروان والقرويين .ينظر : شوقي عطاء الله الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم ،تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة ،1996 ،ص118 .

وكل ما يتعلق بالحياة في هذه البلاد .وكثيرا ما ارتبط اسم مؤسس الدولة بهذه الشعيرة بحيث تضفي عليه مكانة اجتماعية وسياسية وفي نفس الوقت الدينية ، فليس ثمة شك في ارتباط التأسيس الثاني لهذه الحواضر بالحج .حيث في الغالب ما يتم التأسيس عند عودة الحاج ، وأغلب المدن الكبرى التي أسست أصبحت محطات لقوافل التجارة والحج معا وبالمقابل تراجعت المدن القديمة بين المغرب وبلاد السودان الغربي ،وقد شكلت ولاتة أحد هذه النماذج لتوسطها بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي حيث ازدادت شهرتها لكونها مركز جذب للتجار العرب والبربر والزنوج من جهة ومن جهة أخرى كونها أصبحت من المحطات الرئيسية لقوافل الحج ، وخصوصا بعد أن ابتدأ منها منسى موسى و إسكيا محمد رحلتيهما إلى الحج ، وهذا ما جعلها تكون ملاذا آمنا للعلماء الفارين من بطش وتعسف حكام تمبكتو ، كما أن مواكب الحج التكرورية لعبت دورا كبيرا في انتعاش التجارة مع مصر ،حتى أن جاليات كبيرة من أهل التكرور استقرت في مصر وسكن منها في القرافة ثلاثة آلاف شخص [1].وقد لعبت رحلة الحج دروا كبيرا في تعزيز وتوطيد العلاقات والصلات السياسية، والاقتصادية ،و الاجتماعية ،وحتى الثقافية بين مصر و شعوب السودان الغربي ، كانت رحلة منسا موسى للحج من أهم الرحلات التي قدمت من بلاد السودان الغربي لما كان لها من انعكاسات على مختلف الجوانب [2]و على رأسها الاجتماعي والثقافي والديني وحتى السياسي .

لقد اكتسب أهل السودان الغربي من خلال رحلاتهم ومشاهداتهم للعديد من حواضر العالم الإسلامي آنذاك الكثير من عادات وتقاليد هذه المدن وفي بعض الأحيان فاقوا من سبقهم في الإسلام في مدى التزامهم بحدود الشرع الإسلامي من أوامر ونواه .وقد سجل لنا العمري حاثة وقعت للسلطان منسى موسى في رحلته الشهيرة للحج[3] وعند لقائه للسلطان المملوكي في مصر في كونه رفض تقبيل الأرض بين يدي السلطان والسجود له، وأجابه بأن السجود لا

[1] – أحمد بن عرفة التكروري ،العرف المشهور في حجاج بلاد التكرور ،مطبعة الخانجي ، القاهرة ، 1314 هـ، ص118 .

[2] – فتاح فوزية يونس ، التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية على السودان الغربي ،أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة الموصل ،1994 ،ص88

[3] – لقد ذكرت المصادر عدد كبيرا ممن رافق السلطان من أهل السودان الغربي لأداء الحج وكانوا موزعين بين الأحرار والخدم . ينظر : ابن كثير ،المصدر السابق ،ج14 ، ص112 . ابن خلدون ،العبر ،المصدر السابق ،ج6 ،ص415 .

يكون إلا لله وحده [1].ومن انعكاسات تلك الرحلة على السودان الغربي هي مسارعة منسا موسى لإقامة المساجد والمدارس لتحفيظ القرآن والحرص على جلب العلماء والفقهاء و إكثار العطاء لهم، حتى اشتهر بأنه يحب البيضان ويحسن إليهم ، كما قال ذلك ابن بطوطة في معرض حديثه عن هذا السلطان [2].كما أنه عمل على اقتناء الكتب من بلاد المشرق حتى امتلأت بها مكتبات مدن السودان الغربي كجني[3] وتمبوكتو و ولاتة[4]. ولقد ظل الحج من المؤثرات الهامة لنقل العادات والتقاليد من مناطق العالم الإسلامي التي تعبرها قوافل الحجيج إلى بلاد السودان الغربي .

لقد مكنت قوافل الحج من تأسيس علاقات متنوعة وعلى جميع الأصعدة بين مصر ومكة وباقي بلاد السودان الغربي ،أما مصر فلم تكن مجرد محطة عبور بل تعدت ذلك ،لأنه كان يتوجب على موكب الحج السوداني البقاء فيها والانتظار حتى موعد رحيل الموكب المصري وخلال هذه الفترة كان يتجه الكثير من أهل السودان إلى تلقي العلوم ومختلف الآداب ،بحيث كانت مواكب الحجيج تتزايد حتى وصلت إلى خمسة آلاف حاج أو يزيد عن ذلك حسب ما ذكرته المصادر [5] والذي يفيدنا من هذا التعداد هو أن نعي حجم الوافدين على بلاد المشرق من أجل القيام بهذه الشعيرة والفرض ومدى تعلقهم بالإسلام وتأدية أركانه كما كانت أحد أهم الوسائل التي أثرت في المجتمع السوداني وفي نمط حياته السياسية و الاقتصادية والثقافية .

---

[1] – العمري ،المصدر السابق ، الباب التاسع ،ص72 .

[2] – ابن بطوطة ،المصدر السابق ، ج2 ،ص376 .

[3] – جني :يرجع تأسيسها لسنة 435 هـ/1033 م وهي على بعد 60كلم جنوب غرب تمبوكتو وقد ذكر لنا السعدي أن دخول الإسلام إليها كان في حدود القرن السادس للهجرة ،وكانت مركزا للتجار والعلماء العرب والمغاربة ،فكانت مدينة إسلامية بامتياز من حيث نمط حياة سكانها . ينظر : الوزان ، المصدر السابق ، ج2 ص162.السعدي ،المصدر السابق ،ص12 .

[4] – ولاته : تقع غرب تمبوكتو على مسافة 450كلم ، ينظر السعدي ،نفس المصدر السابق ،ص21 ،الوزان ،نفس المصدر السابق ،ص161 .

[5] – المقريزي ،السلوك ،المصدر السابق ،ج2 ، 654.ابن خلدون ،العبر ، المصدر السابق ، ج6، ص416.ابن الوردي ، تتمة المختصر في أخبار البشر ،إشراف وتحقيق ،أحمد رفعت البدراوي ،ط1،دار المعرفة للطباعة والنشر ،بيروت لبنان ، 1970، ج2، ص392 .

4 – دور الطرق الصوفية :

لقد أدت الطرق الصوفية دورا بارزا ومهما في تاريخ السودان الغربي وهذا نتيجة الأدوار المختلفة التي مارسها أعلامها في الجانب الديني بالخصوص والثقافي والذي انعكس بدوره على المجتمع ككل وعلى الاقتصاد كذلك في هذه البلاد .وبما أن الطرق الصوفية كان توغلها في بلاد السودان الغربي في حدود القرن الخامس عشر ميلادي التاسع للهجرة فإنها لم تحد عن المسار التي سارت عليه في باقي أقطار العالم الإسلامي ، فقام أعلام هذه الطرق على نشر أفكارها بما يتناسب مع أفكار الشعوب البدائية ،حيث كان يتمثل دورها في نشر تعاليم الإسلام بين القبائل الوثنية، وقد اشتهرت ثلاث طرق[1] في هذه البلاد وهي: القادرية[2] والشاذلية[3] والتيجانية[4] والسنوسية [5]، لعبت دورا مهما في بلاد السودان الغربي نهاية العصر الوسيط وبداية

[1] – أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، الإسلام والدولة الإسلامية جنوب الصحراء منذ دخلها الإسلام حتى الآن، ط5 ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ، 1990 م،ص210 .

[2] – القادرية نسبة إلى عبد القادر الجيلاني وقد طهرت الطريقة في القرن 5هـ/11م ، ويعد محمد بن عبد الكريم المغيلي (ت 909 هـ) علم القادرية ومن له دور في في نشر ها في منطقة توات حيث أسس زاويته القادرية بقصر بوعلي سنة 885هـ/1480م فكانت المنطلق لمنطقة غرب إفريقيا برمتها .ينظر : زهرة مسعودي ،الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب افريقيا من القرن 18مإلى القرن 20م ، مذكرة ماجستير في التاريخ ،جامعة أدرار ،2009-2010 م، ،ص52 .

[3] – الشاذلية: يرجع تأسيسها إلى أبي القاسم الجنيد الذي تأثر به الشيخ أبي مدين شعيب الأندلسي (ت594 هـ) والذي تتلمذ على يده الشيخ عبد السلام بن مشيش و،وبهذا فإن الفضل يرجع لهؤلاء العلماء في ظهور الطريقة الشاذلية التي تأسست على يد أبو الحسن الشاذلي (593 هـ-1196 م)والذي تأثر بهؤلاء العلماء ،فاستند على أفكارهم وأرائهم لتكوين الطريقة والتي امتدت إلى غرب إفريقيا ،ومصر والمشرق العربي انطلاقا من شمال إفريقيا . ينظر زهرة مسعودي، المرجع السابق ، ص36 .

[4] – التيجانية : تأسست على يد الشيخ أحمد التيجاني(ولد 1150هـ/1737 م) الذي ينحدر من عين ماضي التي تقع بالجزائر وكان لها دور في تجارة القوافل في الجنوب ، ينظر : علي حزام ، جوهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي التيجاني ،ط1، المطبعة المحمودية ،مصر ،1318هـ،ص23 .

[5] – السنوسية: نسبة للفقيه محمد بن علي السنوسي بن العربي الأطرش بن محمد بن عبد القادر بن أحمد بن شهيدة ،بحيث ،بحيث يرجع نسبه إلى الأدارسة وقد ولد 1202 هـ/1787 م بالقرب من مستغانم ،وقد توغلت الطريقة في السودان الغربي بتأسيس أول مراكزها هناك في إقليم كاوار.ينظر: صالح بوسليم و ميلود ميسوم ، الحركة السنوسية وامتدادها عبر الصحراء الكبرى، مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، ع15، قسم العلوم الانسانية ،جامعة غرداية ،2011،ص17.

الحديث، حيث أثرت على الحياة الاجتماعية والاقتصادية في هذه المنطقة ومازالت إلى يومنا هذا منتشرة في بلدان الساحل الإفريقي[1] .

لقد ساهمت الطرق الصوفية وبشكل مباشر في التأثير على المجتمع السوداني وذلك من خلال استئصال العادات و المعتقدات والتقاليد الوثنية التي كانت منتشرة في أوساطه ، كما أن الطرق الصوفية كانت بمثابة صمام الأمان في المجتمعات الإفريقية من خلال الحفاظ على السلم و الاستقرار بين القبائل المتناحرة[2] ، وقضت على التعصب القبلي الذي كان منتشرا في بلاد السودان الغربي ،أما عن الجانب الاقتصادي فقد بذلت الطرق الصوفية جهودا كبيرة في توفير الأمن للقوافل التجارية من قطاع الطرق واللصوص وذلك من خلال انتشارها في مختلف مناطق السودان الغربي ، وقد استعملت الزوايا كمخزن لبعض السلع إلى حين نقلها لأماكن بيعها وهذا ما جعلها تساهم في إنعاش النشاط التجاري[3] .

كما أن الطريقة التيجانية كانت قد حصلت على نصيب وافر من التجارة من خلال نشر زواياها عبر عدة مناطق من السودان الغربي بالإضافة إلى الأراضي التي كانت تشرف عليها فساهمت بها في تنمية المناطق التي كانت بها إلى جانب دورها الرئيسي وهو نشر الدين الإسلامي وتعاليمه بين القبائل الوثنية الإفريقية[4]،فكانت الأموال التي تجنيها تمثل مصدر دخل مهم لهذه الزوايا .

---

[1] – لقد ازدهرت هذه الطرق الصوفية الثلاثة في بلاد السودان الغربي وكان أهمها القادرية التي وصلت وازدهرت في هذه البلاد في القرن الخامس عشر ، وعرفت هذه الطريقة إقبالا كبيرا من قبل السودانيين ، وقد ساهم دعاتهم في إنشاء المدارس والمراكز والزوايا في حواضر بلاد السودان الغربي فكانت هذه الطريقة أكثر الطرق توغلا في هذه البلاد وأكثرها نجاحا ، وقد وصلت هذه الطريقة إلى هذه البلاد عن طريق الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني .ينظر : هواري رضوان ، المرجع السابق ،ص 86-87 .

[2] – هلال عمار ، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء ،مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث ،الجزائر ،1984م ،ص 134 .

[3] – هلال عمار ، المرجع السابق ،ص 136 .

[4] – عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ،الطرق الصوفية في القارة لافريقية ،ط1،دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة ،1999م ، ص229. .

لقد كانت الطريقة القادرية من أشهر الطرق الصوفية في بلاد السودان الغربي وذلك راجع للدور الذي قام به دعاتها وعلى رأسهم محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي يعد علم من أعلامها ، فكان للدور الذي قام به في هذه البلاد الأثر الايجابي على الواقع الاجتماعي والاقتصادي وسنحاول توضيح ذلك من خلال ما ورد في رسائله إلى حكام بلاد السودان الغربي ومنهجه الدعوي في هذه البلاد ،كما نلمس ذلك في وصية المغيلي لأمير كانو و أجوبته للأسقيا فقد تضمنت تنظيما للحياة الاقتصادية للمنطقة وذلك بمحاربة الآفات التي كانت منتشرة في الأسواق ، حيث كانت تضيع الحقوق المالية للناس مما يؤثر سلبا على الحياة العامة [1] و بشكل كبير .

لقد أشارت أجوبة المغيلي إلى تنظيم مداخيل الدولة من خلال إنشاء بيت مال المسلمين الذي توضع فيه أموال الزكاة والجزية والخراج والغنائم والمكوس وحتى الغرامات، فكانت بذلك منهجا اتخذته الدول التي قامت في بلاد السودان الغربي في العصر الحديث [2]، وبالإضافة إلى ذلك فقد أشار المغيلي إلى وضع الضرائب على الفلاحين والرعاة وصيادي الأسماك والتجار لكونها من الحرف المدرة للثروة ، أما أصحاب الحرف فقد أعفاهم لأنها لاتدر عليهم أرباحا في ذلك الزمن ، وقد فرض ضريبة على أصحاب الثروات وأخرى على موردي الملح والتي سبق وأن أشرنا إليها وضريبة على السلع الموردة التي تباع في أرجاء الدولة بقيمة واحد على عشرة، وقد قسمت هذه الضرائب بحيث يوجه خمسها إلى بيت المال وما تبقى يوجه إلى المقاطعات قصد بناء المساجد وتجهيز الجيش[3].

كما ساهمت الطرق الصوفية في تغيير وتنظيم الحياة الاجتماعية في بلاد السودان الغربي، وسنورد بعض الأمثلة على ذلك وخاصة عند المغيلي فقد عرف المجتمع الإفريقي بوثنيته وبدائيته

[1] – أبوبكر ميغا ،دعوة الإمام المغيلي العلمية والإصلاحية في السودان الغربي أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري وأثرها في الرعاة والرعية وانتعاش الحركة العلمية بالمنطقة ، مجلة جامعة الإمام بن سعود الإسلامية ،ع7،الرياض ، أكتوبر ،1992 م،ص215 .

[2] – أحمد بوعتروس ، الحركة الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء إبان القرن الثالث عشر هجري /التاسع عشر ميلادي، دار الهدى ، الجزائر ،2009،ص210.

[3] – الهادي هارون ، الطريقة القادرية في وسط وغرب أفريقيا ودورها الحضاري من القرن 16 م إلى 19 م ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ،قسم العلوم الإنسانية ،جامعة غرداية ،2015-2016 م ،ص129.

وبعاداته المشينة كأكل لحوم البشر وتقديم القرابين البشرية والعري وما إلى ذلك من عادات منبوذة فقد أثرت رسائل المغيلي على مملكة سنغاي و إمارة كانو في محاربة كل المظاهر التي ذكرناها والتي أشير إليها كمنكرات العري وكشف العورات واختلاط النساء بالرجال ، فقد عمل المغيلي على إعطاء الحلول لحكام هذه الدول وذلك باتخاذ الحراس والأمناء ومراقبة البيوت التي تنتشر بها الفاحشة ،والقبض على من يشك به بتقديمه للمحتسب.

وفي هذا الشأن يقول المغيلي:" ومن أعظم المنكرات ما ذكرتم من اختلاط الرجال بالنساء وكشف العورات فواجب على أمير المؤمنين أن يجتهد في منع ذلك كله بما استطاع ، وأن يجعل أمناء يحتسبون على ذلك ليلا ونهارا سرا وجهرا ، وليس ذلك من باب التجسس على المسلمين ، إنما ذلك حسن الرعي وردع المجرمين ، ولا سيما إذا شاع الفساد في البلاد كما في تمبكتو وجنى ونحوهما ...." [1] .

كما نجده قد وقف بكل حزم وتصدا لظاهرة العري وكشف العورات وممارسة السحر والعرافة التي كانت منتشرة عند أهل السودان الغربي بالرغم من أنهم معتنقي الإسلام [2]. لقد كان لهذه الأجوبة والنصائح التي قدمها المغيلي تأثير كبير على ملوك بلاد السودان إذ اتخذوها سبيلا وعونا لتأسيس مجتمع إسلامي خالي من كل هذه الآفات الاجتماعية فساد العدل والتسامح والتكافل الاجتماعي واختفت العادات الوثنية وأعطى لكل فئة حقها وأعطى للمرأة حقوقها التي منحها الإسلام وأمر بالاهتمام بها وتعليمها أمور دينها .

لقد كان لدخول الطرق الصوفية في بلاد السودان الغربي أثر بالغ الأهمية حيث أسهمت هذه الأخيرة في تطوير وترقية المجتمع السوداني كما كان لها دور بارز في ترقية الحياة السياسية في غرب إفريقيا عامة وذلك من خلال كتابات الفقهاء والعلماء والمشايخ ، هذه الكتابات التي كانت نبراسا يقتد به حيث قدمت هذه الطرق العيد من الشخصيات التي أسست إمارات وممالك جديدة في هذه المنطقة .

---

[1] – محمد بن عبد الكريم المغيلي ، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي ،تقديم وتحقيق،عبد القادر زبادية ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ،1974،ص67 .

[2] – المغيلي ،المصدر السابق ،ص63 .

ثانيا : العوامل السياسية :

1- دور السفارات (النشاط الدبلوماسي) :

ساهم القرب الجغرافي والعلاقات التجارية القديمة بين بلاد السودان الغربي ، وباقي دول بلاد المغرب الإسلامي في التأثير على الواقع الاجتماعي والاقتصادي وحتى السياسي على دول ضفتي الصحراء ، وحتى وإن كان طابع العلاقات طغى عليه الطابع التجاري، إلا أننا نجد اكثير من المراسلات والسفاراتبين ضفتي الصحراء وهذا ما أشارت إليه بعض المصادر في ذكرها للمراسلات التي كانت تتم بين حكام دول بلاد المغرب وبلاد السودان الغربي .

فقد كانت هذه المراسلات أو السفارات أحد العوامل المؤثرة في بلاد السودان الغربي، فنجد أن هذه المراسلات والسفارات قد لعبت دورا مهما في ق8ه/ 14 م ،وكانت أهم السفارات التي حدثت بين بلاد السودان الغربي وبلاد المغرب الإسلامي هي تلك التي تمت بين منسا موسى سنة 737هـ/1337 م والسلطان المريني بالمغرب أبي الحسن المريني [1] ،ومن نتائج هذه السفارة توطيد العلاقات بين الطرفين ،حيث أرسل منسا موسى العديد من البعثات إلى مدينة فاس على نفقة الدولة وكل الطلبة الذين يتعلمون في المغرب يحضون بمناصب مهمة في حواضر بلاد السودان الغربي ،كتمبوكتو، وجني ،وغاو[2]، ونياني[3] ، فمنهم الإمام والقاضي والمعلم

كما أخذت مراحل التعليم في دولة مالي الإسلامية تتشابه مع ما كان معروفا في باقي البلاد الاسلامية، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته إلى بلاد السودان الغربي عددا كبيرا من العلماء

---

[1] – أبو الحسن المريني : هو السلطان المريني علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق وقد اشتهر بأبي الحسن المنصور بالله ،بويع بفاس بعد وفاة والده سنة 731هـ/1330م بعهد منه بقي في الحكم إلى غاية خلعه من طرف ابنه أبو عنان .ينظر : الزركلي خير الدين ، الأعلام ،قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين ،بيروت 1969 ج5،ص126.

[2] – غاو : مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر النيجر .ينظر : عبد الرحمن زكي ،تاريخ الدول الإسلامية السودانية ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة 1961،ص134 .

[3] – نياني : عاصمة دولة مالي الإسلامية وقد أخذت اسمها منها ثم حرف إلى مالي ،ينظر :زكي ،المرجع السابق ،ص97.

المغاربة الذين انتشروا في ربوع هذه البلاد [1] ،فظهر من خلال هذا التواجد الكبير للعلماء والفقهاء وغيرهم من بلاد المغرب أثر جلي في تحول جوانب كبيرة لبلاد السودان الغربي .

لقد اكتسب العلماء مكانة كبيرة في بلاد السودان الغربي ، حيث كان أثرهم بارزا في الحياة السودانية وهذا ما خول لهم الحصول على مناصب عليا في دول السودان الغربي ، ومن ثم كان يستحيل تسيير الإدارة دون تأييدهم [2] .وقد تتالت السفارات بين المنطقتين وخاصة في ظل الحكم المالي وحكام دولة مالي ،حيث ذكر ابن خلدون أن السلطان المريني أبي الحسن قد أوفد سفارته بعد سنة 738-742 هـ/ 1337-1341 م وهذا بعد حكم منسا موسى وتسلم منسا سليمان للحكم في مالي وفي عهد منسا سليمان أرسلت سفارة جديدة سنة 748 هـ /1348م إلى بلاد المغرب لتهنئة السلطان المريني أبي الحسن ولكنها تعرضت للنهب والسلب وفي سنة 762 هـ/1360 علقت سفارة من بلاد مالي في مدينة ولاته وبقيت هناك حتى سنة 776هـ/1374 م ،حيث حظيت باهتمام السلطان أبي سالم المريني [3] وجموع المرافقين له وخاصة لما شاهدوا الزرافة ، وقد وصف ابن خلدون وقوفهم عند الإستقبال بالزحام [4].

وفي ختام هذه السفارات رحلة ابن بطوطة إلى دولة مالي سنة 753هـ/1352م بأمر من السلطان أبي عنان المريني [5]، والتي قدمت لنا الكثير من المعلومات عن منطقة السودان الغربي، ونقل لنا ابن بطوطة طريقة الاحتفال بعيد الفطر والضحى إحياء ليلة القدر من شهر

---

[1] – ذكر ابن بطوطة عددا كبيرا من العلماء المغاربة منهم محمد بن الفقيه الجزولي كبير جماعة البيضان والقاضي أبو العباس الدكالي ، ومحمد الفيلالي امام المسجد وأبو اسحاق الجناتي قاضي مدينة تكدا ،والمدرس أبو حفص .ينظر ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2،ص 377-380 .

[2] – مادهويا نيكار ،المرجع السابق ،ص424 .

[3] – السلطان أبي سالم المريني : هو المستعين بالله ابراهيم بن أبي الحسن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق أمه رومية ، وقد بويع بالمدينة البيضاء سنة 760هـ/1358 م ومات مقتولا بعد أن حكم لمدة سنتين وثلاث أشهر .ينظر : ابن الأحمر أبو الوليد اسماعيل بن يوسف، النفحة النسرينية واللمحة المرينية،تح:عدنان محمد آل طعمة ،دار سعد الدين للطباعة والنشر ،دمشق،ط1 ،1992م ،ص56 .

[4] – ابن خلدون، المصدر السابق ، ج7 ،ص310-311.السلاوي ،الاستقصاء ،ج4 ،ص34-35.

[5] – السلطان أبو عنان : هو المتول على الله فارس بن علي بن عثمان بن يعقوب بن عبد الحق ،بويع بتلمسان حينما قام على ابيه سنة 749هـ/1348م ،وقد بقي في الحكم تسع سنين وتسعة أشهر حتى مات مقتولا من قبل وزيره الحسن بن عمر .ينظر :ابن الأحمر ،المصدر السابق ،ص51 .

رمضان الفضيل ، حيث تدخل المدينة في جو إيماني وتلاوة القرآن الكريم وقراءة كتب المالكية وكتب الحديث وهذه الاحتفالات كانت معروفة في بلاد المغرب عامة [1]، كما ذكر لنا مدى تعلق الناس بالدين وبقراءة القرآن وكل ذلك كان أحد أهم مظاهر التحول في المجتمع السوداني الذي رسخت فيه مبادئ وتعاليم الإسلام ، وكذا عادات وتقاليد المجتمعات الإسلامية المجاورة له .

بحكم التلاقح الذي حدث بين ضفتي الصحراء الكبرى وحتى مع بلاد المشرق والحجاز وفي نفس الصدد كانت هناك سفارات بين سلاطين كانم والدولة الحفصية حيث وصف لنا ابن خلدون السفارة التي أرسلها السلطان دونمة ديبالمي [2] ، في سنة 655هـ/1257 م إلى السلطان الحفصي أبي عبد الله المستنصر [3]. وكانت هذه السفارة محملة بهدايا ثمينة جدا كما ذكرها ابن خلدون [4] ، وقد لعبت دورا هاما في نقل مؤثرات الدين الإسلامي ومد وتوغل العرب المسلمين إلى أعماق القارة كما أرسل الماي عبد الله بن كادي[5] إلى السلطان الحفصي المتوكل [6]سنة 728 هـ/1327 م وفدا مكونا من العديد من المقربين منه قصد توطيد العلاقات بينهما .

---

[1] – ابن بطوطة ،المصدر السابق ، ج2، ص374-375.

[2]– السلطان دونمة ديبالمي : حاكم دولة كانم (618-656 هـ /1221 1259 م) توسعت مملكته في عهده أقصى اتساع لها ،مع بسطه السيطرة على طرق التجارة حتى فزان وقد زارة بيت الله الحرام لآداء فريضة الحج .ينظر :عبده بدوي، مع حركة الإسلام في إفريقيا ،القاهرة :1970،ص172 .

[3] – السلطان أبي عبد الله المستنصر : هو محمد بن يحي بن عبد الواحد بن أبي حفص الهنتاتي ،أبو عبد اللهأمير المؤمنين المستنصر ابن السعيد ،من ملوك الدولة الحفصية بتونس ،بويع له فيها بعد وفاة أبيه سنة 647 هـ .ينظر : الذهبي ،تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام ،بيروت لبنان ،1987 ،ج2،ص136 .

[4] – ابن خلدون المصدر السابق ،ج6 ،ص199 .

[5] – الماي عبد الله بن كادي :حاكم دولة كانم في الفترة (721-743هـ / 1321-1342 م)تميز فترة حكمه بتطور العلاقات مع الدولة الحفصة .ينظر : محمد شوكت عارف محمد ،دولة كانم الإسلامية دراسة في الجوانب السياسية والإقتصادية من القرن 5-8هـ/ 11-14م رسلة ماجستير ،جامعة الموصل ،1996.،ص77.

[6] – السلطان المتوكل : هو أبو يحي بن ابراهيم الحفصي المتوكل على الله ، أحد ملوك الدولة الحفصية بتونس .ينظر : الزركلي ،الأعلام ،بيروت،1969،ج2،ص47 .

من خلال المراسلات التي كانت بين حكام الدولتين ، ذكر القلقشندي رسالة للسلطان عثمان بن زينب[1] بعثها للسلطان المملوكي برقوق [2]، سنة 794 هـ/1391 م ، عبرت هذه الرسالة عن مدى الاحترام والمحبة التي يكنها هذا السلطان لمصر من خلال الأوصاف التي وصفها بها في الرسالة[3] .

لقد ساهمت هذه المراسلات والسفارات في توطيد العلاقات بين ضفتي الصحراء ، بالرغم من أنها كانت قليلة إلا أن الدور الذي لعبته كان كبير في معانيه وقيمه وتأثيراته على المجتمع السوداني من خلال ما اكتسبته الوفود التي زارت البلاد الإسلامية من عادات وخبرات ،دفعت بالعجلة الحضارية في بلاد السودان الغربي ، وجعلت منها قطبا حضاريا إسلاميا يضاهي باقي الأقطار الإسلامية .

2- دور الملوك :

عمل حكام الممالك الإسلامية بالسودان الغربي بتشجيع العلماء للتوافد على هذه البلاد من المشرق و المغرب الإسلاميين ، وذلك بكثرة العطايا والهدايا وحتى الاقطاعات قصد تشجيعهم على الإقامة في هذه البلاد .والهدف من ذلك هو تثقيف الناس و توعيتهم وخلع ما بقي من آثار الوثنية بهذه المجتمعات ، حتى خصت المدن الكبرى في السودان الغربي بالعلماء والمدرسين من خارج بلاد السودان الغرب ، وقد ذكر لنا ابن بطوطة وهو مقيم بمالي أنه لجأ لطبيب مصري ليداويه من مرض ألم به هناك من جراء تناوله لأحد النباتات ، كما أنه ذكر في كثير من المرات حي الذي يسكنه البيض ،أي من هم غير أهل السودان [4] . وعند الحديث عن ملوك السودان فلا يخفى على أحد ما قام به منسى موسى من جهود في سبيل نقل العلماء

---

[1] – السلطان عثمان بن زينب : عرف كذلك عثمان بن كادي (676-700هـ /1279-1300 م) عرف عهده بتوطيد العلاقات مع دول الشمال الإفريقي ، ينظر: المقريزي ،السلوك ،ج1،ص899 .

[2] – السلطان الظاهر برقوق : ابن أنس العثماني أبوسعيد سيف الدين الملك الظاهر أول من ملك مصر من الشراكسة ، ينظر : الزركلي ،المصدر السابق ،ج2،ص18 .

[3] – القلقشندي ، المصدر السابق ،ج8 ،ص117 .

[4] – ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ج2 ، ص372 .

والعلوم إلى بلاد السودان الغربي وكذا توطيد العلاقات بين بلاده وباقي بلاد الإسلام وخاصة بلاد الحجاز ومصر ،أثناء رحلته الشهيرة إلى الحج .

كما اشتهر اسقيا محمد سلطان مالي (1493-1528 م) بتشجيعه للعلماء وإكثار العطاء لهم ، فعمرت بهم حواضر السودان الغربي كجني وغاو و تمبوكتو ، وهذا ما انعكس بالإيجاب على هذه البلاد وكان سببا في قيام نهضة ثقافية فيها خلال القرنين السادس عشر و السابع عشر للميلاد . وقد عرف الأسقيا محمد كذلك برحلته إلى الحج والتي أخذ فيها جمع كبير من العلماء والعبيد والدواب ، وأنفق هو الآخر نفقات كبيرة في هذه الرحلة زادت بكثير عن نفقات منسى موسى التي أبهرت العالم آنذاك [1].

لقد اتصل الأسقيا بمحمد بن عبد الكريم المغيلي الذي كان قصد بلاد السودان الغربي قادما من بلاد توات ، فعين مستشار للأسقيا وممثلا له في منطقة غاو ، حيث ألف له كتاب في الإدارة الإسلامية سماه " أجوبة وأسئلة أسكيا " بناء على طلب الملك ،كما أنه اجتمع بسلطان كانو، فكتب له رسالة في أمور السلطة ينصحه فيها بإتباع الشرع والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما علمهم الشرع و قواعده [2]، وأثناء رحلة الأسكيا إلى الحج التقى في مصر بالعالم المصري جلال الدين عبد الرحمن السيوطي[3] ، وقد ورد ذلك عند كعت عندما قال : " وتلقى

[1] – أنفق الأسقيا محمد في حجه ثلاثمائة ألف قطعة من الذهب الخالص ،أنفق منها مائة ألف لتكاليف سفره مع حاشيته ، وأنفق منها مائة ألف أخرى كصدقات لفقراء مكة والمدينة ، واشترى منها قطعة أرض ومبنى ياوي إليه حجيج بلاد السودان الغربي ، أما المائة الباقية فقد أنفقها في شراء حاجات وهدايا من أسواق مكة والقاهرة .ينظر : عبد القادر زبادية، مملكة سنغاي .....، المرجع السابق ، ،ص37 .

[2] – ابن مريم، البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان، مراجعة ،محمد ابن أبي شنب ،المطبعة الثعالبية ، الجزائر ، 1908، ص130.

[3] – هو جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن ابي بكر الكمال بن محمد ابن سابق الدين بن الفخر عثمان تاظر الدين بن سيف الدين خضر ابن نجم الدين همام الدين الهمام الخضري الأسيوطي ولد ليلة الأحد مستهل رجب سنة (849 هـ/1445 م) في مدينة القاهرة وتوفي سنة (911 ه /1505 م) بدأ حياته العلمية منذ نشأته الأولى ،فقد حفظ القرآن وله دون ثماني سنين ، ثم حفظ عمدة الأحكام ومنهاج النووي وألفية النحو لابن مالك ومنهاج البيضاوي ، وعرض الثلاثة على مشايخ الإسلام العلم البلقيني والشرف المناوي والعز الحنبلي وشيوخ السيوطي ،في الرواية والسماع والإجازة كثيرون وتبحر في سبعة علوم التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع .ينظر : السيوطي ، جلال الدين=

بمصر سيدي عبد الرحمن السيوطي ،وأخبره بما سيكون في بلاده ..."[1]،على اثر ذلك تنقل السيوطي إلى بلاد التكرور والتقى بأهل العلم والمعرفة وتبادل معهم فروع العلم و الثقافة ففي كاتسنا في السودان الأوسط التقى بأمير المدينة وربط معه صلات وثيقة ،وأصبح يعلم الناس في تلك المدينة الفقه إلى أن عاد إلى القاهرة سنة 876 هـ/1471 م)[2] ، وإلى جانب هؤلاء العلماء الذين تم استقدامهم ،مخلوف بن علي البلبالي[3] الذي دخل مدينة تمبكتو وعمل معلما فيها وتوفي بعد (940 ه /1533 م) والعالم صالح بن محمد اندعمر الموصوف بالشيخ العمري وذكره السعدي قائلا :" صالح بن محمد اندعمر المعروف بصالح تكن الشيخ العمري المستحرم عند السلاطين ألف شرحا على مختصر الشيخ خليل..."[4] .

لقد حرص ملوك السودان الغربي على منح امتيازات كبيرة للعلماء، وهذا تقديرا لمكانتهم العلمية كما تم اعفاء العلماء من الضرائب وقد ذكر كعت ما يشير على ذلك عندما كتب الأسكيا محمد كتابا لأحفاد أحد العلماء وقد أملاه على كاتبه علي بن عبد الله بن عبد الجبار اليمني[5]،وفي نفس الشأن نلمس حرص ملوك السودان على إرسال البعثات العلمية إلى حواضر العالم الإسلامي لينهلوا من منابع العلوم فتنقلت العديد من البعثات إلى بلاد المغرب ومصر والمدينة وذلك على نفقة المملكة ،ومن الأمثلة على ذلك هو تخصيص أحياء بأكملها

=عبد لرحمن بن أبي بكر ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،تح:محمد أبو الفضل إبراهيم ،مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ،1387ه/176م، ج1، ص ص336 -344.

[1] – كعت ، المصدر السابق ، ص170.

[2] – الغنيمي ،حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا ،مكتبة نهضة الشرق ،القاهرة ،1406هـ/1985 م،ص158 .

[3] – عرفه أحمد بابا بالفقيه الحافظ الرحلة ،اشتغل بالعلم على كبر ،على قيل ،فأول من أخذ عنه الشيخ الصالح عبد الله بن عمر بن محمد أقيت أخو جدي ببلاد ولاتن ،قرأ عليه الرسالة ورأى منه نجابة فحضه على العلم وترك التجارة فحصل له الرغبة في الطلب فسافر للغرب فأدرك ابن غازي وغيره فأخذ عنه ... دخل بلاد السودان كبلد كندوكش وغيرهما وأقرأ أهلها وجرى له هناك نوازل وأبحاث مع الفقيه العاقب الانصمني ثم دخل تنبكت ودرس هناك ورجع .ينظر : أحمد بابا التمبكتي ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ،مج1 ومج2،اشراف وتقديم ،عبد الحميد الهرامة ،ط1 ،منشورات كلية الدعوة ،طرابلس ،ليبيا ،1989م ، ص 608 .

[4] – السعدي ،المصدر السابق ،ص36 .

[5] – بعد ان أعطى الأسكيا لأبناء هذا العالم عدة أعطيات سألوه أن يكتب لهم كتاب الحرمة حتى لايتعرض لهم أحد من الجند و لا يعتدي عليهم أحد ، فأجابهم لذلك . ينظر :كعت ، المصدر السابق ، ص 174 .

لهذه البعثات حتى أنها عرفت بهم كحي التكرور في القاهرة والذي عرف كذلك باسم رواق التكرورنسبة لأحد علماء بلاد التكرور الذي دفن في مصر وهو الشيخ أبو محمد يوسف بن عبد الله التكروري[1] ،و بالإضافة إلى ذلك فقد خصص رواق بالجامع الأزهر لأهل التكرور[2] .

لقدكانت تلك البعثات هي المشتلة التي أنبتت علماء وفقهاء وأئمة وخطباء وقضاة السودان الغربي فعمرت بهم مساجد ومدارس وجامعات بلاد السودان، وازدهرت بهم مدن وقرى السودان الغربي ،كما عمل ملوك السودان الغربي على تبني النظم الإدارية العربية الإسلامية في تسيير بلدانهم كوظيفة نائب الملك أو نائب السلطان وأطلق عليه القائم مقام السلطان في عامة أموره أو غالبها وقد ذكر ذلك العمري عندما تحدث عن وظيفة نائب مملكة مالي في إقليم غانة فقال :" وليس في ملكه صاحب هذه المملكة من يطلق عله اسم ملك إلا صاحب غانة وهو كالنائب له ..."[3] ، وقد عرف نائب السلطان في مملكة مالي باسم " **قنجا** " ،فعندما ذهب منسا موسى إلى الحج عين ولده منسا مغا ليكون نائبا عنه إلى غاية رجوعه من الحج وكان نفس الشئ بالنسبة لباقي ملوك مالي وحتى سنغاي[4].

من خلال ذلك نلمس حرص ملوك السودان الغربي على العمل بتعاليم الإسلام و إشاعة العدل بين الرعية عن طريق الإصلاحات التي باشروها في إعطاء صورة جديدة لمجتمع سوداني ، قائمة على تعاليم الدين الحنيف . وذلك بتنظيم الدولة وهذا ما أدى إلى القضاء على الكثير من الآثار الوثنية والعادات والتقاليد التي عاشتها المجتمعات الأفريقية ، وكانت في نفس الوقت إعلانا لتطور حضاري للمنطقة برمتها في جميع الميادين السياسية ، و الاقتصادية والاجتماعية ، والثقافية و حين تخلى خلفاء الأسكيا محمد عن ما أقامه بدأت الدولة تضمحل و تسير من ضعف إلى ضعف[5].

---

[1] – القلقشندي ، المصدر السابق ،ج5 ،ص281 .

[2] – المقريزي ،المصدر السابق ،ج2، ص171 .

[3] – العمري ،المصدر السابق ،الباب العاشر ،ص61 .

[4] – السعدي ، المصدر السابق ، ص73. ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2،ص298 .زبادية ،المرجع السابق ،ص59 .

[5] – عبد القادر زبادية ،المرجع السابق ،ص54 .

3 – المتغيرات السياسية والتكالب الاستعماري :

عرفت بلاد السودان الغربي العديد من الأحداث والتطورات على المستوى السياسي، جعلت الأوضاع تتغير تدريجيا بداية من القرن الثالث عشر الميلادي /السابع الهجري وإلى غاية القرن السادس عشر الميلادي /العاشر الهجري ،حيث أثرت جملت الأحداث التي مرت بها على الواقع الاجتماعي والاقتصادي بشكل كبير ،فقد انتقلت سلطة البلاد إلى العديد من الشعوب والسلالات انطلاقا من الماندينغو[1]في عهد دولة مالي في بداية القرن الثالث عشر للميلاد حوالي622ه/ 1225م ، إلى غاية منتصف القرن الخامس عشر حوالي859 ه/ 1455 م حيث عرف أمراء الماندينغو بلقب منسى وكان أشهرهم منسى موسى الذي سبق وأن أشرنا إليه وعن رحلته الشهيرة إلى الحج ، وكان من أهم ما عرفته بلاد السودان الغربي في عهدهم هو نبذ الصراعات والحروب القبلية التي كانت كثيرا ما تقوم بين قبائل المنطقة وذلك عن طريق عقد المصاهرات مع زعماء القبائل في إمبراطوريتهم وهذا ما جعلها تنقاد إليهم[2]، أما في المجال الاقتصادي فقد عرفت البلاد تنظيما اقتصاديا كبيرا من خلال تشجيع زراعة بعض المحاصيل كالقطن[3]، كما قاموا بتنظيم الجباية على الواردات والصادرات بشكل أكثر إحكام على ما كان معمولا به في عهد مملكة غانة ، وهذا ما أغدق الأموال على مملكة مالي ، ومن جانب آخر أكثر أهمية هو استتباب الأمن ، وخاصة على طرق القوافل لأنها مصدر مهم من مصادر دخل الدولة، فقد تحكمت بشكل كبير في طرق القوافل الرئيسية و هذا ما انعكس بالإيجاب على البلاد برمتها.

تطورت الحياة بشكل كبير في بلاد السودان الغربي على عهد دولة مالي واتضح ذلك في الجوانب الحضارية بشكل عام فازدهرت مدنها وحواضرها بشكل ملحوظ من خلال العدد والوافدين عليها كذلك وحتى طابع الأبنية التي تطورت هي الأخرى وخاصة في مدينة

[1] – الماندينغو :من أوائل الشعوب في غرب افريقيا التي اعتنقت الإسلام ينظر : رضوان هواري ، المرجع السابق ،ص25.

[2]–Cornevin, R , Histoire del'Afrique,T1 , 2v ,Paris1962,p250.

[3] - Cornevin, R , op.cit, p251.

تمبوكت[1]،وما اكتمل البناء فيها بالالتصاق إلا في القرن العاشر الهجري ، السادس عشر للميلاد[2]، حيث وصل تعداد سكانها حوالي 100.000نسمة ربعهم كان من العلماء الذين تخرجوا من مصر والحجاز [3].وقد عرفت دولة مالي في القرن الثامن الهجري،الرابع عشر الميلادي رخاء اقتصاديا كبيرا حتى سمي هذا العصر بالعصر الذهبي لدولة مالي وخاصة تمبكتو ، التي ازدهرت بها الحياة الاقتصادية و العلمية على حد سواء، وكان من جملة العوامل المساعدة على ذلك توفر الأمن والنظام في المدينة بشكل خاص ، مما ساهم في تنشيط الحركة الاقتصادية بها وأتاها التجار من كل المناطق فازدادت قوتها سنة بعد أخرى .

لقد حاول خلفاء منسا موسى التوجه نحو المحيط الأطلسي[4]، كما عملوا على الاتصال بالبرتغاليين والايطاليين وهذا ما زاد في أطماع هذه الدول في الحصول على موارد دولة مالي مع نهاية القرن السادس عشر الميلادي في إطار الحملة الاستعمارية الشرسة ، التي شنتها الدول الغربية تحت غطاء ما أسمته باستكشاف القارة الإفريقية .

دخلت دولة مالي في طور الضعف في منتصف القرن الخامس عشر الميلادي واستمرت الاضطرابات تعصف بها بسبب تنافس أفراد الأسرة الحاكمة ، وهذا ما قطع أوصالها لتتحول إلى مملكة صغيرة بين الممالك الحديثة الظهور[5].

مع حلول القرن السادس عشر أصبحت دولة سنغاي قوة سياسية في بلاد السودان الغربي، وهي من سيقود المنطقة لفترة لا تقل أهمية على ما عرفته دولة مالي .وقد عرفت دولة

---

[1] – شرعت مدينة تمبكتو في بناء مساكنها بالطين المسقوف بالتبن وأصبحت أسقفها منتظمة بعد أن حكمها منسى موسى وبنيت المحلات التجارية وحتى المساكن على الطراز المغربي الأندلسي ، ينظر : محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كردية ،المرجع السابق ،ص98.

[2] – السعدي ، المصدر السابق ،ص21–22 .

[3] – محمد فاضل علي باري وسعيد إبراهيم كردية ،نفس المرجع السابق ،ص99.

[4] – العمري ، المصدر السابق ،السفر 4،ص121.

[5] – لقد أشار شارل مونتيل في كتابه(امبراطوريات مالي) إلى أسباب سقوط دولة مالي وكانت من بين أهمها فقدان الدولة لمصادر دخلها كالمدن التجارية الكبرى ومناجم النحاس في تكدة ، وكذا التنازع على العرش بين أفراد الأسرة الحاكمة مما اضعف السلطة المركزية وأعطى الفرصة لحكام الأقاليم في الانفصال وبذلك تقلصت رقعة الدولة لتزول نهائيا بعد ذلك .ينظر : Monteil ,CH. Les empires de Mali , paris , 1968, p143.

سنغاي أوج عظمتها في عهد الأسقيا الحاج محمد الكبير ورغم أن أسر الأسقيا لم تحكم سنغاي أكثر من قرن واحد [1]، إلا أنها استطاعت أن تمد حدود الدولة إلى أقصى اتساع لها بحيث لم تصله أي دولة قبلها ولا بعدها في تاريخ السودان الغربي .والذي يجب ذكره على أيام الأساقي في دولة سنغاي ، هو ذلك التنظيم المنقطع النظير على جميع الأصعدة وخاصة على عهد الأسقيا محمد الكبير لأنه حرص على تقوية دولته داخليا ليستطيع الوقوف أمام خصومه من جهة ، ويكسب الرعية من جهة أخرى كما شهد عهده (1493-1528 م)، أزهى فترات دولة سنغاي وذلك بإشاعة العدل بين مناطق البلاد وشعوبها وبذلك ضمت إلى البلاد عدة أراضي جديدة في الشمال وعلى سواحل الأطلسي وحتى بلاد الهوسا[2].

ومن هذا ما أدى إلى انتقال الكثير من العلماء إلى شرق مملكة سنغاي ، فأقاموا هناك يفقهون الناس في الدين وينشرون الثقافة الإسلامية ، فكانوا نواة لنهضة ثقافية شملت البلاد في القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي ،كما كان للمشاريع التي أقامها أثر كبير في رخاء البلاد ،كحفر القنوات على شواطئ النيجر لزيادة الأراضي المزروعة وأوجد الأوزان والمكاييل الموحدة ،مما جذب إليها الكثير من تجار طرابلس وفاس وتلمسان.

شهدت مملكة سنغاي عدة تحولات على جميع المستويات بعد تنازل الأسقيا محمد لابنه موسى على السلطة سنة934ه/1528م ، فكانت بداية الانهيار بعد أن دب الصراع في البلاط بين الأشقاء على الحكم ،فانعكس ذلك على الأوضاع السياسية والاقتصادية بشكل عام .كل هذه الأحداث أدت بأمراء المقاطعات والقبائل إلى التمرد [3]، واستمرت الأوضاع في سنغاي على حالها إلى غاية تولي الملك إسحاق الثاني الحكم (1588-1591م/996ه-999ه)

---

[1] – بدأت منذ عهد الأسقيا محمد الكبير الذي أنهى حكم آل سني بثورة قام بها عليهم سنة898 ه /1493م وانتهى وجودها بحملة المنصور السعدي على البلاد سنة 999 ه/1591م.

[2] – تدعى أيضا "الحوس" أو " الحوصا " .وتطلق كلمة هوسا على اللغة والأهالي التي يتكلمونها والبلاد التي تشملهم ، وهي تمتد اليوم في شمال نيجيريا ، والقسم الجنوبي من دولة النيجر وهي شعب من الشعوب الإفريقية ومن الموجات البشرية التي تسللت إلى غرب إفريقيا ، ينظر :شلبي ،أحمد ،موسوعة التاريخ الإسلامي ،القاهرة :مكتبة النهضة المصرية ،1981-1982،مج6،ص128.وينظر : فيج ج يدي ، المرجع السابق ،ص72.

[3] – الهادي الدالي ، المرجع السابق ،ص197 .

والذي ستتعرض فيه البلاد للعديد من الحملات من قبل أحمد المنصور السعدي ،وهذا لعدة اعتبارات كان أهمها :

اعتبار بلاد السودان منفذا عسكريا و اقتصاديا للمغرب إلى الجنوب ،وهذا بعد الضغط الذي نتج عن التحولات العسكرية والسياسية التي عرفتها المناطق الشمالية مما أدى إلى سقوط بلاد الأندلس في يد النصارى الأسبان ، و توالي اعتداءاتهم على سواحل شمال إفريقيا تحت ما أسموه بحروب الاسترداد ، وظهور العثمانيين على الحدود الشرقية للمغرب .

كل ذلك جعل من المغرب جسرا ملائما بالنسبة للأوروبيين قصد العبور إلى غرب إفريقيا خاصة في ظل الأطماع المتنامية للبرتغاليين الذين شرعوا في بسط تواجدهم على السواحل الغربية الأطلسية جنوب المغرب [1]، فكان توجه السعديين نحو الجنوب هو إجراء وقائي لمنع تطويقهم من الجنوب .

ومن العوامل الأخرى محاولته التحكم في موارد وثروات بلاد السودان الغربي لنفسه وهذا ما ستترجمه الممارسات التي قام بها جيشه عند دخوله إلى هذه البلاد من خلال الضرائب التي فرضت على الأهالي والذي دعمت خزينة السعديين بأموال طائلة سنويا [2].

إن المتتبع للتحولات التي عرفتها بلاد السودان الغربي خلال القرن 10ه/ 16 م ، يتوصل إلى أنها أثرت على المستوى الديموغرافي للبلاد فقد أثرت بوضوح على عدد السكان بشكل ايجابي، حيث توافد عدد كبير من التجار والعلماء على بلاد السودان الغربي خاصة في عهد الأسقيا محمد والفترة القصيرة التي تلت حكمه فارتفع عدد السكان وكبرت المدن وتطور

[1] – لقد نزل البرتغاليون أول مرة على ساحل إفريقيا الغربي على الأطلسي ، في عهد الملك منسى محمد الأول عام 1484م و بنوا أكواخا من الخشب شمال مصب نهر السنغال وفي عام 1553م ، تمركزا في غامبيا السفلى وسط ساحل بلاد السنغال ليلقوا معارضة شديدة مما جعلهم ينتقلون إلى ساحل الذهب (غانا الحالية) ينظر : قدوري عبد الرحمن ، الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرنين9و10ه/15و16م ، رسالة ماجستير في التاريخ ،جامعة تلمسان ، 2012،ص49.

[2] – لقد تعددت الأسباب التي حملت المنصور الذهبي إلى اهتمامه ببلاد السودان الغربي وللمزيد من الإطلاع عليها ينظر : اليفريني ، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي ،ط2،مكتبة الطالب ،الرباط،1988،ص95. محمد الغربي ، المرجع السابق ،ص88.

العمران ، وانتعشت الأنشطة الاقتصادية بها ،ومن جهة أخرى كان لهذه التحولات أثرا سلبيا من خلال حدوث نزيف ديموغرافي منذ أواخر ق16 م ،نتيجة تطاحن أفراد الأسرة الحاكمة وكثرة الحروب التي قامت بين الأمراء وحكام الأقاليم ، كما كان للحملات السعدية على بلاد السودان الغربي أثر كبير كذلك من خلال عدد الضحايا الذين سقطوا فيها من أهل السودان نتيجة التفوق المادي الممثل في الأسلحة التي استعملها المغاربة ضد السودانيين الذين ظلوا يحاربون بأسلحة بدائية ، وهذا ما مكن المغاربة من التوغل في بلاد السودان الغربي والسيطرة على أهم حواضرها لحين من الدهر .فأصبحت بعض المدن خاوية على عروشها كتغازا بعد أن خرج منها سكانها اثر دخول الجيش المغربي إليها سنة 1586 م ، ومدن أخرى أبيد أهلها وأسر علمائها كتمبوكتو سنة 1591م من قبل الجيش السعدي .لقد كان لهذه الأحداث عدة نتائج كما ذكرنا ولعل أهمها هو تراجع الوزن الحضاري لبلاد السودان الغربي وخاصة التجارة التي عرفت تراجع كبير نتيجة انعدام عامل الأمن وكذا تحول الطرق التجارية نحو السواحل الأطلسية .

لقد وجد أهل السودان الغربي أنفسهم مجبرين على العيش تحت الحكم المغربي ،الذي كانت أحكامه العسكرية قاسية من جهة ولكنه كان مجبرا على ترك بعض العراف على ما هي عليه ، لأنه لم يكن بالإمكان تخليصه منها دفعة واحدة ،وكان للوجود المغربي الذي تمركز في الحواضر الكبرى لبلاد السودان الغربي أثر سلبي حيث انتشرت المجاعات والأوبئة التي قضت على خلق كبير ، وسرعان ما اختلط العنصر المغربي من الجند الذي كان متواجد بهذه البلاد بالعنصر الأصلي أما العادات فقد دخلت عليها العادات المغربية في اللباس والاحتفالات الدينية وغيرها من المظاهر التي طغى عليها الطابع المغربي وشكل العامة من المغاربة ،وأهل البلاد الأصليين ثلث الطبقة الاجتماعية في السودان الغربي وكان البقية من العبيد و الأقنان من السودانيين الذين مثلوا الخدم عند أغنياء المغاربة[1].

[1] – عبلة محمد سلطان ،العناصر المغربية في السودان الغربي ،رسالة دكتوراه غير منشورة ،معهد البحوث والدراسات الإفريقية ،جامعة القاهرة ،1989م ،ص 195.

أصبح الاقتصاد المغربي اقتصادا موجها ومسخرا لحاجيات المغرب ،حيث نمت الزراعة والصنائع جراء تركز جالية مغربية كبيرة ببلاد السودان الغربي حتى أنها عرفت أنماط ومحاصيل زراعية جديدة ، جراء ما جاء به الفلاحون من أهل الأندلس واليهود من تقنيات فلاحيه لم يعتدها أهل هذه البلاد .

لقد ساهمت التحولات السياسية التي عرفتها منطقة السودان الغربي سواء داخليا أو خارجيا في التأثير بشكل كبير على الخصوصيات الاجتماعية والاقتصادية لهذه المنطقة، فكان فيها الايجابي والسلبي ولكن المتغيرات الدولية التي أحاطت بالمنطقة في أواخر القرن السادس عشر ميلادي العاشر هجري جعل المنطقة تتهاوى حضارتها بسبب من ادعوا الحضارة آنذاك .

ثالثا : العوامل الاقتصادية :

1- تأثير التجار :

لعبت التجارة والتجار دورا مهما في بلاد السودان الغربي لمالها من تأثير مباشر على البنية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية، فقد ساهمت التجارة ومنذ القدم في ازدهار العديد من الحضارات، وهذا ما حققته التجارة في بلاد السودان بشكل عام والسودان الغربي بشكل خاص وهذا منذ القدم[1]. فكان لاستقرار التجار العرب المسلمين في هذه المناطق واختلاطهم مع الأفارقة دور في تعليم سكانها التجارة وفق الشريعة الإسلامية، وربط المنطقة بالعالم الإسلامي بشكل كبير فتوافد الكثير من التجار العراقيين إلى سجلماسة كمقدمة للتوغل في بلاد السودان الغربي ونقلوا بذلك إلى سكان البلاد الأخلاق الحسنة وهذا ما ذكره ابن حوقل في قوله :" أنهم حسني الأعمال ولهم كمال في الأخلاق ، وصدق في معاملاتهم ..."[2] .

مما ذكرته المصادر كذلك في هذا الشأن هو أن العديد من التجار العرب المستقرين في أودغست اشتغلوا كوكلاء تجاريين بين شمال الصحراء وجنوبها ،كما أنهم استخدموا بعض

[1] – لقد سافر الكثير من تجار بلاد الحجاز واليمن إلى بلاد السودان لمزاولة تجارتهم في هذه البلاد لتوغلوا نحو الغرب. ينظر: علي جواد ، المرجع السابق ،285.

[2] – ابن حوقل ، المصدر السابق ،ص99.

الأساليب التجارية لم تكن معروفة في بلاد السودان الغربي ،كاستخدامهم للصكوك التجارية[1] وهذا دليل واضح على مدى التأثير الذي نقله التجار العرب إلى هذه المنطقة ،كما أن المصادر ذكرت مدى الاحترام الذي لقيه التجار من قبل حكام وملوك بلاد السودان الغربي .

مع حلول القرن الثامن الهجري / الرابع عشر ميلادي، أصبحت فوائد التجارة في هذه المناطق تعم جميع الفئات ،بعدما كانت مستغلة من قبل الملوك فيما مضى[2] ،ومع بداية حكم الأسيقيين في دولة سنغاي في القرن السادس عشر ميلادي العاشر الهجري كان التجار في هذه البلاد منقسمين لقسمين: أما القسم الأول فكان يتمتع بثراء ، وجاه كبير مما جعله يرقى لمصاف الملوك والحكام، وكان غالبيتهم من التجار العرب والمغاربة ، حيث لقيت هذه الفئة عناية فائقة من طرف الأساقي[3] وكان لهذه الفئة دور كبير في تطور المجتمع السوداني على جميع الأصعدة كالتعليم وتوضيح الشريعة الإسلامية، والاستشارة في الحكم والقضاء، قيادتهم للصفقات التجارية المعقدة حتى أن بعضهم كان يطلب منه الفتوى[4] .

لقد عملت هذه الفئة من التجار الوافدين على بلاد السودان الغربي أو بالأحرى الأجانب إلى ظهور العديد من المنتجات والمواد التي يؤتى بها من الخارج و لم تكن موجودة بهذه البلاد مما أدى إلى رواجها وتضاعف أثمانها بالمقابل وهو الشيء الذي أدى إلى حصول نقلة كبيرة في التاريخ الحضاري للمنطقة بشكل عام، ومن هذه البضائع نذكر تجارة الكتب على سبيل المثال لا الحصر والتي كان لها دور كبير كذلك في ازدهار العديد من حواضر بلاد السودان كمدينتي تمبكتو وجني اللتين أصبحتا مدينتي العلم والعلماء .

[1] – ابن حوقل ، المصدر السابق ،ص65 .

[2] – نعيم قداح ،إفريقيا الغربية ،ص101.

[3] – كعت ، المصدر السابق ،ص57 .

[4] – الشيخلي صباح ابراهيم ، النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري، بحث منشور في كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر ، بغداد 1984 ،ص42.

عرفت بلاد السودان الغربي إلى جانب ذلك العديد من البيوع والمعاملات المستوحاة من الشريعة الإسلامية مثل القراض[1] في التجارة والوكلاء التجاريين ،حيث بدأت هذه المعاملات تشكل جزءا من العلاقات التجارية الموجودة بين التجار المحليين والأجانب[2]،وقد استحدثت مهن أخرى ترتبط بالتجارة وهي الدليل أو كما ذكره ابن بطوطة التكشيف قبل دخوله إلى مدينة ولاته وفي الأغلب كان من أهل مسوفة المغربية ،وذلك لكثرة تنقلهم ومعرفتهم بدروب الصحراء التي تربط بين الشمال والجنوب[3].

لقد نشأت فئة أخرى من التجار إلى جانب التجار الأجانب هي فئة التجار المحليين والذين كانوا أقل ثراء من التجار الأجانب نتيجة قلة أرباحهم ومحدودية سلعهم و لم ترتقي هذه الفئة إلى تقلد مناصب عليا إلا أن الجدير بالذكر أنهم أصبحوا أكثر اقتداء بالتجار في المشرق الاسلامي وفي بلاد المغرب على حد سواء، وذلك من خلال توجههم إلى التخصص في المجال التجاري ،كالحبوب واللحوم وما شابه ذلك . فقد ساهم التجار في بلاد السودان الغربي في التأثير على المجتمع والاقتصاد السوداني بمايلي :

- بتنشيط التجارة الداخلية
- تغذية الجبايات الحكومية وما ينتج عنه من ثراء البلاد .
- المساهمة في توفير الشغل .
- تغيير النمط الاستهلاكي في الغذاء واللباس خاصة عند الموسرين من الرعية[4].

---

[1] – ميشل برت ،فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة عبر الصحراء ، مجلة البحوث التاريخية ، ع1،يناير 1981،ص69. ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ج2 ،ص371.

[2] – وجدت هذه المهنة و لم يكن يمتهنها العرب أو أهل السودان فقط بل حتى بعض اليهود ، وهذا ما ذكر في إحدى الرسائل التي بعثتها إحدى النساء لزوجها وهي رقية وزوجها الحاج عبد الله بن الحاج الصالح الوغلامي بخصوص اليهودي موشي الذي تركه وكيلا عليهم ولكنه باع مزارعهم ومنزلهم وأخرجهم منها .ينظر:الهادي المبروك الدالي ،التاريخ السياسي ....،ص269 .

[3] – ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2،ص368.

[4] – زبادية ،المرجع السابق ،ص218 .

لقد امتد تأثير التجار بشكل كبير في معاملات الأسواق حتى أنهم أدخلوا الكثير من الأسماء العربية على المقاييس والموازين فاستخدموها وفق ما كان متعاملا به في باقي البلاد الإسلامية كالذراع والشبر، والمد، والصاع وتعاملوا كذلك بالدينار والدرهم والمثقال والأوقية المصنوعة من مختلف المواد ،كما تم تعيين مراقبين لهذه الموازين والمقاييس كما كان الشأن في باقي البلاد الإسلامية[1] .

لعب التجار دروا بارزا ومهما في إخراج بلاد السودان الغربي من الوثنية والبدائية إلى الحضارة ومجارات باقي الأقطار الإسلامية في الكثير من المظاهر الحضارية .

2- دور الرقيق :

ازدهرت أسواق النخاسة خلال القرنين الخامس والسادس عشر ميلادي حيث تزايد عدد العبيد من مختلف الأعمار وكانت أثمانهم منخفضة كما سبق وأن أشرنا إلى ذلك، باعتبارهم وسيلة للمبادلات كالودع والملح والذهب فكان انخفاض أثمانهم سببا في إقبال التجار على أخذ الكثير منهم إلى بلدانهم، مما يدر عليهم الكثير من الأموال سواء في أسواق بلاد المغرب أو مصر وحتى إلى التجار الأوروبيين الذين ينقلونهم إلى أسواق أوروبا .

لقد ساهم الرقيق بنوع من التأثير في المجتمع السوداني ، خاصة بعد أن أخذوا عادات وطبائع المناطق التي أخذوا إليها والتي كانت إسلامية في الغالب ، ولكونهم اندمجوا في تلك المجتمعات التي عاشوا فيها فقد نقلوا إلى أهاليهم تفاصيل ما عاشوه بعد تحررهم وعتقهم لوجه الله تعالى ، أو تكفيرا عن الأخطاء التي يتوجب فيها شرعا عتق رقبة [2]ورجوعهم إلى بلدانهم ، فزرعوا بذلك القيم والعادات التي لمسوها في المناطق التي كانوا فيها قبل عتقهم .

كما لعب التواجد الكبير للعبيد في قصور الحكام والملوك دورا كبيرا في نقل عادات سادتهم في مختلف المناسبات[3] ،وحتى فيما يتعلق بالحروب نقل العبيد المعتوقون إلى بلدانهم كيفية

---

[1] – سينيكي مودي سيسوكو ،الصنغي من القرن الثاني عشر إلى السادس عشر ،بحث منشور في كتاب تاريخ إفريقيا العام ،اليونسكو 1988، ،مج4،ص206 .

[2] – ابن سعيد سحنون ،المدونة الكبرى ،تح ،سيد حماد الفيومي وآخرون ،مطبعة السعادة ،1323 هـ،ج1،ص22.

[3] – الحسن السائح ،الحضارة المغربية عبر التاريخ ،الدار البيضاء ،1975،ج1،ص167.

معاملة الأبرياء كما استخدموا أساليب تعلموها أثناء مشاركتهم في جيوش المسلمين ، وقد عملوا على نقل أوضاع المسلمين الاجتماعية من خلال تصرفاتهم اتجاه الرعية ومن الأمثلة التي نسوقها في هذا الشأن هو جلوس ساكورة[1]على حكم مالي والتزامه بعناية شؤون رعيته وفق الشريعة الإسلامية حيث ذهب في رحلة الحج سنة700ه/1300م وخلال ذلك زار مصر ،وقد حكم دولة مالي صندكي[2] ،الذي هو في الأصل من الرقيق كما طبق هذا الأخير كل ما تعلمه خلال فترة استرقاقه في حكمه ، والأمثلة كثيرة إذا تحدثنا عن الرقيق ودورهم في قيام الدول الإسلامية فلا يخفى على أي دارس الدور الذي لعبه المماليك[3]، في إرساء دعائم الملك وإقامة دولة قوية لا تزال العديد من معالمها قائمة إلى يومنا هذا خاصة في مصر عاصمة ملكهم.

كما ساهم الرقيق بشكل كبير في تطوير و إنعاش الجانب الاقتصادي في بلاد السودان الغربي وخاصة في الزراعة المنتشرة على ضفاف أنهارها[4]، وقد ذكر كعت طريقة تقسيم الرقيق في الحقول أثناء موسم حصاد الرز في دولة مالي[5] ،كما قام الأسكيا الحاج محمد قرية زراعية كبيرة يعمل فيها الرقيق[6] .

[1] – ساكورة : هو من موالي أسرة كايتا ، التي حكمت في مالي .وذكرت المصادر العربية هذا الاسم بصيغ متعددة فالقلقشندي ذكره باسم ساكورة . ينظر : صبح الأعشى ،ج5،ص294 .أما ابن خلدون فسماه ساكبورة .ينظر : العبر، ج5، 433.

[2] – صندكي : تعني الوزير أو رئيس الرقيق .ينظر : القلقشندي ،المصدر السابق ،ج5، 297.

[3] –المماليك :مفرجها مملوك وهو العبد الذي سبي و لم يملك أبواه والمملوك عبد يباع ويشترى وهم فئة من الرقيق الأبيض، أسسوا دولة عرفت باسمهم دام ملكها منذ سقوط الدولة الأيوبية سنة 648هـ/1250م وسقطت على يد العثمانيين في معركة الريدانية سنة 923هـ/1517م .ينظر : ابن عبد الظاهر ،الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ،تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر،الرياض ،ط1، 1976،ص99-100.،وينظر :ابن منظور ،لسان العرب،دار صادر ،بيروت لبنان ،ج10، ص493.

[4] – ابن سعيد المغربي ، المصدر السابق ،ص24.

[5] – كعت ،المصدر السابق ،ص94.

[6] – سيسوكو ، المرجع السابق ،مج4،ص207.

لقد تعددت الأعمال التي قام بها الرقيق في بلاد السودان الغربي كاستخراج التبر وسبك النحاس واستخراج الملح وغيرها من الأعمال التي أشارت إليها المصادر[1]،وحتى الإماء كان لهن الدور الكبير في اقتصاد هذه البلاد فقد شاركن في الحياة العامة وقد ذكرت المصادر ذلك كاشتهار إماء أودغست بصناعة الحلويات وبيع بعضهن في الأسواق[2].

3- دور أصحاب الحرف والصنائع :

إن بساطة المجتمعات الإفريقية جعلت معرفتها بالحرف والصنائع قليلة ،ولكن نسجها وربطها لعلاقات وطيدة مع العديد من أقطار العالم وخاصة الإسلامي منها جعلتها تنقل ثقافات هذه الشعوب إليها ،وبحكم الاختلاط الذي عرفته بلاد السودان الغربي وعملية التلاقح الذي حصل مع باقي الشعوب .دخلت على هذه البلاد العديد من الصنائع والحرف قلما كانت توجد فيها قبل القرن الثالث عشر ميلادي /السابع الهجري ، فظهرت الحياكة والصناعة الخياطة ودباغة الجلود وتصنيعها كملابس ، وكان من بين الصناعات التي ازدهرت صناعة دبغ الجلود والتي اعتمدت بدرجة كبيرة على الصباغة المجلوبة من المغرب ، ومن غدامس حيث نشطت الصباغة في العهد المغربي في السودان الغربي .

وحتى أواخر القرن العاشر الهجري /السادس عشر ميلادي ،وبهذا كانت الجلود المصبوغة هي أكثر ما يلبسه أهل السودان الغربي في فصل الشتاء[3]. وبالرغم من وجود العديد من الصناعات الحديدية والنحاسية عند أهل هذه البلاد إلا أنها لم تستطع الاستغناء على الصناعات التي كانت تجلب من المغرب خاصة بحكم أن بلاد السودان الغربي أصبحت تحت حكم المغاربة منذ عهد المنصور كما سبق وأن أشرنا[4] .

---

[1] – ذكرت مختلف المصادر العربية التي أشارت للرقيق في بلاد السودان الغربي أنهم ساهموا في اقتصاد البلاد بشكل كبير بالنظر للعدد الكبير ،ينظر :ابن بطوطة ،المصدر السابق ، ج2 ،ص373-379.ينظر كذلك :الشنقيطي، الوسيط في في تراجم أدباء شنقيط ،تحقيق :فؤاد السيد ،مطبعة المدني ،ط1989،4،ص494.

[2] – البكري ، المصدر السابق ،ص158.

[3] – محمد الغربي ، المرجع السابق ،ص500.

[4] – محمد الغربي ،نفس المرجع السابق ،ص 491.

عرفت الزراعة كذلك قفزة كبيرة من خلال الخبرة الأندلسية التي جاءت مع الجيوش المغربية وأصبحت المزارع السودانية شبيهة البساتين الأندلسية ، من خلال الاستغلال الأمثل للتربة والمساحات الزراعية ،خاصة على سفوح الجبال بإنشاء المساطب والقنوات ، وعلموا أهل البادية أشياء جديدة لم يعهد وها كما أن أهل الأندلس الذين وفدوا مع المغاربة كانوا على دراية بالفيضانات وبخواص الطمي حيث عملوا على المراقبة المستمرة لمنسوب النهر وكذا رصد أوقات الفيضانات مما جعلهم يبنون محطات لقياس منسوب مياه النهر ، وهذا ما أشار إليه السعدي[1] فكثرت الصنائع وعمت الخيرات في البلاد[2]، ونلمس مدى التقنيات التي أدخلت من طرف المغاربة في مجال الري كشق القنوات وتحويل روافد نهر النيجر[3] وزراعة الأصناف التي لم تكن موجودة في بلاد السودان ، وأدخلوا البيطرة وهذا قصد الاعتناء بالثروة الحيوانية[4].

لقد ساهم أصحاب الحرف والصنائع في تنمية وتطوير الاقتصاد السوداني والذي كان معظمهم وافد من المغرب لأنه كان بوابة السودان الغربي من الشمال ،فظهرت صناعات تحويلية وكمالية على حد سواء لم تكن معروفة في بلاد السودان الغربي ،وكان للصناع المغاربة المهرة الذين وفدوا على بلاد السودان الغربي أثناء الحملة السعدية أو قبلها دور في خلق صناعات جديدة وتطوير البدائية منها ، كما نقلوا البذور والمزروعات الجديدة لهذه البلاد كالعديد من أنواع الحوامض والبطيخ الأحمر والقمح الصلب والتبغ وقصب السكر ، وتنظيم الزراعة وفق ما يعرف بالدورة الزراعية باختيار التربة الصالحة لكل نوع من النباتات[5].

---

[1] – السعدي ،المصدر السابق ، ص278-292.

[2] – المقري ،نفح الطيب ،ص764.

[3] – محمد رزوق، العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر، مجلة المؤرخ العربي، بغداد، العدد 31، 1987،ص111.

[4] – لقد عمل المغاربة على الاعتناء بالحيوانات وتحسين نسلها ومردودها وتطبيبها ،وكانت هذه الصنعة تكتنفها السرية في البداية ولكن مع مرور الوقت تعلمها الأفارقة .ينظر :.Dupuis-yakouba Op, Cit,p183-185

[5] –محمد رزوق ،المرجع السابق ،ص110.

الخلاصة :

تغيرت البنية الاقتصادية والاجتماعية في بلاد السودان الغربي خلال القرن السادس عشر ميلادي / العاشر الهجري نتيجة العوامل التي اشرنا إليها فكان منها، ما أفاد البلاد وجعلها ترتقي في سلم الحضارة وتضاهي بذلك باقي المناطق في العالم الإسلامي، أو العالم الغربي من خلال حجم المبادلات التجارية في مختلف السلع التي كانت تصدر وتستورد من هذه المناطق ، أما الجانب السلبي في هذا التحول جعل البلاد محط أنظار العديد من القوى العالمية وخاصة الأوربية التي كانت في هذه الفترة تعيش فترة الانقلاب الصناعي ، وما صاحبها من ظهور للفكر الاستعماري الحديث والذي ستكون القارة الإفريقية أكبر ضحاياه مستخدمة قناع الكشوف الجغرافية و التجارة للتوغل في القارة بداية من السواحل الأطلسية الغربية

الفصل الخامس

الفصل الخامس :مظاهر التحول الاقتصادي في السودان الغربي بين ق7–10هـ/13–16 م

أولا :الحركية التجارية

- الحركية التجارية
- تطور الأسواق
- تطور الموازين والمكاييل

ثانيا :التطور الصناعي الحرفي

- الصناعات الحرفية
- التعدين والتصنيع
- صناعة الفخار والبناء

ثالثا: تطور النشاط الزراعي

- تطور مهنة الفلاحة
- التنوعالزراعي وطرق استغلاله
- الثروة الحيوانية

رابعا :الأنظمة المالية

- جباية الأراضي الزراعية (الأراضي الخراجية)
- ضريبة العشر على الأراضي
- الاقطاعيات
- الضرائب
- الزكاة والصدقات

أولا : الحركية التجارية :

مثلت التجارة أحد الأسس التي قامت عليها بلاد السودان الغربي في الفترة الوسيطة وكانت سببا هاما في تطورها الحضاري بشكل عام .

1– التجارة و التجار :

إن الحديث عن بلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط ، لا يمكن أن يخلوا من الحديث عن التجارة والتجار والاقتصاد بشكل خاص ، لأنها مفتاح أفريقيا جنوب الصحراء في هذه الفترة بالتحديد .و من المعلوم أن التجارة ساهمت في بناء وازدهار عدة حضارات قديمة وهو نفس الشأن في بلاد السودان الغربي إذ ظهر هذا النشاط بها منذ القدم ،ولكن مع دخول الإسلام إليها بدأت معالمها تتغير بتوافد العديد من التجار العرب المسلمين إليها واختلاطهم بالسكان المحليين واستقرارهم بهذه البلاد ، فأصبحت لا تختلف على ما كان موجودا في الأقطار الإسلامية و باقي أنحاء العالم آنذاك .

أ– تطور التجارة :

لقد ازدهرت التجارة عبر الصحراء الكبرى الإفريقية ،وذلك بداية من منتصف القرن الثالث عشر ميلادي /السابع هجري وحتى نهاية القرن السادس عشر ميلادي / العاشر هجري حيث شهدت هذه الفترة ارتفاع الطلب على منتجات السودان الغربي في بلاد المشرق وحتى أوروبا وفي نفس الوقت زاد العرض بدعم من الأنظمة السياسية سواء في بلاد المغرب أو بلاد السودان الغربي وحتى وإن استمرت التجارة في هذه المناطق إلا أنها اتجهت نحو الساحل الأطلسي أو نحو الطرق الصحراوية شرقا ،فتراجعت بذلك أهمية الطرق التجارية القديمة [1] ، وهذا نتيجة للعوامل التي بدأت تطغى على التجارة الصحراوية ،أهمها عامل الزمن وحجم الحمولة، وعامل الأمن بالإضافة إلى التحولات السياسية التي عرفتها المنطقة بعد الحملة المغربية على البلاد ابتداء من نهاية القرن السادس عشر ميلادي/ العاشر هجري . حيث سقطت إمبراطورية سنغاي على يد الجيش المراكشي سنة1591 ورغم ما قيل عن هذه الحادثة وأثرها على بلاد السودان

[1] – عثمان المنصوري ،التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر ،مطبعة النجاح الجديدة ،المغرب ،ط1 ،2001 ، ص152.

الغربي[1] ،إلا أن الأوضاع الاقتصادية استمرت على ما كانت عليه مع بعض الإضافات التي جاء بها المغاربة وهذا ما أشرنا إليه سالفا .حيث زادت كمية و نوعية الإنتاج وارتفع حجم المبادلات بسبب توفر ظروف الأمن ،حيث زال خطر السطو على السلع من طرف قطاع الطرق بسبب الاستقرار السياسي والوحدة الإدارية بعد سيطرة المغاربة على أهم الطرق المؤدية إلى السودان الغربي من الشمال .

لقد أصبحت التجارة في بلاد السودان الغربي خلال الفترة المدروسة نشطة لحد كبير[2]، وأكثر تطور وتنظيم ويتضح ذلك من خلال الأساليب المعتمدة والتي كانت مختلفة حسب البيئة والمحيط المتعامل فيه وحسب ما تفرضه الظروف ، حيث أصبح النقد أساس التعامل التجاري ،كما ظهرت العديد من البيوع التي تتوافق والشريعة الإسلامية . كما ظهرت الشركة التجارية[3]،حيث اشير إليها في نوازل بلاد السودان الغربي وكانت بعدة أنواع كشركة الأموال وتكون فيها الشراكة برؤوس الأموال أو العروض أو شركة أبدان وتكون في الصنائع والأعمال، وشركة وجوه أو ذمم والوساطة أو السمسرة التي انتشرت في تمبكتو لكونها منطقة عبور وازدحام بالمواد وجد السماسرة لتسهيل عملية التبادل ،فكانت مهنة مربحة أدرت على أصحابها الكثير من المال[4] .

---

[1]– تعدد وجهات النظر والأحكام على الأثر الذي خلفته الحملة المغربية على بلاد السودان بين معظم ولها وناقم عليها .ينظر : .Bovill,E.W.,Op,Cit,p195 . وينظر كذلك ، محمد الغربي ، المرجع السابق ،434.

[2]– لقد أشار الهادي المبروك الدالي إلى مدى النشاط الذي تميزت به التجارة قبل الوجود المغربي في بلاد السودان وحتى بعده وإلى كثرة السلع المتبادلة ورواجها في الأسواق السودانية وحتى نظم المبادلات التي كانت قائمة بين التجار على ضفتي الصحراء الكبرى وذلك من خلال مجموعة من الرسائل المخطوطة والتي ذكر لنا نماذج منها تثبت ذلك .ينظر : الهادي المبروك الدالي ،التاريخ السياسي .....،ص307–312 .وينظر كذلك : محمد المصطفى الغلاوي ،العمل المشكور في جمع نوازل علماء التكرور ، تحقيق ،حماه الله ولد السالم،دار الكتب العلمية ،بيروت ،2015 ، 2/1 ،ص194–232 .

[3]– من بين أهم الشركات التجارية والتي ذاع صيتها آنذاك وكثرت أموالها هي شركة الإخوة المقري خلال القرن 7هـ/13 م ينظر: ابن الخطيب لسان الدين ، الإحاطة في اخبار غرناطة ، تحقيق محمد عبد الله عنان ،مكتبة الخانجي ،القاهرة ،1973 ،ج2 ،ص 192–194 .

[4]– الهادي المبروك ، المرجع السابق ،ص308.

إن الحديث عن التجارة ومدى الأرباح التي كانت تجنى منها يقودنا إلى التفصيل عن خصوصيات هذه التجارة و أنواعها بين الداخلية والخارجية ، ومدى الارتباط الوثيق بينهما باعتبار الأولى مرتبطة بالثانية بدرجة كبيرة لأنها مصدر تمويلها وخاصة في السلع التي تجلب من خارج بلاد السودان الغربي والتي كانت تباع بأثمان باهظة . وعند الحديث عن الهيكل التنظيمي لهذه التجارة فنجد معظمها لم يتغير خلال الفترة المدروسة إلا ما تعلق بالتنظيم والجباية ونوع السلع المتداولة بما أن النشاط التجاري تزايد ابتداء من القرن الرابع عشر ميلادي /الثامن هجري وتوافدت الكثير من القوافل على مدن السودان الغربي منها تمبوكتو وغاو وجني و ولاته .

كما أن معظم الأسواق الكبرى في بلاد السودان كانت في شمال البلاد وكانت الأسواق بشكل عام في القرن السادس عشر ميلادي / العاشر الهجري مقسمة على النحو التالي :

1– الأسواق الصغيرة المحلية : زاد نشاطها كما أسلفنا الذكر وارتفع عدد الدكاكين الموجودة بالقرى التي توجد بها هذه الأسواق و ،كانت سلعها في الغالب رخيصة الثمن باعتبارها السلع التي يحتاجها السكان يوميا في معاشهم [1].

2 – أسواق المدن الكبرى : كانت عامرة بالسكان الأجانب وخاصة من فئة التجار حيث كانت لهم أحياء خاصة بهم بعد أن استقر العديد منهم بها حيث ذكر ذلك السعدي في حديثه عن جني فقال" وهي سوق عظيم من أسواق المسامين وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغاز و أرباب الذهب من معدن بيط..... فوجد الناس بركتها في التجارة إليها كثيرا وجمعوا فيها من الأموال مالا يحصيه إلا الله سبحانه ومن أجل هذه المدينة المباركة تأتى الرفاق من جميع الآفاق ..."[2] ، ونفس الشيء يقال عن تمبكت التي انتقلت إليها الأهمية الاقتصادية ،فازدهرت فيها تجارة العديد من السلع كريش النعام والمنسوجات وحتى المنتجات التي تفد إليها من أوروبا ،والذي ساعد على ذلك موقعها على نهر النيجر فأضحت بذلك ميناء بحريا وبريا في آن واحد ولذلك عمل حكام دولة مالي و سنغاي على الاهتمام بها وتأمين طرق القوافل إليها ،كل ذلك

[1]– عبد القادر زبادية ،مملكة سنغاي ...، ص194.

[2]– السعدي ،المصدر السابق ،ص11-12.

جعل هذه المدينة من أهم أسواق السودان الغربي تفد إليها جموع التجار والعلماء من كل أصقاع العالم الإسلامي[1] .

ومن خلال ذلك فإن الأسواق الكبرى في السودان الغربي كانت تعج بالسلع الوافدة من الخارج كما كانت تلقى رعاية فائقة من طرف حكام الدول المتعاقبة على هذه البلاد لأنها كانت عصب اقتصاد الدولة وأهم مواردها ونافذتها على باقي مناطق العالم . كما عرفت بلاد السودان الغربي عدة أسواق أخرى لعبت أدوار مهمة في اقتصاد البلاد تطورت هي الأخرى تبعا للظروف التي مرت بها المنطقة بأكملها على المستوى السياسي سواء شمال الصحراء أو جنوبها، مما جعل طرق القوافل تتأثر وحتى العلاقات الدبلوماسية بين الدول الناشئة في مختلف الحقب .

ب – تطور فئة التجار :

لقد ارتبطت فئة التجار في بلاد السودان الغربي ارتباطا وثيقا بكل المراحل التي مرت بها التجارة الصحراوية ، حيث كان لهذه الفئة الدور الكبير في ازدهار حواضر بلاد السودان ، وكانت هي النافذة التي أطلت من خلالها دول شمال الصحراء على هذه المنطقة .

عرفت بلاد السودان الغربي في بادئ الأمر توافد العديد من التجار العرب المسلمين فساهموا في نقل تعاليم الإسلام إليها ، وبعد أن ألفوا البلاد وتعرفوا عليها، فاستقر بهم المقام بها، بتزاوجهم ومصاهرتهم للسكان الأصليين فأسهموا في تكوين فئة جديدة من تجار البلاد بما يتوافق وتعاليم الإسلام [2]،فأصبحت المعاملات التجارية لا تختلف عن مثيلاتها في سائر المناطق الإسلامية ، فظهرت مختل البيوع و عمرت حواضر البلاد بالمعاملات التجارية [3]، وأصبح يطلق على التجار في هذه البلاد اسم "الديولا"[4].

---

[1]– السعدي ،نفس المصدر السابق ،ص20 . ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ص378 .

[2] – بشار أكرم ، المرجع السابق ،ص237 .

[3] – ابن حوقل ،المصدر السابق ،ص60 .

[4]– ينحدر الديولا أو الجيولا من سلالة السوننكي الذين يعتبرون فرعا من شعب الماندنغ وقد شكلوا جاليات صغيرة في المراكز التجارية الهامة ونقاط عبور القوافل التجارية التي تخرج من مالي ، وهم يمتهنون التجارة المتجولة وهي تعني في لغة الماندي تاجرا .ينظر : نعيم قداح ،إفريقيا الغربية ،ص101 .

جـــ– ظهور الوكالات التجارية :

لقد تطورت العلاقات التجارية بين أقطار العالم الإسلامي وخاصة بين بلاد المغرب والسودان الغربي وهذا منذ عهد دولة غانة الإسلامية ،حيث تأسست شركات تجارية ،وهو ما عرف بالوكالة التجارية كنوع جديد من أنواع المعاملات التجارية ،وكان أشهرها شركة المقري التي أسسها أجداد أحمد المقري صاحب كتاب " نفح الطيب " ، وكان جد أسرة المقري يدعى عبد الرحمن المقري الذي عاش في القرن السادس الهجري / الثاني عشر للميلاد .وقد قام الإخوة المقر الخمسة بتأسيس وكالة المقري التجارية في القرن السابع هجري ،الثالث عشر ميلادي ،فقام كل من أبو بكر ومحمد بإدارة الشركة في تلمسان وقام عبد الواحد وعلي بإدارتها في ايوالاتن وبقي الأخ الأكبر عبد الرحمن في سجلماسة للقيام على فرع الشركة فيها، فمثلت تلمسان قاعدة هذه الشركة في استقبال السلع المطلوبة في بلاد السودان الغربي وتصديرها إلى ايوالاتن، فيتم من خلالها تسويق السلع إلى كافة بلاد السودان ، وبقي الأخ الأكبر هو من يطلع على الأسواق والأسعار المتداولة للسلع فيها والتعرف على ما تحتاجه الأسواق من سلع والأكثر رواج فيها .ونتيجة لهذه الحنكة والمهارة التجارية لأفراد هذه الشركة ازدهرت أعمالهم وتضاعفت أرباحهم بشكل كبير، وكانت عائدات هذه الأرباح تقسم على الإخوة بالتساوي ، ونتيجة لهذا النجاح الذي عرفته شركة المقري توطدت علاقاتهم بحكام السودان الغربي وخاصة مع ماري جاطة الذي كان على اتصال دائم بعميد الشركة ، وهذا ما جعلها تحتكر جلب السلع الأجنبية إليه مقابل ضمان الحماية لها من طرف الحاكم ، وعن الأرباح الكبيرة التي كان ابناء المقري يجنونها من مزاولتهم للتجارة مع مملكة مالي الإسلامية يقول المقري :" فخرجت أموالهم عن الحد وكادت تفوق الحصر والعد ... "[1].

كما عرفت تجارة الثياب ازدهارا كبيرا في بلاد السودان نتيجة انتشار وكلاء التجار المصريين في مدن بلاد السودان[2]،ومن بين هؤلاء التجار محمد بن مسلم بن أحمد البالسي (ت 776ه/1374 م)[3]، وقد ارتفعت أرباح التجار المصريين وازدادت ثرواتهم[4] فأصبحوا ذوا جاه

[1]– المقري ،المصدر السابق ، ج5، ص206.

[2]– ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2،ص319 .

[3]– ابن حجر العسقلاني ،المصدر السابق ،ج5،ص26.

[4]– ابن حجر ، نفس المصدر السابق ،ص26 .

وحظوة عند ملوك السودان، إذ سجل لنا القلقشندي بيع حجر ذهبي ضخم يزن عشرين قنطار من طرف أحد ملوك بلاد السودان الغربي إلى التجار المصريين بأبخس ثمن نتيجة لقرب هؤلاء من الملك[1].

يتضح لنا مدى التطور الذي عرفته التجارة في بلاد السودان الغربي خلال العصر الوسيط والذي غذته العديد من العوامل كان أهمها الحركية الاقتصادية التي ميزت البلاد الإسلامية المجاورة لها بالإضافة للدور الذي قام به حكام بلاد السودان الغربي تهيئة الظروف لضمان سيرورة الحركية التجارية عبر الصحراء على مر السنين .

2– تطور الأسواق:

لقد تطورت العلاقات التجارية بين أقطار العالم الإسلامي وبلاد السودان الغربي بشكل كبير بين القرنين السابع والعاشر الهجري / الثالث عشر و السادس عشر ميلادي ، كما عرفت الطرق والمسالك هي الأخرى تحولا في هذه الفترة تبعا للتحولات السياسية التي عرفتها ضفتي الصحراء الكبرى مما أثر على الأسواق في بلاد السودان الغربي بدرجة خاصة فازدهرت بعض المدن وأسواقها وأفل نجم مدن أخرى . ومن خلال ذلك سنذكر أهم هذه الأسواق والمراحل التي مرت بها .

– **سوق أودغست** : تعتبر هذه المدينة من أهم مدن السودان الغربي كانت حاضرة من حواضر غانة وقد حدد موقعها البكري بقوله :" تقع بين الزنوج ومدينة سجلماسة ، وتبعد عن القيروان بمائة وعشر مراحل "[2]، وهي تبعد بحوالي 200 ميل عن عاصمة غانة وهي كان سكانها عبارة عن خليط من العرب والمغاربة وقبائل لمتونة و جدالة و صنهاجة و حتى قبائل السوننكي وبذلك كانت صلة الوصل بين العرب والبربر والزنوج [3]،ولقد عرفت هذه المدينة بنشاطها التجاري وبتطور اقتصادي منقطع النظير حيث كثر بها أرباب المال والأثرياء من جراء التجارة حيث أشار إلى ذلك البكري معبرا عن ذلك بالازدحام الذي عرفته سوقها ،حتى أن الرجل لا يسمع جليسه وأن جل مبايعاتهم كانت بالذهب [4].

---

[1]– القلقشندي ، المصدر السابق ،ج5 ،ص297 .

[2]– البكري ،المصدر السابق ،ص159 .

[3]– ياقوت الحموي ، المصدر السابق ،ج1،ص227 .

[4]– البكري ، نفس المصدر السابق ،ص 158 .

لقد كان هذا الذهب من أرقى وأجود أنواع الذهب[1] ، وقد عرفت هذه السوق بوفرة السلع الوافدة إليها من الشمال ،حيث جلب إليها القمح والتمر والزبيب، أما الحيوانات فقد كثر بها البقر والغنم فكانت تشترى عشرة أكباش بمثقال[2]، وقد وجدت الإبل و اللمط[3]، التي كانت تستخدم جلودها في العديد من الصناعات الجلدية[4].

لقد انعكس هذا الازدهار على تطور المدينة حيث تطورت بها المباني والعمران بشكل هام ، حيث ذكر صاحب الاستبصار أنها مدينة عظيمة آهلة فيها أمم لا تحصى[5] ، وبذلك فإن هذه المدينة تطورت من قرية تشمل على منازل إلى بلد قائم العمارة ومدينة كبيرة فيها أسواق عديدة في أوج قوتها خلال القرن الرابع الهجري /العاشر الميلادي، وفي الواقع كانت هذه المدينة تحافظ على توازن العلاقات التجارية بين بضائع الشمال وبضائع الجنوب وخاصة بن البضاعتين الثمينتين ذن وهما الملح والذهب .

فلا غرابة اذن أن يؤثر تحول مسلك إحدى هاتين البضاعتين في الحياة الاقتصادية للمدينة تأثيرا سلبيا وسريعا بعد القرن الرابع الهجري حيث يذكر الإدريسي والذي فرغ من التأليف سنة 548ه عن أودغست في عصره فيقول : " وهي مدينة صغيرة في صحراء ماؤها قليل وهي في ذاتها بين جبلين شبه مكة في الصفة ، وعامرها قليل ، وليس بها كبير تجارة ولأهلها جمال ومنها يتعيشون[6] فكان هذا أكبر دليل على تدهور المدينة وتقلص عمرانها خلال القرن السادس الهجري / الثاني عشر ميلادي وهذا ما يؤكد فرضية أن تدهورها كان نتيجة تدهور سجلماسة[7].

---

[1] – الهادي الدالي ، مملكة مالي الإسلامية ، ص53–54 .

[2] – البكري ، المصدر السابق ،ص158 .

[3] – اللمط : نوع من الغزلان يشبه البقر .

[4] – الهادي الدالي ، مملكة مالي ، ص53 .

[5] – مجهول ، الاستبصار في عجائب الأمصار ،تحقيق سعد زغلول عبد الحميد ، الاسكندرية ،1958 ،ص215 .

[6] – الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مج1، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ،د.ت ،ص108 .

[7] – الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية (3–4هـ/9–10 م) ، الدار التونسية للنشر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ، 1977 ، ص204 .

– سوق جني :

تقع هذه المدينة في لجنوب الغربي لمدينة تنبكت وهي تبعد عنها بحوالي 600 كلم بالتقريب، وقد اشتهرت هي الأخرى بكونها مركزا تجاريا كبيرا وازدادت أهميتها الاقتصادية مع ازدياد توافد القوافل التجارية التي تسير بين شمال الصحراء وجنوبها كما اشتهرت هي الأخرى بتجارة الملح والذهب وهذا ما ذكره السعدي فقال : " وهي سوق عظيم من أسواق المسلمين ، وفيها يلتقي أرباب الملح من معدن تغازا و أرباب الذهب من معدن بيط "[1]، وكانت جني تعج بالنشاط التجاري والأسواق طوال الأسبوع باستثناء يوم الجمعة ، فالسوق العادية كانت في سائر أيام الأسبوع أما السوق الكبير فكان يقام يوم الخميس ويعرف بالسوق الكبيرة[2].وقد أشار الحسن الوزان إلى كثرة المنتجات التي كانت تفد إليها وهي كثيرة ، وهذا دليل على كثرة التجار الذين وفدوا عليها[3]، وقد بلغت أوج تطورها وازدهارها الاقتصادي خاصة في بداية القرن التاسع الهجري / الخامس عشر ميلادي وخاصة مع فترة حكم الأسقيين بداية من عهد الأسقيا محمد الكبير (1493م–1528م)، حيث تقدمت تقدما كبيرا في المجال التجاري وكذلك في عهد الأسقيا إسحاق الأول (1539–1549م) ، والشيء الذي زادها أهمية هو موقعها حيث استفادت من النقل النهري ،حيث تم نقل الملح والذهب ، وباقي السلع بالقوارب بينها وبين تمبكتو وجاو[4].

اتسعت جني لكل الوافدين عليها من تجار وعلماء ومدرسين ودعاة وهذا ما أدى إلى ازدهار الحركة الفكرية وزاد في عظمة هذه المدينة إلى جانب مكانتها الاقتصادية .

– سوق تنبكت :

تعتبر مدينة تنبكت درة بلاد السودان الغربي لأنها حلقة الوصل بين السودان الغربي والصحراء الكبرى الافريقية ،وهي قريبة من نهر النيجر ، واغلب الآراء تشير إلى أنها تأسست في أواخر القرن الخامس الهجري / الحادي عشر ميلادي[5] ،وقد حدد الحسن الوزان موقعها حيث

---

[1]– السعدي ، المصدر السابق ، ص12 .

[2]– محمد الغربي ، المرجع السابق ،ص455 .

[3]– الحسن الوزان ، المصدر السابق ، ص162 .

[4]– الهادي الدالي ، المرجع السابق ،ص307 .

[5]– السعدي ،المصدر السابق ص20.

قال :" على بعد اثني عشر ميلا من أحد فروع النيجر "[1]، لقد جعلها موقعها على أطراف نهر النيجر هي الأخرى مركزا لكل التجار الوافدين على بلاد السودان الغربي من بلاد المغرب ومن الطوارق وتجار صنهاجة وحتى تجار مصر[2] .

ازدادت شهرة هذه المدينة في الآفاق وأصبحت قبلة لصادرات وواردات بلاد السودان الغربي حيث كانت في بداية القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي في أوج عظمتها ومجدها وعرف بعصرها الذهبي ، فكثرت بها الدكاكين والصناع ودأبت على الوصول إليها المنتجات الأوروبية عن طريق تجار بلاد المغرب ،فوفد عليها من سجلماسة و فاس والسوس و غدامس وفزان وطرابلس ،وكانوا يعودون بالذهب والرقيق وريش النعام غيرها من السلع والبضائع[3] .

لقد بلغت القوافل التي وفدت إليها من الشمال الإفريقي في سنة 751هـ/1350م اثني عشر ألف جمل [4]، ومما زاد في أهميتها كمرز تجاري وسوق كبير في بلاد السودان الغربي أنها إلى جانب كونها ملتقى الطرق البرية والنهرية ،فإنها تتحكم في أهم الطرق البرية والتي كانت كالآتي :

- الطريق من مصر والمار بكانم إلى تنبكت .
- الطريق من تونس والمار بهجار إلى تنبكت .
- الطريق من المغرب الأقصى والمار بسجلماسة وتوات إلى تنبكت .
- الطريق من تغازة والمار بولاتة إلى تنبكت .

لقد ازدهرت بها التجارة حتى أصبح تجارها يحظون بمكانة مرموقة حيث كثيرا ما كانت تحدث مصاهرات بين أمراء ها وتجارها[5] .ولم تكن تنبكت مركزا تجاريا وسوقا هاما فقط بل كانت من أكبر مراكز العلم في هذه البلاد وهذا ما ذكره السعدي بأنها ملتقى الزاهدين

---

[1]- الحسن الوزان ، نفس المصدر السابق ،ص164 .

[2]- نفسه ،ص210 .

[3]- الهادي الدالي ، نفس المرجع السابق ،ص308 .

[4]- قداح ،إفريقيا الغربية ....، المرجع السابق ،ص 55 .

5- عبد الله سالم محمد بازينة ،انتشار الاسلام في افريقيا جنوب الصحراء ،ط1 ،منشورات جامعة 7أكتوبر ،2010 ، ص143 .

والعلماء والأولياء حيث ذكر لنا العديد من علماء تنبكت[1]،كما أقيمت الفنادق والنزل بهذه المدينة كي يؤمها التجار قصد الاستراحة و الإقامة بها ،كما استقر بها الكثير من التجار المغاربة مع أسرهم وطاب لهم المقام فيها من جراء الأرباح التي جنوها من تجارتها ، فكانت عاملا آخر لازدهار المدينة وأسواقها وكثرة حوانيتها [2]، اصبحت مدينة تنبكتو أعظم مدينة على المستوى الحضاري والثقافي والعلمي في بلاد السودان الغربي ،وكثر بها شراء الكتب وهي مخطوطة ،إذ كانت تجارة رابحة وتدر أرباحا طائلة فاقت كل الأرباح في المجالات الأخرى .

وبهذا فإن تنبكتو لم تكن سوقا ومركزا تجاريا هاما فحسب بل كانت منارة من منارات العلم في بلاد السودان الغربي وهذا ما ذكره السعدي عنها في كونها تحولت إلى قبلة للعلماء والتجار[3].

- تادمكت [4]:

عرفت تادمكت بسوقها الكبير حيث أمها التجار من مختلف المناطق وقد ذكر البكري موقعها حيث قال : "...فإذا أردت من تادمكت إلى القيروان فإنك تسير في الصحراء خمسين يوما إلى وارجلان وهي سبعة حصون للبرابر أكبرها يسمى أغرم أن يكامن أي حصن العهود"[5]. واعتبر هذا الطريق من أهم الطرق التي تربط بين بلاد السودان الغربي وشمال الصحراء في القرن التاسع الميلادي /الثالث الهجري[6]، وقد ذكرها البكري حيث أشار إلى تطور تطور عمرانها حتى فاق غانة والمدن المجاورة لها كمدينة كوكو وقد أخذت هذا الاسم لأنها شبه مكة في موقعها .كما ذكر لنا أن مختلف المنتجات كانت تجلب لها وهذا ما أدى إلى

1- السعدي ،المصدر السابق ،ص20 -24 .

2- الحسن الوزان ،المصدر السابق ،ص165- 166 .

3- السعدي ،نفس المصدر السابق ،ص20.

4 - لقد ذكرها البكري فقال هي أشبه بلاد الدنيا بمكة ومعنى تادمكة هي مكة وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب ويا حسن بناء من مدينة غانة و مدينة كوكوا وال تادمكة بربر مسلمون ينتقبون كما ينتقب بربر الصحراء .ينظر : البكري، المغرب ،المصدر السابق ،ص 181 .

5- البكري ، المصدر السابق ،ص182 .

6- جودت عبد الكريم يوسف ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10 م)،د.م.ج،الجزائر ،1992،ص182 .

ازدهارها ، ولكن ما لاحظناه أن المصادر لم تصبح تولي اهتماما لذكرها وذلك بسبب تحول النشاط التجاري إلى تنبكتو مع نهاية القرن الخامس عشر ميلادي / التاسع الهجري .

– تكدا :

تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة تنبكت بحوالي أربعمائة وخمسين كيلومترا ، تحولت مختلف القوافل إليها وذلك بعد اكتشاف النحاس بها ، فعرفت بكثرة بمناجمها المنتجة لهذه المادة إلى جانب الملح والتي كانت توزع داخل بلاد السودان الغربي ، وقد تحولت إلى سوق كبير يعج بالتجار مما أدى إلى ثراء أهلها [1] .

– أقدز : (آغدس)

تحتل الجزء الشمالي الشرقي لنيامي عاصمة النيجر في الوقت الحالي وهي على مسافة 1000 كلم ، وقد تأسست في القرن 5هـ /11 م[2] ،ولقد عرفت هي الأخرى بازدهارها التجاري حيث أشار إليها الحسن الوزان بأن أغلب سكانها من التجار ،وأن أهل البلد بها قليلون ،أما مداخيلها فكان مصدرها الضرائب التي يدفعها التجار على بضائعهم ،وكانت تفد إليها البضائع من المناطق الشرقية كفزان وغدامس .أما أهم البضائع التي كانت تفد إليها فهي الذهب والبخور بالإضافة إلى العلك الذي كانت أثمانه غالية وكذا ريش النعام[3].

– سوق غاو :

تقع غاو شرق باماكو وجنوب تادمكت على منحى نهر النيجر[4]وقد ذكرت في المصادر بأسماء مختلفة على سبيل المثال : كوكو ،جوجو ....

لقد لعبت هذه المدينة دورا مهما في تاريخ بلاد السودان الغربي على المستوى السياسي في كونها أصبحت عاصمة سنغاي على عهد الأسيقيين ، ودورا اقتصاديا في كونها تحولت إلى أحد أهم المراكز التجارية في هذه البلاد ، وقد شهدت تطورا كبيرا باعتبارها تقع على نهاية الطريق الصحراوي المتجه نحو حوض النيجر ، مما سمح لها بالإشراف على الملاحة النهرية والتجارة في

---

[1]– الدالي ، المرجع السابق ،ص310 .

[2]– الحسن الوزان ، المصدر السابق ،ج2،ص117 .

[3] -Hunwick.J.D.Sounghay,Borno and Hausa Land in sixteen centruy History of Africa, ed Ajavi,J.F.A ,vol I Great britain 1976,p27.

[4]– الهادي المبروك الدالي ، المرجع السابق ،ص310 .

نفس الوقت على طول نهر النيجر باتجاه الغرب والجنوب وهذا ما جعلها محطة تفد إليها معظم القوافل والبضائع[1]. وتبعا لهذا النشاط والحركية الاقتصادية التي عرفتها غاو ازدادت ساكنتها وتطور عمرانها بسبب استقطابها للعديد من الأجناس ،حتى وصل عدد سكانها في القرن العاشر الهجري /السادس عشر ميلادي إلى أكثر من خمسة وسبعين ألف نسمة[2].

كما ارتفع عدد دكاكينها التي كانت منظمة على شاكلة الأسواق الكبرى في باقي الحواضر الإسلامية ،حيث كانت بها أجنحة متخصصة في مختلف البضائع وحتى الرقيق ،أما البضائع فكانت تصلها من المناطق الشرقية وهذا بعد المرور بتادمكة كما كانت تصلها قوافل وارجلات والمغرب وباقي الحواضر في شمال الصحراء بعد المرور على تمبكتو كذلك،ومما يجدر ذكره أن سوق غاو قد بلغ أوج ازدهاره في عهد دولة مالي ،وعرفت بكونها أحد مراكز الذهب والعبيد حيث كانت قوافل الشمال تبيع بضائعها بها وتشتري الذهب والعبيد[3].

– سوق غانة :

المراد بها هنا ليس الدولة وإنما المدينة وهذا استنادا للمصادر التي ذكرتها،حيث كانت كبيرة وهذا ماذكره البكري حيث قال:" ومدينة غانا مدينتان سهليتان أحدهما التي يسكنها المسلمون وهي مدينة فيها اثنا عشر مسجدا أحدهما يجمعون فيه ولها الايمة والمؤذنون و الراتبون وفيها فقهاء وحملة علم وحواليها أبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضراوات ومدينة الملك على ستة اميال من هذه وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة ... ".

الراجح أن كلمة غانة كانت في الأصل لقبا يلقب به ملوك هذه الإمبراطورية ثم اتسع هذا اللفظ حتى صار يطلق على العاصمة [4]، ويرجع ظهور هذه الدولة ككيان سياسي إلى القرن الرابع الميلادي[5]،فامتدت بذلك غانة من ساحل المحيط الأطلسي غربا إلى الصحراء الكبرى شمالا

[1]– محمد علي دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ،تاوالت الثقافية ،الجزائر ،ج 3 ،2010م ،ص346 .

[2]– محمد الصالح حوتية ، المرجع السابق ،ج1 ،ص169 .

[3]– مارمول كربخال ، المصدر السابق ،ج3 ،ص204 -205 .

[4]– البكري ، المصدر السابق ،ص174 .

[5]– إبراهيم علي طرخان ، امبراطورية غانة ،المرجع السابق ،ص22 .

وإلى غانة ومنطقة ونقارة شرقا وإلى نهر السنغال جنوبا ،وبالتالي ضمت معظم أراضي بلاد السودان الغربي[1].

امتد إليها الإسلام عن طريق الدعاة والتجار في بادئ الأمر ثم رسخه المرابطون بدخولهم إلى هذه البلاد عام 446هـ/1056 م وكان اقتصادها قائم على التجارة الداخلية والخارجية وفي مقدمتها تجار الذهب ، وذلك راجع لكونها تتحكم في طريق القوافل المؤدية إلى مناجم الذهب وأضحت كومبي صالح عاصمة غانة أكبر سوق للتجارة في بلاد السودان الغربي وقد استقر بها عدد كبير من التجار البيض والذين تحكموا في هذه التجارة ،وفي مقدمتها الذهب والرقيق[2] ،وقد تاجرت غانة مع جميع المدن في شمال افريقية كطرابلس و ورجلان و سجلماسة منذ القرن الرابع الهجري ،العاشر ميلادي .ومن خلالها كان تجار الشمال يتوغلون في المناطق المجاورة لها للوصول للأسواق الصغيرة المحاذية لنهر السنغال ،وقد شهدت أسواقها تنظيما محكما فيما يتعلق بالضرائب التي كانت تشكل أهم مداخيل الدولة .[3]كما أن غانة أقامت نظاما دقيقا للجمارك[4]، وقد ذكر البكري ذلك حيث قال، "ولملكهم على حمار الملح دينار ذهب في ادخاله البلد ودينارن في اخراجه وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل"[5].

لقد اعتمدت الدول الأوروبية على الذهب الذي يأتيها من غانة في العصور الوسطى وذلك قبل اكتشاف أمريكا [6]، وبذلك يمكن القول أن غانة كانت من أهم مصادر الذهب في بلاد السودان الغربي ليس لكونها بها مناجمه ولكن كانت هي التي تتحكم في طريقه،وقد حاول الكثير من التجار والمغامرين معرفة الأماكن التي يستخرج منها الذهب ولكن محاولاتهم فشلت

[1]– زبادية ، المرجع السابق ، ص17 .

[2]– الإدريسي ، المصدر السابق ، ج2،ص24.

[3]– زبادية ، المرجع السابق ، ص17 .

[4]– إبراهيم علي طرخان ، المرجع السابق ،ص67 .

[5]– البكري ، نفس المصدر السابق ،ص175 .

[6] - Basil Davidson , Old Africa Rediscovered ,Victor Gollan.CZ.Ltd, London ,1959 ,p83.

لإصرار أهل البلاد على إخفائها خوفا من النهب ، والسطو[1].وقد راجت بها تجارة الرقيق حيث كانت غانة إحدى الأسواق الكبرى التي تمد باقي الأسواق بالرقيق وهذا ما جعلها تجني أرباحا طائلة منها[2] .

– سوق ايولاتن (ولاته):

تأسست هذه المدينة بعد انهيار غانة في حدود سنة 621 هـ/1224م وهي تقع شمال غانة على طريق القوافل القادمة من سجلماسة ، على مسيرة حوالي شهرين منها[3]وهي من المدن الموريتانية وتبعد عن العاصمة نواكشوط 1350 كلم على الحدود المالية شرقا ،وقد زارها ابن بطوطة في أوائل القرن الرابع عشر في حدود 726 ه وكان معظم سكانها من مسوفة ،الذين امتهنوا مهنة مرشدي القوافل التجارية حيث أطلق عليه ابن بطوطة بالتكشيف [4] ،كماعرفوا بتقديمهم كل ما تحتاجه القوافل ،وقد استقر بها الأخوين المقري عبد الواحد وعلي[5] ، وكانت هذه المدينة سوقا عامرا يقصده التجار المغاربة ولكن و ابتداء من نهاية القرن الثامن الهجري وبداية التاسع الهجري الرابع عشر ميلادي ،وبداية القرن الخامس عشر ميلادي .أخذت في التدهور وتراجع نشاطها التجاري بشكل كبير بسبب تحول معظم التجار إلى أسواق تمبكتو وغاو، التي كانت لها علاقات تجارية معها في السابق[6].

---

[1]– لقد حاول التجار مرة أن يعرفوا مكان مناجم الذهب فقبضوا على أحد الزنوج وعذبوه حتى الموت ،إلا أنه لم يعترف وتوقفت التجارة على إثر هذا الحادث ثلاث سنوات ، ثم عادت مرة أخرى نتيجة الحاجة الملحة للزنوج للملح وباقي المواد .ينظر : إبراهيم طرخان ، نفس المرجع السابق ،ص81 .حسن إبراهيم حسن ، المرجع السابق ،ص98 .

[2]– بوفيل ، المرجع السابق ،ص 152 .

[3]– بشاري لطيفة ، التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين (13–16 م) ،رسالة ماجستير 1986–1987 م،ص66 .

[4]– ابن بطوطة / المصدر السابق،ج2،ص373 .

[5]– استقر آل المقري بتلمسان مع نهاية القرن 6ه/12م ،وبداية القرن 7ه/13م ،فتأسست شركة آل المقري التجارية بين خمسة إخوة هم عبد الرحمن ،أبو بكر ،محمد ،عبد الواحد ، علي .ينظر :المقري ،نفح الطيب ،المصدر السابق ، ج5، ص205–206 .

[6]– الوزان ،المصدر السابق ،ج2 ،ص 120 .

– توات[1]:

تقع في الجنوب الغربي من صحراء المغرب الأوسط (الجزائر) في الوقت الحالي وقد كانت من المراكز التجارية المهمة ، حيث لعب موقعها كواحة وسط الصحراء دور نقطة اتصال بين شمال الصحراء وجنوبها وخاصة بلاد السودان الغربي ،واعتبرت من بين المحطات الهامة في الطريق الرابط ببلاد السودان الغربي ، حيث كانت تتزود القوافل فيها بالماء والغذاء وكانت تعرض بها سلع القوافل[2]، وقد اكتسبت أهمية اقتصادية لاحتلالها لهذا الموقع حيث نشطت بها العديد من الأسواق[3] وظهرت العديد من الحوانيت لمختلف الحرف،وهذا ما جعلها تعج بمختلف الجاليات . وقد ذكر العياشي في رحلته لما حل بتوات على أنها ملتقى القوافل القادمة من تنبكت ومن أطراف بلاد السودان ،كما أن السلع بها رخيصة لكثرتها[4]، وهذا دليل كبير على مدى النشاط الذي كانت تعرفه حتى وإن كانت الفترة التي زارها فيها العياشي متأخرة بعض الشيء . كما أن ابن خلدون قد أشار إلى الدور الذي لعبته توات في المبادلات التجارية حيث قال :" وطن توات ... وهو بلد مستبحر في العمران وهو ركاب التجار إلى مالي وبينه وبين تغر مالي المسمى "غار المفازة المجهلة "لا يهتدي فيها للسبل ولا يمر الوارد إلا بالدليل ..."[5].

---

[1]– توات : لقد ذكرها السعدي في كتابه تاريخ السودان إذ قال: " وعلى موطن توات تخلف هناك كثير من أصحابه...." ينظر : السعدي ،المصدر السابق ،ص7 .وقد وردت عدة روايات في أصل التسمية وللمزيد من التفصيل ينظر : زينب سالمي ،الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرون 8– 10 هجرية ،مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي ،قسم التاريخ ،جامعة تلمسان ،2012 ،ص ص 7–11 .

[2]– فرج محمد فرج ،إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ،الجزائر ،المؤسسة الوطنية للكتاب، 1977 ،ص66 .

[3]– لقد ذكرت العديد من الأسواق في توات التي تظم عدة واحات ومنها برينكان (تسابيت في ولاية أدرار بالجزائر حاليا) ،وتيمي ببلدية أدرار حاليا وتمنطيط و تمادنين ،رقان ولاية أدرار حاليا ، ينظر : عبد الرحمن بعثمان ،حملة المغيلي على يهود توات وأثرها على الواقع الحرفي في المنطقة ،مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية،جامعة معسكر ،الجزائر ،العدد 4 ،جوان 2013 ،ص123 .

[4]– العياشي عبد الله بن محمد ، الرحلة العياشية 1661–1663 م،تحقيق وتقديم ،سعيد الفاضلي وسليمان القرشي ،دار ،دار السويدي ،أبوظبي ط2006،1،ص80 .

[5]– ابن خلدون ، المصدر السابق،ج7،ص 118 .

من العوامل التي ساهمت في ازدهارها هو تنوع البنية الاجتماعية بها حيث ضمت العديد من العناصر البشرية التي تعايشت مع بعضها البعض ،وهذا ما نلمسه في نوازل توات المتقدمة والمتأخرة[1] ،لأنها أشارت إلى كل ما يتعلق بحياة أهل توات وعاداتهم وممارساتهم اليومية وكيف تعايشت مختلف الفئات والطبقات الاجتماعية مع بعضها.

من خلال كل هذا تستنتج أن توات كانت هي الأخرى عامرة كباقي المناطق التي سبق وأن ذكرناها، وكيف كان للتجارة دور بارز في ازدهار هذه المنطقة حتى أن قوافل الرقيق كانت تساق إليها من بلاد السودان الغربي ومنها تساق هذه القوافل إلى كل أنحاء العالم[2].وقد نشأت العديد من المدن على الخط الرابط بين أسواق توات وأسواق تومبوكتو[3] وفي النصف الثاني من القرن التاسع الهجري / الخامس عشر ميلادي، وبعد ثورة المغيلي على يهود توات بداية من 882ه/1477 م بدأت مكانة توات تتدهور اقتصاديا[4] ،حيث بدأت الشكاوى تتزايد بسبب تعطل التجارة والصنائع التي كان يتعاطاها اليهود كصياغة الحلي الذهبية والصابون .وهذا ما

---

[1]– لقد أشارت العديد من المصادر إلى العناصر السكانية التي استقرت ببلاد توات فمنها : البربر كالزناتيين من مغراوة وبني يفرن وذلك يعود إلى القرن السادس الهجري ، وذلك بعد تغلب لمتونة عليها في بلاد المغرب ، حيث نزحت إلى المناطق الشمالية لتوات ومنها : أولاد بن عبد الجليل وأولاد عياش وأولاد بن سليمان وأولاد خير الله وأولاد واعلي البلبالي وأولاد بن يدر وأولاد بن أحسين وغيرهم .ينظر : محمد بن عبدالكريم بن عبد الحق التمنطيطي ، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام ،مخطوط بخزانة عبد الله البلبالي ،كوسام ،أدرار ،ص 07 . ومنها العرب وخاصة عرب المعقل الذين استقروا بالمنطقة ينظر :ابن خلدون ،نفس المصدر السابق ،ج6،ص78 .ومحمد بن عبد الكريم بن عبد الحق التمنطيطي ، المصدر السابق ،ص08 .كما عرفت توات توافد عناصر أخرى كالأفارقة من بلاد السودان وذلك راجع للعلاقات التجارية القائمة مع بلاد السودان الغربي، وقد تزايدت عادة جلب الزنوج إلى توات والمغرب في إطار تجارة العبيد والتي ازدهرت بعد بسط السعديين نفوذهم على بلاد السودان في عهد المنصور الذهبي سنة 999ه /1591 م،ينظر محمد رزوق ،المرجع السابق ،ص15 .أما اليهود فكانوا يشكلون جالية كبيرة في هذه المنطقة وكانت لهم يد كبيرة في انتشار العديد من الحرف التي احتكروها وحافظوا على أسرار صناعتها كالصابون إلى أن وصل بهم الحال إلى السيطرة على المنطقة ،فجاءت نهايتهم على يد المغيلي في حملته الشهيرة عليهم وطردهم من البلاد .ينظر : محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ، رسالة في الغلائف ، تحقيق وتعليق ،مبروك مقدم ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،2016 ،ص125 .

[2]– حسين مرزوقي ، المرجع السابق ،ص 135 .

[3]– من بين هذه المدن : منها أروان، وإفركان، وأرنان ،وتمساو ،وتاودين ،ووالون ،وتير شيومين ،وأقبلي.ينظر : مبخوت بودواية ، العلاقات ....،المرجع السابق ،ص304 .

[4]– عبد الرحمن بعثمان ، المرجع السابق ،ص134 .

أدى إلى ازدياد التوتر بين المغيلي وأنصار اليهود ،فتراجعت أهمية الطريق التجاري المار بتوات لصالح طريق آخر و هو طريق تنبكتو – غدامس وذلك بسبب انعدام الأمن مما زاد من مخاوف التجار على أرزاقهم وتجارتهم فاختاروا الطريق الشرقي المتوجه إلى تمبكتو عبر غدامس وقد يرجع ذلك إلى دسائس اليهود نتيجة تحكمهم في جانب كبير من التجارة المارة إلى تمبكتو [1].

بلغت تجارة القوافل ذروتها في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي زمن مملكتي سنغاي وبرنو ،حين فرض النظام واستقرت الأمور أمنيا في الصحراء ، ولكن مع الغزو المغربي لمملكة سنغاي تغيرت الأوضاع حيث تأثرت التجارة بشكل كبير بداية من القرن الحادي عشر الهجري السابع عشر الميلادي ، فهوت التجارة والزراعة وتراجعت مردود يتهما ، كما أن الأوروبيين عملوا على تحويل طريق التجارة الدولية بين الشرق الأقصى وحوض البحر الأبيض المتوسط عبر البلاد الإسلامية إلى مسلك جديد هو الطريق البحري من الهند إلى أوروبا بالمرور على رأس الرجاء الصالح باعتباره طريقا جديدا .

3 – تطور الموازين والمكاييل :

عرفت المكاييل والموازين في بلاد السودان الغربي تطورا هي الأخرى و لم تكن تختلف عن غيرها في البلاد الإسلامية وخاصة في بلاد المغرب الإسلامي .غير أن بعض المراجع ترجع تداول الموازين والمقاييس إلى التأثير المغربي ،لكن الراجح أن هذه المقاييس تم تداولها حتى عند التجار الوافدين من باقي البلاد الإسلامية .وبغض النظر عن ذلك فإن المقاييس المتداولة عند أهل السودان كانت على الشكل التالي :

أ– المقاييس :

– **الشبر** : فهو يساوي امتداد بين الخنصر والإبهام مع فتح الكف حيث قدر ب21.5 سم وقد كان يستعمل لقياس القماش[2].

– **الذراع** : أستخدم في القياسات الصغيرة وهو الامتداد بين عقدة المرفق ونهاية الوسطى ويساوي حوالي 50 سم تقريبا[3]. واستخدم هو الآخر في قياس الأقمشة والحيطان[4] .

---

[1]– ولد السالم حماه الله ،تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية ،منشورات الزمن ، الدار البيضاء ،2007 ،ص128 .

[2] -Rymond Mauny Op,Cit, p412 .

[3]– باي بن عمر ،مخطوط النوازل ،ورقة 237 ،لقد ذكر الذراع في عمق القبر .

[4]– الشيخ الأمين عوض الله ، المرجع السابق ،ص92.

– **الميل** :كان لقياس المسافات وقد قدر ب 1920 متر تقريبا[1].

– **الفرسخ** : وكانت تقاس به المسافات الطويلة وهو يساوي ثلاث أميال[2].

– **المرحلة** : وهي المسافة التي يقطعها المسافر في اليوم على ظهر الدابة ، حيث كثيرا ما تم تداولها في كتب الرحالة وخاصة في الحديث عن سير القوافل[3].

ب– المكاييل :

لم تكن مختلفة عن غيرها في باقي البلاد الإسلامية هي الأخرى وكانت على الشكل التالي:

– **المد** : كان مقدر أربع حفنات بجمع اليدين وقد قدر ب0.75 سلتر، بالتقريب[4]،وكان يستعمل لكيل التمر والحبوب ويكثر استعماله عند إخراج الزكاة صبيحة عيد الفطر[5].

– **الصاع** : ويساوي أربعة أضعاف المد وهذا ما يعادل ثلاث كيلوغرامات[6]،وكان يستعمل يستعمل لكيل الحبوب ويختلف حجم الصاع الشرعي في الكيل التجاري من مكان لآخر .

– **القنطار** : مقداره مائة رطل[7]، والرطل كان يوجد بعدة أنواع بحسب نوع المادة الموزونة، فهناك الرطل العطاري و هو يستعمل لوزن الذهب والمواد الثمينة ،والرطل السوقي لوزن المواد الغذائية، وكان القنطار يساوي في بلاد السودان الغربي 1600 أوقية[8].

---

[1]– زبادية ، مملكة سنغاي .... ، المرجع السابق ،ص198.

[2]– زبادية ، نفس المرجع السابق ،ص 199 .

[3]– بول مارتي ، كنتة الشرقيون ـــتعريب وتعليق ،محمد محمود ولد ودادي ،نواكشوط ،موريتانيا ،د ت ،ص168 . لقد ذكرت هذه المقاييس في العديد من المصادر السودانية ولكن دون تحديد وذكر المقادير فكانت هذه القياسات من اجتهادات الكتاب الغرب .

[4]- Mauny , op, cit.p412.

[5]– خير الدين شترة ، المبادلات التجارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي والسودان الغربي ،دورية كان التاريخية ،العدد 33،سبتمبر 2016 م، مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر ،القاهرة ،ص45 .

[6]– باي بن عمر ،مخطوط النوازل ،ورقة 289 .

[7]– زبادية ، مملكة سنغاي ، المرجع السابق ،ص199 . الهادي مبروك ،التاريخ السياسي ، المرجع السابق ،ص337 .

[8]– لقد أجمع العلماء على أن الأوقية تساوي أربعين درهما بالوزن الشرعي .ينظر : علي جمعة ،المكاييل والموازين الشرعية الشرعية ،ط2،دار الرسالة ،القاهرة ،2009 م، ص15 .

– **المودي** : وهو يساوي ما يحمله العبد أو الرجل من حبوب أو غيرها في كيس وغالبا ما كان يصنع من الجلد ، وقد ذكره محمود كعت وهذا ما يدل على استعماله في بلاد السودان[1].

ج – **الموازين** : من الموازين التي كان متعارف عليها وكثيرا ما وجدناها في مصادر بلاد السودان هي موازين الذهب خاصة وباقي الأشياء التي كان لها قيمة مشابهة للذهب كانت توزن بموازين الذهب وعلى هذا النحو كانت الموازين كما يلي :

– **المثقال** : كان يساوي 96 حبة من القمح وقد ذكر لنا زبادية نقلا عن بارت في كتابه الرحلة أنه زار بلاد السودان الغربي في القرن التاسع عشر حيث وجد المثقال مازال شائع الاستعمال في تمبكتو وهذا ما يؤكد أن المثقال في القرن السادس عشر كان بوزن أربعة غرامات[2] .

– **القيراط** : يقرب وزنه ثلاث حبات من القمح ،وقيل ثلاث حبات من الشعير وهو واحد من أربعة وعشرون من المثقال وكان قليل الاستعمال بسبب الدقة التي يتميز بها ومن جهة أخرى أن المعادن النفيسة كانت متوفرة[3] .

– **الأوقية** : كانت تساوي حوالي 27.5 غراما.[4]

وقد ذكرت موازين أخرى استعملها الأساقي في سنغاي في وزن الحبوب ،وأخرى لوزن الملح والتمر[5] ، أما معيار قياس الأغنام فعرفت بالدوسة حيث ذكرت في عهد أسكيا الأمين بن داوود حين كانت يذبح للفقراء ثماني دواس وقدرت بعشرين رأس من الغنم [6]أما في الأسماك المجففة فعرفت بالحزمة[7].

لقد استعملت الكثير من المعايير في بلاد السودان الغربي حيث وجدت العديد من العينات الأثرية في عدة مدن من هذه البلاد ، وهي مصنوعة من النحاس أو الزجاج أو الرصاص أو

---

[1]– كعت ، المصدر السابق ،ص249 .

[2]– زبادي ،نفس المرجع السابق ،ص200 .

[3]– جعفري مبارك ، المرجع السابق ،ص378 .

[4] - Mauny, op.cit.430.

[5]– كان الأسكيا داوود يستعمل الصنية لوزن الحبوب التي يجنيها ،كما استعملت اللمكية لوزن الملح والحمل لوزن التمر، التمر، ينظر كعت ،المصدر السابق ،ص 56-68-94-96-106 .

[6]– السعدي ،المصدر السابق ،ص312 .

[7]– كعت ،المصدر السابق ،ص57 .

الحجر أما أشكالها فلم تكن على قدر كبير من الدقة وهذا ما يشكك في مدى مراقبة السلطة لها وهذا ما يتعلق بوظيفة المحتسب[1] والذي عرف في هذه البلاد وسائر بلاد المغرب والأندلس باسم صاحب السوق والذي كانت مهمته مراقبة الأسواق والإشراف عليها ومراقبة الموازين والأسعار، وكذا مراقبة أصحاب الحرف والصنائع المختلفة .كما كانت توكل له مهام أخرى كالإشراف على الآداب العامة كالسكر والكلام البذيء ،والتبرج وكل ما يسيء بأخلاق المجتمع .

[1]– لقد ذكر موني أنه وجدت بعض العينات في مدينة غاو وقد صنعت من مواد مختلفة ، أما مدى دقة صنعها واحترامها لمقاييس معينة فقد كان يدل ربما على عدم مراقبة السلطة المخولة بذلك . ينظر : . Mauny,R,op,cit,p289

ثانيا : التطور الصناعي الحرفي

كلما تطورت المجتمعات واختلطت الشعوب ، تزايدت الحاجة إلى تعلم المزيد من الصنائع والحرف وكان ذلك ديدن شعوب بلاد السودان الغربي ، حيث سعت هذه الشعوب إلى إيجاد الوسائل الكفيلة بتوفير متطلبات العيش

1– الصناعات الحرفية :

ظلت الصناعات الحرفية المتوفرة في بلاد السودان الغربي جد بسيطة ، وكانت مهن النشاط الصناعي هي أقرب إلى الحرف التي انتشرت في كامل أرجاء بلاد السودان الغربي ، ومن أشهر المراكز الصناعية مدينة تمبكتو حيث غلب على منتجاتها الطابع النفعي ،والتوظيف المترلي ماعدا بعض المنتجات الحرفية والتي لها طابع فني حيث قال الأروابي : " أهل تنبكت ليسوا بأهل حراثة ولكنهم أهل صناعة كالخياطة والنجارة والحدادة والجزارة والدبغ وصناعة الذهب والفضة وغير ذلك ولهم عقول راجحة لا يأتيهم شيء في الأكثر إلا صنع مثله وأهل الحراثة إنما هم السودان من غيرهم ممن يلوذ بهم من القريات ، ويأتيهم من القريات القريبة منهم القمح والأرز والذرة والدخن ...ويأتيهم الحوت الطري واليابس ..."[1].

لقد أشارت المصادر وعلى رأسها الفتاش على وجود مراكز للتكوين كان يشرف عليها القضاة يتم فيها تعليم الشباب ،خاصة في مجال الخياطة كانت تعرف بتندي وكان على رأس كل دار معلم يشرف على حوالي خمسين متعلما[2]، وغالبا ما ارتبطت الصناعات بالمواد الأولية المتوفرة في بلاد السودان سواء كانت نباتية أو حيوانية، لذلك نجد أن كثرة النباتات والأشجار التي تمتد على طول ضفاف أنهار هذه البلاد سمح بقيام العديد من الحرف كصناعة السفن الصغيرة والكبيرة[3]، ومما تجدر الإشارة إليه هو انتشار ظاهرة القطع الكبير للأشجار مما تحول إلى خطر هدد البلاد وهذا ما استدعى تدخل الفقهاء وبعض العقال حيث فرضت الغرامات الباهظة على من يفعل ذلك وهذا ما ذكرته بعض النوازل الفقهية[4].

---

[1]– الأروابي ،أحمد بابير ، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية ، دراسة وتحقيق الهادي المبروك الدالي، ط1، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ، ليبيا ،2001م ،ص77 .

[2]–كعت ،المصدر السابق ، ص180 .

[3]– الهادي المبروك ، المرجع السابق ،293 .

[4]– فرح سعد ، المرجع السابق ،ص179 .

كما أشار الإدريسي إلى ذلك ومدى اعتمادهم على النباتات حيث قال : " وأسلحة هذه البلاد القسي والنشابات وعليها عمدتهم والدبابيس أيضا من أسلحتهم يتخذونها من شجر الأبنوس ولهم فيها حكمة وصناعة متقنة وأما قسيهم فإنها من القصب الشركي وسهامهم منه وكذلك أوتارهم من القصب ..." [1] .

بالإضافة إلى ذلك سجلت لنا العديد من المصادر انتشار صناعة الأقمشة القطنية في بلاد السودان الغربي حيث كان تجار بلاد المغرب يأتون بالثياب القطنية لتستبدل بالثياب الأوروبية[2] وقد عمل حاكم دولة مالي ماري جاطة (628-648ه/1230-1250م) على توريث المهن من الآباء إلى الأبناء وهذا قصد استمرار المهن والحرف من جيل إلى جيل حتى أن بعض المهن أصبحت تتخصص فيها بعض القبائل دون غيرها منها قبائل السوننك و التكرور التي تخصصت في المنسوجات المصبوغة بمختلف الألوان وهذا بالاعتماد على بعض النباتات[3]،كل ذلك ساهم ازدهارهذه الصناعات بشكل كبير مع حلول القرن الثامن الهجري /الرابع عشر ميلادي .

لقد استغل أهل السودان الغربي الثروة الحيوانية المتوفرة لديهم فيما تجوده عليهم من أوبارها وأصوافها و ألبانها وجلودها في قيام عدة حرف كدباغة الجلود وصناعة الأحذية حيث كانت من السلع الرائجة آنذاك في مدن بلاد السودان كتنبكت وغاو وغيرها من المدن التجارية التي سبق وأن أشرنا إليها .

إن التطور الذي عرفته بلاد السودان في المجال الصناعي خلال الفترة الوسيطة ،جعل فئةأصحاب الحرف والصنائع تتبوأ مكانة مرموقة لا تقل أهمية عن التجار، وذلك لأنها عرفت هي الأخرى تنظيما محكما من طرف السلطات الحاكمة حيث أصبح لكل طائفة رئيسا معين من طرف السلطان وهذا ما يعرف بأمين الصنعة وهو المسؤول على كل صنعة حتى، أنها أصبحت تضم أحياء بكاملها وقد سماها كعت بيوت أصحاب المهن كبيوت الخياطين في

[1]– الإدريسي ، المصدر السابق ،مج1،ص20 .

[2]– لقد ذكر البكري أن الكثير من أهل السودان الغربي كانوا يحيكون الثياب من القطن من أجل المزيد ينظر : البكري ، المصدر السابق ،ج2،ص869.وينظر كذلك: مارمول كربخال ،المصدر السابق ،ج3،ص202 .

[3]– نياني،جبريل ، مالي والتوسع الثاني للماندنغ ، تاريخ أفريقيا العام ،مج4،اليونسكو،1988م،ص146 .

تمبوكتو.[1] ونجد أن الوزان هو الآخر أشار إلى هذه الظاهرة في زيارته لمملكة صنغاي في عهد الأسكيا محمد الكبير مع بداية القرن العاشر الهجري/السادس عشر ميلادي حيث اشار إلى كثرة دكاكين الحياكة في مجال القطن [2].

2–التعدين والتصنيع :

نتيجة لوفرة العديد من المعادن في بلاد السودان الغربي انتشرت عدة صناعات تعدينية وتطورت بشكل كبير وفي مقدمتها الحدادة أو فئة الحدادين التي شهدت هي الأخرى اهتمام الحكام بها وأصبحت هي الأخرى خاصة بعض القبائل السودانية كعرب الشوا [3] ، وقد لعبت فئة الحدادين دورا كبيرا في تطور الزراعة من خلال صناعة الآلات الزراعية والتي أعطت دفعا قويا للإنتاج الزراعي في هذه البلاد .

لقد اكتشفت بقايا مائة فرن وآلاف الأطنان من البقايا في جنوب غرب بلاد الهوسا (نيجيريا حاليا)في ثلاثينات القرن الماضي ،وهذا دليل واضح على تخصص قرى بأكملها في التعدين ،كما تمركزت هذه الصناعة في المناطق الكثيفة بالغابات بسبب الحاجة الماسة للخشب قصد صنع الفحم النباتي المستخدم في الأفران ،أما الحديد الخام فيتم إنتاجه باستخراج كتل من حجر الحديد وتسخينها بمساعدة منفاخ في فرن من الصلصال يوقد بالفحم النباتي[4]، ولقد استمرت هذه التقنيات حتى بداية القرن التاسع عشر ميلادي .وكان الحديد الخام يجلب من طرف التجار أو الحدادين أنفسهم كانوا يجلبونه من مراكز التعدين .

كثرت الصناعات المعتمدة على مادة الحديد بشكل كبير حتى أن محترفيه في دكاكينهم كانت تسمع لهم جلبة بالسوق من جراء الطرق الذي يباشرونه على حديدهم، بعد أن يشبعونه تسخينا حتى الاحمرار[5].

أما الذهب وكما اشرنا فقد تم استخراجه منذ الألفية الأولى ولكن عرفت طرق استخراجه تطورا ملحوظا بداية من القرن السابع الهجري الثالث عشر ميلادي بعدما كانت بدائية ،حيث

---

[1]– كعت ، المصدر السابق ،ص180.

[2]– الوزان ، المصدر السابق ،ج2،ص537.

[3] - Triminghame,J.S ,Islam in west Africa,p17.

[4]– هوبكنز ،المرجع السابق ،ص87.

[5]– زبادية ، مملكة سنغاي ...، المرجع السابق ،ص193.

شرع في استخدام الزئبق حيث يتجمع التبر حول هذه المادة ويعلق بها في الحفر التي تحفر لهذا الغرض وهذا ما يسهل عملية استخراجه والتي كانت في نفس الوقت تتطلب يد عاملة ماهرة جلها من العبيد [1]،أمام هذا التطور في استخراج التبر ازدهرت صناعة صياغة الذهب واستخراجها لم يكن فقط بهذه الطريقة وإنما استمر بالطرق القديمة المعقدة والتي تتطلب جهدا كبيرا ووقتا أطول،فكان التبر يطرق أو يغسل ويغربل و يعبأ تبرا ليصهر هو الآخر ويتم تحويله إلى قضبان أو أسلاك .

كانت صناعة المجوهرات تعتمد على الذهب والنحاس إلى جانب أدوات أخرى، ليختص بهذه الصناعة صناع لا يباشرها غيرهم .وبسبب هذه المادة الثمينة التي اشتهرت بها بلاد السودان الغربي وثراء ملوكها ورحلاتهم الشهيرة إلى الحج جعل البلاد تتعرض إلى أطماع الطامعين من دول الجوار كتعرضها للغزو السعدي كما أسلفنا الذكر، وأطماع الاستعمار الأوروبي بداية من القرن السابع عشر ميلادي قصد الحصول على كنوز بلاد السودان ،أما تعدين النحاس فقد تحسنت عملية تعدينه وذلك من خلال خلطه بالقصدير أو الزنك قصد تقويته لصناعة التحف والأواني والحلي، إلى جانب استعماله في صناعة العملة هو الآخر[2].

3– صناعة الفخار والبناء :

ازدهرت صناعة الفخار هي الأخرى وأدخلت عليها العديد من التحسينات بسبب الأواني الفخارية الباهظة الثمن التي تجلب من طرف التجار من الشرق خاصة ، وقد عثر على العديد من الجرار وأواني الشرب والأكل وحتى ألعاب الأطفال المنقوشة و المزخرفة بألوان زاهية متناهية الدقة[3]،كما ازدهرت صناعة الطوب الذي كان يختار له نوع خاص من التربة وبعد تجفيفها تشوى لتزدادة صلابته ومقاومته للعوامل الطبيعية ،ومعظم مساجد غاو و تمبكتو مبنية بها ومازالت باقية إلى يومنا هذا .

وفي هذا الصدد يسوقنا الحديث إلى البناء الذي تطور بشكل كبير ومهم وتجلى ذلك في فن العمارة في حواضر السودان الغربي الذي تأثر بشكل كبير بسبب الوافدين إلى هذه البلاد

---

[1]– الملاح ، المرجع السابق ،ص245 .

[2]– زبادية ،مملكة سنغاي ،المرجع السابق ،ص190.

[3]– زبادية ، نفسه،ص193.

والذين أدخلوا تقنيات حديثة وأساليب جديدة على بناء المدن والقصور وأساليب بناء مساجد تمبكتو دليل على مدى التحول في الهندسة المعمارية التي عرفتها هذه البلاد وسبق أن أشرنا إلى دور الساحلي في الثورة العمرانية في السودان الغربي .حيث أصبحت مدن بلاد السودان لا تقل أهمية عن باقي مدن وحواضر العالم الإسلامي شرقا و غربا .

ثالثا: تطور النشاط الزراعي

1– تطور مهنة الفلاحة :

طورت فئة الفلاحين وتم إدخال العديد من الأساليب في استغلال الأرض كاستخدام المحراث كأداة جديدة[1]وأصبح من حق كل فرد استصلح أرضا أن يمتلكها فتحول القن إلى مالك للأرض ونظمت ملكية الأراضي بالنسبة لأهل الذمة وذلك من خلال فرض الخراج ونجد ذلك على سبيل المثال : نازلة يهود توات عند شراء بعض يهود توات أرضا من مسلم وهي جزء من بستانه[2]. وظهرت العديد من القوانين والتشريعات التي تنظم ملكية الأراضي وحقوق الفلاحين، مما زاد في استقرار هذه الفئة ومزاولتها لتربية الماشية والتي ساهمت هي الأخرى في تنمية اقتصاد البلاد .

من خلال تطور العلاقات التجارية والثقافية بين بلاد السودان وباقي الأقطار الإسلامية وخاصة مع بلاد المغرب ومصر أدخلت أساليب زراعية جديدة ،فاختيرت الأنواع المناسبة من الحبوب لمختلف الأراضي ،كما أستخدم السماد لتخصيب التربة من فضلات الحيوانات ورماد الأشجار المحروقة [3]، كما أصبحت الأراضي تترك لمدة ستة على الأقل لتستعيد خصوبتها وهو النظام المعمول به آنذاك في باقي البلاد الإسلامية .وكان القليل من العامة يمتلكون أراضي خاصة بهم فالقسم الأكبر كان يعود للملوك والأغنياء والذين يشغلون أعداد كبيرة من العبيد في أراضيهم ،ووصل الحد إلى أن قبائل بأكملها كانت تعمل في أراضي السلاطين[4].

2– التنوع الزراعي وطرق استغلاله :

---

[1]– زبادية ،مملكة سنغاي ،المرجع السابق ،ص172.

[2]– تتعلق هده النازلة بالأراضي الخراجية والدور الذي تلعبه في اقتصاد الدولة .للمزيد من التفصيل ينظر : مبروك مقدم ،رسالة في الغلائف للإمام محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،2016،ص158.

[3]–دريد عبد القادر نوري ،المرجع السابق ،ص102 . نعيم قداح ، أفريقيا الغربية ،المرجع السابق ،ص120.

[4]– سيسوكو ،الصنغي ،مج4،ص214 .

عرفت بلاد السودان الغربي العديد من المحاصيل الزراعية وقد سبق وأن ذكرناها والشيء الذي تتفق عليه كتابات الرحالة والمؤرخين هو وفرة المحاصيل التي كانت تسد حاجة البلاد من الغذاء كالدخن والأرز و السورجو والقطن مع إدخال بعض المحاصيل كاللوبيا والبصل والثوم والباذنجان التي وصلت إليهم من مصر[1] والذرى دخلت زراعته من المغرب [2].

كما طورت بعض الزراعات والتي كانت صناعية كالقطن والكتان وقصب السكر والحناء والتبغ والذي انتشر في بلاد السودان الغربي وقد تباينت آراء المؤرخين المغاربة حول انتشار هذه الزراعة وتعاطي أهل هذه البلاد لهذه المادة وهو مايسمى بشرب الدخان حيث يرجعها محمد حجي في كتابه الحركة لفكرية بالمغرب في عهد السعديين ، لحركة الكشوفات الجغرافية وأن أول من تحدث عن تدخين التبغ هو كريستوف كولومبس في رحلته الشهيرة إلى العالم الجديد في أواخر القرن الخامس عشر للميلاد [3]، وأن الانجليز هم أول من شربوا دخان التبغ بعد أن جلبوه من أمريكا في النصف الثاني من القرن السادس عشر وتفننوا في صنعه ،

وذكر في هذا الصدد أن تدخين التبغ دخل إلى إفريقيا السوداء عن طريق الأوروبيين وقد وصلت إلى تمبكتو في مستهل القرن الحادي عشر هجري وأواخر القرن السادس عشر ميلادي، وهذا ما أكدته البحوث الأثرية التي أقيمت في المنطقة حيث عثر على قطع التبغ بين الرمال في تمبكتو ووجدت أجزاء من أنابيب التبغ في منطقة القصبة المغربية بالقرب من مسجد سنكري يرجع تاريخها إلى سنة 100 ه/1591م ، وقد انتشر تعاطيها تبعا وبشكل كبير في السنوات التالية في بلاد المغرب الأقصى ومدن السودان الغربي ولكن مصادر أخرى تؤكد على أن حملة المنصور السعدي على بلاد السودان الغربي ،حملت معها هذه الظاهرة إذ كان جند المنصور يشربون الدخان ويدعون بان بها عدة منافع[4] .

---

[1]– العمري ، مسالك الأبصار ، المصدر السابق ،ص63.

[2]– مجهول ،الاستبصار ،ص215 .

[3]– حجي محمد ، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ،ج1،منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ، الرباط ،1977،ص246 .

[4]– لقد وافق هذا الرأي اليفريني إذ يقول :" وفي عام واحد وألف أتى بالفيلة من بلاد السودان للمنصور وكان يوم مراكش يوما مشهودا برز فيه كل من في المدينة لرؤيتها من رجال ونساء وصبية وشيوخ في رمضان عام سبعة وألف حملت لفاس أيضا وبسبب دخول هذه الفيلة للمغرب ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة تبغة لأن السودان قدموا=

لم تشر المصادر إلى حجم هذه المحاصيل وخاصة التي كانت تسوق في الأسواق أو تصدر إلى خارج البلاد كما لم تشر المصادر إلى دور الحكومات في بلاد السودان الغربي وسعيها في تطوير الزراعة و إنما بقيت مجهودات فردية للمزارعين جراء التواصل الحاصل آنذاك بين هذه البلاد وباقي البلاد الإسلامية .وظلت الزراعة أكثر الأنشطة التي يعيش عليها السواد الكبير من السكان وخاصة على ضفاف الأودية التي تمثل المصدر الأساسي لكل الزراعات وهو الماء ، ومازالت كذلك إلى يومنا هذا .

3– الثروة الحيوانية :

استأنس أهل السودان الغربي العديد من الحيوانات واستعانوا بها في حياتهم اليومية كما استفادوا من الحيوانات البرية التي كانت تعيش في أراضيهم ،ولكن ما يهمنا هو أن سكان هذه البلاد استثمروا في الثروة الحيوانية التي امتلكوها والتي ازدادت أهميتها عندهم خاصة في معاشهم وخاصة قطعان الأبقار التي تميزت عن غيرها في باقي البلاد الإسلامية بصغر أحجامها وبعدها تأتي الأغنام والمعز وفي المرتبة الأخيرة الحمير والبغال والخيول بدرجة أقل لغلاء أثمانها مما جعلها تقتصر على الفئات الغنية، وخاصة عند ملوك السودان الغربي الذين حرصوا على شراء الخيول الأصيلة التي كان يجلبها التجار المغاربة .

وقد عرفت قبائل الفلان خاصة بتربية الحيوانات واشتهرت عدة مدن بالثروة الحيوانية كمدينة كوكو وأقدز وكوبر. .كما شكلت تربية الإبل تحولا مهما في تاريخ بلاد السودان الغربي باعتبارها أحد أهم المصادر الغذائية لسكان هذه البلاد فاستفادوا من لحومها وألبانها وأوبارها وجلودها، والتي كانت تساعد على اقتناء المواد الغذائية الأساسية كالملح [1]، ومصدرا مهما لبعض الصناعات الأساسية في بلاد السودان كالصناعة الجلدية واستخدمت كذلك في صناعة البيوت وهنا نقصد الخيام التي كانت تصنع من أوبار الإبل وشعور الماعز[2]،وشكلت

=يسوقون الفيلة قدموا يشربونها ويزعمون أن فيها منافع فشاعت في درة ومراكش وغيرهما من بقاع المغرب وتعارضت فيها فتوى العلماء رضوان الله عليهم من لدن ظهورها ،فمن قائل بالتحريم ومن قائل بالتحليل والعلم فيها عند الله تعالى .ينظر : اليفريني ، المصدر السابق ،ص162 .

[1]– سينيكي مودي سيسوكو ، الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر ، موسوعة تاريخ إفريقيا العام ، ج4، ص214 .

[2]– الهادي المبروك الدالي ،التاريخ السياسي ...، المرجع السابق ،ص277 .

الإبل أهم وسيلة لنقل البضائع عبر الصحراء فقد كانت القوافل تتجهز بالإبل وذلك لخصوصية هذا الحيوان المقاومة للمناخ الجاف الصعب .كما استخدم أهل السودان الغربي هذه الحيوانات في خدمة الأرض كالحرث و الحصاد .[1]

رابعا : الأنظمة المالية :

لقد حظي العرب المسلمون بالثقة الكبيرة من طرف حكام بلاد السودان الغربي وذلك ما جعلهم يسندون المهام والوظائف المالية وخاصة أمين بيت المال إلى هذه الفئة من المجتمع السوداني والتي كان أغلبها وافد على هذه البلاد [2] وقد بدأ هذا الاهتمام مع دولة غانة الإسلامية، كما أسندت لهم مهمة الإشراف على عمال الجباية [3].وقد استخدم ملوك السودان الغربي العديد من الأنظمة المالية قصد تدعيم موارد دولهم المالية فكانت على النحو التالي :

1– جباية الأراضي الزراعية :(الأراضي الخراجية)

عمل ملوك بلاد السودان الغربي على استحداث نظام الأراضي الخراجية وهو نوع من ملكية الراضي قريب من جعل ملكية الأراضي ملكية عامة كأراضي التي تغنم في الحرب عنوة ، وقد سجل لنا كعت ما يشير إلى ذلك من خراج المقاسمة في عهد مملكة سنغاي على عهد الأسكيا داود فيقول :" أن له حرثا في أرض دند يقال له أبدا وله على ذلك الحرث مائتا عبد وأربع من الفناني ولهم رئيس يقفون عليه اسمه مَسَكِلِ الله[4] .... ويحصد له من هذه المزرعة ألف صنون[5] من الأرز. وهذا علي مقطوع لا يزيد و لا ينقص ... وقد أرسل إلى رئيسهم مسكل

---

[1]– الهادي المبروك الدالي ، نفس المرجع السابق ،ص280.

[2]– البكري ، المصدر السابق ،ج2،ص872 .

[3]– عمر صالح الفانوس ، دور الحكام السودانيين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ،رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، كلية الآداب ،جامعة بغداد ،2002.ص139 .

[4]– شرحها وعرفها كعت بأنها تعني : كل أمر كان ويكون من كل ما هو كائن في الدنيا والآخرة ،الله هو مقدره ومكونه سبحانه لا إله إلا هو .ومعناها العام هي أن الله وحده هو المالك .ينظر : كعت ،نفس المصدر السابق ،ص205 .

[5]– صنون جمع الصنيه وهي مكيال جلدي وألف صنيه تساوي مائتي طن . ينظر: موسى عز الدين عمر ،قراءة جديدة في أسباب سقوط دولة السنغاي ، مجلة بحوث تاريخية ، الإصدار الثاني، الرياض ،1419 هـ/1999 م،ص86 .

الله يعلمونه بوصول وقت حصاد حرثهم ،وهم لا يدخلون اليد في قطعة حتى يأتي وينظرها ثم يأمرهم بالحصاد "[1].

في نفس الصدد يشير السعدي إلى وجود هذه الأراضي الخراجية في مملكة سنغاي[2] وقد عمل بهذا النمط من الخراج حتى في السودان الأوسط في بلاد الهوسا. وفي نفس المملكة وهي سنغاي أشار كعت إلى و جود بعض الأراضي الزراعية كانت محاصيلها تقسم على أفراد الجيش لينتفعوا بها[3] .

2– ضريبة العشر على الأراضي (الأراضي العشرية):

أخذت هذه الأراضي تسميتها من مقدار الضريبة التي كانت تفرض عليها[4] وهي الأراضي التي يقوم أصحابها بدفع ضريبة العشر على أنواع محددة من الزروع والثمار[5].وقد اعتمدت ممالك السودان الغربي على فرض ضرائب العشر على العديد من المحاصيل في هذه الأراضي لتغطية نفقات البلاد [6]، قد أشارت العديد من الدراسات إلى أن هذا النظام كان معمول به في في أغلب الأراضي إذ كان معظم الفلاحين في بلاد السودان الغربي يدفعون عشر منتجاتهم أو دخلهم [7] .

---

[1]– كعت ، المصدر السابق ،ص205.

[2]– يذكر السعدي أن سلطان سنغاي بعث بكتاب إلى أحد القادة وهو علي بن عبد الله التلمساني فأعطاه بلد" تندرم" لينتفع بما يخرج من الخراج.ينظر : السعدي ، المصدر السابق ،ص192 .

[3]– كان هذا النظام معمولا به في عهد مملكة مالي الإسلامية وبقي معمولا بها مع الأساكي في دولة سنغاي . ينظر: كعت ، نفس المصدر السابق ، ص155 .

[4]– الكبيسي حمدان عبد المجيد ، الخراج أحكامه ومقاديره ،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي ،مطبعة جامعة بغداد، 1412 هـ /1991،ص41.

[5]– الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ،بيروت ،1978 ،ص ص146-147 .

[6] -Trimingham ,op ,cit,p80.

[7]– الوزان ، المصدر السابق ، ص554 .نعيم قداح ،إفريقيا الغربية ،المرجع السابق ،ص118 .

3– الإقطاعات[1]:

عمل الكثير من حكام السودان الغربي على اقتطاع أراضي لبعض الأمراء وكبار الضباط وحتى العلماء ،وقد قام بها ملوك مالي الإسلامية ونفس الشيء قام به ملوك سنغاي ولم يقتصر على الأمراء وقادة الجيش أو كبراء القبائل بل تعداها لتكون حتى للعلماء وهذا دليل على تبجيل الحكام للعلماء والمشايخ .وفي هذا الشأن أشار كعت إلى ذلك بقوله " وأقطع الأسكيا الحاج محمد لأحد المشايخ مزرعة في أرض "يون" ،كما أقطع الأسكيا لبعض العلماء مزارع الأرز[2] .وقد سجلت لنا المصادر حادثة مشابهة ولها علاقة بمنح الأسكيا امتيازات وذلك أثناء مقدم ابن أخ الشريف الحسني العباسي في مكة سنة (925ه/1519 م) إلى تمبكتو وهو الشريف أحمد الصقلي الذي كانت بغداد دار إقامته وقد صادف وأن كان الأسكيا بغاو فخرج لملاقاة هذا العالم في مدينة تمبكتو، فاستقبله ومنح له بعض الامتيازات منها مائة ألف دينار وخمسمائة خادم ومائة من الإبل ومنحه بعض الضياع [3]،وكانت هذه الأراضي ملكا للدولة يمكن التصرف فيها من طرف الملوك خاصة .كما كتب له وثيقة تنص على منحه الكثير من الامتيازات[4].

كانت هذه الاقتطاعات والامتيازات التي منحت من طرف ملوك السودان الغربي إلى العلماء والسادات وكبار الجيش بمثابة إحداث طبقة جديدة في المجتمع السوداني من خلال ما سينعكس على أصحابها من ثروة ، كما أنها ساهمت في زيادة مداخيل البلاد من جراء ما تنتجه أراضيها وما يعيل الكثير من الأسر .

---

[1] – الإقطاع : هو نظام يقوم على العلاقة بين السادة ونوابهم ، ويقضي بأن يملّك الأولون الآخرين قطائعا من الأرض على سبيل المنحة لهم ولأولادهم ، وكل نظام يمكّن المالك من أن يتحكم في الأرض ومن فيها من الناس .ينظر : أنيس إبراهيم ،المعجم الوسيط ،ج2 ، تح: حسن علي عطية ،محمد شوقي أمين ،ط2 ، القاهرة ،مصر ،ص744 .

[2] – كعت ، المصدر السابق ، ص245 .

[3] – كعت ، نفس المصدر السابق ،ص 103.

[4] – لقد أشار كعت إلى ذلك بقوله :"ثم أمر كاتبه علي بن عبد الله أن يكتب وثيقة في ذلك معلما كل واقف عليه من الولاة و القضاة والسادات أن لا يتعرضوا له ولا لرهطه الذين جاءوا معه و لأزواجهم و ذريا تهم في شيء من أمور السلطنة ولو ضيافة ، ولهم شفاعة في كل شيء،إلا النفس التي حرم الله ...."ينظر : كعت ، المصدر نفسه،ص104 .

4– الضرائب :

لقد نقل ملوك بلاد السودان الغربي نظاما ضريبيا مقتبس من بلدان عربية إسلامية وهذا مع مملكة غانة الإسلامية التي كانت عائداتها الضريبية كبيرة من جراء ما فرض على السلع الوافدة إليها من خارج البلاد وحتى السلع المحلية كالضرائب على الملح والنحاس والذهب نتيجة ما تحققه تجارة هذه المواد من أرباح طائلة على أصحابها ،وتواصل هذا النظام الضريبي حتى مع مملكة مالي الإسلامية و مملكة سنغاي ، أما حكام الأقاليم العاملين على الجباية فقد كان لهم ثلث ما يتم جبايته و قد كان القائم على جمع الضرائب في مملكة مالي يسمى "منشاجو"[1] ،وكانت بعض الضرائب يتم تخصيصها لإحدى زوجات الملك[2]،أما في مملكة سنغاي كان المشرف على الضرائب يدعى **مندي**[3]، وقد فرضت الضرائب حتى على الأدوات التي يستخدمها المزارعون وعلى عدد الأشجار المثمرة والنخيل التي يملكها هؤلاء المزارعين[4].

لقد كانت الضرائب تفرض على بعض السلع التجارية الأكثر رواجا للحفاظ على أسعارها وقصد احتكارها مثل الضرائب التي فرضها منسا موسى على النحاس[5] ترسل إلى الملك فيتصرف فيها كيفما يشاء.

5– الزكاة و الصدقات :

لقد كان لترسخ معالم الإسلام ومبادئه في بلاد السودان الغربي دور كبير في حرص ملوك هذه البلاد على أداء أحد أهم أركان الإسلام وهي الزكاة لما فيها من خير يعود على المجتمع السوداني المسلم ، فقد صرفت الزكاة في هذه البلاد استجابة لما جاء به الدين الإسلامي ،للفقراء والمساكين وابن السبيل والعاملين عليها أي المشتغلين بها فكانت بذلك تنفق وفق ما حدد الشرع الإسلامي

---

[1]– ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ج2،ص310.

[2]–كعت ، نفسه ، ص126 .

[3] - Trimingham,Ibid,P130.

[4]– بليغ أحمد فؤاد ، عبد الرحمن السعدي ،عصره وكتابة تاريخ السودان ،المجلة التاريخية المصرية ،القاهرة ،المجلد 20،1973 ، ص89 .

[5]– العمري ،المصدر السابق ، الباب العاشر ،ص ص 74-75.

وهذا بعد أن تجمع في دار السلطان .وقد أورد ابن بطوطة حادثة توحي بحرص الملوك على صرف الزكاة وفق الشريعة[1] .

كما اشتهر ملوك السودان بعطاياهم وصدقاتهم التي كانت تمنح للفقراء والمساكين وطلبة العلم والعلماء وحجاج بيت الله الحرام ، وقد ذكر كعت جانبا من ذلك عندما تحدث عن الأسكيا داود وما كان يرسله سنويا إلى الفقيه القاضي العاقب بن محمود أقيت والمقدر بأربعة آلاف صنيه ليوزعها على مساكين تنبكتو ، وإلى جانب ذلك خصص الأسكيا داود في مدينة تمبكتو جنانا خاصة بالمساكين[2].وقد دل ذلك على حرص الملوك على الطاعة و الإنفاق في سبيل الله وكذا الاعتناء بأهل العلم وخاصته.وفي هذا الشأن فقد كان القضاة يشرفون على دور الصدقات والأوقاف ،وكانوا يكلفون بجمع الزكاة وتوزيعها على مستحقيها خاصة فئة المساكين والمحتاجين وذلك من خلال حث الأغنياء والميسورين على الصدقة وكثرة العطايا لهؤلاء الفقراء، وإشرافهم على جمع التبرعات وضمان وصولها إل أصحابها ،فكان القاضي محمود بن عمر حريصا على زيادة هذه الصدقات حتى بلغ ما أعطوه لهذا القاضي سبعمائة مثقال من الذهب وزعها على الفقراء والمحتاجين ، وكذلك ابنه القاضي العاقب بن محمود وكذلك ، وكانت توزع في أيام المجاعات التي تصيب البلاد كما حدث في سنة 956-991ه في عهد الأسكيا داوود[3].

وقد كان العلماء يشددون ويحثون في الفتاوى على عدم تأخير الزكاة لما لها من فوائد غي إرساء أسس التكافل الاجتماعي[4] .

---

[1]– لقد ذكر بن بطوطة حادثة عن الزكاة حينما كان بمملكة مالي وصادف ذلك حضوره ليلة السابع والعشرين من رمضان فقام الملك منسا سليمان بمنح القاضي والخطيب والفقهاء مالا وأعطاه معهم ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا .ينظر : ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ج2، ص 303 .

[2]– كعت ،المصدر السابق ،ص226 .

[3]– أحمد مرجان سحر عنتر ،فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهدي مالي وصنغي ،ط1،مكتبة الثقافة الدينية ،2011 ،ص210.

[4]– لقد أفتى القاضي عبد الله بن الحاج إبراهيم العلوي بعدم جواز تأخير الزكاة لمن لم يتمكن من إخراجها في وقتها وعند الوقت الواجب الذي هو الحول بأكثر من يومين بناءا على إمكان إخراج شرط وجوب فلا تجب ما لم يتمكن من أدائها ، أو شرط أداء فتجب بحلول الحول ولو لم يتمكن ويدل على عدم جواز تأخيرها قول خليل .ينظر : المرجع السابق، ص2072 .

الخلاصة :

من خلال ما ذكرناه نلاحظ مدى التطور الذي عرفته بلاد السودان الغربي على المستوى الاقتصادي وهو السبب الذي جعل هذه المنطقة من العالم الإسلامي خلال الفترة المدروسة تتبوأ المكانة الكبيرة والعظيمة بين أقطار العالم ، ولكن هذا التطور كان له ثمنه على المستوى السياسي للبلاد حيث تحول تاريخها إلى محطة صراع داخل الأسر المالكة من أجل الاستئثار بالثروة التي ستكون نقمة على البلاد جعلت القوى المجاورة تسعى للتوسع على حسابها عليها من جهة، ومن جهة أخرى ازدادت أطماع التجار الأجانب وخاصة الأوروبيين في امتلاك ثروات هذه البلاد .

الفصل السادس

الفصل السادس : مظاهر التحول الاجتماعي في السودان الغربي بين ق7-10ه/13-16م

أولا :تطور النمط الاجتماعي في بلاد السودان الغربي

- دور المرأة في المجتمع السوداني ومكانتها
- حقوق الأطفال في الأسرة
- التطورات الحاصلة في العادات والتقاليد
- تطور العمران

ثانيا : التغيرات التي طرأت على البنية الاجتماعية في بلاد السودان الغربي

- تطور التنظيمات الاجتماعية
- تغير مفهوم الطبقية في بلاد السودان الغربي

ثالثا : التغيرات التي طرأت على المستوى المعيشي في بلاد السودان الغربي

- ارتفاع المستوى المعيشي وتراجعه
- الوضع الديمغرافي ومتغيراته

أولا : تطور النمط الاجتماعي في بلاد السودان الغربي :

1- دور المرأة في المجتمع السوداني ومكانتها :

لقد قامت الأسرة في بلاد السودان الغربي على نظام الأمومة كما سبق وأن أشرنا إليه وهذا نتيجة عدة عوامل اجتماعية ودينية .كون الأم هي التي تتحمل النصيب الأكبر من تربية الأبناء وحياتهم، أما الجانب الديني فكان حسب قبائل السودان الغربي الوثنية أن كيان الإنسان يرتبط بنسمة دم الأم والتي تنتقل إلى وليدها فتظل عنصرا مقدسا في كيانه طول حياته وتلك هي الأسباب التي جعلت الأمومة هي أساس النظام الاجتماعي الوثني[1] .

من أجل ذلك لم يكن الأولاد حسب نظام الأمومة هذا ينتمون لأبيهم بل ينتمون لجماعة أمهم ،فكان بذلك الخال أقرب إلى الفرد من أبيه وهو المسؤول عنه في كل شيء ،وقد اتخذ الرجل عدة زوجات، وحتى بعد دخول الإسلام إلى هذه البلاد بقي البعض من أهل بلاد السودان على هذا الحال إما جهلا أو تجاهلا ، وفي هذا الصدد ذكر لنا القلقشندي نقلا عن العمري : "قال في مسالك الأبصار :وذكر لي عنه ابن أمير الحاجب أنه حكا له أن من عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحد منهم بنت حسناء قدمها له أمة موطوءة فيملكها بغير تزويج مثل ملك اليمين فقلت له: إن هذا لا يحل لمسلم شرعا ،فقال : ولا للملوك ؟فقلت :ولا للملوك واسأل العلماء ،فقال : والله ما كنت أعلم ذلك !وقد تركته من الآن"[2].

هذا دليل واضح على الواقع الاجتماعي الذي كانت عليه بلاد السودان الغربي حتى على مستوى الطبقة الحاكمة .وقد استمر ت ظاهرة توريث ابن الأخت بالرغم من دخول الإسلام إلى هذه البلاد وحتى زمن ابن بطوطة وتواجده في تكده حيث لم يعجبه ذلك فقال :" ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه .وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن وأما نسائهم فلا يحتشمن من الرجال ،ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات "[3] .

---

[1]- حسين مرزوقي ،المرجع السابق ،ص130 .

[2]- القلقشندي ،المصدر السابق ،ج5،ص285 .

[3]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ، ج2،ص370.

لقد ذكر القلقشندي نفس الملاحظة في انتقال العرش إلى ابن البنت[1]، فقد كانت لهم تفاسير ووجهات نظر يقول بأن ابن البنت أو ابن الأخت نسبهما محقق لأن الأب قد يشك في أبوته لابنه ولذلك كان الكثير من ملوك السودان ينسبون لأمهاتهم ،فكان على سبيل المثال الملك كنكن موسى (ت حوالي 738 ه/1337 م) ينسب لأمه نانا كانجو[2].

لقد ساقت لنا المصادر العديد من الأمثلة على شيوع نظام الأمومة في بلاد السودان الغربي حتى وصل بهم الأمر إلى تولي ملكات واعتلائهن للعرش وهذا ما أشار إليه كعت حيث ذكر الملكة يانو التي أطاح بسلطتها ملك مالي سني علي والذي حكم مالي بداية من 736 ه/1335 م وبعد وفاته عادت لملكها[3].

لقد توطدت أركان الإسلام في بلاد السودان الغربي وأقبل أهلها عليه وأصبح كل فرد فيه يعرف ماله وما عليه في ظل الشريعة الإسلامي التي صانت لكل فرد حقوقه سواء ذكرا كان أم أنثى ، وحددت له واجباته اتجاه المجتمع الذي يعيش فيه، وأصبحت بذلك للمرأة حقوقها الشرعية ملتزمة في نفس الوقت ما نهاها الدين عن ارتكابه ،ومع ذلك بقيت بعض الأعراف القبلية سائدة في تطبيق بعض الحدود [4] لكنها اختفت بالتدريج من المجتمع السوداني ،وطبقت في نفس الوقت الحدود الشرعية بكل صرامة ومعظمها كانت علنية ،واختفت ظاهرة زواج المحارم بعد اعتناق أهل هذه البلاد للإسلام واختفت العديد من العادات كالجمع بين الأختين وهذا ما قد وضحته الشريعة بصريح نص القرآن الكريم[5] .

ظلت مكانة المرأة رفيعة ، حتى بعد الغزو المغربي السعدي لبلاد السودان الغربي ، أما الزواج فقد أعطى للمرأة قدرا كبيرا من الاحترام وأصبحت المرأة شريكة فعلية للرجل ولها نفس الحظ من العلم والشهرة .حيث تقلدت أعلى المناصب في الدولة إلى جانب زوجها كما سبق

---

[1]- القلقشندي ،المصدر السابق ،ج5،ص294 .

[2]- حسين مرزوقي ، المرجع السابق ،ص132 .

[3]- كعت ،المصدر السابق ،ص140 .

[4]- كان العرف في بلاد السودان الغربي يحكم على المرأة الزانية بالقتل ويقوم بتنفيذ القتل أخاها وليس زوجها لأنه هو المسؤول عن أخذ الثأر بالرغم من أن تطبيق حد الرجم على الزاني المحصن حتى الموت ،وقد انتشر حد الجلد العلني في كثير من المناطق .ينظر :زناتي ،المرجع السابق ،ص185 .

[5]- لا يمكن عقد قرآن بين رجل وأخت زوجته ،إلا إذا توفيت أو طلقت الأولى .ينظر الآية 23 سورة النساء .

وأن أشرنا وهذا ما ذكره ابن بطوطة فقال : " وهي شريكته في الملك على عادة السودان ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر... "[1]، أما في فيما يتعلق بالزواج فقد زاد الإقبال على الزواج من بنات العم والخال حيث أصبح الإفريقي يفضل الزواج من ابنة عمه على غيرها من البنات ،حيث ذكر أن الكتري[2] كان يفضل الزواج من بنات عموميته[3] .

من الواضح لجوء بعض القبائل إلى الإقبال على الزواج بالأقارب لكونها نوع من إبقاء النسل في القبيلة وعدم الامتزاج مع باقي القبائل التي تراها أقل منها درجة وخاصة في ظل انتشار النسب الشريف من جهة وظاهرة العبيد والأحرار التي ظلت مترسخة في جنوب الصحراء بين القبائل إلى غاية القرن الواحد والعشرين رغم أنها أصبحت أقل حدة .

ومن مظاهر تمتع المرأة بحقوقها هو أن المرأة في بلاد السودان الغربي لها الحق في طلب الطلاق إذا شعرت أنها تعرضت لبعض الإجحاف وعدم المساواة مع باقي الزوجات ،وفي نفس الوقت تم إلغاء نظام الزوجة الرئيسية الذي كان متبعا قبل دخول الإسلام إلى هذه البلاد والذي استمر بشكل قليل لكن ليس بنفس الشكل الذي كان عليه ففي الغالب هذا التفضيل يعطى للزوجة الأولى وهذا ما أشار إليه "نوري" في بلاد الهوسا ، حيث كانت الزوجة الأولى تحضا بخصوصية من طرف زوجها عن باقي الزوجات وكانت في الغالب من أقاربه ،وقد يمنحها السلطة على باقي زوجاته وقد تصل إلى غاية توزيع الغذاء عليهن[4].

نحن نعلم جيدا أن الإسلام لا يرضى بذلك مما جعل العديد من العلماء الذين زاروا بلاد السودان الغربي يشيرون إلى هذه المظاهر ومنهم المغيلي الذي زار كانو سنة 908 ه/1502 م

---

[1]- ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2 ،ص370 .

[2]- الكتري :تطلق على بني الكتر المنتمين لقبيلة ربيعة الذين سكنوا في إفريقيا جنوب الصحراء انطلاقا من بلاد النوبة . ينظر : المقريزي ،البيان و الإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ،تحقيق فردناند واسطون فيلد ،جوتنجن ،المانيا ، 1847. ص 44

[3]- الملاح ،المرجع السابق ،ص164 .

[4]- نوري ،المرجع السابق ،ص301 .

والذي وجه رسالة لحاكم كاتسينا يأمره فيها بتعليم الناس إجراء عقود الزواج وفق للشريعة الإسلامية وهذا قصد القضاء على ظاهرة عدم العدل بين الزوجات[1].

ومن الواضح أن العادات الوثنية بقيت في بعض المناطق من بلاد السودان الغربي، وخاصة ما تعلق بمعاملة الزوجة من طرف أهلها انطلاقا من تزويجها بدون عقود أي تقديمها كهدية للرجل وفيما يتعلق بالمهر وجهاز العروس فكل ذلك كان يلقى على عاتق الزوجة ،وهذا لا يتوافق مع تعاليم الدين الإسلامي وهذا ما دفع المغيلي إلى محاربة هذه العادات التي ظلت تشوه الإسلام وتلصق به الكثير من الشوائب .

كما سجلت لنا المصادر بعض المظاهر الأخرى التي لها علاقة بالجانب الأسري حيث عرفت ظاهرة الطلاق في المجتمعات السودانية في بلاد التكرور، ببقاء بعض العادات الوثنية القديمة التي تعطي للزوجة نفس الحق في إنهاء العلاقة الزوجية دون الرجوع لأحد ،حيث لم يكن للرجل حق طلب زوجته للطاعة[2].

لقد لاحظنا عدم اهتمام المصادر التي تحدثت عن بلاد السودان الغربي بالمرأة العالمة أو التلميذة ، فنجد أن أحمد بابا التنبكتي في نيل الابتهاج وكفاية المحتاج لم يترجم إلا لامرأة واحدة و هي أم هاني بنت محمد العبيدوسي[3] ،أما السعدي فلم يترجم لأي امرأة ترجمة كاملة،فكانت المرأة التي أتى على ذكرها هي الأغلالية التي بنت مسجد سنكري حيث قال : "وأما مسجد سنكري فقد بناها امرأة واحدة أغلالية ذات مال كثير في أفعال البر ..."[4]،كما ذكر كعت حادثة أخرى توحي بالمكانة التي كانت عليها المرأة في بلاد السودان الغربي وعن مستواها التعليمي و علمها بالضوابط الشرعية و بأحكام القرآن من خلال ما حدث أثناء تنصيب محمود بغيغ[5] قاضيا على جني ومعارضة زوجته لهذه المنصب لكونها كانت على علم

---

[1]- أ.م.كاني ،مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة م700و 1700م مع إشارة إلى كانم –برنو وأرض الهوسا ، مجلة البحوث التاريخية ،س3، ع1،يناير ،1981 م ،ص20 .

[2]- زناتي ،المرجع السابق ،ص72 .

[3]- أحمد بابا ،نيل الابتهاج ، المصدر السابق ، ص328-329 .

[4]- السعدي ،المصدر السابق ،ص62 .

[5]- السعدي ،نفس المصدر السابق ،ص19 . بلو ،المصدر السابق ،ص113 ،أحمد بابا ،نفس المصدر السابق ،ص 341.

بعظم وثقل بهذا المنصب وخوفها عليه من أن تزل قدمه ،فلم تكن هذه الزوجة جاهلة بأمور الدين [1].

مما سبق ذكره توصلنا إلى أن المرأة في بلاد السودان الغربي تخلصت من الكثير من مظاهر المجتمعات الوثنية التي كانت موجودة وأصبحت تحتل مكانتها التي حددها لها الشرع وازدادت مشاركتها في الحياة الاقتصادية والثقافية في هذه البلاد خاصة مع القرن السابع عشر ميلادي /الحادي عشر هجري .

بعد ترسخ تعاليم الإسلام في بلاد السودان الغربي ،و محاربة العادات الوثنية أصبحت المرأة مضرب المثل والعفة والطهارة والـــتأنق في لباسها بعدما كانت في العهد الوثني لا تستر عورتها إلا بعد زواجها ، وهذا ما أكدت عليه العديد من المصادر العربية التي زار أصحابها بلاد السودان الغربي في القرن الرابع عشر ميلادي / الثامن الهجري[2]،وازداد دور المرأة في الحياة الاقتصادية لدى الأسرة السودانية ،حيث أصبحت تعمل إلى جانب أخيها أو زوجها أو أبيها ، ولكن بطريقة تختلف على ما كانت عليه في الوثنية ،حيث أصبح العمل يتناسب مع أنوثتها ومع طاقتها كامرأة ،وقد ذكرت نساء المدن الكبرى السودانية والأنشطة التي كانت النسوة تقمن بها بحيث اختصت كل نسوة مدينة بنشاط معين[3]حتى أن البعض منهن كن يشاركن الرجال في الحقول وفي بناء الأكواخ وحتى التجارة إذ كن يبعن الأغذية والألبسة والمجوهرات في سوق سنغاي[4] .

[1]- لقد روى لنا كعت هذه الحادثة وذلك بعد أن عين محمود بغيغ قضاء جني فحمل على فرس بعد إجراء مراسيم الولاية، فلما دخل بيته استقبلته زوجته أم ولده السيد الفقيه أحمد بغيغ وقالت له : لم رضيت القضاء ؟ فقال : لم أرض بذلك وإنما أجبروني به وكلفوني ،فقلت :لو اخترت الموت عليه لكان أحسن منه ،ولو قلت اقتلوني فلا أدخل ،ما قلت ذلك .فأدبرت باكية ثم لم تزل تبكي أياما رحمها الله.ينظر : كعت ،المصدر السابق ،ص90 .

[2]- لقد ذكر لنا ابن بطوطة وغيره عن ظاهرة التعري التي كانت سائدة عن أهل السودان الغربي حتى بعد إسلامهم وخاصة في بلاط ملوكهم أثناء الاحتفالات والمناسبات الكبرى .ينظر :ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2،ص373 .

[3]- لقد اشتهرت نسوة أودغست بطبخهن الجيد وصناعة الحلويات ،ونسوة تنبكت بحياكتهن للقطن أو الصوف فكن نعم المعينات لأزواجهن .ينظر : البكري ،المصدر السابق ،ص64 .

[4]- زبادية ،مملكة سنغاي ...،المرجع السابق ،ص130 .

2- حقوق الأطفال في الأسرة :

تطورت مكانة الأطفال في المجتمع السوداني بشكل كبير حيث حث الإسلام على تربية الأبناء ورعايتهم وتنشئتهم تنشئة صالحة بداية من تحريم قتل الأولاد ، من خلال قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴾[1].

فأصبح في المقابل المولود الجديد يتم استقباله بحفاوة وترحيب كبير وفق الشريعة الإسلامية كقراءة القرآن الكريم وإقامة العقيقة و ذلك ابتهاجا وفرحا بسلامة المولود وأمه[2]، كما تغيرت الأسماء فأصبحت إسلامية وكانت تحضا باهتمام كبير ، حيث نجد حتى كبار السن غيروا أسمائهم[3] .

لقد كان لانتشار الطرق الصوفية وتمسك أهل السودان الغربي بها ،ظهور بعض الممارسات والطقوس بالنسبة للمولود الجديد الذي يؤخذ به إلى أحد أضرحة شيخ الطريقة أو يتم نذر الطفل لخدمة الولي والذي هو بدوره يحميه ،وفي بعض الأحيان يحلق شعر الطفل عند الضريح أو جزء منه وإلى جانب ذلك انتشرت ظاهرة ختان الفتيات إلى جانب الذكور ، وكان لختان الفتيات أسباب عند أهل البلاد كون الخصوصيات الطبيعية المتعلقة بالمناخ والحرارة الكبيرة التي تتميز بها ، مما يساهم في البلوغ المبكر وهو إجراء احترازي لمنع حدوث الزنا[4]، والشيء الذي أحدث تحولا في النسق الاجتماعي عند أهل السودان الغربي هو الإجراء الذي أقره الأسكيا محمد الكبير و الذي أقر فيه بحرية ابن الرجل الحر من زوجته الأمة ،حيث كان قبل ذلك أي قبل مجيء الأسكيا إلى السلطة يعتبر عبدا تبعا لأمه[5].

عرف المجتمع السوداني كيف يتعامل مع حالات الطلاق وخاصة فيما يتعلق بحضانة الأطفال وذلك بمنح الأم حق حضانة أولادها ،مالم تتزوج بالنسبة للذكر حتى يحتلم والأنثى حتى تتزوج ويتم الدخول بها ، أما النفقة فإنها على عاتق الأب وذلك وفق الشريعة الإسلامية[6]،

1- سورة الإسراء الآية 31 .

2- الإدريسي ، المصدر السابق،ص13 .

3- أدامو،مهدي ،الهوسا وجيرانهم بالسودان الأوسط ، تاريخ أفريقيا العام ،المرجع السابق ، مج4 ،ص294 .

4- التونسي ، المصدر السابق ،ص224 .

5- شلبي ، المرجع السابق ،ص266 .

الإسلامية[1]، والشيء الذي أدى إلى حدوث نقلة نوعية في تاريخ بلاد السودان هو الاهتمام بالنسب وذلك بنسب الأبناء إلى آبائهم ، وذلك قصد تحميل المسؤولية للأب في تربية أبنائه[2]،وهذا ماساهم في القضاء على ظاهرة نظام الأمومة التي كانت منتشرة في المجتمعات الأفريقية وخاصة في السودان الغربي.

ومن مظاهر اهتمام الآباء بأبنائهم هو حثهم على تعليم القرآن الكريم في سن مبكرةومعاقبتهم في حالة عدم حفظه ، وهذا ما رواه ابن بطوطة لنا عندما شاهد أحد أطفال أعيان البلاد السودانية وهو مكبل بالحديد يوم العيد فتعجب لهذا الفعل ،فقيل له بأن لا تفك قيوده إلا إذا حفظ القرآن[3]وبعد حفظه للقرآن وتعلمه للكتابة يتم تعليمه السنة النبوية وباقي العلوم ،وقد تم تخصيص أماكن قريبة من المساجد[4] لتعليم الأطفال ،حيث أخبرنا كعت عن أهل تمبكت واهتمامهم بالتعليم والمعلمين فقال: " خصّ الله به أهل تنبكت...أخبرني محمد بن المولود أنّه رأى منها ستة وعشرين بيتا...ولكل واحد من تلك البيوت شيخ رئيس معلم، وعنده من المتعلّمين نحو خمسين، وعند بعضهم سبعين إلى مائة، وفيها مدارس معلم الصبيان الذين يقرئون القرآن مائة وخمسين أو ثمانين مكتبا، ذكر الشيخ محمد بن أحمد مكتب المعلم علي تركيا يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر وجعل صبيانه يأتونه بخمس ودعات، وبعضهم عشر ودعات، على عاتقهم المسماة الأربع، حتى تحصل قدامه ألف وسبعمائة وخمسة وعشرين ودعا ..."[5].

لقد استمر هذا التعليم على عدة مستويات ولكن كانت الأسرة هي الفاعل الأول في تربية الطفل حيث يربى الطفل على طاعة والديه ،لأن معصيتهما تعد من الكبائر والله تعالى يعاقب

---

[1]- الصنعاني محمد بن إسماعيل ،سبل الإسلام ،بيروت ،1379هـ ،ج3 ،230 .

[2]- نعيم قداح، أفريقيا الغربية ،المرجع السابق ،ص95 .

[3]- ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ج2، ص373 .

[4]- السعدي ، المصدر السابق ،ص58 .الأرواني ،المصدر السابق ،ص10-11 .

[5]- كعت ، المصدر السابق ،ص110 .

عليها .وقد ذكر لنا كعت بعض الأمثلة التي رسخت في المجتمع السوداني بكل طبقاته سواء لدا العامة أو الحكام[1].

3- التطورات الحاصلة في العادات والتقاليد :

تغيرت العديد من العادات والتقاليد والممارسات التي عرفها المجتمع في بلاد السودان الغربي حيث تم القضاء تقريبا على العصبية القبلية التي كانت تنخر المجتمع السوداني كغيره من المجتمعات الإسلامية آنذاك وذلك مرده لسيادة العدل والأمن في ظل الممالك الإسلامية في بلاد السودان الغربي ، فكان هذا الاستقرار والعدل سببا في توافق واختلاط لقبائل مع بعضها البعض ،فأخرجت القبيلة من وضعها الضيق إلى الانفتاح على باقي القبائل الأخرى ،و المجتمعات الأخرى سواء المسلمة أو المسيحية خاصة بعد ازدهار التجارة في العديد من مدن السودان الغربي، وحتى بعد تحول الطرق التجارية نحو الطريق الساحلي للمحيط الأطلسي كان المجتمع السوداني قد تقبل التعامل مع التجار الغربيين البرتغاليين والإنجليز في حدود القرن السادس عشر والسابع عشر ميلادي/العاشر والحادي عشر هجري .كما سادت ثقافة التسامح التعاون بين مختلف قبائل السودان الغربي وهذا ما ذكره لنا السعدي عن أهل تمبكتو حيث قال : "...امتازوا بالسماحة اذ لم يكن منهم من به فظاظة ...."[2].

في الجانب الآخر لم يكن من السهل على أهل السودان الغربي أن يتخلوا على كل عاداتهم الوثنية التي ورثوها جيلا عن جيل ،ومثل هذه العادات ارتداء الحلي الوثنية التي تظم العظام والأنياب وأشياء نجسة كثيرة مازالت بعضها مستمرة إلى يومنا هذا وخاصة في الاحتفالات الموسمية التي تقام عندهم ،كما أن عادة الوشم استمرت ، استمرت رغم حرمتها إلى جانب العرافة والشعوذة والسحر والطوطمية التي كانت منتشرة قبل دخول الإسلام إلى هذه البلاد كما ذكرنا سابقا[3] .

---

[1]- هناك مثال واضح على امتثال الأبناء لأوامر الآباء والتزامهم بتعاليم الإسلام وفي هذا المجال تحدث لنا كعت عن مدى طاعة أبناء الأسكيا داود عندما استشارهم في عتق العبيد .ينظر : كعت ،نفس المصدر السابق ، ص105.

[2]- السعدي ،المصدر السابق ،ص 21 .

[3]- بيلو ،المصدر السابق ،ص17 .

لقد عرف المجتمع السوداني تحولا مهما في مجال العلاقات الاجتماعية السائدة بين أفراده ، حيث أصبح أكثر تحضرا فتخلص من كل المظاهر التي ينبذها الإسلام [1] فسادت روح التعاون والتكافل الاجتماعي بين أفراده في كل أنحاء السودان الغربي ،وفي نفس الإطار بجل أهل هذه البلاد علمائها وهذا ما نلمسه في كتابات مؤرخي السودان الغربي سواء عند السعدي أو كعت وحديثهم عن الكرامات التي ميز علمائها ، وهذا أكبر دليل على المكانة التي كانت عند هذه الفئة في المجتمع السوداني كما ذكر لنا ابن بطوطة هذه المكانة التي كان يحضا بها الخطيب حتى أنهم كانوا يلجأ ون إليه ويستجيرون به ،وذلك حتى عند زوجة السلطان[2].

بلغت مكانة العلماء والفقهاء درجة عظيمة وأصبح لهم دور التوجيه والنصح للملوك ومن بين الأمثلة أجوبة المغيلي على أسئلة الأسكيا محمد إذ يقول له :" إنما أنت مملوك لا تملك شيئا، وقد رفعك مولاك على كثير من عباده لتصلح لهم دينهم ودنياهم لا لتكون سيدهم ومولاهم ، وأنت في جميع مملكتك راع لا مالك ..."[3] وقد أشارت العديد من المصادر إلى المكانة التي كان عليها فقهاء وعلماء بلاد السودان الغربي حتى أنهم لم يخشوا الحكام ومن جانب آخر احترام الحكام لهم وتبجيلهم ، وفي هذا الصدد نذكر ما حدث بين الفقيه القاضي محمود بن عمر[4] قاضي تنبكت المتوفى سنة 955 ه/1548م و الأسكيا محمد حين رفض القاضي تنفيذ أوامره وقضاء بعض حوائجه ،مما جعل الأسكيا يعاتبه على ذلك فأجابه القاضي :" هل نسيت أم تناسيت يوم جئتني في داري وأخذت برجلي وثيابي فقلت :جئت أدخل في حرمتك وأستودعك نفسي أن تحول بيني وبين جهنم فانصرني وأمسك بيدي حتى لا أقع في جهنم وأنا

[1]- الشنقيطي ،المصدر السابق ،ص458 .

[2]- يتعلق الأمر بزوجة ملك دولة مالي السلطان سليمان عندما علم بأمر زوجته التي اشتركت في مؤامرة ضده فما كان منها سوى اللجوء إلى دار الخطيب مستجيرة به حتى لا يطالها العقاب وهذه عادة كانت معروفة عند أهل السودان الغربي وهي دليل على علو شأن العلماء في هذه البلاد .ينظر:ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2 ،ص371 .

[3]- محمد بن عبد الكريم المغيلي ، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي ،تقديم وتحقيق نعبد القادر زبادية ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ،1974،ص23 .

[4]- قال عنه أحمد بابا والسعدي:" عالم التكرور وصالحها ومدرسها وفقيهها بلا مدافع كان من خيار عباد الله الصالحين ... تولى القضاء عام 904 هـ / 1498 م في عهد أسكيا محمد(1493م- 1528 م).ينظر: السعدي ،المصدر السابق ،ص38-39 ،أحمد بابا التمبكتي ،نيل الابتهاج ،المصدر السابق ،مج2،ص291 .

وديعك فهذا سبب طردي رسلك ورد أمرك ،فقال الأسكيا نسيت ذلك والله ولكن ذكرته الآن، فأنا أستغفر الله وأتوب إليه ..."[1].

كان الأسكيا محمد لا يقدم على فعل أمر إلا بعد مشورة العلماء والأخذ برأيهم في مسائل الحرب والسلم .وقد لعب العلماء في بلاد السودان الغربي دور كبير في الحفظ على دولة صنغاي من الاضطرابات والفتن الداخلية خاصة في الفترة التي أعقبت عزل الأسكيا محمد واستيلاء ابنه موسى على الحكم في عام (935 ه/1528 م) لأنهم منعوا هذا الأسكيا من التنكيل بإخوانه ومعارضيه منعا للفتن الداخلية[2]،لكن الشيء الذي يجب الإشارة إليه هو أن هذه الاستجارة لم تكن على حساب الحق ،لأن الحدود لا شفاعة فيها وهذا معلوم لعامة المسلمين .

تحول أهل السودان الغربي من قبائل همجية لا تعرف معنى التحضر ومن جماعات متناحرة متفرقة لا تعرف الاستقرار و الأمان إلى مجموعات بشرية متحضرة ،تتعاون فيما بينها وتتطور علاقاتها مع باقي الشعوب الأخرى[3]، وقد ذكرت العديد من الكتابات التطور الذي عرفته بلاد السودان الغربي وخاصة بعد دخول الإسلام إلى هذه البلاد وذلك بتحويل القبائل الوثنية إلى أمم راقية ذات مستوى متطور و عالمي[4].

لقد عرف مجتمع السودان الغربي تحولا مهما في مسألة إقامة الاحتفالات والمناسبات الدينية، حيث خصت الأعياد الدينية بتكريم لا حدود لها ، وعظمت شعائر الدين أشد التعظيم ،ومن مظاهر ذلك هو إحياء ليلتي القدر والمولد النبوي الشريف ،وحتى بعد رؤية هلال العيد حيث تعج الشوارع بالحركة وتزدحم الطرقات وتعم البشرى بواسطة الطبول حتى أن بلاد السودان خلال حكم بشاوات السعديين لها ،كانت تقام الاحتفالات سبعة أيام بعد العيد [5] فتشكل المواكب وتدق الطبول حتى في المدن التي يحكمها غير المسلمين .

---

[1]- البرتلي ،المصدر السابق ،ص155 .

[2]- السعدي ، نفس المصدر السابق ،ص28 .

[3]- عبد السلام أبو سعد ، العلاقات الثقافية بين الشعوب الإفريقية وأثر الإسلام واللغة العربية في ترسيخها ، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي على جانبي الصحراء من 12-14 ماي 1998 م ،مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ،كلية الدعوة الإسلامية ،طرابلس،ليبيا ،ط1 ،1999م،ص26 .

[4]- عبد السلام أبو أسعد ،المرجع السابق ،ص26 .

[5]- محمد الغربي ، المرجع السابق ،ص 619 .

أماشهر رمضان فقد خص بعناية كبيرة من طرف حكام بلاد السودان الغربي أيام الأساكي أو الحكم المغربي لها، حيث توزع الصدقات على أبواب المساجد قبل الغروب وفي غالبها كانت حبوب التمر وقطع الخبز والحساء فيستفيد منها الفقراء وعابري السبيل[1]، ووفقا لما شاهده ابن بطوطة أثناء إقامته بدولة مالي الإسلامية والذي صادف شهر رمضان من عام (753 ه/ 1353 م) ،إذ أنهم يحيونه بالقرآن الكريم وذلك بحضور القاضي والخطيب والفقهاء والأمراء أما ليلة القدر فكانت تحظى هي الأخرى بتعظيم كبير وفيها تفرق الأموال على الحاضرين وكان ابن بطوطة من بين الذين أغدق عليهم السلطان منسا سليمان بالأموال في هذه الليلة[2].

لقدكانت هناك أمثلة كثيرة تدل على مدى تبجيل وتقديس هذا الشهر المبارك من قبل أهل السودان الغربي سواء في المدن أو البوادي وهاهو السعدي يذكر لنا مدى كرم و إنفاق أحد أئمة المساجد في تمبكتو بالذهب والتي تزداد خلال الشهر الفضيل[3] ، كما كان الطعام يطبخ ويوزع على الفقراء في ليلة القدر ويقوم السلطان بوضع الطعام على رأسه ويبرك على ركبتيه أمام قراء القرآن ليتسنى لهم الطعام من ذلك الإناء تعظيما لهم وتقديرا لمكانة القرآن الكريم وحافظه[4].

وبما أن بلاد السودان الغربي خضعت للمغاربة فإن جل الاحتفالات أصبحت لا تختلف على ما كانت عليه في المغرب ،خاصة في حرص العلماء على الحضور إلى صلاة التراويح في المساجد وكذا شرح صحيح البخاري في الجامع الكبير وحتى قاعة السلطان والتي كانت تعرف بالمشور وهو تقليد مغربي[5].

أما الاحتفال بالمولد النبوي الشريف فقد امتد إلى بلاد السودان الغربي من المغرب المريني حيث أن الاحتفال بالمولد النبوي الشريف أصبح يحمل الطابع الرسمي ابتداء من عهد يوسف بن

---

[1]- محمد الغربي ،نفس المرجع السابق ، الصفحة نفسها .

[2]- ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2 ،ص375 .

[3]- السعدي ، المصدر السابق ،ص60-61 .

[4]- كعت ، المصدر السابق ،ص180 .

[5] - الشكري ، المرجع السابق ،ص205 .

يعقوب المريني عام691 ه/1291 م[1]، وهناك عامل آخر هو كثرة تواجد الجالية المغربية في هذه البلاد من تجار وعلماء ومعلمين وقد كان الاحتفال به بالتزين بأحسن الثياب وطبخ الطعام وإنشاد القصائد في مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم[2]،ومما يجدر ذكره هو ما أصبح يخص به حفظة القرآن الكريم ، حيث كانت من المناسبات التي كان لها شأن كبير فعندما يختم الصبي القرآن تقيم له الأسرة وليمة كبيرة يستدعى لها الضيوف ويلبس الصبي أحسن الثياب ،ويحمل على دابة و يطاف به في الحي ، وكل بيت يمرون عليه يقدم له هدية ،وقبل حلول ليلة القدر يتحلى طلبة القرآن بأحسن الثياب ويطوفون بالقرية على المنازل فيقدم لهم أهل المنازل هدايا من النقود والحبوب للشيخ الذي يدرسهم[3] .

وبخصوص تجهيز الموتى والجنائز فقد تخلص أهل السودان الغربي من العادات الوثنية حيث أصبحت ذات طابع إسلامي وفق ما أقرته السنة النبوية ،بداية من التغسيل والتكفين بالقماش الذي كان يجلب غالبه من بلاد السوس ولا فرق فيه بين الغني والفقير ،ليدفن الميت في يومه إذا كان من العامة وإذا كان من السلاطين فكان يتم تأخير دفنه قصد حضور ملوك المناطق المجاورة له ويصاحب الجنازة والمأتم قراءة القرآن وبعض القصائد ، في مدح الرسول عليه الصلاة والسلام[4] كما كانت روح المواساة والأخوة هي السائدة بين أهل السودان الغربي، وهي من تعاليم الإسلام وقد يختلف عدد المشيعين حسب المكانة الاجتماعية للميت .

1-ابن ابي زرع الفاسي ،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ،الرباط ، المغرب ،1972،ص383 .

2- الولاتي ،المصدر السابق ، ص142 .

3- مبارك جعفري ،المرجع السابق ،ص222 .

4- كعت ،المصدر السابق ، ص 124 .كانت تقرأ القصائد كعشرينيات الفازازي وهي في مدح الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ،أما الفازازي فهو عبد الرحمن بن أبي سعيد يخلفتن بن أحمد بن تنفليت الفازازي نسبة إلى جبل فازاز بقبلي مكناسة الزيتون وإليه ينتمي أصله ونسب أسرته إلى يخبش أو يخفش ،ولد بقرطبة سنة 550ه تعلم في تلمسان على يد عبد الله التجيبي المتوفي سنة 610ه ،انتقل من تلمسان إلى فاس وأخذ عن شيخه بن عتيق المتوفى سنة 598ه ،توفي الفازازي بمراكش في شهر ذي القعدة سنة 627 ه ترك آثارا أدبية أغلبها في الزهد والمدائح والمواعظ والشفاعات ،أهمها ديوان الوسائل المتقبلة في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم وهي القصائد العشرينية التي ألفها في حاضرة قرطبة سنة 604ه وقد خمسها الشيخ أبو بكر بن مهيب ،ينظر التبكتي ،نيل الابتهاج ، المصدر السابق ،ص239 .أما القصائد العشرينية فهي قصائد متساوية مرتبة على حروف المعجم الأندلسي يشتمل كل منها على عشرة أبيات ذاع صيتها في بلاد السودان

كما عرفت بلاد السودان الغربي تحولا في منظومتها الغذائية مع المحافظة على الأنماط والأنواع التي كانت موجودة ومع ذلك فقد كان بسيطا وسهل التحضير وكان للعامل المادي دور كبير في تحديد نوع الطعام وكميته سواء في المدن أو البوادي إذ كان غالبيته في البوادي يعتمد على الماشية[1] أما في المدن فقد ارتكز على الذرى والعصيدة والأرز وطعام الكسكس[2] المعروف في بلاد المغرب[3].أما الأواني التي استخدمت فكانت حسب الحالة الاجتماعية للأفراد وهذا طبيعي حيث كانت أواني العامة مكونة من صحاف أو أواني مصنوعة من قشور القرع أما الملوك فكانت أوانيهم ذهبية [4]، كما أدخلت بعض الأنواع من الشراب كشراب الزبيب وخاصة في فترة الحكم المغربي لمملكة سنغاي ، وأدخلت عادات جديدة كانت مستخدمة في البلاد المجاورة لبلاد السودان وخاصة في المغرب حيث انتشرت صناعة الحلويات وأطعمة مختلفة أخرى بالإضافة إلى عادة إيقاف الخدم بالأباريق بعد انتهاء الولائم وهذا قصد غسل الأيدي[5].

بالرغم من التحول الذي عرفته بلاد السودان الغربي مابين القرن السابع والعاشر الهجري /الثالث عشر والسادس عشر ميلادي على جميع الأصعدة والذي كان في مجمله ايجابيا، إلا أن هذه البلاد استمرت بها بعض العادات والممارسات التي أثرت بشكل سلبي على تطورها الحضاري ومن الأمثلة التي نذكرها هي انتشار واستفحال ظاهرتي السحر والشعوذة بالمجتمع السوداني حتى بعد دخول الإسلام إلى هذه البلاد، إذ كانوا يعتقدون فيه وسيلة لعلاج الأمراض وطرد الأرواح الشريرة وهذا ما ذكره الإدريسي والعمري[6]،ومما يدل على استمرار هذه العادات المسيئة للإسلام هو الاعتقاد الكبير في السحر، حيث أن أهل السنغاي كانوا في معاركهم يصحبون السحرة اعتقادا منهم على أنهم بإمكانهم قلب مقاليد المعركة

الغربي.ينظر: عبد الحميد عبد الله الهرامة ،آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي ، نصوص أدبية من القرن الهجري السابع ،جمعها بعض تلامذته في حياته ،بيروت ،دار قتيبة للطباعة والنشر ، 1991 ،ط1، ص16 .

1- ابن حوقل ،المصدر السابق ، ص98 .

2- يتكون من دقيق القمح أو الشعير أو الذرى مع اللحم وهو أشهر طعام في بلاد المغرب الإسلامي

3- ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ص 374 .

4- الوزان ، المصدر السابق ،ج2 ،ص177 .

5- كعت ، المصدر السابق ، ص162 .

6- لقد ذكر الإدريسي بأن السحر في مدينة كوغة منتشر وخاصة بين نسائها،ونفس الملاحظة قالها العمري،ينظر: الإدريسي،المصدر السابق ،ص27 ،العمري ،المصدر السابق ،ص64 .

لصالحهم[1]،وكان غالبية عمل السحرة يتمثل في كتابة الطلاسم والتعاويذ والتمائم لاستحضار البركة وإبعاد الشر وجلب الحظ خاصة لمن فاتها الزواج أو لمن تعطلت أعماله أو يئس من الإنجاب والأمراض النفسية والبدنية المستعصية[2] .

كما عمت ظاهرة أخرى القصد منها العلاج بالقرآن ولكن استخدامها كان يتعارض مع ماجاء في القرآن الكريم ،حيث كانت تكتب التعويذات والطلاسم في ورقة والتي هي تحمل اسم الحرز وهذا لا يتوافق والشريعة الإسلامية[3]، ومن المظاهر التي انتشرت في بلاد السودان الغربي هي ظاهرة السلب والنهب حيث أن كثيرا من القبائل اتخذت من السلب والنهب مهنة لها وحرفة تقتات منها ،حتى أنها أصبحت تشكل طبقة تعرف بالطبقة المحاربة ،وهي تعمل على اقتناء الأسلحة وأخذ المغارم أو نهب الأعداء ،ومادون ذلك من تجارة أو حرث أو اقتناء للماشية فهو عيب عندهم[4].

لقد تسببت هذه الظاهرة في ظل ضعف السلطة في بعض الأحيان وتنافس أفراد الأسرة الحاكمة على الملك وخاصة في عهد الأساكي بعد عزل الأسكيا محمد الكبير في استباحة الدماء بين المسلمين في هذه البلاد،وانتشار ظاهرة الثأر بين القبائل فكانت تقتل الكثير من الأرواح مقابل شخص واحد مثلما كان الشأن في قبيلة كنتة[5]،ومن الآفات التي انتشرت في بلاد السودان الغربي انتشار التدخين وتعاطي التبغ ،حيث يرجح أن المدن السودانية كتنبكت انتشرت بها هذه الظاهرة في أوائل القرن الحادي عشر الهجري /السابع عشر ميلادي ، وبشكل عام فقد تفشت بعض المظاهر المشينة بسبب الاضطرابات السياسية التي سادت بداية من نهاية

1- زاهر رياض ، الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ،القاهرة ،مكتبة الأنجلو المصرية،1968،ص203 .

2- نعيم قداح ، أفريقيا...،المرجع السابق ،ص40.

3- فرح سعد، المرجع السابق ،ص100 .

4- انتشرت ظاهرة اللصوصية نتيجة عدة عوامل في بلاد السودان الغربي وهذا ما أشارت إله المصادر .ينظر :البرتلي ، المصدر السابق ،ص ص 99-195 .محمد المختار ولد السعد ،الفتاوى والتاريخ دراسة لمظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في موريتانيا من خلال فقه النوازل ،بيروت ،دار الغرب الإسلامي ،ط1 ،2000 م ،ص65 .

5- لقد وصل عدد القتلى عشرين قيل مقابل نفر واحد من كنتة وهذا لا يتوافق مع الدين وبالرغم من ذلك فقد كانت كانت القبائل العربية تأخذ الديات مقابل الأرواح وقد تكررت هذه الظاهرة عند الطوارق كذلك .ينظر: جعفري مبارك ،المرجع السابق ،ص 232 .

القرن السادس عشر ميلادي /العاشر الهجري ،وقد عبر عليه السعدي من خلال قوله بتفشي المعاصي جهرا من شرب الخمر والزنا حتى أن المعاصي أصبحت مفخرة وزينة [1] ، وقد كانت بلد كاغ[2] العاصمة في غاية الفسق ، وهذا ما أشار إليه السعدي في قوله :" ...إلى قرب انقراض دولتهم وزوال ملكهم بدلوا نعم الله كفرا ..."[3] وقد وصل الأمر إلى أن سكان بعض المدن مثل جني قد اختلطوا وتناسلوا مع المجوسيين [4] ،كل هذه الأوضاع التي وصلت إليها بعض مدن بلاد السودان الغربي كان مرده الفوضى السياسية التي عرفتها البلاد في تلك الفترة مما جعلها تسقط تحت الحكم المغربي السعدي بعد ذلك.

4-تطور العمران :

لقد حدثت ثورة كبيرة في مجال العمران خاصة في حواضر بلاد السودان الغربي وخاصة تلك التي كانت تشكل أهم المحطات التجارية المعروفة ،وذلك مرده أنها تأثرت بالطابع العمراني الذي حاول التجار والوافدين إليها من كل أنحاء البلاد الإسلامية أن يجسدوه فيها ،فقد أشرنا إلى كيفية تطور فن البناء وحتى المواد التي أصبحت تستعمل ليست هي التي كانت معروفة في السابق ، فقد كانت بسيطة وهي المواد التي لا تكلف شيئا كبيرا في جمعها باعتبارها كانت من الأعشاب والأخشاب[5] في الغالب ولكن مع نهاية القرن التاسع الهجري /الخامس عشر ميلادي بدأت تتغير لدى العامة من الناس ،حيث أصبحت البيوت تبنى من الطين المشوي على أن تكون الأساسات من الحجر وهي تأخذ تصاميم معينة .

من بين العوامل التي ساهمت في تغير الطابع العمراني في بلاد السودان الغربي هو التأثر الكبير بالفن المعماري المغربي حيث عمل الحكام السودانيون على استقدام مهندسين من الخارج

1- السعدي ،المصدر السابق ،ص 144 .

2- كاغ أو كاغو : وتسمى غاو وهي على ضفة نهر النيجر من جهة الشرق ،وتختلف المصادر في تسميتها فنجدها كوكو عند الإدريسي وحسن الوزان ويذكرها المهلبي بكاكو وقد احتلت المرتبة الأولى تجاريا في وسط نهر النيجر ،وفي أواخر القرن السادس عشر الميلادي أصبحت مملكة سنغاي .ينظر : ابن سعيد المغرب ، المصدر السابق ،ص93 .

3- السعدي ،نفس المصدر السابق ،ص143-144.

4- نفسه ،ص144 .

5- السعدي ،المصدر السابق ،ص21 .

كاستقدام الساحلي[1] إلى بلاد السودان الغربي، حيث أحدثت الهندسة التي جاء بها آنذاك، ثورة في مجال البناء وقد ذكر ابن بطوطة ذلك من خلال مشاهداته للمساجد والقصور في مدينة تمبكتو التي بناها الساحلي الذي جاء مع سلطان دولة مالي الإسلامية منسا موسى بعد رحلة الحج الشهيرة التي كانت في 724ه/1323 م كالقصر الملكي في نياني .

كما تم استقدام مهندسين وصناع مغاربة[2] قصد تعليم الصناع السودانيين معظم التقنيات التي كانت معروفة عندهم من نقش وحفر على الجدران وكتابة الخط الكوفي أو الفارسي أو المغربي عليها[3]، ومن الملاحظ أن عهد الأساكي المتأخرين وما صاحبه من اضطرابات كان من بين أهم العوامل التي أدت إلى تراجع الثورة العمرانية في بلاد السودان الغربي خلال القرن السادس عشر الميلادي ،وكانت فترة الحكم المغربي لهذه البلاد سببا في محدودية المنشآت الضخمة لأن المغاربة انصرفوا لبناء الحصون خاصة ،و لم يظهر أي طابع فني جمالي على المباني إلا بعض الاستثناءات المتمثلة في مباني الحكام وميسوري الحال.

إن الحديث عن المنشآت المعمارية الكبرى لا يكاد يذكر في القرى والبوادي لأنها بقيت على حالها الأول أي أنها لا تتعدى أن تكون بدائية لأنها مبنية من الطين وهي على شكل أكواخ مستديرة مبنية بأوتاد محاطة ومسقفة بالتبن [4]، ولا تزال بعض الأكواخ قائمة إلى يومنا هذا في بعض المناطق من إفريقيا جنوب الصحراء ، و بجانب هذه الأكواخ فناء أو زريبة للحيوانات التي كانت تستعين بها في حياتها[5]، وعلى العموم فقد اختلف النسق العمراني كما سبق وأن أشرنا بين المدن والأرياف التي بقيت بدائية تعتمد على وسائل بسيطة في غالبيتها من الأعشاب والأشواك أما الأغنياء فقد كانت مساكنهم تبنى من طرف البنائين الأجانب[6] ،حيث

1- هو ابراهيم الساحلي والمعروف بالطويجن مهندس معماري وأديب2. ،غرناطي أدخل نمط جديد من المعمار في بلاد السودان الغربي .ينظر: السلاوي ، المرجع السابق ،ج3 ،ص152.

2- لقد عرف مهندس لآخر في مملكة مالي الإسلامية وهو معلوم إدريس والذي كانت له عدة منشآت في جني ويعتقد الأستاذ عبد القادر زبادية بأنه كان من مساعدي الساحلي لأنه عاصره وعاش معه .ينظر :زبادية ،مملكة سنغاي ..... ،المرجع السابق ،ص107.

3- محمد الغربي ،المرجع السابق ،ص624 .

4- حسن الوزان ، المصدر السابق ،ج2،ص163 .

5- زبادية ، مملكة سنغاي ،المرجع السابق ،ص132 .

6- التونسي ، المصدر السابق ،ص195-199 .

كانت تبنى من الطوب الأحمر ، وقد تأثرت بالطابع الإسلامي في باقي البلاد الإسلامية حيث كانت لها أحجام مختلفة وذات طوابق في الغالب وكانت لها أبواب ونوافذ خشبية منقوشة بأشكال جمالية، ولها باحات طويلة وغرف فسيحة بها نقوش عربية جميلة[1].

في ظل هذه التحولات في النسق العمراني ، تشير المصادر إلى تزايد عدد الدور في المدن الكبرى لبلاد السودان الغربي[2]، وخلال القرن السادس عشر وحتى بداية القرن السابع عشر ميلادي /الحادي عشر هجري ،ظهرت الأبنية الشاهقة ذات الطابع الأندلسي المغربي خاصة في مدينة غاو تحت إشراف شخص يدعى (وهب برى) وهو في الغالب مغربي ، وقد ذكرت لنا المصادر أن المغاربة واصلوا ما كان عليه الأساكي قبلهم في تنظيم مهنة البناء[3]، أما المواد التي استخدمت من طرف المغاربة في هذه الفترة كانت متمثلة في الكلس والأعمدة الحجرية والطين المشوي أما الأبواب والشبابيك فكانت تصنع من الأخشاب المخروطية ،وقد أدخل الجبس الصناعي إلى بلاد السودان الغربي أما بعض المواد الأخرى كالمسامير الدقيقة ،والخشنة ،وحتى الأقفال الحديدية التي كانت تستخدم في تزيين البيوت وطلائها فقد كانت تستورد من المدن المغربية[4].

لقد شهدت بلاد السودان الغربي بناء العديد من القصور في فترة الحكم المغربي وهي خاصة بالبشوات الذين حكموا البلاد ،وخاصة في تمبكتو وهي على النسق المغربي فتميزت بالضخامة وقوة البناء واتساع القبب والحجرات ، أما الأسقف فكانت نصف كروية وهو الطابع الذي تميزت به المباني المغربية في تمبكتو[5] ،أما باقي المباني فكانت أسقفها منحدرة من جهة واحدة وهي بذلك وفق الطابع الأندلسي والصحراوي ،وهذه الأشكال الهندسية إنما

1- الغربي ،المرجع السابق ، ص35 .

2- يشير كعت إلى تطور عدد منازل مدينة كاغو في عهد الملك الأسكيا إسحاق بسبعة آلاف وستمائة وستة وعشرين دارا .ينظر : كعت ، المصدر السابق ،ص146 .

3- كان الأسكيا الحاج محمد قد عمل على تنظيم مهنة البناء ،فعمل المغاربة بعد دخولهم لبلاد السودان الغربي على هذا النهج فأشرف على الصناع في مجال البناء مهندسون مغاربة أو أندلسيون مثل وهب برى وابن الطاغ والذي عرف بلقب (المعلم الأمين) وقد كان ذلك في مدينة غاو وجني على هذا النسق .ينظر : الغربي ،المرجع السابق ،ص625 .

4- الغربي ،المرجع السابق،ص626 .

5 - Mauny, Tableau, p312.

كانت لمقاومة العوامل الطبيعية، الأمطار الموسمية أو الحرارة في فصل الجفاف الذي كان يسود معظم شهور السنة وهذا قصدا الاحتفاظ بالرطوبة والبرودة في الغرف أثناء الفصل الحار .

أما الشكل الهندسي الآخر والمتمثل في البيوت المقببة تبنى بالآجر الصغير المتراص[1] مع بعض الفتحات في الجنبات ،أما الأسقف المنحدرة فكانت تحمل على الخشب الذي تغطيه الألواح الرقيقة التي تجلب من المغرب لدى العائلات الميسورة في الغالب أما العائلات المحدودة الدخل فكانت هذه الأخشاب تعوض بالأعشاب والأشواك المنتشرة في الأراضي المجاورة[2].

وقد اتخذت العديد من الأبنية في بلاد السودان الغربي شكلا هرميا وهو ما تميزت به على الخصوص مساجد بلاد السودان الغربي التي مازالت بعضها قائمة إلى يومنا هذا ، وأغلب هذه الأبنية الهرمية كانت تتألف من طابقين بها نوافذ صغيرة تطل على الخارج أما النوافذ الكبرى فكانت تطل على الفناء الداخلي ،أما القسم العلوي من هذه المباني فقد كانت تبرز منها العديد من الأعمدة الخشبية المتبقية من السقف[3] .

من خلال ما ذكره المؤرخ محمد الغربي نلاحظ أنه ركز على بيوت الميسورين من أهل السودان الغربي خلال فترة الحكم المغربي بالخصوص ،لأنها في الغالب كما قال كانت لها مساحات كبيرة وبها غرف كثيرة ، وحتى العبيد كانت تخصص لهم غرف وفي أسفل البيت كانت تشيد سراديب للحفاظ على الرطوبة ، وهو بذلك ينفي أو يقلل – على الأقل–من شأن الفترة التي سبقت الوجود المغربي ولكن الثابت من خلال المصادر التي تعرضت لذكر مدن السودان الغربي فإنها تشير إلى مدى الثراء الذي تميزت به حواضر السودان الغربي(كجني وغاو وتمبكت) وحتى البيوت والمزارع التي ملكها أهل البلاد أو الوافدين إليها من التجار والذين

1-يعتبر الساحلي أول من بنا المسجد الكبير في تمبكتو بالآجر وهو أمر لم يكن معروفا لدى السودانيين قبل ذلك فأقام له صومعة من خمس صفوف والقبور لاصقة بها من خارجها في جهة اليمين وقد أطلق على المسجد الكبير فيما بعد اسم جنجير بر وقد، جدد هذا المسجد بين سنتي 991و995 ه/1583و1587 م وتمت توسعته .ينظر:السعدي ،المصدر السابق ،ص56 .ينظر :

Robert et Marianne Cornevin :Histoire de l'Afrique (des origines à La deuxième guerre mondiale.4ème édition, Petite Bibliothèque Payot,Paris, 1964,p164.

2- الغربي ،نفس المرجع السابق ،ص627 .

3- ابن المختار ،تذكرة النسيان ،ص76 .

استقر بهم المقام في هذه البلاد أما في حديثه عن الطبقة العامة وخصوصية بيوتها فلم يول أي اهتمام بها مما يوحي ببساطة عيشها ومساكنها، حيث أشار بقوله أن بيوت العامة والعبيد كانت في غاية البساطة [1] .

بالرغم من التفاوت الذي عرفه النسق العمراني في بلاد السودان الغربي إلا أننا نلمس روح العمارة الإسلامية الشرقية والغربية فيها وذلك من خلال النقوش العربية ككتابة الآيات القرآنية على الجدران ،وبالرغم من الاضطرابات التي عرفتها بلاد السودان الغربي خلال القرن السادس عشر ميلادي / الثالث عشر هجري إلا أنها حافظت على الطابع العمراني السوداني الإفريقي وعلى المستوى الحضاري الذي وصلت إليه قبل هذه الفترة .فقد استطاعت العديد من الشخصيات المعمارية في هذه البلاد أن تحقق تمازجا بين العمارة السودانية الإفريقية والعمارة المغربية الأندلسية وهذا ما نسميه بصنع الكيان الإفريقي السوداني الإسلامي .

[1] – لقد أسهم محمد الغربي في الحديث عن العمارة في فترة الحكم المغربي لبلاد السودان الغربي وكانت إشاراته للفترة التي سبقت ذلك مقتضبة .

ثانيا : التغيرات التي طرأت على البنية الاجتماعية في بلاد السودان الغربي :

اشترك أهل بلاد السودان الغربي كباقي شعوب العالم في التنظيمات الاجتماعية انطلاقا من الأسرة والقبيلة إلى الطبقات الاجتماعية ،ولكن هذه التنظيمات كانت لها خصوصيات في بلاد السودان الغربي منذ أقدم العصور نظرا إلى انبثاقها من بنية اجتماعية قوية وإحاطة حاضنة روحية مكنتها من الصمود في وجه رياح التغيير الوافدة من الحضارات الأجنبية بدءا من الفينيقية واليونانية والرومانية ثم الإسلامية وانتهاء إلى موجة الاستعمار الحديث، ولكن الثابت أن دخول الإسلام إلى هذه البلاد جعل التقاليد تخفت وتهذّب ،مع ما يتوافق مع الدين الإسلامي ،وأصبحت بذلك نتاجا أفريقيا إسلاميا أصيلا لأن تأثير الإسلام على أهل هذه البلاد كان كبيرا على غرار باقي الديانات فتغير مفهوم الطبقات والفئات الاجتماعية في ظل الإسلام حيث ترسخت فيها تعاليم الإسلام بشكل جلي .

1- تطور التنظيمات الاجتماعية :

لم تختلف أرض السودان الغربي عن باقي شعوب العالم من حيث تنظيماتها الاجتماعية انطلاقا من اللبنة الأولى في المجتمع ألا وهي الأسرة ،والقبيلة ،والطبقات الاجتماعية ،لكن خصوصية البلاد وبيئتها وعنصرها البشري جعل بنيتها الاجتماعية تكتسي بعض الخصوصية قبل الإسلام وبعده بسبب خروجها من حاضنة روحية قوية صمدت بفضلها في وجه المؤثرات الحضارية الخارجية ،والتي استطاعت أن تضعفها ولكن لم تقضي عيها نهائيا، وقد عرفت بالتنظيمات الاجتماعية الفطرية [1] .

تعتبر الأسرة أهم التنظيمات الاجتماعية في بلاد السودان الغربي حيث كانت قائمة على نظام الأمومة لأن الإفريقي والمقصود به هنا جنوب الصحراء الكبرى ، إذ نجد أن المجتمعات البشرية تخلصت من هذه الظاهرة ولكن في هذه المنطقة كان التطور الحاصل فيها بطيء نوعا ما لارتباطه بالمعتقد الديني والخاص بالعناصر التي تؤلف كيان الإنسان وأساسها نسمة دم الأم التي تنتقل لوليدها فتظل بذلك عنصرا مقدسا في كيانه وتأتي بعدها نسمة الأب والنسمة الإلهية

1- أسماها المستشرق الانجليزي توماس أرنولد(1864-1930)النظم الفطرية وأشار إلى أنها تتعارض مع الشريعة الإسلامية .ينظر : أرنولد توماس ، الدعوة إلى الإسلام ،تر:حسن إبراهيم حسن وآخرون ،مكتبة النهضة المصرية ،(د.ت)،القاهرة ،ص226 .

ونسمة الطباع التي تكتمل مع بلوغ الطفل .وانطلاق من ذلك فإن رابطة الانتماء تكون للأم وأهلها وليس للأب ،فيكون بذلك الخال أقرب إلى الابن من أبيه حتى أن سلطة الخال تتجاوز سلطة الأب في بلاد السودان الغربي ،أما الابن فيهاب خاله أكثر من أبيه ولا يقدم الابن على فعل شيء حتى يستشير خاله .

وقد كانت التقاليد تمنح الحق للخال ببيع ابن أخته أو رهنه ضمانا للوفاء بالدين ، ومن ناحية أخرى فقد عمل الرجال في بلاد السودان الغربي على الزواج بعدد غير محدد من الزوجات ولما دخل الإسلام إلى هذه البلاد بقي البعض من أهلها يجهل أو يتجاهل التحديد ولكن مع تجذر الإسلام في البلاد بدأت هذه العادات في الاختفاء ، وقد أورد لنا القلقشندي (756ه/1355 م-821ه/1418 م) ، نقلا عن العمري حادثة تصف هذا الحال فقال "وذكر لي عنه ابن أمير الحاجب أنه حكى له أن من عادة أهل مملكته أنه إذا نشأ لأحد منهم بنت حسناء قدمها له أمة موطوأة فيملكها بغير تزويج مثل ملك اليمين فقلت : إن هذا لايحل لمسلم شرعا ، فقال : ولا للملوك ؟ فقلت : ولا للملوك واسأل العلماء ، فقال : والله ما كنت أعلم ذلك !وقد تركته من الآن "[1] .

نلمس من خلال ذلك أن التنظيمات الاجتماعية في بلاد السودان الغربي ، اكتست بعض الخصوصية رغم أنها لا تختلف عن سائر شعوب العالم في الهيكل البنائي لها ،والمتمثل في الأسرة والقبيلة والطبقات الاجتماعية إذ نجد أن الأسرة كانت قائمة على نظام الأمومة والذي هو منبثق من أساس ديني واجتماعي . أما الأساس الاجتماعي فهو مرتبط بالأوضاع المعيشية التي تتحملها الأم من إنجاب وتنشئة ، وهذا ما خول لها الانتساب رغم أن المجتمعات الأخرى تخلت عن هذه الظاهرة ببروز دور الرجل في الحياة الأسرية والتطورات الاقتصادية التي عرفتها الشعوب على مر التاريخ وكذا الحروب والأعمال العسكرية .إلا أن التحول في بلاد السودان الغربي كان بطيئا في مجال التخلي عن انتساب الأبناء إلى أمهاتهم ،فبقي متجذرا في مجتمعات الصحراء الكبرى الإفريقية وحتى المناطق الاستوائية في القارة الإفريقية .

أما الأساس الديني الوثني الذي قام عليه نظام الأمومة في هذه البلاد فكان قائم على الاعتقاد بأن الطفل نسمة دم الأم ، فتظل عنصرا مقدسا في كيانه طالما عاش ثم تليها النسمة

[1] - القلقشندي ، المصدر السابق ،ج5،ص285 .

المنحدرة من الأب والنسمة الإلهية ونسمة الطباع التي لا تكتمل إلا ببلوغ سن المراهقة عند الفرد .ومن هذا المنطلق ظل نظام الأمومة مستمرا لفترة طويلة جدا في المجتمعات الإفريقية فاحتلت بذلك المرأة مكانة هامة وكبيرة في بلاد السودان الغربي حتى بلغت جرأتهن على مواجهة مجتمع الرجال مبلغا كبيرا وهذا ما تعجب له الرحالة المسلمون ممن زاروا هذه البلاد.

لكن مع وصول الإسلام إلى هذه المناطق تم التخلي التدريجي عن هذه الموروثات الاجتماعية استجابة لتعاليم الدين الإسلامي والذي ألغى نظام الأمومة و أعطى لكل فرد في الأسرة مكانته وحفظ لكل فرد في الأسرة حقوقه ، أما القبيلة فهي الأخرى تعتبر أحد أهم التنظيمات الاجتماعية في بلاد السودان الغربي ، فقد كان البعد العرقي والبعد الاقتصادي عاملين أساسيين في تكوين مفهوم القبيلة في هذه البلاد ورغم ذلك بقيت القبيلة عند مجتمعات جنوب الصحراء الإفريقية مرتبطة بالأرض ارتباطا شديدا لأنها كانت تسمى باسم الأرض التي تقيم فيها فضلت لفترات تاريخية طويلة على هذا النحو إلى أن دخل الإسلام إلى هذه البلاد ،واستجابة لتعاليمه السمحة تراجعت حدة العصبية القبلية والصراع القبلي في هذه البلاد .

2- تغير مفهوم الطبقية في بلاد السودان الغربي :

لم يلزم النظام الطبقي في بلاد السودان الغربي الأفراد بدرجة ثابتة لا يمكن لصاحبها الارتقاء إلى ما فوقها حيث أصبح بإمكان كل فرد الارتقاء من طبقة إلى أخرى أعلى منها وخاصة في ظل تعاليم الإسلام التي أثرت بشكل كبير في البنية الاجتماعية فقربت بين طبقاتها وقد ذكرت لنا المصادر السودانية على وجه الخصوص العديد من الأمثلة التي جسدت ذلك التقارب بين مختلف الطبقات وهذا ما ذكره محمود كعت في تاريخ الفتّاش كذكره لتقبيل ملك مالي داود ليد أحد العبيد القادمين من الحج ، وعتق أبناء عجوز التي طالبت الملك أن يبيع أبنائها مجتمعين أو يردهم وذكر كذلك تحول أحد الأفراد من طبقة لطبقة أخرى [1]، وقد ذكرت أمثلة أخرى لتحول أفراد من طبقة لأخرى ، وهو ما ذكره ابن خلدون عن تحول أحد العبيد إلى ملك على مالي بعد انقلابه على الملك الشرعي حيث قال : " ثم ولي من بعده مولى من مواليهم تغلّب

[1]- لقد ذكر كيف تحول أحد عبيد الأسكيا محمد الكبير من عبد إلى كبير مستشاريه وهو علي فلن .ينظر : كعت ، المصدر السابق ،ص ص 60، 111، 103، 109 .

على ملكهم[1] اسمه ساكوره... "[2].كما استطاع أحد عبيد الاسكيا محمد ويدعى علي فلن، لأن يكون مستشارا خاصا للملك ومن ذوي الحظوة ، وله من الأملاك والأطيان ما يملكه نبلاء القوم [3]،ولقد تكررت هذه الظاهرة حتى مع حكام آخرين حيث سمحوا لمستخدميهم من العبيد على الارتقاء في المناصب .

أما باقي الطبقات التي كانت موجودة فقد بقيت موجودة هرمية الشكل لكن متحركة متفاعلة مع بعضها البعض بداية من الطبقة الأولى وهي الطبقة الأرستقراطية وفيها أفراد الأسرة الحاكمة والأثرياء وقادة الجيش ،والذين هم من نفس العائلة الحاكمة في الغالب بسبب الخوف من الانقلاب على الملك ومخافة خلق الاضطرابات ، وقصد استمرار السلطة ،أما الطبقة الثانية فكانت تتمثل في التجار الأجانب ممن لقوا الحظوة من الحكام والتجار المحليون ،وإلى جانب هؤلاء أهل العلم من الأئمة والقضاة والمدرسين .

أما العبيد الذين جاء ذكرهم فهم في مؤخرة الهرم الطبقي في المجتمع السوداني كغيرها من المجتمعات وإلى جانبهم أصحاب الحرف الصغيرة ،ولكن الشيء الذي يجب ذكره هو أن طبقة العبيد لم تكن مجرد طبقة اجتماعية متدنية وإنما كانت في بلاد السودان الغربي ظاهرة اقتصادية كان لها دور بارز في تاريخ هذه المنطقة من إفريقيا، إذ اعتبر من النشاطات المربحة والتي تساهم بقسط هام من مدا خيل الدولة وقد مورست تجارة العبيد بشكل ممنهج وعلني حيث كانت من أهم صادرات البلاد ،وذلك عن طريق تجميعهم في باحات كبيرة في مدن كغاو ،وتوات، وأودغست و زويلة فيباعون مقابل الخيل والمنسوجات، وكانت بلاد المغرب أكثر استقبالا لهم وهذا ما أشار إليه الإدريسي فقال :" وأهل تلك البلاد المجاورة لهم يسبونهم في كل الأحايين بضروب من الحيل ويخرجونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار قطارا ويخرج منهم في كل عام إلى المغرب الأقصى أعدادا كثيرة ..."[4].وقد استنكر العديد من العلماء هذه الظاهرة ورفضوها في ظل الأحكام الشرعية .

1- هوأحد ملوك أسرة كيتا إذ هي من أسست إمبراطورية مالي وحكمتها بداية من سوندياتا كيتا (Soundjata Keita. 1190- 1255)

2- ابن خلدون ،العبر ،المصدر السابق ،مج6 ،ص414.

3- كعت ،نفس المصدر السابق ،ص73 .زمان عبيد وناس ،المرجع السابق ،ص107 .

4- الادريسي ، المصدر السابق ،مج1،ص22 .

من خلال هذه الأمثلة التي سقناها يتضح لنا أن مفهوم الطبقية في بلاد السودان الغربي أخذت منحى آخر و لم تبق حبيسة الأعراف والتقاليد والنظم القديمة التي حددت فيها الطبقات وفق العامل الوراثي أو الاقتصادي والتي لم تكن تسمح بتغيرها مهما كانت الظروف والأسباب فبعد دخول الإسلام إلى هذه البلاد ذابت هذه التقاليد الموروثة و لم تعد ثابتة كما كانت، أما النظام القبلي الذي كان قائما بدأ في التفتت تدريجيا بعد دخول الدين الإسلامي إلى تلك المنطقة مع بقاء بعض الرواسب،حيث أن ظهور الممالك في السودان الغربي لم يكن سوى بسبب التجمعات القبلية وفي بعض الأحيان كان يرافقها الوازع الديني ،فمملكة غانة قامت على تكتل قبلي وثني لقبائل الساراكوله Sara kolles المنحدرة من قبيلة السوننكي[1] ، أما مملكة مالي فقد قامت عل سواعد الماندينغ المسلمين ،ومملكة غاو فقد قامت بيد قبائل السونغاي.

فإن هذا النظام القبلي الذي تتفرع منه عدة عشائر هو الذي حكم بلاد السودان الغربي لعدة قرون وبهذا فإن البعد العرقي أصبح يتحد مع البعد الاقتصادي في تكوين مفهوم القبيلة في بلاد السودان الغربي.وبالرغم من أن النظام الطبقي في بلاد السودان الغربي كان نظاما هرمي الشكل متحركا، لطبقاته ثلاثة مستويات متفاعلة مع بعضها البعض حيث كانت على الشكل التالي :

- الطبقة الأولى : كانت تمثل أفراد العائلة المالكة وكبار الأثرياء وقادة الجيش ، والذين هم تقريبا من نفس الأسرة .
- الطبقة الثانية : وهي تضم التجار والقضاة والأئمة والمدرسين .
- الطبقة الثالثة : وتضم العبيد في المدن و الأقنان في البوادي وأصحاب الحرف الصغرى .

لقد عرفت هذه الطبقات العديد من مظاهر التحول سنحاول ذكر أهمها في جميع الطبقات وهي على النحو التالي :

1- يخضع مجتمع السوننكي التقليدي بالأخص خاضعا في بعض جوانبه ،لنظام الفئات الاجتماعية حسب تعريف الفرنسي سلستين بوكلي Célestine Bouglé فهويتقسم إلى طبقات متمايزة متكاملة تختص كل واحدة منها بمهنة يتوارثها أفرادها جيلا عن جيل إلا أن النظام يزداد تعقدا إذا أخذنا في الإعتبار تطابقه مع العصبية القبلية والدور المركزي الذي= =تلعبه القرية كوحدة بنيوية في المجتمع .ينظر : Bouglé(célestin) ,Essai sur le régime de castes.Ed : PUF.1908.p4.

أ- التغير الذي طرأ على الملوك :

تحولت ممارسات الملوك وطرق حكمهم للرعية انطلاقا من تصرفاتهم اليومية في بلاط الحكم وفي مجالسهم وأيام الأعياد والمناسبات الدينية ،فكانت هذه الممارسات منبثقة من الشريعة الإسلامية وقد ذكرنا جانبا من هذه الممارسات مع الرعية في المباحث السابقة وذكرت لنا المصادر الكثير عن ما كان يجري في مجالس ملوك مالي أو سنغاي ، حيث اقتبس الكثير منهم مظاهر الحكم في بلاد المشرق العربي وخاصة فيما تعلق بالحياة العامة داخل القصور كجلب العبيد وتعيين الحرس الخاص قصد الحماية [1].

لقد لاحظنا مدى التحول الذي طرأ على بلاطات الملوك سواء في دولة مالي أو سنغاي من خلال إقامة القاعات الخاصة باستقبال الناس، والتي في الغالب كانت مجاورة لقاعة العرش أما الحاشية التي كانت ترافقه في مجالسهم، فقد كانت تتألف من القاضي ، وبعض الفقهاء ، والترجمان، ورجال الدولة كما كانوا محاطين بكم هائل من العبيد[2]، وحتى مجالس السمر والموسيقى كان لها نصيب في تلك المجالس،حيث كانت تعمل على مدح الملوك والتغني بهم[3] وقد عمل ملوك السودان الغربي على إقامة الحرس الخاص بهم والذين كانوا في الغالب يختارون من الأقارب[4].

إن المتتبع لهذه التغيرات التي طرأت على بلاطات ملوك السودان الغربي يستشف بمدى التأثر بباقي المناطق الإسلامية سواء في بلاد المشرق أو بلاد المغرب ،أما حرص هؤلاء الملوك على وضع الحرس الخاص من المقربين ففيه دليل على أن الأوضاع السياسية لم تكن مستقرة بالمعنى الكامل وأن العرش ظل مطمع أفراد الأسرة الحاكمة من الأبناء و الإخوة ،وحتى من طرف حكام المناطق المجاورة .

1- الوزان ،المصدر السابق ،ج2،ص169 .

2- ذكرت بعض المصادر أن العدد قد وصل إلى ثلاثمائة عبد ،ينظر :ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2 ،ص373 .

3- ابن بطوطة ، نفس المصدر السابق ،ج2 ،ص ص373 ،375 .

4- عمل الملوك على إحاطة أنفسهم بالمقربين إليهم وممن يضمنون ولائهم وذلك خشية الإطاحة بهم وخوفا من الدسائس التي كانت شائعة في تلك الفترة .ينظر :نعيم قداح ،إفريقيا الغربية ،ص113 .

لقد تخلص الملوك في بلاد السودان الغربي من العادات الوثنية وخاصة عند مقابلة الرعية وبالخصوص ظاهرة التتريب[1] والتي كانت شائعة عندهم فغيروها بالتصفيق كدليل على الاحترام[2].أما الظاهرة التي انتشرت كذلك عند ملوك السودان الغربي فقد كانت هو استعمال الأسماء العربية الإسلامية كإدريس وموسى وعبد الله ومحمد وغيرها من الأسماء العربية و أصبح الملوك أكثر تواضعا للرعية حيث أصبحوا يصافحون كل من يتقدم لمصافحتهم وحتى الأكل مع العامة في المناسبات [3] و لم يكن ذلك شائعا عندهم ، إذ اقتصر ذلك في السابق إلا على كبار رجال الدولة وعلى رأسهم القاضي [4]، وهذا يتنافى وتعاليم الإسلام السمحة التي تأمر بإلقاء التحية مصداقا لقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴾[5] .

وفي هذا الشأن نجد أن بعض المصادر ذكرت بعض ملوك بلاد السودان الغربي كالملك منسا موسى بعض الأفعال التي تتناقض مع ما عرف عنه وخاصة رحلته الشهيرة إلى الحج والتي كانت أحد أهم أسباب شهرته حيث أشار العمري أن هذا الملك لم يكن يتوانى في قتل كل من يدخل عليه وهو يرتدي نعله ، أي يجب على كل من يدخل عليه في مجلسه أن يكون حافي الرجلين[6] ولكن هذه الرواية لا تتوافق مع ما ذكرته المصادر التاريخية عن أخلاق وخصال هذا الملك[7]، وما عرف عن ملوك بلاد السودان الغربي(مالي و سنغاي) سوى أنهم تميزوا بالبساطة وحسن الأخلاق وقد سقنا في السابق بعض الأمثلة عن ذلك كعتق الرقيق وإقطاع

1- التتريب هي وضع التراب على الرأس كتحية يقوم بها الأفراد عند الوقوف في بلاط الملك كدليل على الاحترام والتبجيل ، وقد شملت هذه الظاهرة من لم يسبق لهم مخاطبة الملك من قبل أو الوافدين من خارج البلاد مثل السفراء ينظر : الوزان ،نفس المصدر السابق ،ج2،ص166.

2- البكري ،المغرب ،ص176 .

3- كعت ، المصدر السابق ،ص35 .

4- لقد ذكر القلقشندي أن سلاطين مالي لم يكونوا يأكلون إلا بمفردهم حتى في الاحتفالات والمناسبات .ينظر : القلقشندي ،المصدر السابق ،ج5،ص289 .

5- سورة النساء الآية 86 .

6- العمري ،المصدر السابق ،الباب التاسع ،ص66 .

7- لقد عرف هذا الملك بتقواه وحسن عشرته وكرمه ،ينظر : الشكري ،المرجع السابق ،ص249 .

الأراضي[1] وإكرام الوفود والضيوف ،والاهتمام بالفقراء ومنحهم العطايا وتخصيص الرواتب للأرامل والمحتاجين وحتى الحدائق العامة حيث بنى الأسكيا داود حديقة للمساكين وجعل لها ثلاثين عبدا لخدمتهم[2]، وقد تغيرت حتى ملابسهم وملابس حاشيتهم وذلك بارتداء الثياب الفاخرة ،حيث تميزت بارتداء العمامة وانتعال الخف أما غلمانه فقد لبسوا على رؤوسهم الشواشي البيضاء، كما لبس ملوك غانة السراويل المصنوعة من القطن الرقيق والنعال الجلدية ، وكثيرا ما تشبه ملوك السودان الغربي بالعرب في لباسهم[3]، ومن كثرة تلك الملابس التي كان يرتديها الملك ذكرت بعض المصادر أنها وصلت إلى حوالي عشرين كيسا من الألبسة[4]، إلى جانب ذلك فقد تميز ملوك السودان الغربي بشكل عام بلباس خاص لا يجرؤ أحد من الرعية أن يلبس مثله أو قريبا منه، وهذا حتى يتميزوا عن الرعية .[5]

وإذا تحدثنا على جانب آخر، يتبين لنا مدى التأثير الذي كان لباقي بلدان العالم الإسلامي على بلاد السودان الغربي هو الاحتفالات التي كانت تقام عند تولي ملوك السودان لعروشهم إذ كانت الاحتفالات تمتد لأكثر من يوم وذالك بقرع الطبول في جميع البيوت مع الرقص والسمر لآخر الليل ،ليباشروا مهامهم في اليوم الموالي بتوزيع الهبات على الفقراء، والمساكين [6].

كان الملوك يحرصون في اليوم الثاني من توليهم للعرش على أن يؤدي موظفي القصر قسم الولاء للملك ، ويوضع بذلك على رأس الملك العمامة الخضراء والسيف والبردة وهي التي أعطاها أحد أشراف مكة للحاج أسكيا محمد الأول عندما نصب على السودان الغربي في حدود سنة 902 ه/1496 م[7].

1- لقد جاء في المصادر أن الأسكيا محمد الأول أنه أعتق جماعة من العبيد كان سن علي قد استرقهم حيث كتب في عهده لهم ينظر: كعت ،نفس المصدر السابق ،ص ص73 - 144 .

2- كعت محمود ، المصدر السابق ،ص226 .

3- الهادي المبروك ، مملكة مالي ،ص84-85 .

4- تحدثت المصادر عن حجم الألبسة التي كان يرتديها ملوك مالي و سنغاي ونوعيتها الباهظة الثمن ،ينظر : كعت، نفسه ،ص86 .سيسوكو،المرجع السابق،مج4،ص209 ،زبادية ، المرجع السابق ،ص160 .

5- الهادي ،المرجع السابق ،ص84 .

6- السعدي ، المصدر السابق ، ص91 .

7- المصدر نفسه، ص73 .

رغم وجود اختلافات طفيفة بين سلاطين وملوك بلاد السودان الغربي وملوك باقي البلاد الإسلامية وذلك لخصوصية البلاد ومجموعة العادات الموروثة ، إلا أن ملوك السودان الغربي عملوا على نقل مختلف العادات التي تعرفوا عليها في رحلات حجهم أو ما اطلع عليهم رسلهم إلى ممالك البلاد الإسلامية سواء في المشرق أو المغرب الإسلاميين.

لقد أصبحت بذلك بلاطات بلاد السودان الغربي لا تختلف في العموم على نظيراتها في باقي بلاد الإسلام من حيث التنظيم و التجهيز ، والجدير بالذكر أن ملوك السودان الغربي قد تحروا الصدق و أحبوه حيث أوردت المصادر العديد من الأحداث التي دلت على ذلك وذلك ما أورده كعت[1]، وفي الجانب الإداري فقد تبنى ملوك السودان الغربي وخاصة في مملكة سنغاي نظام البيعة في الحكم المستمد من أنظمة الحك في البلاد الإسلامية العربية فكان الجند أول من يبايع السلطان ويحلفون على المصحف الشريف بالولاء والطاعة للملك وهذا ما سجله لنا السعدي في مملكة سنغاي حينما ذكر بيعة ابن الأسكيا داود محمد فقال : "فلما فرغوا من دفن والدهم بايعه القياد والأجناد وسائر الخلق والعباد ..."[2] وقد كان هذا النظام يقوم على تجديد البيعة عند الحكام السودانيين، حيث سجل لنا السعدي كذلك بعض الحوادث المتعلقة بالبيعة في المسجد أيام الأساكي مما يدعونا إلى الاستنتاجات التالية وهي :

- أن مبايعة الحكام في بلاد السودان الغربي كانت تتم في المساجد وذلك على غرار التقليد المتعارف عليه في باقي البلاد العربية الإسلامية إذ كانت معظمها تتم في القصور وبلاطات الحكم .
- كانت طريقة البيعة تتم عن طريق أداء اليمين على كتاب الله والأحاديث النبوية الشريفة في الصحاح كالبخاري ومسلم

فكان كل ذلك يضفي على الحاكم الشرعية في حكمه ومن جهة أخرى كانت هذه التقاليد تبين مدى التزام الحكام بتعاليم الإسلام . فكان بذلك تحولا هاما في نظم الحكم التي اتبعها ملوك السودان الغربي .

ب- مظاهر تحول الطبقة الثانية :

1- كعت ، المصدر السابق ص43 ،الهادي ، المرجع السابق ،ص83 .

2- السعدي ،نفسه ،ص115 .

عرفت الطبقة الثانية في الترتيب الهرمي لدى مجتمع السودان الغربي عدة مظاهر للتحول وذلك من خلال الملامح التي أصبحت تميزها عن ما كانت عليه في السابق في مقدمة هذه الطبقة نشير إلى القضاة ، وبحكم المكانة التي كانت تولى إليهم في المجتمعات الإسلامية بسبب احتكاكهم مع المجتمع والدور الذي تلعبه فيه .فلم يكن يرشح لهذا المنصب إلا من تتوفر في الشروط اللازمة، و لا يتصدر لها إلا من كان قادرا عليها وذلك مصداقا لقوله تعالى : " ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾[1] ، وبما أن مهمة القاضي هي الإخبار عن حكم شرعي على سبيل الإلزام[2]. فإن ملوك السودان الغربي سعوا جاهدين على تطبيق الشرع وما جاء به من أحكام ،قصد تحقيق العدالة الاجتماعية بحفظ الحقوق والأموال والأنفس والأعراض وصون القيم والأخلاق ومنع الظلم والعدوان.

لقد كانت من أهم التقاليد المعمول بها في بلاطات ملوك بلاد السودان الغربي ابتداء من ملوك غانة،هي عقد المجالس للنظر في المظالم سواء في العهد الوثني أو في العهد الإسلامي وهذا ما ذكره البكري والإدريسي في الحديث عن مجالس ملوك السودان الغربي وعن عدلهم وكيفية قضائهم في المظالم[3] ، لكن من الواضح أن مجالس ملوك السودان الغربي وعبر كامل المراحل والدول التي مرت بها هذه المنطقة قد تغيرت ،لأنها كانت بدائية لدرجة لا يمكن تقبل الأحكام التي كانت تصدر في حق المتهمين لسبب حكم الماء مثلا[4]، وخاصة بعد أن أصبحت هذه البلاد تعج بالعلماء حيث أسندت مهمة القضاء إلى كوكبة من هؤلاء العلماء أفذاذ لا يخشون في الله لومة لائم ، حتى أن بعض المصادر السودانية أشارت إلى أن البعض منهم

1- سورة المائدة : الآية 44.

2- لقد عرفه ابن رشد المالكي ونقله هذا التعريف ابن فرحون مع الموافقة عليه .ينظر : إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام ، دار الكتب العلمية ،بيروت ،1301 هـ / 1883 م، الجزء 2،ص8.

3- تشير معظم المصادر إلى حرص ملوك السودان الغربي على العدل بين الرعية من خلال التجول في الأسواق والنظر في المظالم ينظر : الإدريسي ، المصدر السابق ،ص 7 ،البكري ، المغرب ،ص 175- 176 .

4 - كانت تأخذ إفادة المتهم من طرف الأمين وهو القاضي وذلك بعد شرب المتهم لمنقوع عود من النبات فيه مرارة وحرقة كبيرة ،فإذا تقيئ فهو بريء،وإذا لم يتقيأ فهو مدان ،وهذا غير عادل .ينظر : البكري، المصدر السابق ، ص179 .

كان يتحرج عندما يعرض عليه هذا المنصب لعظمه[1]،وقد تحرى القضاة المسلمون الصدق والحقيقة في إصدار الأحكام وذلك باختيار الشهود العدول الذين يقسمون بالله تعالى على قول الحق وحتى أنهم يلامسون كتاب الله عند هذا القسم ، كما أخذ القضاء في بلاد السودان الغربي مرحلة جديدة وهي تدوين الدعاوى القضائية في سجلات خاصة وهذا دليل كبير على التنظيم الذي وصلت إليه النظم السياسية في هذه البلاد ،وفي عهد الأسكيا إسحاق الثاني(996/1592-1588 ه-1000 ه) أنشأت محاكم خاصة للنظر في قضايا القصاص والحدود لتطهير المجتمع من مختلف الآفات التي كانت موجودة فيه آنذاك[2].

إذا تتبعنا التطور الذي عرفته هذه الطبقة فقد كان لكل مدينة قاض يلجأ إليه الناس للبث في منازعاتهم ومن جهة أخرى لم يكن يتوانى القاضي في تقديم النصح للملك ، ومع حداثة دخول الإسلام في بلاد السودان الغربي كان أغلب القضاة من الوافدين على هذه البلاد من التجار الذين لهم علم بالدين وأصوله في هذا السياق نذكر القاضي عبد الرحمن التميمي الذي جاء مع منسا موسى خلال عودته من رحلة الحج سنة 725 ه/1325 م ، وغيرهم كثر من أهل بلاد المغرب كالمغيلي الذي ذاع صيته في بلاد السودان الغربي وأبو عبد الله محمد بن وانسول الذي ولي قضاء مدينة كوكو[3] ، وفي أواخر دولة مالي تولى الفقيه المفتي الحاج جد القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج[4]خطة القضاء بتنبكت وهو أول من أفتى وأمر الناس بقراءة نصف حزب من القرآن للتعليم في مسجد سنكرى بعد صلاة العصر وصلاة العشاء ، وهذا دليل على أن معظم القضاة في دولة مالي كانوا مغاربة [5]والقليل منهم من أهل تلك البلاد على عكس ما

1- لقد أورد لنا أحمد بابا بعض الأمثلة على شدة ورع القضاة إذ ذكر لنا حادثة عن القاضي العاقب بن محمد بن عمر بن أقيت أنه كان إذا رأى ما يكره ، عزل نفسه عن القضاء وسد بابه على نفسه ، فلا يزالون يلاطفونه حتى يرضى ويعود إلى القضاء ينظر : أحمد بابا التمبكتي ، نيل الإبتهاج ، ،مج1،ص399 .كعت ، المصدر السابق ،ص233.

2- لقد ذكر السعدي أنه سجل أحد العقود لأحد المتهمين . ينظر : عبد الرحمن السعدي ، المصدر السابق ، ص78 .وينظر كذلك ،سيسوكو ،المرجع السابق ،مج4،ص213 .

3- ابن خلدون ، العبر ،ج7،ص418 .

4- هو الفقيه القاضي عبد الرحمن بن أبي بكر بن الحاج وكان من نسله علماء آخرون تولوا مناصب القضاء والتعليم في مناطق أخرى من مدن السودان الغربي من قبل أسكيا الحاج محمد .ينظر: السعدي ، المصدر السابق ، ص28 ، البرتلي ، المصدر السابق، ص88 -89 .

5- محمد الغربي ، المرجع السابق ، ص393 .

كان في دولة صنغاي ، إذ أصبح منصب القاضي منصبا رسميا ولصاحبه سلطات واسعة مستقلة فكان قاضي القضاة الذي يباشر مهامه في العاصمة تنبكت هو من يعين قضاة باقي الدن والأقاليم ومن أشهر من تولى خطة القضاء في في دولة صنغاي الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد أندغ محمد[1]، والفقيه القاضي عبد الله بن الفقيه أحمد برى[2]أما أشهر أسرة تولت القضاء فكانت أسرة آل أقيت وهذا طبيعي نتيجة نبوغ أبنائها وتوارثهم للعلم بداية من الجد الفقيه القاضي محمود بن عمر الذي تولى القضاء عام 904 ه/1498 م [3]، وكذا العديد من الأسر السودانية الأخرى كأسر بغيغ كالقاضي الصالح محمود بغيع في عام (904 ه/1498 م)الذي ولي قضاء مدينة جني في عهد الأسكيا إسحاق بن الأسكيا الحاج محمد الكبير (946-956 ه/1539-1549 م)[4].

من خلال ما سقناه من أمثلة عن العدد الكبير من القضاة الذين أسند لهم هذا المنصب نلمس المكانة الاجتماعية التي أصبحت تحتلها هذه الفئة في الهرم الاجتماعي الذي تعددت طبقاته، وقد حظيت هذه الطبقة من العلماء القضاة باحترام من طرف الطبقة الحاكمة والطبقة العامة سواء في عهد دولة مالي الإسلامية أو دولة صنغاي فكان القاضي هو الوحيد الذي يصافحه الملك ،وهذا دليل واضح على علو مكانة القاضي والخطيب لأنهما من حاشيته المقربين[5]، واستمر ذلك الاحترام من طرف حكام دولة صنغاي ابتداء من أسكيا محمد الأول حيث جعلها قاعدة لمن خلفه من الملوك ، فكان لا يأكل معه إلا العلماء و الشرفاء وأولادهم وأمر بألا يقف أحد إلا للعلماء والحجاج[6]، لقد أشارت الكثير من النصوص في عهد الأساكي

1- هو الفقيه أبو عبد الله أندغ محمد بن محمد بن عثمان بن محمد بن نوح معدن العلم والصلاح ومنه نسل كثير من شيوخ العلم والصلاح من جهة الآباء ومن جهة الأمهات ومنهم منجهتهما معا .ينظر : السعدي ،نفس المصدر السابق ، ص28 .

2- عبد الله بن الفقيه أندغ محمد الكبير ، وهو من ذريته من جهة الأب والأم معا .ينظر : البرتلي ، المصدر السابق، ص158 .

3- عالم التكرور وصالحها وفقيهها ومدرسها وفقيهها بلا مدافع .ينظر : السعدي ،المصدر نفسه ،ص38-39 .كعت، المصدر السابق ، ص75 .

4- السعدي :نفسه ، ص95-96 .

5- ابن بطوطة :المصدر السابق ، ص377 .

6- كعت ، المصدر السابق ، ص72-73 .

إلى ارتفاع مكانة القضاة والعلماء بشكل كبير اجتماعيا ، من خلال التوصيات التي أكدت على وجوب تعظيمهم ،بالإضافة إلى ما حازوه من الهبات والعطايا وقد بلغوا من الوجاهة والإجلال حد كبير فأعطاهم مكانة اجتماعية ونفوذا قل نظيره وأصبحوا يدخلون المدن دخول الأمراء حيث تذكر المصادر أن الأسكيا داوود (913-991ه/1549-1572 م) خرج لاستقبال القاضي محمود كعت حينما قدم إلى غاو ،فأكرمه كرما يليق بالعلماء [1].

لقي العلماء والقضاة هذه المكانة لأنهم حملة الشريعة وحفظة الدين ، وقدحضي القضاة والعلماء على حد سواء نفس المكانة عند الطبقة العامة بسبب حرصهم على مساعدة هذه الطبقة بالعطايا التي كانت تمنح لهم من طرف الحكام،وتقربهم من كل الفئات أثناء الكوارث والمحن وحث الميسورين على منح الصدقات للطبقات المحرومة ،فكان لهذه الفئة دور كبير وأثر عميق في قلوب الخاصة والعامة وخير دليل على ذلك ما ذكره أحمد بابا في تحفة الفضلاء ببعض فضائل العلماء حيث ذكر بعض الكرامات لهؤلاء العلماء وكذا السعدي وكعت في مؤلفاتهم وما هي إلا تعبير صريح عن المكانة التي حظي بها العلماء بشكل عام.

إلى جانب العلماء عرف التجار القادمون من بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين بدورهم الكبير في تكوين تجار بلاد السودان وحثهم على حسن الأخلاق والصدق في مبايعاتهم كما نقلوا إلى تلك البلاد الأساليب التجارية الحديثة كالتعامل بالصكوك وهذا ما أشار إليه ابن حوقل في سجلماسة [2]، وقد كانت مهنة التجارة حكرا على الحكام والملوك قبل دخول السلام إلى هذه المنطقة ولكنها توسعت لتشمل باقي الفئات حتى ظهرت فئة من التجار فاحشة الثراء وكان معظمها من التجار الأجانب ، كما ساهمت هذه الفئة كذلك في ظهور سلع جديدة على هذه البلاد واتسعت بفضلها العديد من المدن كجني وتنبكت وغاو ، وظهرت وظائف تجارية جديدة كوظيفة الوكلاء التجاريين ،وهو الذي يسير الأعمال التجارية لصاحبها في مدينة أخرى وإزداد عدد القوافل لتظهر معها مهن أخرى كدليل القوافل حيث اختصت بها بعض القوافل ، كقبيلة مسوفة وهذا ما ذكره ابن بطوطة[3]،ونتيجة ازدهار التجارة في بلاد السودان

1- سحر عنتر محمد أحمد مرجان ، فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهدي مالي وصنغي ، مكتبة الثقافة الدينية ،ط1432،1ه/2011م،ص205 .

2- ابن حوقل ، المصدر السابق ،ص60 .

3- ابن بطوطة ، المصدر السابق ،ج2 ،374 .

الغربي ظهرت فئة التجار المحلين الذين كانوا أقل ثروة ومكانة في السلم الاجتماعي لأنهم لم يكونوا مؤهلين لتولي المناصب الهامة في الدولة كغيرهم من التجار الأجانب. وقد أدخل التجار المسلمون الأسماء العربية على المقاييس والموازين ، كما تعاملوا بالدينار و الدرهم بعد أن كان التعامل بالملح والودع وأخضعت هذه المعاملات والمقاييس والموازين إلى مراقبين أو محتسب تحروا الحلال في معاملاتهم وابتعدوا عن كل ما يشوبه الحرام .

جـــ – مظاهر تحول الطبقة الثالثة :

عرفت هذه الطبقة العديد من مظاهر التحول ابتداء من القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي، وبما أن هذه الطبقة تعتبر هشة فإنها حاولت التأقلم مع التحول الذي عرفته المنطقة على المستوى الاقتصادي حيث قدم الإسلام المبررات النفسية والاجتماعية للعمل والعمال والحث على كسب الحلال وفي نفس الوقت أخذت العديد من الصناعات في الازدهار، وتعلم أهل السودان الغربي من العرب الوافدين إليهم وسائل جديدة لتطوير صناعاتهم من الذهب والنحاس وتخلوا عن الطرق التقليدية القائمة على الالتقاط والجمع إلى الحفر والتصنيع بدل بيع المواد وهي خام .فظهرت العديد من المهن التي لها علاقة بالمنتج المحلي كالجلد والقطن ، والذهب والملح وغيرها من المواد المحلية ،ومنذ ظهور دولة مالي الإسلامية على عهد ماري جاطة (628-648 ه/1230-1250 م)تحولت المهن إلى مهن وراثية لتتحول المهن إلى قبلية أي أن كل قبيلة تختص في مهنة واحدة ،وهذا ما جعل المصادر تشير إلى أن قبيلتي التكرور و السوننك كانت تختص في النسيج وتلوينه [1].

وعرفت مدن ومناطق بأكملها ببعض الصناعات كصناعة الجلود ودباغتها ،وكذا الحدادة التي تطورت بشكل كبير ، حتى مسألة استخراج الذهب وتصنيعه وسكه ،عرفت هي الأخرى تطورا بعد الالتقاط الذي كان شائعا للذهب أصبح أهل البلاد يبحثون عنه في المناجم الخاصة به والتي كانت تخضع للحراسة الشديدة ،فينقى من الشوائب ويسبك بعدها ويصب في قوالب معينة هي التي تسمى بالسبائك التي تأخذ إلى بلاد المغرب ومصر ،فتضرب منها العملات هذه العملية كلها كانت غير متداولة في بلاد السودان الغربي إلى أن جاء التجار المسلمون وعرفوا أهلها بهذه التقنيات التي كانت متداولة في باقي البلاد الإسلاميةكما ازدهرت

1- نيابي ،المرجع السابق ،ص181 ، قداح ،إفريقيا الغربية ،ص123 .

الصناعة النحاسية وتم تحسينها حيث استخدم النحاس كعملة وهذا بتحويله إلى قضبان[1] وخضعت العديد من الحرف إلى التنظيم بحيث أصبح لكل حرفة رئيسها وحيها الخاص بها وهذا ما أشار إليه المصادر أيام الأساكي ، حيث كانت تناهز العشرين بيتا في بعض الأحيان[2] .

إذا أشرنا إلى الفلاحين فإن عددهم تزايد بشكل كبير وهذا ما انعكس على المحاصيل الزراعية التي أصبحت تنتج في بلاد السودان الغربي والتي أخذت تقنياتها من بلاد المغرب والمشرق الإسلاميين وأصبحت فئة الفلاحين تساهم بنسبة كبيرة في اقتصاد البلد باعتبار أنها كانت تضم السواد الأعظم من سكان البلاد ، وتحسنت أوضاعها المعاشية بعد استقرارها بسبب القوانين والتشريعات التي نص عليها حكامها وخاصة في عهد دولة سنغاي ، لأنها سمحت للفلاحين بالاستقرار ومزاولة نشاط آخر كان له الدور البارز في حياة أهل السودان الغربي ألا وهو الرعي الذي استعان به الفلاحين في تحسين واقعهم المعاش من خلال بيع لحوم و أصواف وألبان هذه الحيوانات،كما أن هذه المهنة تطورت من حيث الأدوات المستعملة وعلى رأسها المحراث وكان غالبية من يزاولها هم الرقيق ، وخاصة في الأراضي المملوكة للطبقة الثرية أو الحاكمة، فنجد مثلا الأسكيا الحاج محمد كان قد أقام قرية خاصة بالرقيق المشتغلين في الأراضي ،وعلى العموم فإن هذه الفئة عرفت تطورا مهما في نمط حياتها حيث تمتعوا بحرية كبيرة كفلها لهم الإسلام ذكورا وإناث ، وأصبحت لهم مكانة في بلاط الملوك .

لقد أصبحت طبقة الرقيق جزءا لا يتجزأ من المجتمع السوداني سواء في عهد دولة غانة أو مالي أو صنغاي، ولكن مع ذلك ظل قطاع الرق من ضمن النشاطات المربحة لاقتصاد دول السودان الغربي ،بالرغم من موقف الشرع حيث استنكر العلماء العرب المسلمون ظاهرة الاسترقاق إذ ورد في كتاب الاستقصاء : " يظهر لك شناعة ماعمت به البلوى ببلاد المغرب ... من استرقاق أهل السودان ... وجلب القطائع الكثيرة منهم في كل سنة وبيعهم في أسواق المغرب ... ويسمسرون بها تسمسر الدواب بل أفحش قد تمالأ الناس على ذلك وتوالت عليه

1- نوري دريد عبد القادر ،المرجع السابق ،ص97.

2- ذكر كعت ذلك بخصوص عدد بيوت الخياطين في تنبكت أيام دولة سنغاي .ينظر : كعت ،المصدر السابق، ص180.

أجيالهم حتى صار كثير من العامة يفهمون أن موجب الاسترقاق شرعا هو اسوداد اللون وكونه مجلوبا من تلك الناحية ... إن أهل السودان قوم مسلمون لهم مالنا وعليهم ماعلينا ... ومدّعي خلاف الحريّة مدّع لخلاف الأصل...."[1] . وبهذا فإن الإسلام كان ينبذ الطبقية العمياء التي ظلت لعهود طويلة تنخر المجتمع الإفريقي جنوب الصحراء بشكل عام .

الخلاصة :

لقد كان لدخول الإسلام إلى هذه البلاد و تجذره فيها الأثر البالغ على تغير البنية الاجتماعية ،كما ارتقى كثير من أهل الصنائع والحرف اجتماعيا وأصبحوا من أهل الثراء والجاه لتضاهي باقي الفئات من الطبقات الأخرى خصوصا بعد الاهتمام البالغ الذي أولاه حكام ممالك السودان الغربي انطلاقا من مملكة غانة إلى مملكة سنغاي منذ ظهورها على مسرح الأحداث وبالخصوص في عهد الأسكيا محمد الكبير وعقبه من بعده وإلى غاية آخر ملوك هذه الدولة ، واستمر ذلك بل وتزايد في عهد التواجد المغربي ببلاد السودان الغربي .

[1]- الناصري ، المرجع السابق ،ص132 .

ثالثا : التغيرات التي طرأت على المستوى المعيشي في بلاد السودان الغربي

1- ارتفاع المستوى المعيشي وتراجعه :

عرفت بلاد السودان الغربي عدة تحولات اجتماعية ابتداء من القرن السابع الهجري / الثالث عشر ميلادي ،تغير من خلالها النسق الاجتماعي في جميع الجوانب وعلى رأسها المستوى المعيشي الذي سيتأثر بشكل مباشر بالأوضاع السياسية والاقتصادية التي مرت بها البلاد ،سواء في عهد دولة مالي أو دولة سنغاي وحتى التواجد المغربي ببلاد السودان في القرن السادس عشر ميلادي / العاشر الهجري وتداعياته على المنطقة .

لقد عرف المستوى المعيشي تذبذبا بسبب أوضاع بلاد السودان الغربي حيث اتسعت المدن وازدهرت ووصفت بأبهى الحلل كما كان الشأن بمدينة تمبكتو وجني وجاو (غاو) في الفترات التي حكمها حكام أقوياء حيث أشارت المصادر إلى أن هذه المدن ازدهرت في عهد الملك منسا موسى (1312-1337م/712- 738 ه) حيث ذكرت المصادر خصال أهل هذه المدن وأشادت بها من كرم ورغد عيش [1]، كما نلمس تحسن المستوى المعيشي من خلال نوع المباني التي أصبحت عليها بيوت أهل السودان الغربي وخاصة في الحواضر حيث تكثر الأنشطة الاقتصادية وقد عرفت الحواضر الكبرى للسودان الغربي بعصرها الذهبي في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي نتيجة الرخاء الاقتصادي الذي عرفتها مما انعكس على العادات واللباس والطعام والشراب والأثاث المترلي والفنون .

أ- الألبسة والأطعمة : لقد تطورت الخياطة وزاد عدد الخياطين كما أشرنا سابق وأدخلت أنواع وألوان جديدة إلى هذه البلاد لم تكن موجودة مثل السراويل المختلفة الأطوال الواسعة والعمائم التي كان يلبسها الرجال والنساء على حد سواء وكانت تسمى ديالاموكو (Diala moko) ،هذه الألبسة لم تكن خاصة بأصحاب المدن بل حتى عند سكان البوادي والواحات، كما عرف أهل السودان بلبس البرانس الصوفية الملونة والتي كانت تسمى برموسو (Bormoso)[2] وقد استعمل هذا اللباس في بادئ الأمر لدى العلماء والوجهاء ولكن خلال

1- السعدي ، المصدر السابق ،ص21 .

2- هو تحريف لكلمة برنس، لقد أن ذكر كعت ارتداء البرنس كان مقتصرا على العلماء و الوجهاء ينظر : الغربي ، المرجع السابق ،ص610.

عهد دولة سنغاي شاع استعماله عند العامة [1].وكانت هذه أحد مظاهر الثراء التي ميزت سكان مختلف حواضر السودان الغربي إذ لبسوا الحلي الذهبية باعتبار أن هذا المعدن متوفر بشكل كبير عند هم .

أما الأطعمة والأشربة التي عرفت في بلاد السودان الغربي بعد القرن السابع الهجري /الثالث عشر ميلادي فقد تنوعت وكانت دليل على الترف الذي مس بشكل كبير معظم أهل المدن كجيني وغاو وتمبكتو وخاصة بيوتات التجار باعتبارها المهنة التي كانت تدر الكثير من الأموال على ممتهنيها ،فدخلت أنواع جديدة من الأطعمة كالكسكسي [2] المصنوع من القمح والشعير والذرة كونه أكلة معروفة في بلاد المغرب ، وحتى إعداد أصناف الطعام والحلويات وعادات الأكل خلال اليوم والتي كانت ثلاث وجبات في اليوم ماهي إلا مظهر من مظاهر الرفاهية التي عرفتها البلاد في ظل ازدهار التجارة التي تعتبر العمود الفقري لاقتصاد بلاد السودان الغربي والاستقرار السياسي الذي عرفته البلاد في ظل الملوك الأقوياء سواء في عهد دولة مالي الإسلامية " كمنسا موسى " هذا الملك الذي أدهش العالم أثناء رحلته للحج (724ه/1324 م)وما حمله معه من الذهب حتى أن سعر الدينار الذهبي انخفض ستة دراهم في أسواق مصر ونفس الشيء بالنسبة لرحلة الأسكيا محمد إلى الحج سنة 902ه/1496 م فإنه حمل معه كميات كبيرة من الذهب ، وهذا ما جعل ملوك بلاد السودان الغربي يلقبون بملوك الذهب لرواج هذا المعدن بهذه البلاد واستحكام الملوك به .لكن من جانب آخر ليست كل المدن على هذا القدر من الثراء وخاصة أيام الاضطرابات السياسية والصراعات العسكرية وانعدام الأمن فإن بعض المدن التي حادت عنها المسالك التجارية والتي سبق وأن أشرنا إليها كمدينة مسينا التي ذكر ها السعدي وأشار إلى بخل أهلها وقلة ما يقدمونه على موائدهم وهداياهم[3].وهذا راجع إلى قلة موارد بعض المدن على غيرها، فتمبكتو ليست مسينا .

1- الغربي ،نفس المرجع السابق ، ص610 .

2- الأرواني أحمد بابير ، المصدر السابق ،ص14

3- السعدي : المصدر السابق ، ص232 .

ب – تطور العمارة :

من مظاهر الرخاء الاجتماعي نلاحظ ظاهرة تطور العمران فالكتابات الأولى التي تناولت بلاد السودان الغربي خلال القرن الخامس الهجري /الحادي عشر الميلادي أشارت إلى بنايات بسيطة من القش والأعشاب والقصب المطلي بفضلات الأبقار [1] ، لتتحول إلى مباني منظمة مبنية بالطين المشوي الأحمر خاصة في المدن[2] بعدما كانت مبنية بطين عادي يخلط مع التبن[3]،وهذا ما يجعلها سهلة الانهيار أمام سيول الأمطار [4]، وسرعان ما تتحول المباني إلى الاعتماد على الحجارة مع التفنن فيها بإدخال أنماط معمارية جديدة على يد مهندسين وافدين من الأندلس وعلى رأسهم أبو إسحاق الساحلي ،الذي ترك لمسة معمارية جمالية أبهرت أهل البلاد آنذاك من خلال القبة المربعة التي غطت قصر منسا موسى حيث زينها بالكلس وأنواع الأصباغ المشبعة والنقوش والتخريم ،فكانت من أجمل ما بني في مالي فأكرمه وكافئه منسا موسى باثني عشر ألف مثقال من التبر وأضاف له هدايا أخرى لصنيعه هذا [5] وقد بلغ تعداد دور بعض أهم مدنها وهي غاو سنة (1585 م /992ه) هو سبعة آلاف دار ، أما عدد سكانها فكان حوالي 75 ألف نسمة[6].

يعتبر هذا التطور السكاني دليلا واضحا على تحسن المستوى المعيشي لسكان بلاد السودان الغربي وخاصة في المدن لكن البوادي والأرياف كانت فيها الدور عبارة عن خيام أو أكواخ من النبات أو الطين أو الأخشاب ،أما الفناء الخارجي للسكن فكان محاطا بأكوام الشوك القصيرة[7]،ومن الواضح أن كثرة الاضطرابات والتنازع على السلطة بين الأساكي وخاصة الحكام المتأخرين ،أدى إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية مما انعكس على المستوى المعيشي

1- القزويني ، المصدر السابق ،ص39 .

2- التونسي ،المصدر السابق ، ص195-199 .

[3] -Delafosse, Maurice :Les civilisations négro-africaines, paris ,stock,1925 ,p135.

[4] -John Iguè Ogunsolo :Les villes pré coloniales d'Afrique noire .Editions Karthala,Paris ,2008,P36.

5- ابن خلدون ،المصدر السابق ،ج6،ص268 .

6- كعت ، المصدر السابق ،146 .

7- السعدي ، المصدر السابق ،ص21 .

بالسلب فانتشر الغلاء وحل الركود الاقتصادي ، و لم تشهد حتى المدن تطورا خاصة في أواخر القرن السادس عشر ميلادي /العاشر الهجري .أما الأرياف والقرى فضلت بعيدة عن المستوى العمراني للمدن، لأنها تأثرت بشكل كبير بالركود الاقتصادي الذي مس بلاد السودان الغربي لأن العصر الذهبي لاقتصاد هذه البلاد وحالة الرخاء التي سادت فيها ستنتهي مع نهاية القرن السادس عشر ميلادي / العاشر الهجري ، بسبب دخول المنطقة مرحلة الاضطرابات السياسية وخاصة بعد الحملة المغربية على مملكة سنغاي سنة (1591 م /999ه)[1] .

جـــ- بروز الثراء والترف:

قال ابن خلدون فيما يتعلق بالترف ودخوله للمجتمع واستشراءه والآثار المترتبة عنه : "وذلك أن الأمة إذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر ريشها ونعمتها فتكثر عوائدهم ويتجاوزون ضرورات العيش وخشونته إلى نوافله ورقته ويذهبون إلى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم ... ويترعون مع ذلك إلى رقة الأحوال في المطاعم ،والملابس والفرش والآنية"[2]، انطلاقا من هذه النظرية التي جاء بها ابن خلدون فإن أهل بلاد السودان الغربيقد تميزت مدنهم بتأنق أهلها في لبسهم ،حيث كانوا يحرصون على الظهور في لباس زاه فضفاض أمام العامة[3]، و لم يستثن من هذه المظاهر حتى النساء حيث كن يتزين بالودع والحلي كالخلاخيل والحلق[4]، أما الملوك وكبار الموظفين يتزينون بأساور ذهبية ويظهرون بها في الأعياد والمناسبات[5].

لقد بينت هذه المظاهر ترف سكان المدن والميسوري الحال على وجه الخصوص ،حتى أنهم عرفوا بالسمر على قارعات الطرق إلى أوقات متأخرة من الليل ،أما باقي الفئات المعوزة وأصحاب الحرف الصغيرة فلم يكونوا كذلك نتيجة المشقة التي كانوا يلقونها في أعمالهم .

1- هوبكنز ، المرجع السابق ،ص159 .
2- ابن خلدون ،المقدمة ،ص167 .
3- السعدي ، المصدر السابق ،ص33 .
4- نفس المصدر ،ص13 .
5- كعت ، المصدر السابق ، ص188.

2- الوضع الديمغرافي ومتغيراته:

عرفت بلاد السودان الغربي العديد من المتغيرات الديموغرافية والجينية وهذا تبعا للأوضاع الاقتصادية والسياسية التي كانت تعيشها هذه البلاد ،فكما نعلم فإن هذه المنطقة عرفت العديد من الهجرات كما أشرنا إلى ذلك في الفصول السابقة وهذا ما غير البنية الجينية للسكان المحليين وهذا ما أشار إليه ابن خلدون:حيث قال " أن الرجل قد يهجر قومه ويترل عند قوم آخرين فيتزوج وينجب وتكثر ذريته وتنتشر ، ثم إنه قد يتناسى النسب الأول بطول الزمان ، ويذهب أهل العلم به فيخفى على الأكثر ، ومازالت الأنساب تسقط من شعب إلى شعب ويلتحم قوم بآخرين في الجاهلية والإسلام والعرب والعجم ..."[1].

من هذا المنطلق فإن الفصل أو التمييز بين أنساب سكان السودان الغربي كان صعبا جدا وقد وضح ذلك ابن بطوطة حين أشار إلى أهل صنهاجة وسواهم من قبائل المغرب وأصلهم من حمير، وما يؤكد ذلك هو التزاوج بين الحضارتين [2]، والظاهرة الثانية التي نريد الإشارة إليها هي التطور الديموغرافي ، بالرغم من غياب الإحصائيات في هذه الفترة التي تشير إلى تعداد المدن ولكل الثابت أن مسألة تعمير المدن لم تكن كذلك لولا ارتفاع عدد سكانها ، خاصة وأننا أشرنا إلى توافد الكثير من التجار المغاربة و المشارقة إلى حواضر بلاد السودان الغربي كتمبكتو وغاو وجيني ، وقبلهم سجلماسة التي تعتبر بوابة الصحراء فارتفاع عدد السكان تحكمت فيه عوامل اقتصادية محضة وهذا لازال قائما إلى اليوم، وقد أعطانا كعت مثالا على عدد سكان مدينة غاو بحوالي 75ألف سكن وهو رقم كبير ،إذا ما وضعنا في الحسبان باقي المدن كتمبكت وجني المزدهرتين تجاريا .

كما نجد عاملا آخر كان له الأثر البالغ في نمو السكان بين التزايد والتراجع في أعدادهم وهو تجارة الرقيق التي أصبحت تأخذ منحى تصاعدي في بلاد السودان الغربي مع نهاية القرن السادس عشر ميلادي /العاشر الهجري بسبب دخول القوى الغربية إلى القارة وخاصة التجار البرتغاليين[3] وهذا نتيجة توسع التجارة البحرية التي أثرت على الطريق البري فتوجهت بذلك

---

[1]- ابن خلدون ،المقدمة ،ص229 .

2- ابن بطوطة ،المصدر السابق ،ج2 ،ص370-381 .

[3] - H . Berkles ,voyages d'esclavage . La traite transatlantique des Africain réduits en esclavage , Unesco , Paris,2002,P89.

التجارة نحو الساحل الغربي لإفريقيا خاصة بعد التوغل المغربي في بلاد السودان الغربي والقضاء على مملكة سنغاي في حدود 1591 م/999 ه،وقد عمل التجار البرتغاليون على اثر الاضطرابات التي عرفتها المنطقة على تأسيس شركات للمتاجرة بالرقيق وذلك بعد تجميعه في أماكن معينة على الساحل الغربي لإفريقيا ومن ثم نقوم بنقله إلى أمريكا .

الخلاصة :

من خلال ما تطرقنا إليه من مظاهر تحول اجتماعي في بلاد السودان الغربي نخلص إلى جملة من الاستنتاجات وهي على النحو التالي :

- مساهمة الإسلام في تغير البنية الاجتماعية لمجتمع بلاد السودان الغربي .
- تخلص المجتمع من والوثنية التي كانت تسيطر على المجتمع .
- حدوث نقلة نوعية في الجانب الحضاري لبلاد السودان الغربي.
- تخلص المجتمع من الطبقية والظلم الذي كان يطبق على المجتمع .
- انتقال بلاد السودان من البدائية والعيش على هامش التاريخ إلى الثراء الاقتصادي والحضاري.
- التحولات الاجتماعية لبلاد السودان الغربي ،أثبتت قدرة مجتمعاتها على صنع كيانها الخاص بها بين مختلف أقطار العالم الإسلامي ، و أنها كما تأثرت بدول الجوار من خلال علاقاتها فإنها قد أثرت هي الأخرى في الأقطار المحيطة بها .

خاتمة

إن التحول الاقتصادي والاجتماعي الذي عرفته بلاد السودان الغربي كان نتاج التأثر والعلاقات التي ربطت ممالكه بدول الجوار وخاصة بدول المغرب الإسلامي ، وكانت التجارة هي السبيل الذي أدى إلى وقوع ذلك التحول في البنية الاقتصادية والاجتماعية لهذه البلاد ، فأصبحت بذلك بلاد السودان الغربي كيانا قائما بذاته وامتداد في نفس الوقت للحضارة العربية الإسلامية، رغم بعدها عن الزخم الحضاري الموجود في شمال الصحراء.ومع ذلك خلصنا إلى مجموعة من النتائج من خلال هذا العمل وهي على النحو التالي :

- لم تكن الصحراء الموحشة حاجزا أمام التأثر والتأثير لبلاد السودان الغربي في باقي البلاد الإسلامية

– تغير المجتمع السوداني بعد الإسلام فتخلص من الإرث الوثني وانتقل من الصراعات القبلية وتقديم القرابين إلى الأخوة والتعاون وحب الآخر .

- لقد أدت تعاليم الإسلام التي ترسخت في المجتمع السوداني إلى ظهور مجتمع متكامل ، يقوم على احترام فئاته وأجناسه لبعضهم البعض ،وانعكس ذلك بالدرجة الأولى على اللبنة الأساسية في المجتمع ،ألا وهي الأسرة والتي أساسها الأم بالدرجة الأولى حيث ارتقت مكانتها التي أعطاها لها الإسلام فأصبحت لها حقوقها التي كفلت لها حرمتها ، و لم تبقى حبيسة التقاليد الإفريقية القديمة التي جردتها من حريتها .كما أصبح المجتمع السوداني أكثر اهتمام بتربية الأبناء وتنشئتهم من خلال تعليمهم شتى العلوم وإدماجهم في الحياة الاقتصادية بدل بيعهم في أسواق النخاسة واستعبادهم ، وبذلك فقد ارتقي المستوى الحضاري للمجتمع في بلاد السودان الغربي.

- ارتقت النظم السياسية في بلاد السودان الغربي ، وتمكنت الممالك التي ظهرت به خلال الفترة الوسيطة (كمملكة غانة ومالي وسنغاي)، من مضاهاة باقي الدول في العالم الإسلامي ،حتى أنها تمكنت من نسج شبكة من العلاقات مع مختلف أنحاء العالم الإسلامي شرقا وغربا .

- عرف الحياة الاقتصادية في بلاد السودان الغربي تطورا ملحوظا ،حيث تخلصت من البدائية الزراعية والصناعية و حتى التجارية و أصبحت تواكب التطور الاقتصادي الذي عرفته المناطق المجاورة لها شمال الصحراء ، وكان ذلك نتيجة التلاقح والتواصل الحضاري مع هذه المناطق فازدهرت الزراعة ودخلت العديد من المنتجات الزراعية إلى أسواق بلاد السودان الغربي .أما الصناعة فهي الأخرى عرفت تطورا كبيرا نتيجة التقنيات التي دخلت بلاد السودان من جراء

إقامة مختلف الجاليات العربية إلى هذه البلاد وخاصة الوافدين من بلاد المغرب الإسلامي ، فارتفع عدد الحرفين والصناع والفلاحين ، وأصبحت التجارة تستهوي الكثير من المغامرين لاجتياز الصحراء والاتجار بين ضفتيها ، فانتقلت سلع السودان إلى أسواق الشمال وحتى أوروبا وبالمقابل وصلت سلع الشمال إلى بلاد السودان ، ونشأت من خلال ذلك شبكة هائلة من المسالك والدروب بين ضفتي الصحراء في الشرق والغرب كان لها الفضل في ظهور وتأسيس العديد من المدن في بلاد السودان الغربي كتمبكتو وجني وغاو ،والتي سرعان ما ستتحول إلى مراكز إشعاع ثقافي ومحطات تجارية كبرى ذاع صيتها في البلاد الإسلامية ، وقد ترجمت شبكة الطرق والمسالك التي ظهرت في بلاد السودان الغربي وحتى نوعية السلع عمق العلاقات بين ممالك هذه البلاد وباقي الأقطار الإسلامية . وهذا ما أدى إلى ارتفاع المستوى المعيشي لشعوب بلاد السودان الغربي وتحسن أوضاعهم الاقتصادية .

– تحسنت الأسواق في بلاد السودان الغربي وازدادت حركيتها واختفت منها بعض المعاملات التي كانت منتشرة بها كالغش و التدليس والسرقة وذلك بعد أن أدخلت المكاييل والموازين المنتشرة في باقي البلاد الإسلامية إلى جانب الوظائف التي استحدثت للسهر على عدم استمرار هذه الممارسات المشينة ،والأنظمة التي أدخلها ملوك السودان الغربي والتي أشاعت الأمن و الطمأنينة داخل الأسواق وحتى على مستوى القوافل التي كانت تلقى الرعاية الكبيرة من طرف هؤلاء الحكام منها المحتسب وأمين الصنعة .

–أصبح المجتمع السوداني أكثر فاعلية في النشاط الاقتصادي العالمي من خلال مساهمته في الإنتاج العالمي للذهب حتى عرفت بلاد السودان الغربي ببلاد الذهب وهذا في نفس الوقت جعلها مطمعا لباقي القوى ، وجعل بلادها لا تنعم بالاستقرار لمدة طويلة ، إذ ورد ذكرها في كتب المغامرين والرحالة الأوروبيين ابتداء من القرن السادس عشر .

– لقد ساهم الرخاء والرقي الحضاري في الجانب الاقتصادي والاجتماعي في حدوث ثورة ثقافية وذلك من خلال كوكبة العلماء الذين برزوا في بلاد السودان الغربي في مختلف الحواضر السودانية وعلى رأسها تمبكتو إذ اشتهرت العديد من الأسر بعدة وظائف كالقضاء وإمامة المساجد وحتى التأليف في شتى العلوم .

- اهتمام حكام السودان الغربي بالعلم والعلماء كان وراء التطور الثقافي والذي انعكس بدوره على باقي الجوانب .

- لقد ساهمت المسالك والطرق التجارية العابرة للصحراء في التأثير الكبير على الجوانب الحضارية لشعوب بلاد السودان الغربي ،فلم تكن مجرد طرق ومسالك تجارية وإنما كانت شرايين لنقل الحضارة إلى هذه البلاد وفي نفس الوقت كانت حلقة وصل بين ضفتي الصحراء .

- كانت بلاد السودان الغربي طيلة الفترة المدروسة جزء لا يتجزأ من العالم الإسلامي وذلك من خلال الحضور الدائم خاصة في ركب الحجيج السوداني وتأثيره على بلاد المشرق العربي .

- عدم الاستقرار السياسي الذي عرفته بلاد السودان الغربي وخاصة في أواخر القرن السادس عشر ميلادي / العاشر الهجري ،بسبب تنافس أبناء الأسرة الحاكمة في سنغاي ، ودخولها في صراع مع الدولة السعدية بالمغرب الأقصى التي اجتاحت هذه البلاد سنة999ه /1591 م ، كل ذلك أثر بشكل سلبي على الجانب الحضاري لهذه البلاد وجعلها عرضة لأطماع الدول الغربية مع بداية العصر الحديث والانقلاب الصناعي .

- لقد سمح التواصل و التلاقح الحضاري بين بلاد السودان الغربي وباقي أقطار العالم الإسلامي على مدى أربعة قرون من خلق مجتمع إفريقي تمكن من بناء إمبراطوريات كبيرة بسطت نفوذها على كل المناطق الواقعة جنوب الصحراء لمدة طويلة من الزمن ، ضاربة أروع الأمثلة على قدرتها في صنع كيانها باعتبارها كيان قائم بذاته له خصوصياته .

الملاحق

الملحق 01 : مخطوطة كشف الغمة في نفع الأمة لناصر الدين أحمد ابن الحاج الأمين التواتي الغلاوي مكتبة ماما حيدرة التذكارية ، تمبكتو، مالي

الملحق 02 : مخطوطة لعلم الرياضيات وعلم الفلك ، وقد استخدم في التنجيم ،مكتبة ماما، حيدرة ، بتمبكتو .

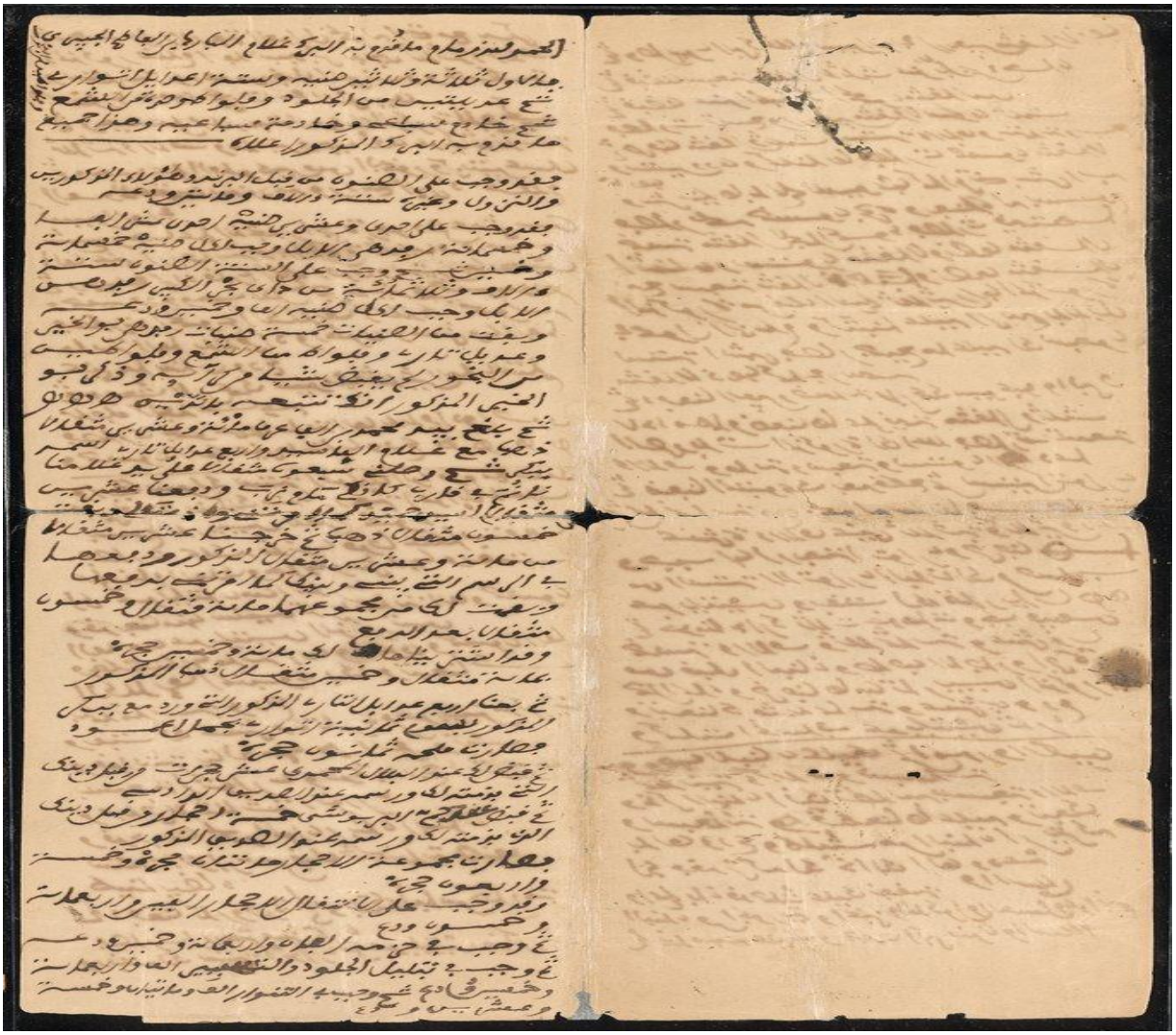

الملحق 03 : مخطوط عبارة عن اتفاقية تجارية (الذهب كعُملة) تتعلق هذه الاتفاقية التجارية بالتجارة في عدة مدن. تحتوي الاتفاقية على إشارات مثيرة للاهتمام إلى تكاليف بناء المنازل في مدينة ماسينا (بلدة ماسينا في مالي حالياً). يستخدم الذهب باعتباره مقياس للقيمة في جميع المعاملات التجارية، والتي تتضمن شراء وبيع العبيد وسبائك الذهب . **ورقة 01** . **مكتبة ماما حيدرة التذكارية مالي**

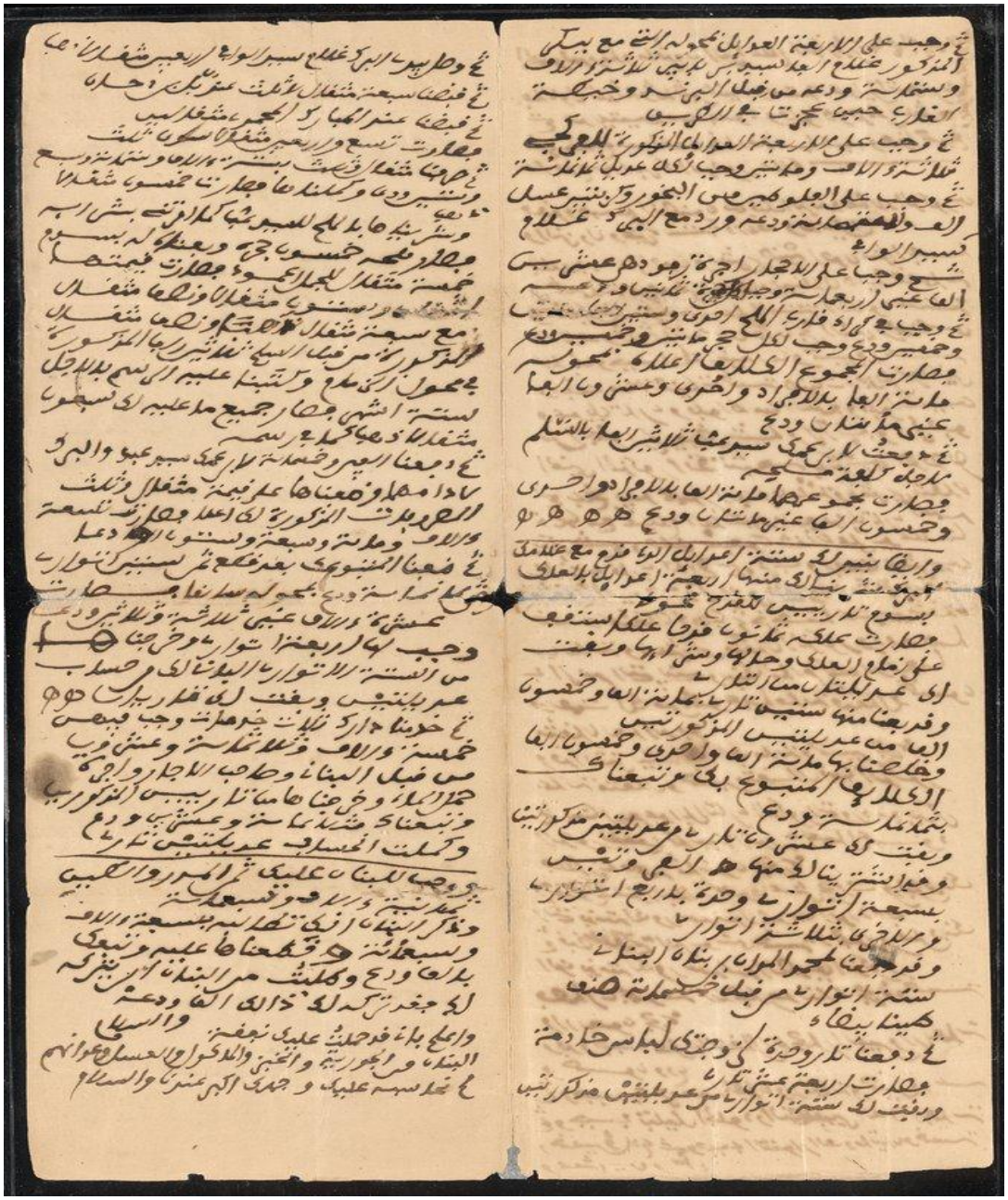

الملحق 04 : مخطوط عبارة عن اتفاقية تجارية (الذهب كعُملة) تتعلق هذه الاتفاقية التجارية بالتجارة في عدة مدن. تحتوي الاتفاقية على إشارات مثيرة للاهتمام إلى تكاليف بناء المنازل في مدينة ماسينا (بلدة ماسينا في مالي حالياً). يستخدم الذهب باعتباره مقياس للقيمة في جميع المعاملات التجارية، والتي تتضمن شراء وبيع العبيد وسبائك الذهب . **ورقة 02** . **مكتبة ماما حيدرة التذكارية مالي**

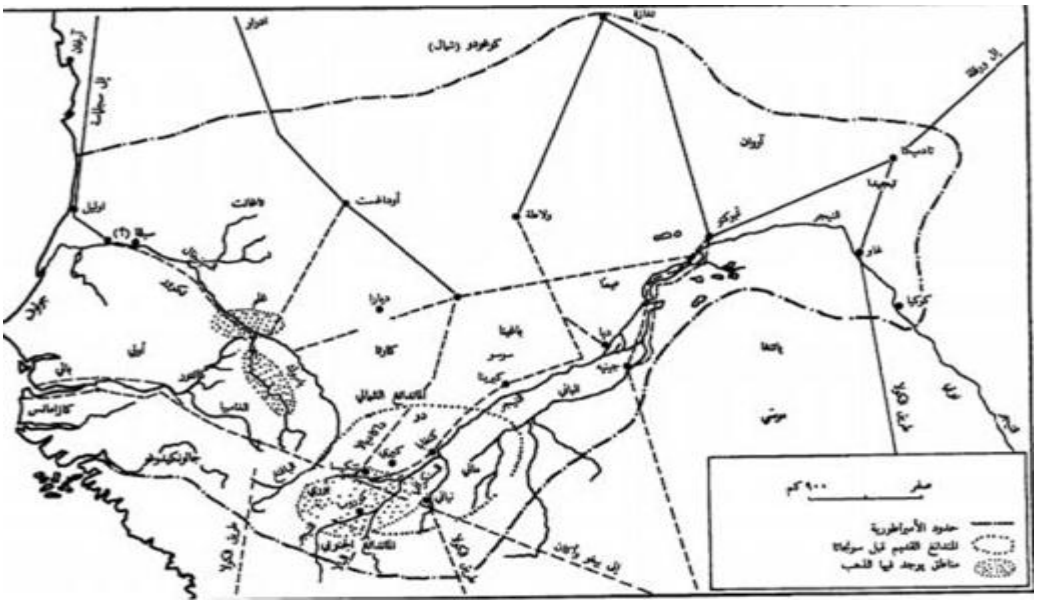

الملحق 05 : خريطة تبين مراكز تركز الذهب في السودان الغربي[1]

[1]- نياني ،المرجع السابق ،162 .

ترتيب سلالات مانسا مالي حسب ابن خلدون

ملاحظة : الأسماء بين قوسين مستقاة من الروايات الشفوية

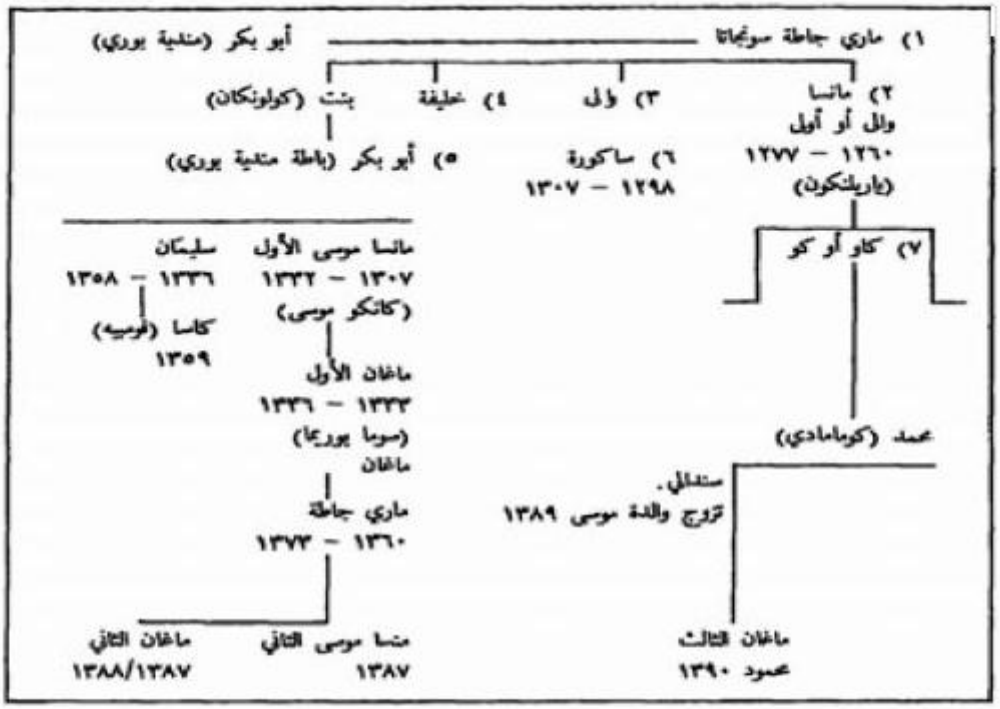

هكذا حدّد موريس ديلافوس مدد حكم سونجاتا مانسا موسى[٦٢] .

سونجاته	١٢٣٠ – ١٢٥٥
مانسا ولين	١٢٥٥ – ١٢٧٠
والي	١٢٧٠ – ١٢٧٤
خليفة	١٢٧٤ – ١٢٧٥
أبو بكر	١٢٧٣ – ١٢٨٥
ساكورة	١٢٨٥ – ١٣٠٠
كاو	١٣٠٠ – ١٣٠٥
محمد	١٣٠٥ – ١٣١٠
مانسا موسى	١٣١٢ – ١٣٣٧

(٦٢) بما أن ابن خلدون جعل مدة حكم مانسا موسى ٢٥ سنة فقد وجب التصحيح وتحديد مدة حكمه فيما بين ١٣٠٧ و١٣٣٢. أنظر ج. كوك، ١٩٧٥، ص ٣٤٣ – ٣٤٦.

الملحق 06 : السلالة الحاكمة لمملكة مالي[1]

[1]- نياني ،المرجع السابق ،ص159 .

سني علي	(869 -899 هـ/ 1464 -1493 م)
الأسكيا محمد الأول (الكبير)	(899 -934 هـ/ 1493 -1528 م)
الأسكيا موسى بن الأسكيا محمد	(934 -937 هـ/ 1528 -1531 م)
الأسكيا محمد الثاني (محمد بنكن)	937 -943 هـ/ 1531-1537 م
الأسكيا إسماعيل بن الأسكيا محمد الأول	943-946 هـ/1537 -1539 م
الأسكيا إسحاق الأول	946 -956 هـ/ 1539 -1549 م
الأسكيا داوود بن الأسكيا محمد الأول	956 -990 هـ/ 1549 -1582 م
الأسكيا محمد الثالث بن الأسكيا داوود	990- 995 ه/ 1582 -1585 م
الأسكيا محمد الرابع بن داوود	995-996 ه/ 1586 -1588 م
الأسكيا إسحاق الثاني بن داوود	996 -1000 ه/1588 -1591م

الملحق 07: حكام دولة صنغاي الإسلامية من (829 -1000هـ/ 1446 -1591 م)[1]

[1] - عبد الشافي إيهاب شعبان سالم ، القضاء في دولتي مالي وصنغاي وأثره الحضاري في المجتمع 636-1000 ه-1238-1591م ، الإفريقية الدولية للنشر والطبع والتوزيع ، القاهرة ،ط1 ، 2014 ، ص283 .

الملحق 08: **قوافل الملح في الفترة الحديثة [1]**

[1]- أحمد الشكري ، موريتانيا : ملح السباخ نشاط تجاري قاري لسكان تيشيت / - ياسين الكزباري ، طوارق مالي ملوك الصحراء (مجلة الجزيرة العدد 50 أبريل 2016)ص41 .
https://www.qiraatafrican.com/home/new 10:55 04-01-2018

الملحق 09 : مسجد جينغاري بير بتمبكتو، لا يزال صامدا رغم مرور سبعة قرون على بنائه(نموذج للعمارة في السودان الغربي)[1]

[1]- ياسين الكزباري ، طوارق مالي ملوك الصحراء (مجلة الجزيرة العدد 50 أبريل 2016) ص35 .

أوزان المعادن

وحدة الوزن	الدمغة المميزة	الوزن بالغرام	الشرح
الكاوري الكبير في تنبوكتو وديني	● ● ● ● ●	١٦٧,٥	خمس دمغات مغلقة في الأعلى والأسفل
الكاوري الكبير في مسينا	● ● ● ● ● ●	١٦١	ست دمغات مغلقة توضع على الجهة العليا فقط
الكاوري الصغير في تنبوكتو وديني	● ● ● ● ●	٣٣,٥	خمس دمغات مغلقة في كل جهة النقطة الخامسة في الأعلى .
الكاوري الصغير في مسينا	● ● ●	٨١,٥	ثلاث دمغات مغلقة في كل الجهتين وهي مرتبة من الأعلى إلى الأسفل .
الواكي في تنبوكتو وديني	 ●	٢٧,٥	دمغة في الأعلى وأخرى في الأسفل
الواكي الصغير في تنبوكتو وديني	● ● ● ● ●	٢١	خمس دمغات مغلقة في الأعلى فقط
نصف الواكي	●	١٥	علامة مميزة في الأعلى والأسفل
المثقال	●	٤,٥	دمغة واحدة مغلقة في الأعلى والأسفل والوزن لذهب الخام من عيار ٢٤ قيراط.
نصف المثقال	بدون علامة	٣	لا يستعمل إلا في النادر وكان المغاربة قد منعوا إستخدام هذا الوزن .

الملحق 10 : أوزان المعادن في السودان الغربي[1]

[1]- محمد الغربي ، المرجع السابق ،ص ص 438-439 .

الملحق 11 : الأقنعة جزء من المعتقدات الإفريقية وأحد رموز الطوطمية ،كانت قبل الإسلام ومازالت إلى يومنا هذا [1]

[1]- نجم الدين السنوسي، الأديان التقليدية في إفريقيا ،مجلة قراءات افريقية، https://www.qiraatafrican.com 20-2-2019 20:25 .

الملحق 12 : **الشلوخ والفصد** : هي علامات على شكل خطوط على الوجه والجسم بعضها خطوط أفقية وأخرى مستقيمة ،وأخرى مائلة وبعضها هلالية الشكل عند الرجال والنساء ظهرت ، وهي شكل للعادات والتقاليد، يتوج بها المراهقون في مرحلة الشباب[1] .

[1]- ناجية برادع ،الشلوخ بوتكس سوداني – إفريقي للجمال والشجاعة ، الإمارات اليوم https://www.emaratalyoum.com 2018-02-18 21:15 .

الملحق 13 : مخطوط الورقة الأولى من كتاب البركة في فضل الحرف والزرع لمجهول ، مكتبة ماما حيدرة التذكارية مالي

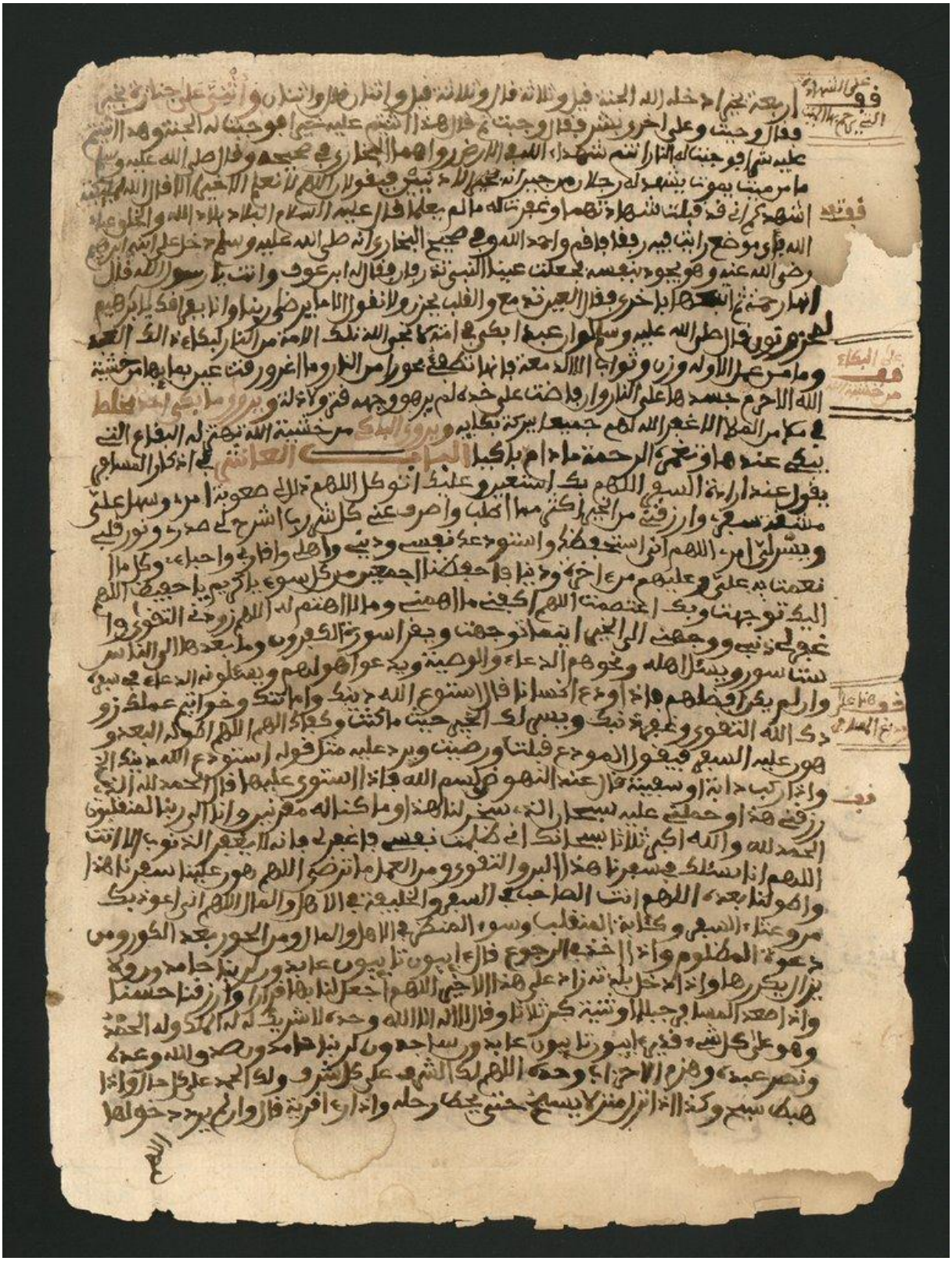

الملحق 14 : مخطوط كتاب البركة في فضل الحرف والزرع الورقة الأخيرة لمجهول

مكتبة ماما حيدرة (مالي)

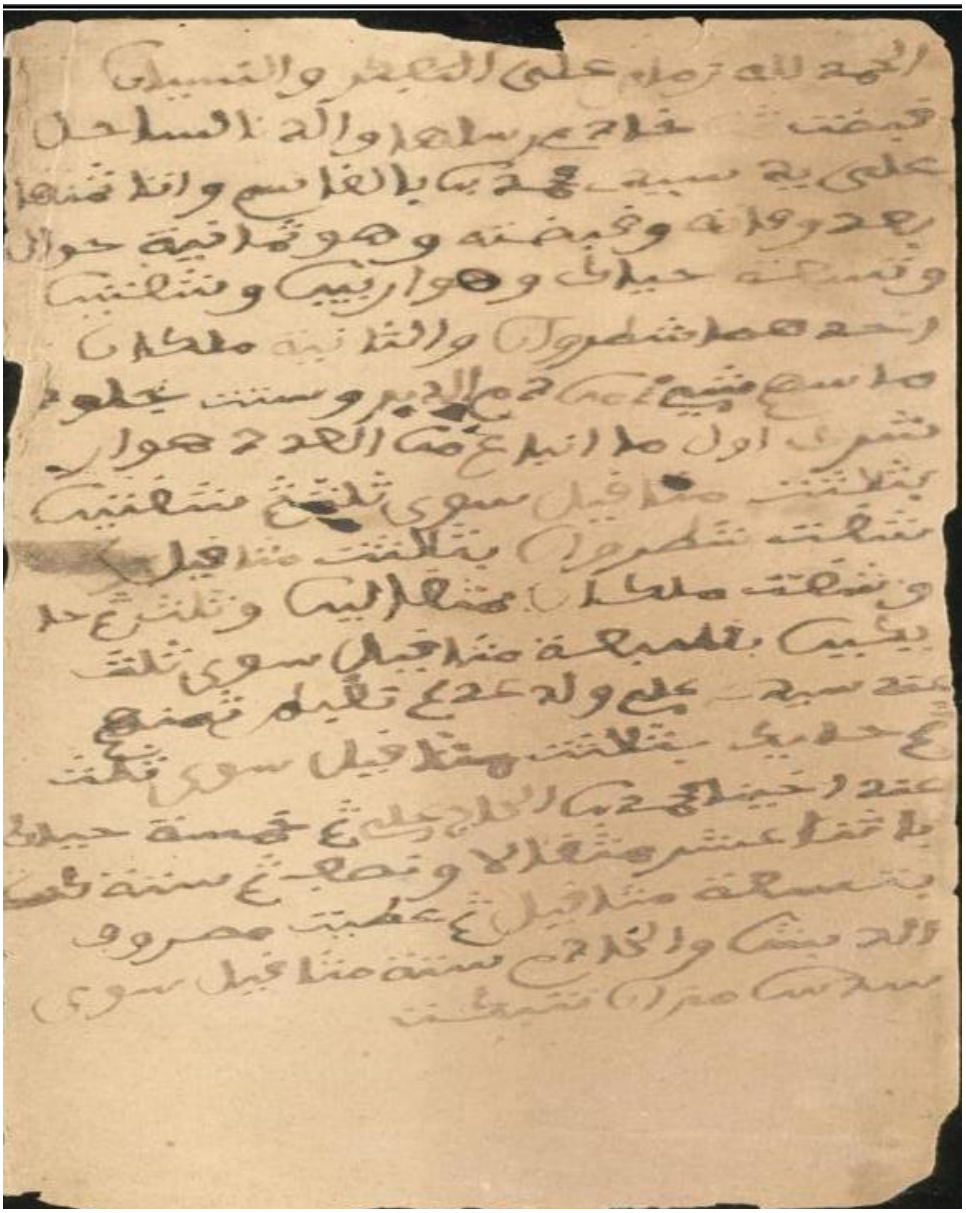

الملحق 15 : مخطوط يمثل عقد بيع تم في تمبكتو في حوالي 1500 م تحت رقم 9670 ،مكتبة ماما حيدرة التذكارية (مالي)

الملحق 16 : طلبة علم من قبيلة طوارقية يظهر عليهم اللباس العربي[1]

[1]- ياسين الكزباري ، طوارق مالي ملوك الصحراء (مجلة الجزيرة العدد 50 أبريل 2016) ص19 .

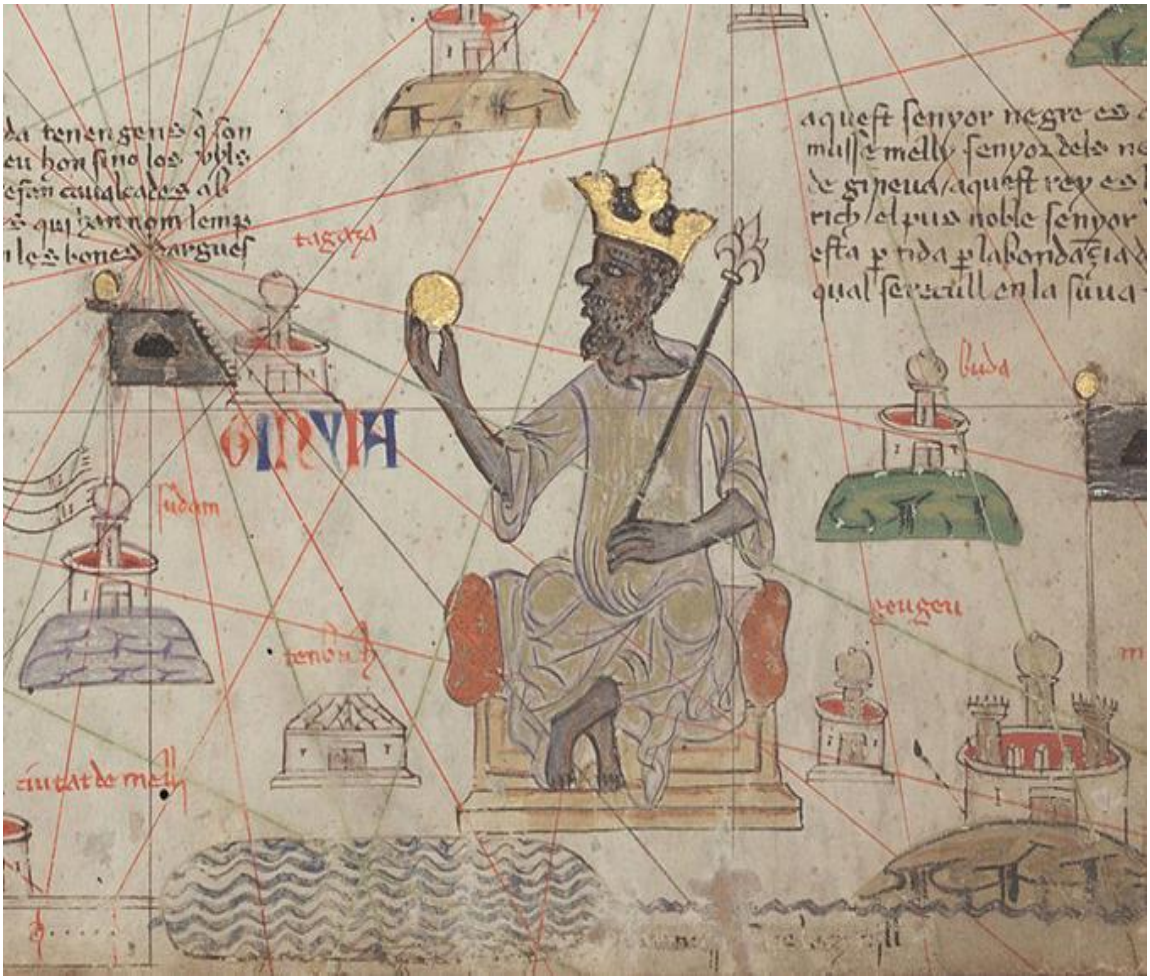

الملحق 17 : خريطة تبين منسا موسى ملك دولة مالي الإسلامية وهو يحمل عملة الذهب بيده ترجع لفترة العصور الوسطى وقد رسمت في عام 1375 م ،كتبت باللغة الكاتالونية [1]

[1] - Bibliothèque nationale de France - L'Atlas Catalan

الملحق 18 : نماذج للعمارة الإفريقية وتطورها[1]

[1] - https://it.depositphotos.com 2018 -06-12 , 20 :45

الفهارس

فهرس الأماكن والبلدان

أرقلان، 46
أغدس، 55، 188
إفريقيا، و، ز، ط،11، 12،13، 14، 15،16، 17، 19، 22، 24، 25، 27، 28، 29، 30، 32، 35، 39، 40، 41، 42، 44، 45، 48،51، 53، 56، 57، 60، 61، ، 66، 64، 67، 68، 69، 72، 73، 75، 76، 78،77، 79، 81، 82، 84، 85، 87، 88، 90، 91، 96، 97، 98، 100، 101، 107، 108، 116، 124، 126، 139، 143، 144، 145، 147، 149، 153، 154، 155، 156، 159، 162، 164، 167، 168، 171، 173، 178، 181، 186، 187، 200، 204، 205، 206، 208،207، 213، 214، 216، 217، 224، 227، 230، 234، 236، 244
إفريقيا الغربية، 22، 42، 87
الاستوائية، 11، 35، 50، 54، 232
البجه، 23
البحر الأبيض المتوسط، 48، 195
البحر الأحمر، 13، 23، 24، 25، 26، 64
التكرور، ز، ح، 16، 17، 26، 28،27، 30، 32، 33، 44، 45، 63، 68، 74، 75، 90، 112، 147، 150، 162، 179، 200، 214، 219، 237، 242، 244
الجزائر، 19، 24، 31، 36، 38، 40، 43، 47، 60، 61، 66، 87، 97، 124، 137، 139، 145، 149، 154، 155، 156، 162، 185، 188، 189، 192، 193، 194، 203، 219
الحبشة، 23، 26، 27، 28، 85، 88
الزنج، 12، 13، 16، 21، 30

السّافانا، 11
السند، 23
السنغال، 16، 24، 25، 27، 29، 30، 31، 33، 40، 41، 45، 52، 64، 68، 74، 75، 82، 97، 102، 116، 133، 168، 190
السودان، أ، ب، ج، د، ه، و، ز، ح، 11، 12، 13، 14، 15، 17، 18، 19، 20، 21، 22، 23، 24، 25، 26، 27، 28، 29، 30، 32، 33، 34، 35، 36،37، 38، 39، 40، 41، 42، 43، 46، 47، 48، 49، 50، 51، 53، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 66، 62، 63، 66، 67، 68، 69، 70،71، 73، 74، 75، 76،77، 79، 80، 81، 84، 86، 87، 88،89، 90، 91،92، 93، 94، 95، 96، 98، 99، 100، 101، 100، 101، 102، 104، 105، 106، 107، 109، 110، 111، 112، 114، 115، 116، 117، 118، 119، 121، 123، 124، 125، 126، 127،128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 137، 138، 139، 140، 141، 142،143، 145، 144،145، 146، 147، 148، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 156،157، 158، 159، 160، 161، 162، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170،171، 172، 173، 174، 175، 176، 177، 178، 179، 180، 181،182، 183، 186، 187، 188، 189،190، 192،193، 194، 195،197، 198، 199، 200، 201، 202، 203، 204، 205،206، 207، 208، 209، 210، 211، 210، 211، 212، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 222، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 229، 230، 231، 232، 234، 236، 238، 239، 240، 241، 242، 243، 244، 246، 247، 248، 249، 250، 251، 252، 253، 252، 253،254
السودان الغربي، أ، ب، ج، د، ه، و، ز، ح، 11، 13، 14، 16، 18،19، 24، 25، 28، 29، 30، 33، ، 35،36، 37، 38، 39، 40، 41،47، 48، 49، 50، 53، 55، 60، 61، 62، 63، 66، 62،63، 64، 66،67، 68، 69، 70، 73، 74،

75، 76، 77، 79، 80، ، 84، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92، 93، 94، 95 96، 98، 99، 100، 101، 100، 101، 102، 104، 105، 106، 107، 109، 110، 111،112،114، 115، 116، 117، 118، 119، 121، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 134، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 143، 145، 144، 145، 146، 147، 148، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 164، 165، 166، 168،169، 170، 171، 172، 173، 174،175، 176، 177، 178،179، 180، 181، 182، 183، 186، 187، 188، 189، 190، 192، 193، 194، 195، 197، 198، 199، 200، 201، 202، 203، 204، 205، 206،207، 208، 209، 210، 211، 210، 211، 212، 213، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 229، 230، 231، 232، 234، 236، 238، 239، 240،241، 242، 243، 244، 246، 247، 248، 249،251، 252، 253، 252، 253، 254
السوس، 20، 67، 69، 73، 87، 222
السونغاي، 37، 65، 66، 70، 234
الصحراء، أ، ز، ح، ط،11، 12، 14،19، 20، 21، 22، 24، 25، 29، 31، 32، 35، 38، 39، 41، 47، 50، 56، 57، 63، 65، 66، 63،64، 67، 68، 72، 76، 77، 81، 84، 85، 87، 88، 89، 91، 92، 93، 108، 109، 114، 115، 126، 132، 135، 145، 148، 153، 155، 157، 159، 160، 170، 171، 172، 178، 179، 181،183،185، 187، 189، 190، 192، 194، 206، 211، 213، 220، 224، 227، 231، 232، 246،251، 252، 253، 254
الصعيد، 36
الفوتاجالون، 52، 102
القارة الإفريقية، أ، ب، و، 11، 12، 14، 18، 25، 30، 36، 43، 50، 65، 72،

75، 88، 89، 108، 149، 166، 177، 232
اللملم، 45
المحيط الأطلسي، 19، 24، 25، 28، 29، 37، 53، 63، 73،75، 165، 190
المغرب، أ، ه، و، ز، ح، ي، 14،19، 20، 21، 23، 25، 26، 27، 33، 35، 38، 40، 43، 44، 48، 53، 59، 64، 65، 66، 63، 66، 67، 68، 71، 73، 75، 81، 86، 87، 88، ، 104، 105، 109، 111، 114، 115، 118، 120، 121، 124، 125، 131، 132، 135، 141، 142، 143، 145، 147، 148، 150، 157، 158، 159، 160،163، 167، 169، 172،173، 175، 176، 178، 182، 185، 186، 187، 188، 189، 191، ، 193، 195، 196، 198، 200، 204، 205، 221، 222، 223، 225، 228، 234، 236، 238، 240، 241، 243، 244، 245، 248، 251، 252، 253
المغرب الأقصى، 68، 145، 205، 234
المليبار،16، 212
النوبة، 13، 20، 23، 24، 42، 213
النيجر، 16، 27، 28، 29، 31، 33، 35، 37، 38، 49، 50، 51، 54، 55، 56، 57، 60، 62، 63، 64، 65،95، 97، 101، 102، 103، 105، 106، 109، 110، 112، 113، 115، 116، 126، 127، 133، 157، 166، 167، 176، 180، 186، 188، 189، 225
النيل، 13، 20، 23، 25، 26، 27، 29، 33، 42، 64، 74، 95، 101، 118
الهند، 16، 21، 23، 26، 135، 195
الونقارة، 45
أمريكا، 17، 191، 205، 252
أودغست، 48، 67، 139، 170، 175، 183، 184، 216، 234
أوروبا، 19،28، 53، 61 ،66، 88، 122، 142، 143، 144، 145، 149، 173، 178، 180، 195، 253

أوليل، 21، 120
بامبوك، 31، 52
بحر القلزم، 21
بحيرة تشاد، 24، 25، 28، 29، 35، 53، 68، 72، 82، 101، 133
بحيرة ديبو، 62
بحيرة كوري،25، 63
برقة، 21، 45، 68، 74
برنو، 27، 74، 82، 214
بلاد البربر، 16، 21، 50، 122
بلاد الزنج، 21
بلاد السودان الغربي، أ، 14، 15،32، 36، 39، 40، 41، 65، 68، 69، 77،82، 85، 87، 92، 93، 94، 96، 97، 98، 100، 103، 105، 106، 107، 108، 112، 116، 119، 120، 122، 123،124،125،127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، ، 138، 139، 143، 144، 146، 145، 146، 150، 152، 154، 157، 161، 164، 168، 170، 175، 176، 178، 179، 181، 183، 186، 187، 190، 199، 204، 206، 208، 211، 214، 215، 218، 220، 221، 224، 226، 228، 229، 230، 231، 232، 233، 235، 237، 238، 240، 245، 248، 250، 251، 252، 253
بلاد المشرق والمغرب، أ
بوركينافاسو، 24، 34، 126
بورنو، 22، 55، 136
تبالة، 23
تغازا، 47 ، 62 ،65 ، 120، 143، 185 ، 187
تغداواست، 48
تكرور، 21، 27، 81، 120، 138، 141

تمبكت، 39، 53، 54، 57،60 ،62، 63، 64، 65، 66، 68، 69، 104، 111، 122، 124، 127، 128، 131، 133، 149، 150، 151، 152 ، 161، 162، 165، 171، 179، 180 ،185، 187، 188، 189، 192، 194، 197، 199، 201، 203، 205، 209، 211، 216، 217، 218، 221، 226، 228، 245 ،247 ، 248 ، 254
تمنطيط، 71، 87
جاو، 31، 53، 54، 56، 59، 60، 61، 65، 66، 103، 233
جني، 54، 62،61، 63، 102، 104، 120، 146، 151، 180،185، 186، 215، 225، 226،242
دارفور، 27، 64
ساحل الذهب، 25
سبتة، 49
سجلماسة، 20، 27، 47، 48، 67، 71، 86، 139، 145، 170، 182، 183، 185، 186، 190، 191، 243،251
سنغاي، أ، ج، د، ط، 24، 36، 37، 48، 49، 54، 55، 56، 59، 60، 61، 68، 97، 102، 103، 105، 106، 107، 110، 111، 114، 119،121، 128، 129، 134، 142، 148،155، 161، 163، 166، 167، 171، 178، 180، 189، 194، 196، 197، 202، 203، 207، 208، 209، 216، 223، 225، 226، 227،235، 237، 238، 245، 246، 247، 248، 250، 252، 254
سودان، 13، 23، 81
طرابلس، 29، 34، 74، 167، 220
غامبيا، 30، 31، 34، 52، 168
غانة، أ،ج، و، 14،17، 20، 28، 32، 37، 40، 41،42، 43، 44، 45،46،47، 48، 49، 51، 52، 55، 56، 59، 61،65، 68، 71، 77، 82، 93، 95، 97، 100،119، 127، 134، 141، 163، 165، 182، 183، 187، 188، 190،

191، 207، 209، 234، 237، 240، 245، 246، 252
غاو، 36، 56، 60، 69، 116، 126، 127، 157، 161، 189، 198، 203، 225، 227، 234، 242، 247، 249, 251
غرب إفريقيا، 14، 16، 25، 167
فولتا العليا،24، 126
كاغ، 60، 225
كاغو، 51، 60، 225، 227
كانم، 14، 54، 55، 73، 95، 136، 159، 160، 214
كاو، 51
كردفال، 64
كنجابا، 54
كوكو، 16، 30، 51، 56، 139، 188، 189، 206، 225، 241
كوكيا، 35، 61
كومبي صالح، 45، 48، 49، 190
لنهر النيجر، 35، 66
مالي، أ، ج، و، ز، ط،22، 25، 31، 32، 35، 37، 38، 39، 41، 42، 48، 49، 50، 51، 52، 53، 54، 55، 56، 62، 64، 70، 96، 97، 98، 102، 103، 105، 106، 107، 109، 111، 114، 118، 119، 126، 127، 136، 137، 139، 141، 142، 146، 148، 157، 158، 159، 161، 164، 165، 166، 174، 180، 181، 182، 184، 190، 193، 200، 208، 209، 210، 211، 212، 219، 221، 226، 233، 234، 235، 236، 237، 241، 242، 244، 247، 248، 249
مراكش، 64، 69، 205
مصر، 13، 20، 22، 26، 28، 36، 48، 49، 52، 53، 65، 68، 73، 75، 78، 83، 85، 88، 89، 92، 138، 141، 144، 147، 150، 151، 152، 153،

160، 162، 165، 173، 174، 186، 204، 208، 213،248
موريتانيا، 33، 35، 41، 60، 67، 119، 194، 196، 224
نياني، 54، 126، 143، 144، 157، 200، 226، 244
نيجيريا، 22، 31، 47، 75، 78، 81، 89، 97، 166، 201
واغادو، 44
واغادوجو، 44
ولاتة, 45، 65، 70، 110، 144، 150، 152
ونقارة، 46، 95، 116، 120، 134، 190
ونقارة، 46

فهرس القبائل

الأحباش، 26، 65
البجاوة، 16
البربر، 35، 67، 68، 70، 123
البرنو، 29، 75، 76
البمبارا، 77, 108
البمبارة، 29، 31، 36، 37
البولالا، 29
البيضان، 17، 43، 69، 72، 152، 158
التكرور، ز، ح، 16، 26، 27، 29، 32، 33، 43، 44، 65،69،74،76، 89، 112، 148، 151، 162، 180، 199، 216، 221، 238، 242، 244
التيبو، 69
الجراكسة، 138
الحسّانية، 74
الدمادم، 16
الديولا،31، 182
الساميون،12
السنغاي، 29، 33، 35، 51، 52، 54، 55، 57، 67، 70، 97، 206
السودان، أ، ب، ج، د، ه، و، ز، ح، 11، 12، 14، 15، 16،17، 19، 20، 21، 22،23، 24، 25، 26، 27، 28، 29، 30، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 39، 40، 41، 42، 45، 46، 47، 48، 49، 51، 53، 54، 55، 57، 58، 59، 60، 61، 62، 63، 64، 65، 67،68، 69، 70، 71، 72، 74، 75، 76، 77، 78، 80، 81، 82، 84، 85، 86، 87، 88، 89، 90، 91، 92، 93، 94، 95، 96، 98، 99، 100، 101، 102، 103، 105، 106، 107، 108،109، 110،

111، 112، 113، 114، 115، 116، 117، 118، 119، 120، 121، 123، 124، 125، 126، 127، 128، 129، 130، 131، 132، 133، 137، 138، 139، 140، 141، 142، 144، 145، 146، 147، 148، 149، 150، 151، 152، 153، 154، 155، 156، 157، 158، 159، 160، 161، 162، 164، 165، 166، 167، 168، 169، 170، 171، 172، 174،175، 176، 178، 179، 180، 181، 182، 183، 184، 186، 187، 188، 189، 190،192، 193، 194، 195، 196، 197، 198، 199، 200، 201، 202،203، ، 205، 206، 207، 208، 209، 210، 212، 213،214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 224، 225، 226، 227، 229، 230، 231، 232،233، 235، 236، 237، 239، 240، 241، 243، 244، 245، 246، 247، 248،249، 251، 252، 253، 254، 255
السوننك، 30، 31، 43، 44،46،199، 244
السوننكي، 31، 43،66 ، 184،235
الشوا، 75، 200
الصوركو، 113
الصوصو، 36، 47
الطوارق، 29، 37، 38، 51، 52، 55، 61، 126، 186، 226
العبيد، ز، 16، 20، 50، 97، 99، 113، 119، 124، 132، 137، 140، 141، 169، 173، 193، 201، 203، 215، 220، 230، 234، 236، 238
العرب، أ، ب، 12، 14، 20، 26، 27، 28، 29، 30، 31، 33، 35 ، 38، 39، 40، 41، 42، 47، 50، 61، 68،73،74، 75،ّ76،81، 92، 97، 98، 102، 107، 127، 130، 134،135، 140، 142، 146، 147، 148، 149، 150، 151، 154، 158، 162، 163، 171، 172، 173، 174، 175، 203، 217، 222، 226، 231، 237، 239، 244، 245، 253،254
العلوان، 74

الفامان، 13
الفلاتا، 16، 76
الفلاتة، 66، 68
الفلاني، 33
الفولاني، 16، 29، 33، 34، 36، 38
القوقازيون، 12
الكانوري، 76
الماندينغو،30 ،31، 46، 47، 65،164
المشارقة، 25، 252
المغاربة، و، 25، 64، 69، 70، 71، 72، 76، 106، 112، 123، 139، 140، 141، 143، 158، 168، 169، 175، 176، 180، 187، 192، 203، 205، 228، 229، 252
الموشي، 29، 33، 55
المولدون، 64، 76
الهوسا، 29، 34، 76، 88، 166، 200، 207، 215، 216، 218
الوثنيين، 47، 55، 64، 80، 93
الولوف،29، 34، 67
اليوربا، 36
أولاد سرار، 74
أولاد علي، 74
بني عامر، 74
بني وائل، 74
بربرا، 16
بمبارة، 30
بوبو، 16

تاجوة، 16
جالى، 16
جدالة، 69، 74، 184
جنك، 16
جهينة،, 75
زغاوة، 16
زنوج، 12، 76
سرك، 16
سمغارة، 69
سيراكول، 17، 31
صنهاجة، 35، 48، 59، 68، 184، 186, 251
طام تيكو، 121
غانية، 29
كايتة،47
كرغي، 16
كرنكن، 16
كوري، 16، 25، 65
لمتونة، 27، 69، 74، 184، 193
لمطة، 35، 69، 70
مسوفة، 68، 74، 171، 191، 244
مغراوة، 41، 193
ناجَّار، 37
نغالة، 16
نمنم، 16
هوارة، 69، 86

فهرس الأعلام

إبراهيم، 22، 25، 28، 30، 31، 35، 65، 69، 70، 73، 76، 96، 138، 149، 150، 155، 159، ، 162، 166، 171، 190، 191،207، 210، 227، 232، 240
ابن أبي أصيبعة، 23
ابن الوردي، 26، 27، 40، 41، 139، 153
ابن بطوطة، أ، ه، 14، 16، 20، 65، 70، 71، 72، 91، 92، 93، 97، 98، 105، 106، 107، 112، 113، 114، 119، 121، 129، 132، 135، 137، 139، 141، 142، 143، 146، 147، 152، 158، 159، 161، 164، 172، 175، 181، 183، 192، 209، 213، 214، 215، 217، 219،221، 223، 225، ، 236، 242، 244، 251، 252
ابن حوقل، 20، 22، 41، 77، 138، 171، 182، 224، 243
ابن خلدون، 15، 16، 21، 29، 39، 42، 43، 47، ، 50، 51، 52، 62، 65، 68، 74،97، 111، 112، 147، 149،152، 153، 158، 159، 160، 174، 193، 194، 234، 241، 250، 251
ابن سعيد، 15، 23، 32، 67، 74، 127، 173، 174،226
ابن عبد الحكم، 21
ابن غازي، 163
أبو الحسن المريني، 158
أبو العباس، ز، 13، 21، 44، 61، 132، 158
أبو مخلد بن كيداد، 149
أبي عبد الله المستنصر، 160
أبي عنان، 74، 159
أحمد التيجاني، 154
أحمد بابا، ز، 13، 141، 163، 216، 217، 221، 241، 243

أقيت، 56، 70، 163، 210، 241، 242
الإدريسي، و، 22، 41، 43، 44، 88، 89، 90، 91، 92، 94، 117، 118، 120، 121، 127، 134، 139، 140،185، 191، 199، 218، 225، 226، 235،240
الأسكيا إسحاق، 56، 229، 241
الأسكيا إسحاق الثاني، 56، 241
الأسكيا داوود، 103، 197، 210، 243
الأسكيا محمد، 33، 35، 55، 70، 87، 163، 164، 200، 218، 221، 234، 238، 246، 249
الاصطخري، 125
الانصمني، 163
البغدادي، 16، 207
البكري، ه، 13، 14، 20، 21، 34، 38،42، 43، 44، 48، 54، 58، 66، 69، 81، 89، 91، 93، 96، 97، 98، 117، 119، 124، 125، 134، 136، 139، 175، 184، 185، 188، 190، 191، 200، 206، 218، 237، 240
البلاذري، 44
التازي، 44، 150
التكروري، 27، 67، 148،، 164
التواتي، 150
الجزولي، 150، 158
الحسن الوزان، ه، 22، 48، 49، 60، 62، 69،71، 103، 110، 112، 120، 123، 131، 134، 135، 186، 188، 189
الدكالي، 70، 150، 158
الزهري، 84، 135
الساحلي، 53، 88، 147، 149، 202، 220، 227، 228، 229، 250

السجلماسي، 150
السعدي، ز، 17، 33، 35، 38، 43، 50، 54، 55، 56، 57، 58، 59، 60، 61، 62، 68، 69، 87، 89، 109، 111، 120، 128، 132، 133، 152، 163، 164، 166،167، 168، 169، 176، 181، 186، 187، 188، 192، 197، 202، 204، 207، 209، 215، 216،217، 219، 220، 221، 222، 223، 226،227 ، 238، 239، 241، 242، 243، 248، 249، 250، 251
العاقب، 70، 163، 210، 241
العمري، 32، 47، 48، 66، 70، 93، 94، 98، 104، 105، 106، 108، 110، 112، 118 ، 136، 152، 163، 164، 166، 204، 209، 213، 225، 237
الفاسي، 70، 223
الفشتالي، 111، 120، 128
الفلالي، 149
القزويني، 29، 92، 119، 120، 249
القلقشندي، 17، 21، 27، 29، 45،47، 73، 91، 94، 98، 110، 119، 129، 136، 137، 141، 143، 160، 161، 164، 174، 183، 213، 214، 232، 237
القيرواني، 20، 21
الله الجهني، 74
الماي عبد الله بن كادي، 160
المسعودي، 15، 24، 65
المغيلي، ج، ز، 86، 124، 153، 154، 155، 156، 162، 193، 194، 203، 216، 221
المقري, 70، 72، 149، 176، 180، 182، 183، 192
المقريزي, 26، 27، 82، 89،91، 147، 153، 160، 164،215
الميورقي، 51

الناصري،61،74، 246
الونشريسي، 125، 132، 135
اندعمر، 163
أندغ محمد، 242
باباجيدا، 16
برقوق، 138، 160، 161
جودر باشا، 56
حام، 15، 65
سام،15، 24، 65
سليمان الأول، 137
سني علي، 52، 54، 55،59، 214
سونديانا، 47، 49، 50، 234
صندكي، 174
طارق بن زياد، 36
طرخان، 28، 30، 31، 38، 51، 65، 75، 190، 191
عبد الرحمان، 17، 30، 38، 70
عبد الرحمن السيوطي، 162
عبد الرحمن بن أبي بكر، 162، 241
عبد الله بن سعد، 13
عبد الله بن عمر، 163
عثمان بن كادي، 160
علي بن عبد الله، 70، 163، 207، 208
عمر بن الخطاب، 12
عمر بن العاص، 13
كنعان بن حام، 65

كوش، 15، 40, 65
مارمول, 27, 45, 49, 69, 76, 77, 86, 102, 106, 108, 114, 123, 143, 190، 200
محمد بلو بن عثمان فودي، 32
محمد بن المولود، 219
محمد بن علي السنوسي، 154
محمود بغيغ، 217
محمود بن زرقون، 128
محمود كعت، ز، 16،81، 86، 108، 109، 127، 196، 233،243
مخلوف بن علي البلبالي، 163
منسا، 30، 47، 50، 51، 53، 54،60، 61، 137، 140، 141، 149، 151، 152، 157، 158، 164، 166، 209، 223، 227، 237، 241، 247، 250
منسا سليمان، 51، 158
منسا موسى، 49، 50، 51، 53، 158، 250
موسى كايتا، 47
موني، 121، 198
ناري فامغان، 47
يافث، 15
يوسف بن عبد الله، 163

بيبليوغرافيا

– قائمة المصادر :

القرآن الكريم برواية ورش لقراءة الإمام نافع من طريق أبي يعقوب الأزرق .

– المخطوطة :

1. باي بن عمر ،مخطوط النوازل ،ورقة 237 .

2. التمنطيطي (محمد بن عبدالكريم بن عبد الحق) ، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الإسلام ،مخطوط بخزانة عبد الله البلبالي ،كوسام ،أدرار .

3. الكنتي (محمد بن مختار) ، الطرائف والتلائد من كرامات الشيخين الوالدة والوالد ،مخطوط في خزانة الشيخ عبد القادر بن عبد الكريم المغيلي بالحي الغربي بأدرار ، الجزائر ، ورقة 105.

4. المقريزي (أحمد بن علي بن عبد القادر) ، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام،تحت رقم:46290، موجودة بالمكتبة الأزهرية، عدد الأوراق 21.

–المطبوعة :

5. – الأرواني أحمد بابير ، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية ، تحق: الهادي المبروك الدالي ، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ،ط1،بنغازي ،2001م .

6. ابن أبي أصيبعة(موفق الدين أبو العباس أحمد بن سديد الدين القاسم)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق نزار رضا، منشورات دار الحياة، بيروت، د.ت.

7. ابن ابي زرع(أبو الحسن علي) ،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، دار المنصور للطباعة ،الرباط ، المغرب ،1972.

8. ابن الأحمر(أبو الوليد اسماعيل بن يوسف)، النفحة النسرينية واللمحة المرينية،تح:عدنان محمد آل طعمة ،ط1 ،دار سعد الدين للطباعة والنشر ، دمشق ، 1992م.

9. ابن الخطيب لسان الدين ، الإحاطة في أخبار غرناطة ،تحقيق ، محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ،القاهرة ،ط1،مج2 ،1974 م.

10. ابن الفقيه(أحمد بن محمد بن اسحاق بن ابراهيم الهمذاني أبو بكر) ، مختصر كتاب البلدان ،دار صادر ،بيروت ،1302 ه.

11. ابن المختار ، تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ،تحقيق حماه الله ولد السالم ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،2012.

12. ابن الوردي (سراج الدين أبو حفص عمر) ، تتمة المختصر في أخبار البشر ،إشراف وتحقيق ،أحمد رفعت البدراوي ،ط1،دار المعرفة للطباعة والنشر،ج2 ،بيروت لبنان ،1970م.

13. ـــــــ ، خريدة العجائب وفريدة الغرائب ،ط2،مطبعة مصطفى البابي الحلبي ،القاهرة، 1939م.

14. ابن بطوطة (محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي) ، رحلة ابن بطوطة في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ،تحقيق ،محمد عبد الرحيم ،ج2،دار الفكر ،2009 م.

15. –ابن ثغري بردي ، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ،تحقيق : جمال محمد محرز ،فهيم محمد شلتوت،ج14 ، الدار المصرية العامة للتأليف والنشر 1971م.

16. ابن حزم ،أبو محمد بن علي أحمد بن سعد الأندلسي ،جمهرة أنساب العرب ، تح :عبد السلام هارون ،دار المعارف،ج2 ،القاهرة ،1398 ه/1977 م.

17. ابن حوقل أبي القاسم النصيبي ، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1992.

18. ابن خلدون عبد الرحمان ، العبر ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ،ج6، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، 2000م.

19. ابن سعيد المغربي ، كتاب الجغرافيا ،حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي ،ط1،بيروت ،منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ،1970م.

20. ابن سعيد سحنون ،المدونة الكبرى ،تح ،سيد حماد الفيومي وآخرون ،ج1،مطبعة السعادة ،1323 هـ/1905 م.

21. ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، تحقيق شارلز ثوري، ج2، الأمل للطباعة والنشر، 2001.

22. ابن عبد الظاهر ،الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر ،تحقيق ونشر عبد العزيز الخويطر،ط1 ،الرياض ، 1976م.

23. ابن كثير (عماد الدين أبو الفداء إسماعيل الدمشقي)، البداية والنهاية ،،حققه ودقق أصوله وعلق حواشيه علي شيري ،ط1 ،دار إحياء التراث العربي بيروت ،لبنان،ج1 ،ج14 ، 1408 ه/1988م.

24. ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن محمد المليتي المديوني)البستان في ذكر الأولياء والعلماء في تلمسان ، مراجعة ،محمد ابن أبي شنب ،المطبعة الثعالبية ، الجزائر ،1908.

25. ابن منظور (أبو الفضل محمد بن مكرم بن علي جمال الدين)،لسان العرب المحيط ، ط6 ،ج3 وج10 ،دار صادر للطباعة ،بيروت ،لبنان ،1997م.

26. الإدريسي أبو عبد الله الشريف ،صفة المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس (مأخوذة من كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)،مطبعة بريل ،ليدن ،1968م .

27. ـــــــ ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ، مج1، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ،د.ت .

28. ـــــــ ، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس مقتبس من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م.

29. الأرواني ،أحمد بابير ، السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية ، دراسة وتحقيق الهادي المبروك الدالي ،ط1،جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ،بنغازي ،ليبيا ، 2001م.

30. الأصطخري (أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالكرخي)، المسالك والممالك ،الهيئة العامة لقصور الثقافة ،2004.

31. –الفخر الرّازي أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن علي،تفسير الفخر الرازي المشهور بالتفسير الكبير ومفاتيح الغيب ،قدّم له خليل محي الدين الميس ،مج13، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت لبنان ،1415ه/1995م.

32. –ـــالمقريزي(أحمد بن علي بن عبد القادر) ـــ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة قطعة منه، القسم الأول حرف ألف، حققه عدنان درويش و محمد المصري، منشورات وزارة الثقافة، دمشق ، 1995م.

33. البكري ، المسالك والممالك ،تحقيق وتقديم :أدريان فان ليوفن وأندري فيري ،ج2، الدار العربية للكتاب ،1992م .

34. ـــــــ ، (أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمر) ، المغرب في ذكر إفريقية والمغرب وهو جزء من المسالك والممالك، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت.

35. البلاذري (أبو العباس أحمد بن يحي بن جابر بن داود) ، فتوح البلدان، حققه عبد الله أنس الطباع وعمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، 1987م.

36. بيلو محمد بن عثمان بن فودي ،إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور،تح: بهيجة الشاذلي ،منشورات معهد الدراسات الافريقية ،الرباط ،المغرب ،1996م .

37. التكروري أحمد بن عرفة ،العرف المشهور في حجاج بلاد التكرور ،مطبعة الخانجي ، القاهرة ، 1314 هـ، ص118 .

38. التمبكتي أحمد بابا ، معراج الصعود ،تحقيق وترجمة ،فاطمة الحراق وجون هانويك ،معهد الدراسات الإفريقية ،الرباط،2000.

39. ـــــــ، نيل الابتهاج بتطريز الديباج ،مج1 ومج2 ،إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة ،ط1 ،منشورات كلية الدعوة ،طرابلس ،1989.

40. التونسي ،محمد بن عمر ،تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ،تحقيق: خليل عساكر ،المؤسسة المصرية العامة للتأليف والنشر ،القاهرة ،1385 ه/1965م.

41. الجاحظ (زأبو عثمان عمر بن بحر محبوب بن فزارة الليثي الكناني البصري) ، الرسالة الأولى في الحاسد والمحسود ،ط1، مطبعة التقدم، مصر، 1324ه.

42. الحسن الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر،ج1، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1983م .

43. الحموي ياقوت بن عبد الله ، معجم البلدان، دار الصادر، بيروت، 1984م.

44. الحميري ،الروض المعطار في خبر الأقطار ،تحقيق إحسان عباس،،ط2 ،مكتبة لبنان،بيروت ،1984م.

45. الخطيب الجوهري علي بن داوود الصيرفي ، نزهة النفوس و الأبدان في تواريخ الزمان ،تح: حسن حبشي ،ج3، دار الكتب ،1970 م .

46. الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان ،تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام،ج2 ،بيروت لبنان ،1987م.

47. الزهري أبي عبد الله محمد بن أبي بكر ، كتاب الجغرافيا ، تح:محمد حاج صادق ، المعهد الفرنسي للدراسات العربية ،دمشق ،1388هـ/1968 م.

48. السعدي عبد الرحمن ، تاريخ السودان، مطبعة بردين الباريزية لتدريس الألسنة الشرقية، وقف على طبعه هوداس، 1981م.

49. السيوطي ،جلال الدين عبد لرحمن بن أبي بكر ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ،تح:محمد أبو الفضل إبراهيم،ج1 ،مطبعة دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ،1387ه/1967م.

50. الشنقيطي أحمد بن الأمين ، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط ،تحقيق :فؤاد السيد،ط4 ،مطبعة المدني ،1989م.

51. شهاب الدين الجيزاني ، تحفة الزمان أو فتوح الحبشة ، الهيئة العامة المصرية للكتاب ، القاهرة 1974.

52. شهاب الدين العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " ممالك اليمن والمغرب الإسلامي وقبائل العرب "، تحقيق حمزة أحمد عباس، السفر الرابع، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، 2002م.

53. العسقلاني ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج4وج5 ،دار الجيل ،بيروت ،لبنان ،1414هـ /1993م .

54. العياشي عبد الله بن محمد ، الرحلة العياشية 1661-1663 م،تحقيق وتقديم ،سعيد الفاضلي وسليمان القرشي ،دار السويدي ،أبوظبي ط1،2006 م.

55. الفشتالي عبد العزيز بن عمر بن ابراهيم ، مناهل الصفاء في مآثر موالينا الشرفاء ،تحقيق عبد الكريم كريم ،الرباط ،وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ،1972م.

56. الفيروز آبادي ، القاموس المحيط ،إشراف محمد نعيم العرقسوسي ،مؤسسة الرسالة ،ط8،2005م.

57. القزويني زكرياء بن محمد بن محمود، آثار البلاد وأخبار العباد ،دار صادر ،بيروت لبنان،1960م.

58. القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي ، نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، تحقيق :إبراهيم الأبياري ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت ،ط1980،2،ص19 .

59. ـــــــ، صبح الأعشى ،في صناعة الإنشا ، شرح وتعليق نبيل خالد الخطيب ،ط1،دار الكتب العلمية بيروت لبنان ، 1987 م.

60. القيرواني ابن أبي دينار ، المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، ط1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1286ه.

61. كعت محمود ، تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش ،وأكابر الناس وذكر وقائع التكرور، وعظائم الأمور وتفريق أنساب العبيد من الأحرار ،دراسة وتعليق آدم بمبا،الرسالة ناشرون ،سوريا ،ط1 ،2014 م.

62. مارمول كربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي محمد زبير، محمد الأخضر، أحمد توفيق، أحمد بن جلون، دار المعرفة، الرباط، 1989م.

63. الماوردي ، علي بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الأحكام السلطانية والولايات الدينية ،بيروت ،1978 م .

64. محمد بيلو ، إنفاق الميسور في تاريخ بلاد التكرور ، لندن 1957 م.

65. المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين بن علي) ، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان الغامر بالماء والعمران ، دار الأندلس للطباعة و النشر والتوزيع ،بيروت ،لبنان ،1996م.

66. ـــــــ ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ،تحقيق وتعليق الشيخ قاسم الشماعي الرفاعي ،ط1،دار القلم بيروت،ج1 ،1408ه/1989م.

67. ـــــــ ،البيان و الإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ،تحقيق فردناند واسطون فيلد ،جوتنجن ،المانيا ،1847م.

68. ـــــــ ، أخبار الزمان ومن أباده الحدثان وعجائب البلدان والغامر بالماء والعمران ،ط4 ، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع ،بيروت ،1980م.

69. المغيلي محمد بن عبد الكريم ، رسالة في الغلائف ، تحقيق وتعليق ،مبروك مقدم ، ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،2016م .

70. ـــــــ ، أسئلة الأسقيا وأجوبة المغيلي ،تقديم وتحقيق عبد القادر زبادية ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ،1974م .

71. المقري أبو العباس أحمد بن محمد ،نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب ،ج5،بيروت ،1986م .

72. المقريزي أبو العباس تقي الدين أحمد بن علي ابن عبد القادر بن محمد العبيدي ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار،ج1 ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ،د/ت.

73. مؤلف مجهول ، مفاخر البربر ، تحقيق : عبد القادر بوباية ، ط1 ،دار أبي الرقراق للطباعة والنشر ، الرباط ،2005م .

74. مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار" وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب" نشر وتعليق، سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، بغداد، 1986.

75. مؤلف مجهول، الحلل السندسية في الأخبار الأندلسية، بقلم شكيب أرسلان،ج1، ط1، المطبعة الرحمانية، مصر، 1936.

76. مؤلف مجهول، مجاهل إفريقيا، تعريب المعلم شاكر سقير، مطبعة القديس جاوجيوس، بيروت، 1885م.

77. الهمذاني أبو بكر أحمد بن محمد ، البلدان، مطابع بريل، ليدن، 1886م.

78. الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحي بن محمد بن عبد الواحد بن علي ، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء إفريقيا والأندلس والمغرب ،ج5وج6،دار الغرب الإسلامي ، بيروت ،1401هـ/1989م.

79. اليعقوبي أحمد بن أبي يعقوب ،كتاب البلدان ،مطبعة بريل ،ليدن ،1860م .

80. ـــــــ ،تاريخ اليعقوبي ، علق عليه ووضع حواشيه خليل منصور ،دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ، ط 1 1999م.

81. اليفريني محمد بن عبد الله بن علي ، نزهة الحادي في أخبار ملوك القرن الحادي ، ط2،مكتبة الطالب ،الرباط،1988م.

- المراجع العربية :

1- إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي، تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الحكام ، دار الكتب العلمية ،بيروت ،1301 هـ / 1883 م.

2- إبراهيم علي طرخان ،دولة مالي الإسلامية ، الهيئة العامة المصرية للتأليف القاهرة ، 1973م.

3- ـــــــ ،إمبراطورية غانة الإسلامية ،الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ،1970.

4- ـــــــ ،إمبراطورية البرنو الإسلامية ،الهيئة المصرية العليا للكتاب،القاهرة ،1975م.

5- أبو العباس أحمد الناصري، الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى" الدولة السعدية"، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، ج5، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1955م.

6- أحمد الشكري ، الإسلام والمجتمع السوداني "إمبراطورية مالي 1230-1430م ،ط1،إصدارات المجتمع الثقافي ،أبوظبي،1999م.

7- أحمد بوعتروس ، الحركة الإصلاحية في إفريقيا جنوب الصحراء إبان القرن الثالث عشر هجري /التاسع عشر ميلادي ،دار الهدى ، الجزائر ،2009 م.

8- أحمد حسن علي ، قاموس المذاهب والأديان ،دار الجيل ،ط1 ،بيروت لبنان 1998م.

9- أحمد محمد كاني ،الجهاد الإسلامي في غرب إفريقيا ، ط1،القاهرة ،الزهراء للإعلام العربي ،1987م.

10- أحمد مرجان سحر عنتر ،فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهدي مالي وصنغي ،ط1،مكتبة الثقافة الدينية ،2011 م.

11 - أحمد نجم الدين فليجة ،أفريقيا دراسة عامة و إقليمية ،مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية.

12- أحمد نجم الدين فليجة ويسرى الجوهري ، أفريقيا جنوب الصحراء ، دراسة إقليمية ، الإسكندرية ،1977 م .

13- إدوارد بوفيل ،الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ، تر:رياض زاهر ،مكتبة الأنجلو المصرية ،القاهرة ،1968م.

14- أرنولد توماس ، الدعوة إلى الإسلام ،تر:حسن إبراهيم حسن وآخرون ،مكتبة النهضة المصرية ،(د.ت)،القاهرة.

15- إسماعيل العربي ، الصحراء الكبرى وشواطئها ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ، 1983م.

16- اسود عبد الرزاق محمد ، المدخل إلى دراسة الأديان والمذاهب ، ج1 ،بيروت ، 1980م.

17- أكناته ولد النقره ، الطوارق من الهوية إلى القضية ،المركز الموريتاني للبحوث والدراسات الإستراتيجية ،نواقشوط 2014م.

18- الألوري ادم عبد الله ، موجز تاريخ نيجيريا ،منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان ، 1965م.

19- الحاج محمد بن رمضان شاوش ،باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ،ديوان المطبوعات الجامعية ،الجزائر ،1995.

20- الحبيب الجنحاني، المغرب الإسلامي، الحياة الاقتصادية والاجتماعية (3-4هـ/9-10 م) ، الدار التونسية للنشر ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر ، 1977 م.

21- الحسن السائح ،الحضارة المغربية عبر التاريخ ،ج1،الدار البيضاء ،1975م.

22- الشيخ الأمين عوض الله ، طرق القوافل بين المغرب و السودان الغربي و أثارها الحضارية حتى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر ، معهد البحوث والدراسات العربية ،بغداد ،1404 هـ/1984 م.

23- الشيخلي صباح إبراهيم ، النشاطات التجارية العربية عبر الطريق الصحراوي الغربي حتى نهاية القرن الخامس الهجري ،بحث منشور في كتاب تجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر ، بغداد 1984.

24- الصنعاني محمد بن إسماعيل ،سبل الإسلام ، ج3 ،بيروت ،1379هـ.

25- الكبيسي حمدان عبد المجيد، الخراج أحكامه ومقاديره ،وزارة التعليم العالي والبحث العلمي مطبعة جامعة بغداد ،1412 هـ /1991م.

26- الماحي عبد الرحمن عمر ،المجتمع التشادي في عهد الاحتلال الفرنسي ، الجريسي للكمبيوتر والطباعة والتصوير ،القاهرة ،1997 م.

27- الناني ولد الحسين ،صحراء الملثمين ، تقديم محمد حجي ، ط1،بيروت ،دار المدار الإسلامي ،2007م.

28- النوي ، إبراهيم صالح الحسيني ، تاريخ الإسلام وحياة العرب في إمبراطورية كانم وبرنو، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، القاهرة، 1876م.

29- الهادي المبروك الدالي ، التاريخ السياسي و الاقتصادي لإفريقيا فيما وراء الصحراء ، الدار المصرية اللبنانية ،ط1 ،1999م.

30- الهادي مبروك دالي، أدب إفريقيا فيما وراء الصحراء، ط1، دار صنيف للطباعة والنشر بيروت، 1996م.

31- أوليفر ،رولاند وجون فيج ،موجز تاريخ أفريقيا ،ترجمة :دولت أحمد صادق ،مراجعة : محمد السيد غلاب ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ،القاهرة ،د.ت.

32- ب.س لويد، إفريقيا في عصر التحول الاجتماعي، ترجمة شوقي جلال، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 34يناير 1978م.

33- بازينة عبد الله سالم محمد ، انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء ،ط1 ،منشورات جامعة 7أكتوبر ،ليبيا ،2010 م

34- باسل دافيدسون ،إفريقيا القديمة تكتشف من جديد ،تر :بدر نبيل ،سعد زغلول ، الدار القومية للطباعة والنشر ،2001م

35- باقر طه : مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة ، بغداد 1971م.

36- بوفيل ، تجارة الذهب وسكان المغرب الكبير ،تر: الهادي أبو لقمة ،ومحمد عزيز ، منشورات جامعة قاريونس ،بنغازي،ط2 ،1988.

37- بول مارتي ، كنتة الشرقيون ـــتعريب وتعليق ،محمد محمود ولد ودادي ،نواكشوط ، موريتانيا ،د ت .

38- بولم دنيس ،الحضارات ا لأفريقية ،ترجمة :علي شاهين ، بيروت لبنان ،1974م.

39-جعفري مبارك ،الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13 هـ/ 19 م

40- جمال زكريا قاسم ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الإفريقية ، دار الفكر العربي ، 1996م.

41- جميلة التكيتك ، مملكة صنغي الإسلامية في عهد الأسقيا محمد الكبير 1493-1528م، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ،الجماهيرية الليبية ، 1998م.

42- جوان جوزيف ، الإسلام في ممالك وإمبراطوريات إفريقيا السوداء ، ترجمة مختار السويفي ، دار الكتب الإسلامية ،ط1 ،1984م.

43- جودت عبد الكريم يوسف ، الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين (9-10 م)،د.م.ج،الجزائر ،1992م.

44- حجي محمد ، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين ،ج1،منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر ،الرباط ،1977م.

45- حسن احمد محمود ، قيام دولة المرابطين ،دار الكتاب الحديث ،ط2 ،1996 م.

46- حسن حسن إبراهيم ، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية ، مكتبة النهضة المصرية ، ط2، القاهرة ،1964م.

47- حسن عيسى عبد الظاهر ،الدعوة الإسلامية في غرب إفريقيا وقيام دولة الفولاني في مطلع القرن الثاني عشر الهجري التاسع عشر الميلادي ،جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية ،1981 م.

48- حسين مرزوقي ، بلاد السودان في كتب الجغرافيين والرحالين العرب والمسلمين إلى حدود القرن الثامن الهجري ، مجمع الأطرش للكتاب المختص،تونس، ط1 ،2018 م .

49- حوتية محمد الصالح ، توات و الأزواد ،دار الكتاب العربي ،ج1 ،2007م.

50- دافيدسون ، إفريقيا تحت أضواء جديدة ،ترجمة: م أحمد بيروت لبنان 1963م.

51- دنيس بولم، الحضارات الإفريقية، ترجمة علي شاهين، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، 1984.

52- دونالد ويدنر ،تر،راشد البراوي ،دار الجيل للطباعة ،القاهرة ،د.ت.

53- رينهارت دوزي،تر: أكرم فاضل ، المعجم المفصل بأسماء الملابس عند العرب ، وزارة الاعلام العراقية ،بغداد، 1971م.

54- زاهر رياض ، الممالك الإسلامية في غرب إفريقيا وأثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ،القاهرة ،مكتبة الأنجلو المصرية،1968م.

55- زكي ،عبد الرحمن ، الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا الغربية ،المؤسسة العربية الحديثة للطباعة والنشر والتوزيع ، القاهرة ،1961م.

56-الزركلي خير الدين ، الأعلام ،قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين،ج5 ،بيروت، 1969م.

57- سامية بشير دفع الله ،تاريخ الحضارات السودانية القديمة منذ أقدم العصور وحتى قيام مملكة نبتة ،ط2،دار جامعة السودان المفتوحة للنشر ،2011م.

58- سحر عنتر محمد أحمد مرجان ، فقهاء المالكية وآثارهم في مجتمع السودان الغربي في عهدي مالي وصنغي ، مكتبة الثقافة الدينية ،ط1 ،1432ه/2011م.

59- سعيد عبد الفتاح عاشور، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، التاريخ السياسي ، بيروت ،لبنان،1962.

60- سليجمان ،السلالات البشرية في إفريقيا ،تر:يوسف خليل ، مكتبة العالم العربي ، القاهرة،ط1 ، 1379هـ/1959م .

61- سيلا عبد القادر محمد ، المسلمون في السنغال معالم الحضارة وأفاق المستقبل ، سلسلة كتاب الأمة ،ط1،قطر 1406 هـ .

62- شوقي عبد القوي عثمان، التجارة بين مصر وإفريقيا في عصر المماليك (648-922ه/ 1250- 1518م)، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 2002م .

63- شوقي عطا الله الجمل وعبد الله عبد الرزاق إبراهيم، دراسات في تاريخ غرب إفريقيا،مكتبة الإسكندرية،القاهرة،1998م.

64- ـــــــ ، تاريخ إفريقيا الحديث والمعاصر،ط2، دار الزهراء للنشر والتوزيع، الرياض، 2002م.

65- ـــــــ ،تاريخ المسلمين في إفريقيا ومشكلاتهم ، دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة ، 1996م.

66- صافي الدين محمد ،إفريقيا بين الدول الأوروبية،مكتبة مصر ،القاهرة ، 1959م.

67- صلاح قنصوه وآخرون ،قاموس أديان ومعتقدات شعوب العالم ، دار الكلمة ، ط1، القاهرة ، 2004 .

68- عبد الحميد عبد الله الهرامة ،آثار أبي زيد الفازازي الأندلسي ، نصوص أدبية من القرن الهجري السابع ،جمعها بعض تلامذته في حياته،ط1 ،بيروت ،دار قتيبة للطباعة والنشر ، 1991 م .

69- عبد الرحمن زكي ،تاريخ الدول الإسلامية السودانية ، المؤسسة العربية الحديثة ، القاهرة 1961،ص134 .

70- عبد السلام أبو سعد ، العلاقات الثقافية بين الشعوب الإفريقية وأثر الإسلام واللغة العربية في ترسيخها ، أعمال ندوة التواصل الثقافي والاجتماعي على جانبي الصحراء من 12-14 ماي 1998 م ،مراجعة وتقديم عبد الحميد عبد الله الهرامة ،كلية الدعوة الإسلامية ،طرابلس،ليبيا ،ط1 ،1999 م.

71- عبد القادر زبادية ، مملكة سنغاي في عهد الأسقيين ،1493-1592 ،الجزائر ،الشركة لوطنية للنشر والتوزيع ،1971 م.

72- ـــــــ ، الحضارة العربية والتأثير الأوروبي في إفريقيا الغربية جنوب الصحراء" دراسات ونصوص"، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م .

73- عبد القادر مصطفى المحبشي وآخرون، جغرافية القارة الإفريقية وجزرها ، ط1 ،الدار الجماهيرية للنشر والتوزيع و الإعلان ،2000.

74- عبد الله سالم محمد بازينة ،انتشار الإسلام في إفريقيا جنوب الصحراء ،ط1 ،منشورات جامعة 7أكتوبر ،2010م.

75- عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ،الطرق الصوفية في القارة لافريقية ،ط1،دار الثقافة للنشر والتوزيع ،القاهرة ،1999م.

76- عبد المنعم شميس ،من الشرق والغرب – غانا – عادات وتقاليد ،القاهرة (د.ت).

77- عبد الهادي التازي، التاريخ الديبلوماسي للمغرب من أقدم العصور إلى اليوم عهد المرابطين،مج5، المملكة المغربية، 1987م

78- عبده بدوي ،مع حركة الإسلام في إفريقيا ،القاهرة :1970م .

79-عبيد خالد سعيد آدم ، القبائل العربية وجهودها في نشر الإسلام والعروبة في حوض بحيرة تشاد ،دبلوم الدراسات المعمقة ،جامعة الملك فيصل بتشاد ،2004م .

80- عثمان المنصوري ،التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر ،مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب ،ط1 ،2001م.

81- عثمان برايما باري ، جذور الحضارة الإسلامية في الغرب الإفريقي ،دار الأمين للنشر والتوزيع ،مصر ،ط1 ،2000 م .

82- عدنان مراد ، المجتمعات الافريقية :أصولها تاريخها وشعوبها وثقافتها ،اتحاد الكتاب العرب، 1995م.

83- عطية مخزوم الفيتوري ،دراسات في شرق إفريقيا وجنوب الصحراء ، دار الكتب الوطنية بنغازي ،ليبيا ،1998م.

84- علي مسعود عمر ،تأثير الشمال الافريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي ، جمعية الدعوة الإسلامية ،طرابلس ،2003 م.

85- علي جمعة ،المكاييل والموازين الشرعية ،ط2،دار الرسالة ،القاهرة ،2009 م.

86- علي حزام ،جوهر المعاني وبلوغ الأماني في فيض سيدي التيجاني ،ط1،المطبعة المحمودية، مصر ،1318هـ.

87- علي مسعود عمر محمد ، تأثير الشمال الإفريقي على الحياة الفكرية في السودان الغربي ، جمعية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ،2003م.

88- عليان رشدي ، الأديان دراسة تاريخية مقارنة ، الديانات القديمة ،مطبعة وزارة التعليم العالي ،بغداد ،ط1،1976 م.

89- عمر باه ،الثقافة العربية في الغرب الإفريقي،ط1،مؤسسة الرسالة ،بيروت ،1993م.

90- عمر صالح سالم الفانوس ، دور الحكام السودانيين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي ، كلية الآداب جامعة بغداد ،2002م.

91- عيسى ، محمد عمر الفال ،الهجرات العربية إلى منطقة حوض بحيرة تشاد قبل الإسلام ، ندوة اللغة العربية في تشاد الواقع والمستقبل (21-25 يناير 2001م) جمعية الدعوة الإسلامية العالمية ،ط 1 ،2003 م.

92- عيسى محمود خيرى ،العلاقات العربية الإفريقية ، دار الطباعة الحديثة القاهرة ، د.ت.

93- الغنيمي عبد الفتاح المقلد ،حركة المد الإسلامي في غرب إفريقيا ،مكتبة نهضة الشرق ، القاهرة ،1406هـ/1985 م.

94- فرج محمد فرج ،إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين ،الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ،1977.

95- فلكس ديبوا ، تمبكت العجيبة ،تر:عبد الله عبد الرزاق إبراهيم ،المجلس الأعلى للثقافة ، القاهرة ،ط1،2003 م.

96- فيج .جي .دي، تاريخ غرب إفريقيا ، ترجمة :السيد يوسف نصر،ط1 ، دار المعارف، القاهرة، 1982م.

97- قاسم جمال زكريا ، الأصول التاريخية للعلاقات العربية الأفريقية ،معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ،1975 م.

98- ك.مادهوبانيكار، الوثنية والإسلام ،ترجمة وتعليق وتحقيق ، أحمد فؤاد بلبع ،ط2، المجلس الأعلى للثقافة ،1998م.

99- محمد المحجوب ولد بيه، موريتانيا جذور وجسور ، ط1،مكتبة القرنين 15و20للنشر والتوزيع ،نواكشط،موريتانيا،2016 م.

100- محمد المصطفى الغلاوي ،العمل المشكور في جمع نوازل علماء التكرور ، تحقيق ،حماه الله ولد السالم، ج 1و2 ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،2015م.

101- محمد عوض محمد ،الشعوب والسلالات الإفريقية ،الدار المصرية للتأليف والترجمة ، القاهرة ،1965.

102- محمد فاضل علي باري وسعيد ابراهيم كريدية ، المسلمون في غرب إفريقيا،ط1 ، ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،لبنان ،2007.

103- محمد مرسي الحريري ،جغرافية القارة الأفريقية ،دار المعرفة العلمية الجامعية ،1994.

104- محمد نبيل ملين ، تر: عبد الحق الزموري وعادل بن عبد الله،السلطان الشريف الجذور الدينية والسياسية للدولة المخزنية في المغرب ،المعهد الجامعي للبحث العلمي ،2013.

105- محمد المختار ولد السعد ،الفتاوى والتاريخ دراسة لمظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية في موريتانيا من خلال فقه النوازل ،بيروت ،دار الغرب الإسلامي ،ط1 ،2000 م.

106-محمد السعيد القشاط ، الطوارق عرب الصحراء الكبرى ،ط2 ، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء ، مطابع أديتار كاليري ،إيطاليا 1989 ،ص 69 .

107-محمد الغربي، بداية الحكم المغربي في السودان الغربي ،ج1، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر، الكويت، 1982م.

108- محمد سعيد القشاط ، التوارق عرب الصحراء الكبرى ،ط2، مركز دراسات وأبحاث شؤون الصحراء ، القاهرة ،1989م

109- محمد علي دبوز، تاريخ المغرب الكبير ،تاوالت الثقافة ،الجزائر ،ج 3 ،2010م

110-محمد محمد عوض ، الشعوب والسلالات الإفريقية ، الدار المصرية للتأليف والترجمة ، 1965م.

111- محمود سلام زناتي ،تعدد الزوجات لدى الشعوب الإفريقية ،القاهرة ،مصر ،1963.

112- ـــــــ ،نظم وعادات – مجموعة مقالات – دار النهضة العربية للنشر والتوزيع ، مصر، 1993.

113- محمود شاكر ،التاريخ الإسلامي ،الأقليات الإسلامية ،ط2، المكتب الإسلامي ، بيروت ـــ1995 م.

114- مهدي رزق الله ،حركة التجارة والإسلام والتعليم في غربي إفريقية قبل الاستعمار وآثارها الحضارية ،مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ،ط1998،1م.

115- نبيل صبحي حنا، المجتمعات الصحراوية في الوطن العربي" دراسات نظرية وميدانية"،ط1، دار المعارف، القاهرة، 1984.

116- نعيم قداح ، حضارة الإسلام وحضارة أوروبا في إفريقيا الغربية ،ط2 ، الشركة الوطنية للنشر ،الجزائر،1975 م .

117- ـــــــ ، إفريقيا الغربية في ظل الإسلام ،مراجعة عمر الحكيم ،دمشق:1960.

118- هاشم يحي الملاح ، الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام ،ط1 ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 2011م.

119- هلال عمار ، الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء، مديرية الدراسات التاريخية وإحياء التراث ،الجزائر ،1984م.

120- هوبكتر.ا.ج ،التاريخ الاقتصادي لأفريقيا الغربية ،تقديم محمد عبد الغني سعودي ، ترجمة أحمد فؤاد بلبع ،المجلس الأعلى للثقافة ،1998م .

121- هوبير ديشان ، الديانات في أفريقيا السوداء ،ترجمة ،أحمد صادق حمدي ،مراجعة ، محمد عبد الله دراز ،تقديم ،مصطفى لبيب ،الهيئة المصرية للكتاب ،2011.

122- ولد البراء يحي ،المجموعة الكبرى الشاملة لفتاوى ونوازل وأحكام أهل غرب وجنوب غرب الصحراء، مج1 ومج6،المكتبة الوطنية بنواكشوط ، ط1 ، 2009م.

123- ولد الحسين النّاني ،صحراء الملثمين ،تقديم محمد حجي ،ط1،بيروت ،دار المدار الإسلامي ،2007م.

124- ولد السالم حماه الله ،تاريخ موريتانيا العناصر الأساسية ،منشورات الزمن ، الدار البيضاء ،2007م.

125- يحيى بوعزيز،تاريخ إفريقيا الغربية الإسلامية من مطلع القرن السادس عشر إلى مطلع القرن العشرين ،دار البصائر ،2009 م .

126- يحي بوعزيز ، طرق القوافل والسواق التجارية بالصحراء الكبرى ، كما وجدها الأوروبيون خلال القرن التاسع عشر ،ـــتجارة القوافل ودورها الحضاري حتى نهاية القرن التاسع عشر ،بغداد ،1404 هـــ/1984م.

127- يسري عبد الرزاق الجوهري ، السلالات البشرية ، القاهرة ،1976م.

– المراجع الأجنبية :

1. Atallah Dhina, les Etats de l'Occident Muslman aux XIII^{e}, XIV^{e} et XU^{e} siècles,O,P,U, Algérie,S,D,
2. Basil Davidson , Old Africa Rediscovered ,Victor Gollan.CZ.Ltd, London ,1959.
3. Bathily , Abdoulaye, Les portes de l'or- Le royaume DE Galam Sénégal de L'ère musulmane au temps de négriers XIII^{e}_ XVIII^{e} siècle ,Paris ,L'Harmattan,1989 .
4. Bouglé (célestin) ,Essai sur le régime de castes.Ed : PUF.1908.
5. Bovill, E.W, The Golden Trade of the Moors, Oxford London, 1957 .
6. Brignon.J, et autre, Histoire du Maroc Hatier, Casablanca, 1976.
7. -Ch.de La Roncière .Découverte d'une relation de voyage daté du Touat et décrivant ,en 1447 ,Le bassin du Niger .1918,un Bulletin de la section de géographie,1918.
8. -Chavane (A. Bruno),Villages de l'Ancienne Tekrour .Editions Karthala , Paris ,1984.
9. -Cissé Tata youssouf ,Wakamissoko ,Lagrande geste du Mali,des origines à la fondation de l'empire Editions :karthala, Paris 2007.
10. Cornevin, R , Histoire del'Afrique,T1 , 2v ,Paris1962.
11. Delafosse Maurice :Les civilisations négro-africaines, paris ,stock,1925.
12. Delafosse(Maurice) ,Haut Sénégal et Niger , Les Langues ,L'histoire ,Les civilisations ,Emile Larousse ,Libraire ,Paris , 1912 , T2.
13. Dupuis, yakouba, Industries et principales professions des Habitants de la région de Tombouctou, paris, 1921.
14. Dupuis-yakouba , Industries et principales professions des Habitants de la région de Tombouctou, paris, 1921.
15. Eugéne.Daumas.(le général) :Mœurs et Coutumes de l'Algérie, librairie de l'Hachette ,Paris, 4ed ,1864.
16. Giri ,Jaques, Histoire économique du Sahel, Paris, Karthala,1994.

17. H . Berkles ,voyages d'esclavage . La traite transatlantique des Africain réduits en esclavage , Unesco , Paris,2002. http://zarkan56.blogspot.com00:55 / 2018-08-08 /
18. Hunwick.J.D.Sounghay,Borno and Hausa Land in sixteen centruy History of Africa, ed Ajavi,J.F.A ,vol I Great britain 1976.
19. Jacque Giri :Histoire économique du Sahel : Des Empire s à la colonisation ,karthala, éditions,Paris, , 1994.
20. Jean Suret Canale, Histoire Africaine de la traite des noirs au néocolonialisme, édition sociales, paris ,1980.
21. John Iguè Ogunsolo :Les villes pré coloniales d'Afrique noire .Editions Karthala,Paris ,2008.
22. Kofi Asare Opoku ,West African Traditional religion ,FEP International Private Limited ,1978.
23. Mauny. R.,Tableau géographique de l'Ouest Africain au moyen âge ,Dakar ,1961.
24. Monteil (Vincent), L'islam noir, une religion à la conquête de l'Afrique .Edition s du seuil, France, 1980.
25. Monteil ,CH. Les empires de MALI , paris , 1968.
26. Murphy , E.J ,History of African civilization ,(New York :1979.
27. Oleil (Jacob), Les Juifs au sahara ,Le Touat au Moyen Age ,CNRS ,Paris,1994.
28. Robert et Marianne Cornevin :Histoire de l'Afrique (des origines à La deuxième guerre mondiale.4ème édition, Petite Bibliothèque Payot,Paris, 1964.
29. Rosa Amelia plumelle – Vribe : Traite des blancs Traite des noires :Aspects méconnus et conséquences actuelles ,Editions,l'harmattan ,paris ,2008.
30. Sik(André),Histoire de l'Afrique noire. Budapest ,Hongrie , ,2eme édition,tom1 ,1962.
31. T.hodgkin, Nigerion Prespectives AnHistorical Atholoy (London : 1960).
32. Tidiane (n'diaye), La longue marche des peuples noirs , Edits :publibook ,Paris,2007.
33. Trimingham,AHistory of Islam in west Africa , London ,oxford university ,1976.

34. Zakari Draman Issifou , Afrique Noire Dans les Relation Internationales au VI e siecle Editions Karthala,Paris 1982.

– المجلات والدوريات والموسوعات :

1- أحمد شلبي ، موسوعة التاريخ الإسلامي ، الإسلام والدولة الإسلامية جنوب الصحراء منذ دخلها الإسلام حتى الآن ،ط5 ،مكتبة النهضة المصرية ،القاهرة ، 1990 م.

2- دائرة المعارف الإسلامية ، ج5، مادة التكرور.

3- دائرة المعارف الإسلامية ، ج4 ،مادة البمبارة .

4- مجموعة من الأساتذة ، أطلس العالم ،مكتبة لبنان ،بيروت، د.ت ، ص37 .

5- مجموعة من المؤلفين قاموس أديان ومعتقدات شعوب العالم ، ،مكتبة دار الكلمة القاهرة ، ط1،2004 م.

6- سينيكي مودي سيسوكو ، الصنغي من القرن الثاني عشر إلى القرن السادس عشر ، موسوعة تاريخ أفريقيا العام ،مج4، اليونسكو ،1988.

7- أدامو،مهدي ،الهوسا وجيرانهم بالسودان الأوسط ، موسوعة تاريخ أفريقيا العام ، مج4، اليونسكو ،1988 .

8- ميشيل إيزارد ، شعوب وممالك منعطف نهر النيجر وحوض الفولتا من القرن 12إلى القرن 16م،مج4 ،موسوعة تاريخ إفريقيا العام،اليونسكو، 1988 م.

9- نياني جبريل، العلاقات بين مختلف المناطق والمبادلات بين مختلف المناطق ، تاريخ إفريقيا العام،مج4،اليونسكو ،1988 م.

10- ـــــــ ، مالي والتوسع الثاني للماندنغ ، تاريخ أفريقيا العام ،مج4،اليونسكو،1988م.

11- إبراهيم علي طرخان ،الإسلام واللغة العربية في غرب إفريقية، مجلة كلية آداب القاهرة ، مج27 ،1965.

12- أبوبكر ميغا ،دعوة الإمام المغيلي العلمية والإصلاحية في السودان الغربي أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر الهجري وأثرها في الرعاة والرعية وانتعاش الحركة العلمية بالمنطقة ، مجلة جامعة الإمام بن سعود الإسلامية ، ع7،الرياض ،أكتوبر،1992 م.

13- أحمد محمد اسماعيل أحمد الجمال ، تاريخ مدينة أودغست ودورها في حركة التجارة بين المغرب وأفريقيا جنوب الصحراء (السودان الغربي)، حوليات مركز البحوث والدراسات التاريخية ،الحولية الثامنة ،جوان 1426 هـ/2008م .

14- بليغ أحمد فؤاد ، عبد الرحمن السعدي ،عصره وكتابة تاريخ السودان ،المجلة التاريخية المصرية ،القاهرة ،المجلد 20 ،1973 م.

15- حسين عباسي ، الوشم لدى قبائل أفريقيا الوسطى : الذات والموضوع ،مجلة الثقافة الشعبية الالكترونية ،العدد13 ،2011،ص90.

16- خير الدين شترة ، المبادلات التجارية بين إقليم توات وحواضر المغرب الإسلامي والسودان الغربي ،دورية كان التاريخية ،العدد 33 ،سبتمبر 2016 م، مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر ،القاهرة .

17-دريد عبد القادر نوري ،ازدهار الصناعة والزراعة في بلاد السودان الغربي بعد القرن 5هـ/11م كما وصفته المراجع العربية والإسلامية ،المجلة العربية للعوم الإنسانية ، ع21،الكويت 1986 م.

18- زمان عبيد وناس ،الحياة الاجتماعية و الثقافية في مدينة جاو،مجلة جامعة كربلاء العلمية ، المجلد4 ، ع3 ،جوان ،2006 م،ص107 .

19- زينب عبد التواب رياض خميس،الطوطمية بين السحر والدين في عصور ما قبل التاريخ بإفريقيا ، مجلة العلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة المسيلة ،مجلد 7، العدد 14،2018 ، ص249 .

20- صالح بوسليم و ميلود ميسوم ، الحركة السنوسية وامتدادها عبر الصحراء الكبرى ،مجلة الواحات للبحوث والدراسات ، ع15،قسم العلوم الانسانية ،جامعة غرداية ،2011م .

21 -عاصم محمد حسن محمد ، الديانات التقليدية في غرب أفريقيا مدخل دراسي https://www.qiraatafrican.com، 10-07-2017. 22:15

22- عبد الرحمن بعثمان ،حملة المغيلي على يهود توات وأثرها على الواقع الحرفي في المنطقة ، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية،جامعة معسكر ،الجزائر ،العدد 4 ،جوان 2013م.

23- كاني.أ.م ،مظاهر الاتصالات الفكرية والثقافية بين شمال إفريقيا ووسط السودان بين سنة م700و 1700م مع إشارة إلى كانم برنو وأرض الهوسا ، مجلة البحوث التاريخية ، س3، ع1،يناير ،1981 م.

24- لطيفة بن عميرة، الرحلة التجارية بين تلمسان ومماليك بلاد السودان الغربي، حولية المؤرخ العدد الخامس، جوان 2005م.

25- محمد رزوق ، العلاقات العربية الإفريقية في القرن السادس عشر ،مجلة المؤرخ العربي ، بغداد ، العدد 31 ،1987،ص111.

26- محمد عدنان مراد ، القارة الإفريقية أصولها وتاريخها وحضارتها ،مجلة الآداب الأجنبية ، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، ع38-39، يناير 1984.

27- موسى عز الدين عمر ،قراءة جديدة في أسباب سقوط دولة السنغاي ، مجلة بحوث تاريخية ، الإصدار الثاني، الرياض ،1419 هـ/1999 م.

28- ميشل برت ،فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة عبر الصحراء ، مجلة البحوث التاريخية ، ع1،يناير 1981.

29- نور الدين شعباني ،الديولا ودورهم في نشر الإسلام في منطقة الغابات الإفريقية ،مجلة الحكمة للدراسات التاريخية،الجزائر ، المجلد2،العدد3،جانفي 2014.

- الرسائل الجامعية:

1. - بن عمر حاج عيسى إلياس ،مدينة ورجلان دراسة في النشاط الاقتصادي و الحياة الفكرية (في الفترة 4-10هـ/10-16 م)،رسالة ماجستير ،جامعة الجزائر ،2008-2009م.

2. خيرة بلعربي ، المسالك والدروب وأثرها في تفعيل الحركة التجارية والثقافية في المغرب الإسلامي(5-10ه/11-16 م) مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في التاريخ ، جامعة تلمسان ،2009-2010م.

3. زهرة مسعودي ،الطرق الصوفية بتوات وعلاقتها بغرب افريقيا من القرن 18م إلى القرن 20م ، مذكرة ماجستير في التاريخ ،جامعة أدرار ،2009-2010 م.

4. زينب سالمي ،الحركة العلمية في إقليم توات خلال القرون 8- 10 ه ،مذكرة مقدمة لنيل شهادة ماجستير في تاريخ المغرب الإسلامي ،قسم التاريخ ،جامعة تلمسان ،2012 ،ص ص 7-11 .

5. شعباني نور الدين ، علاقات ممالك السودان الغربي بدول المغرب الإسلامي وآثارها الحضارية ،رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط ، جامعة الجزائر ،2005-2006م/1426-1427 هـ .

6. عائشة مسعود المليان ، الدور الديني والسياسي لقبائل الفولاني في السودان الغربي خلال الفترة من القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، رسالة ماجستير ، العلوم الإنسانية ،طرابلس ،2007م.

7. عبلة محمد سلطان ،العناصر المغربية في السودان الغربي ،رسالة دكتوراه غير منشورة ،معهد البحوث والدراسات الإفريقية ،جامعة القاهرة ،1989م.

8. عيسى بن ذيب، التجارة في عصر المرابطين(480-540ه/1056-1145م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، قسم التاريخ، القاهرة، 1990م.

9. فتاح فوزية يونس ، التأثيرات الحضارية العربية الإسلامية على السودان الغربي ،أطروحة دكتوراه ،كلية الآداب ،جامعة الموصل ،1994 م.

10. فرح سعد ،الحياة الاجتماعية والاقتصادية في السودان الغربي من خلال نوازل الشيخ باي بن عمر ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية ،جامعة وهران 1، 2015-2016م.

11. قدوري عبد الرحمن ، المبادلات التجارية بين بلدان المغرب ومنطقة غرب إفريقيا بين القرنين 10و11هـ/16و17م ودورها في ترسيخ الثقافة الإسلامية ،أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث ، قسم التاريخ ،جامعة تلمسان ،الجزائر ،2017- 2018 م.

12. ـــــــ ، الوجود المغربي بمنطقة السودان الغربي في القرنين9و10ه/15و16م ، رسالة ماجستير في التاريخ ،جامعة تلمسان ، 2012م.

13. لطيفةبشاري ، التجارة الخارجية لتلمسان في عهد الإمارة الزيانية من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين (13-16 م) ،رسالة ماجستير 1986-1987 م .

14. لعماري مرزقلال ،الحياة الثقافية والإسلامية في مملكة سنغاي على عهد الأسقيين (899 -1000هـ/1493-1591 م)،رسالة ماجستير ،قسم التاريخ ،جامعة الجزائر،2، 2009-2010م.

15. مبارك جعفري ، الحياة الاجتماعية والاقتصادية في منطقة الأزواد خلال القرن 13 هـ 19 م أطروحة لنيل شهادة دكتوراه في التاريخ الحديث والمعاصر ،جامعة الجزائر2 ،2013-2014 م.

16. مبخوت بودواية، العلاقات الثقافية والتجارية بين المغرب الأوسط والسودان الغربي في عهد دولة بني زيان، رسالة دكتوراه، قسم التاريخ، جامعة تلمسان، 2005- 2006م.

17. محمد أعفيف ، مساهمة في دراسة التاريخ الاجتماعي والسياسي لواحات الجنوب المغربي توات في القرن 19م ،رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ ،تحت إشراف جرمان عياش ،جامعة محمد الخامس ،كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط،1982م.

18. محمد شوكت عارف محمد ،دولة كانم الإسلامية دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية من القرن 5-8هـ/ 11-14م رسالة ماجستير ،جامعة الموصل ،1996م.

19. مقاديم عبد الحميد ،المدارس العلمية ودورها السياسي والثقافي في السودان الغربي (مالي، سنغاي) ق10.07هـ/16.13م،أطروحة دكتوراه في التاريخ والحضارة الإسلامية ،قسم الحضارة الإسلامية ، جامعة أحمدبن بلة ،وهران1، 2017-2018.

20. هارون الهادي ، الطريقة القادرية في وسط وغرب أفريقيا ودورها الحضاري من القرن 16 م إلى 19 م ، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر ،قسم العلوم الإنسانية ،جامعة غرداية ،2015-2016 م.

21. هواري رضوان ،بيوتات علماء السودان الغربي من خلال كتاب نيل الابتهاج بتطريز الديباج لأحمد بابا التمبكتي ،رسالة ماجستير في التاريخ السياسي والثقافي للمغرب الإسلامي مابين القرنين 10/7ه-16/13 م،قسم التاريخ وعلم الآثار ،جامعة تلمسان ،2012-2013م.

المواقع الالكترونية :

-https://www.qiraatafrican.com
- http://zarkan56.blogspot.com
- https://www.emaratalyoum.com
- https://it.depositphotos.com

فهرس الموضوعات

مقدمة ..... أ
مدخل 11
الفصل الأول :الخلفية الجغرافية والسياسية للسودان الغربي 21
1 – الخلفية الجغرافية لبلاد السودان الغربي 22
أ- دلالة المصطلح 22
ب- موقع بلاد السودان الغربي 25
2 – التركيبة البشرية في السودان الغربي 31
أ- قبائل السودان الغربي 31
– الماندينغو.....32
– السوننك 33
– لتكرور.....34
– الموشي 35
– الولوف 35
– الفولاني 36
– السنغاي 37
– اليوروبا 38
– الصوصو 38
– البمبارة 38
ب- القبائل الوافدة على بلاد السودان الغربي 39
– الطوارق 39
– العرب 40
3 – الخلفية السياسية للسودان الغربي 42
1- مملكة غانة 42
2- مملكة مالي الإسلامية 49
3- مملكة سنغاي.....55

الفصل الثاني : الواقع الاجتماعي في السودان الغربي قبيل الإسلام 66
1 – البنية الاجتماعية في السودان الغربي قبيل الإسلام.....67
-البنية السكانية في السودان الغربي 67
- السودان.....67
- أهل بلاد المغرب 70
-العرب 75
* المجموعة الحسانية 76
* مجموعة جهينة 77
-المولدون (العنصر الهجين) 78
2 – الأديان والمعتقدات في السودان الغربي قبيل الإسلام 80
1- **المعتقدات الوثنية** 80
أ- عبادة أرواح الأسلاف 81
ب- السدنة 83
ت- تقديس الملوك والحكام 84
ث- عبادة الدكاكير (الصنام).....84
ج- الطوطمية 85
ح- المجوسية 88
2 –الديانات السماوية..... 88
- اليهودية 89
- المسيحية 91
3 – المظاهر الاجتماعية في السودان في السودان الغربي قبيل الإسلام.....93
1- **النظام الأسري** 93
- مكانة المرأة 93
- الزواج 94
- الأبناء 95

2- الموروث الثقافي و الاجتماعي 96
- التعري 96
- اقامة الطقوس والاحتفالات 97
- ممارسة السحر والشعوذة 98
- الطبقية 100
- طاهرة التوحش وأكل البشر 101
- المراسيم الجنائزية واعتقادهم في الموت 102
الفصل الثالث : الواقع الاقتصادي والتجاري للسودان الغربي مابين القرن 7-10 هـ /13-16 م.....107
1 – الأوضاع الاقتصادية لبلاد السودان الغربي مابين القرن 7-10ه/13-16م.....108
1- **الفلاحة** 108
أ- الزراعة 108
- الحبوب 110
- البقوليات 112
-المزروعات الصناعية 113
- الأشجار المثمرة 115
-نظام الري 116
ب - الثروة الحيوانية 118
2 – **الصناعة** 121
أ – المواد الأولية 121
ب – المنتجات الصناعية 126
- صناعة الجلود 126
- صناعة النسيج 128
- الصناعات الفنية 130

- صناعة الحديد 131
- صناعة الخشب 132
- صناعة الفخار والخزف 132
- صناعة القوارب 133
- صناعة الأدوية 134
- الصناعة الغذائية 134
- صناعة الصابون 134
2- الأسواق في السودان الغربي 136
1 – أنواع الأسواق 136
- النوع الأول 136
- النوع الثاني 136
- النوع الثالث 136
2 – النقل 137
3 – العملة 139
- الدينار الذهبي 142
- النحاس كعملة 142
- العملات الحديدية 143
- التعامل بالصكوك 144
- المعاملة بالمقايضة 144
3- طبيعة المبادلات التجارية في بلاد السودان الغربي 145
1 – الذهب 145
2 – الرقيق 146
3 – بضائع أخرى 146

الفصل الرابع : التحول الاقتصادي والاجتماعي في السودان الغربي بين الأسباب والعوامل 151

1 – العوامل الاجتماعية 152

– دور العناصر المستقرة بالمنطقة 152

– عامل التصاهر والاختلاط 154

– الحج 156

– الطرق الصوفية 159

2– العوامل السياسية 163

– دور السفارات (النشاط الديبلوماسي).....163

– المتغيرات السياسية والتكالب الاستعماري 170

3– العوامل الاقتصادية 175

– تأثير التجار 175

– دور الرقيق 178

– دور أصحاب الحرف والصنائع 180

الفصل الخامس :مظاهر التحول الاقتصادي في السودان الغربي بين القرن 7–10ه/13–16 م.....**184**

1– الحركية التجارية 185

1– التجارة والتجار 185

أ – تطور التجارة 185

ب–تطور فئة التجار 188

جـ – ظهور الوكالات التجارية 189

2 – تطور الأسواق في السودان الغربي.....190

– سوق أودغشت 190

– سوق جني 192

– سوق تنبكت 192

- سوق تادمكت.....194
- سوق تاكدا 195
- سوق أقدز 195
- سوق غاو 195
- سوق غاو 196
- سوق أولاتن(ولاتة) 198
- سوق توات 199
3- تطور الموازين والمكاييل 201
أ- المقاييس 201
ب- المكاييل.....202
ت- الموازين 203
2 – التطور الصناعي الحرفي 205
1- الصناعات الحرفية 205
2- التعدين والتصنيع 207
3- صناعة الفخار والبناء 208
3– تطور النشاط الزراعي 209
1 - تطور مهنة الفلاحة 209
2 –التنوع الزراعي وطرق استغلاله 209
3 – الثروة الحيوانية 211
4 – الأنظمة المالية 212
1 – جباية الأراضي الزراعية (الأراضي الخراجية).....212
2 – ضريبة العشر على الأراضي(الأراضي العشرية).....213
3 – الاقطاعات 214
4 – الضرائب 214
5 –الزكاة والصدقات 215

الفصل السادس : مظاهر التحول الاجتماعي في السودان الغربي بين ق7-10ه/13-16 م 219

1 – تطور النمط الاجتماعي في بلاد السودان الغربي 220

- دور المرأة في المجتمع السوداني ومكانتها 220
- حقوق الأطفال في الأسرة 225
- التطورات الحاصلة في العادات والتقاليد 227
- تطور العمران 234

2- التغيرات التي طرأت على البنية الاجتماعية في بلاد السودان الغربي 239

- تطور التنظيمات الاجتماعية 239
- تغير مفهوم الطبقية في بلاد السودان الغربي 241

أ- التغير الذي طرأ على الملوك 244

ب – مظاهر تحول الطبقة الثانية 247

جـ - مظاهر تحول الطبقة الثالثة 252

3 – التغيرات التي طرأت على المستوى المعيشي في بلاد السودان الغربي 255

1- ارتفاع المستوى المعيشي وتراجعه 255

أ – الألبسة والأطعمة 255

ب – تطور العمارة 257

جـ - بروز الثراء والترف 258

2 – الوضع الديمغرافي ومتغيراته 259

الخاتمة 261

الملاحق 265

فهرس الأماكن والبلدان 285

فهرس القبائل 293

فهرس الأعلام 297

قائمة المراجع والمصادر 302
فهرس الموضوعات 328

ملخص :

تعالج هذه الدراسة موضوع التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي عرفتها بلاد السودان الغربي مابين القرن السابع والعاشر للهجرة ، وذلك بإبراز العوامل التي أثرت في المنطقة وجعلتها تبرز على مسرح الأحداث في العصر الوسيط،مع الإشارة إلى الدور الذي لعبه التواصل الاجتماعي والثقافي والتجاري لشعوب هذه البلاد مع باقي أقطار العالم الإسلامي، وصولا إلى انعكاس هذه التحولات على تاريخ المنطقة خاصة على المجال السياسي والثقافي .

الكلمات المفتاحية : بلاد السودان الغربي ، التحولات الاقتصادية والاجتماعية ، التواصل ، التجار،الإسلام .

Résumé:

Cette étude aborde le sujet des changements économiques et socials connus dans la région de l'ouest- Sudanais entre le sèptième et le dixième siècle de migration. Ces transformations ont été réalisées en soulignant les facteurs qui ont affecté la région et la mettre en scène pendant le moyen-âge. Tout en notant le rôle joué par la communication sociale, culturelle et commerciale entre les peuples de cette territoire et les peuples du monde Islamique; en arrivant jusqu'á la répercussion de ces changements sur l'histoire de la région et surtout sur les domaines politiques et culturelles.

Mots- clés: La région de l'ouest- Sudanais, les changements économiques et socials, la communication, les commerçants, l'Islam.

Abstract :

This study tackles the topic of the different economical, and social changes that occurred in the region of Western Soudan between the seventh and the tenth century, through highlighting the various factors that affected the region, and led it to be one of the important areas during the middle age. Additionally the current study sheds light on the major role of the economical, social and the cultural communication with the other regions of the Islamic world.lastly, this work covered the main consequences of these changes on the history of the region, especially, in the political and the cultural domains.

Key words: the Western soudan, economical and social changes, communication, Islam, traders.